

2258
• 425
• 1968

2258.425.1968

2258.425.1968

Hamidah

Adab al-Shi'ah ...

DATE

ISSUED TO

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED

DATE DUE

OCT 5

JUN 15 71

Princeton University Library



32101 073583682

74. 960158.

أثر الشيعة

إلى نهاية القرن الثاني الهجري

بقلم

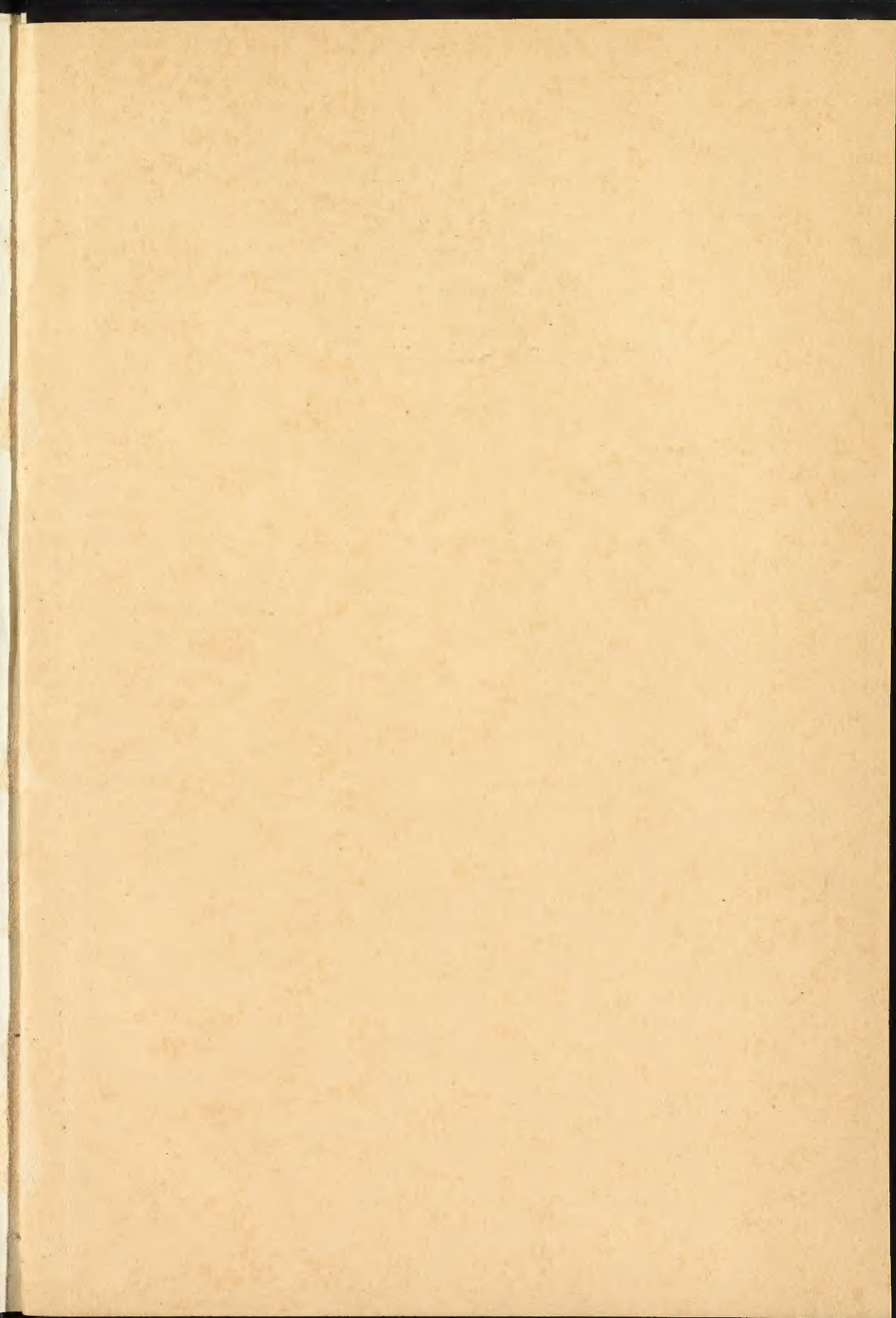
الدكتور عبد الواسع السبيعي

وكيل كلية اللغة العربية

جميع حق الطبع محفوظ له

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

يطلب من مكتبة المثنى ببغداد
ومكتبة المعارف ببيروت



Hamidah, 'Abd al-Hasib

Adab al-Shi'ah

آداب الشيعة

إلى نهاية القرن الثاني الهجري

بمقدم

الدكتور محمد السيد طه محمد
وكيل كلية اللغة العربية

جميع حق الطبع محفوظ له

2258

·425

·1968

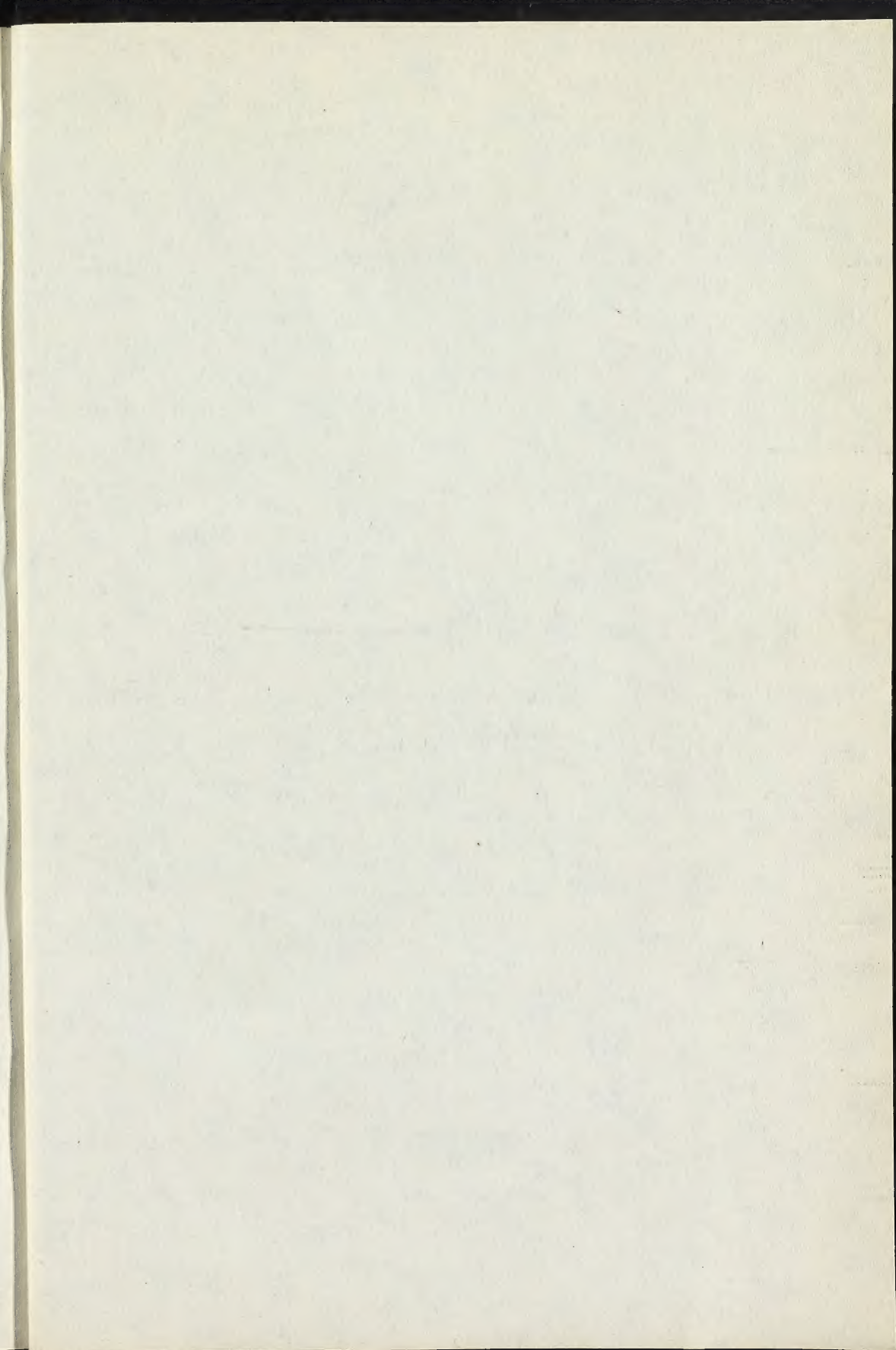
الطبعة الثانية

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

مطبعة النخاعة بمصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ *
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ *



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

رب أنعمت فرد

يرجع إلى هذا النوع من الأدب السياسى إلى السنة الثانية من سنى دراستى فى كلية اللغة العربية . . حينما كنت مكلفاً دراسة الأدب الأموى ، والوقوف على قديمه وجديده ؛ فإذا أنا أمام ثروة مشرقة من آدابنا الحزبية ، تظاهرت على إنضاجها عقول صقلها الإسلام ، وهذبها كتابه ، وأقامتها حياة اجتماعية وسياسية ؛ فإذا هى جديدة فى كل شىء ، جديدة فى تفكيرها وحجاجها ، جديدة فيما تعتمد من دفاع قوى ، وحوارٍ ممتع ، وأدب خلى بالبحث المستقل والدرس المفصل .

ثم كانت دعوة كريمة ناشدت أبناء الأزهر وعلماءه ، أن يدرسوا الأحزاب الإسلامية ، ويقفوا على طرائق الجدل والحجاج فيها ، وناشدتهم — بوجه خاص — أن تكون دراساتهم لنشدان الحق ، ووجه العلم ، بعيدة عن التعصب والهوى . . فطمحت نفسى إلى النهوض بنصيبى من هذه الرغبة ، ولست أملك — بحكم ما تخصصت فيه — إلا الناحية الأدبية ، فحثت السير ، وضاعفت العمل ، وأخذنى جمال البحث ، بل جمال الأدب وقوته ، وإشراق العقل العربى وحريته ، فكان أدب الشيعة بعض ما بحث .

أما لماذا اخترت أدب الشيعة موضوعاً لرسالتى ؛ فلأنه — أولاً — أدب
يمجد سلالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينتصر لحقهم ، ويبكى مصارع
قتلاهم ؛ ولأنه — ثانياً — أدب يصور العاطفة المتأججة ، والحب الصادق . .
والأدب إذا تظاهرت على إبرازه : عاطفة حية ، وإحساس قوى ، وعقيدة
راسخة . . كان فى عرف المتأدين جديراً بالبحث ، وحقيقاً بالحياة .

وإذا كان فى الأدب الشيعى شيء ؛ فعذره أنه أدب حزبي ، ينافح عن
فكرة آمن بصوابها ، ويدافع عن عقيدة أشرب قلبه حبها ، على أن دارس
الأدب ينبغى أن يدرس الأدب لنفسه ، يبحث جيده ورديئه ، ويتقن غثه
وسمينه ، من غير تفاوت ولا تفريق ، بل يعرض ما درس فى حيدة الناقد
البصير ، مستهما اتجاهات النقد ومدارسه .

ومنهجى فى البحث واضح جلى : بدأت أدرس التاريخ السياسى للشيعة
والأحزاب الأخرى ، لغرض واحد ؛ هو الوقوف على أثر هذا التاريخ فى الحياة
الشيعية ، والعقلية الشيعية ، ثم الأدب الشيعى . . فاستقامت لى نظريتى ،
وارتسمت فصولها . . فسجلت فى الفصل الأول التاريخ السياسى للشيعة ، وأجملت
فى الفصل الثانى بقية الأحزاب المناوئة ، وخصصت فصلاً ثالثاً للعقائد الشيعية ،
وأثرها فى الأدب .

وهنا غلبتني أزهريتي ، فوقفت قليلاً عند جمهرة من هذه العقائد ، أعرضها
فى صدق وأمانة كما عرضها علماءنا ، ثم أناقشها ، وأستدل لها ، وعليها ،
وهنا كذلك وضحت الفكرة الشيعية ، واستبانة أطوارها ، فأوجزتها
فى كلمات ، قدمت بها موضوع بحثي

أما قسم الأدب ؛ فله منهج في البحث ، وسبيل جديد ، عمدت إلى أدب الشيعة ؛ فنثرته بين يدي ، متوخياً عصوره ، مستقصياً مناهجه وأصوله ، فإذا أنا أمام أدب يتدرج في حجاجه ومناحيه ، تدرج الفكرة الشيعية في سذاجتها وعمقها ؛ فهو عربي صريح أيام أن كانت الفكرة الشيعية عربية صريحة ، وهو عنيف ، ثائر ، حزين ، في الوقت الذي تغلفلت فيه الفكرة الشيعية ، وأبرزتها الفواجع العلوية في صور من العقائد ، فاستقل لتبيان ذلك الفصل الرابع .

وفي دراستي لأدباء الشيعة وقفت أمام مشكلة لم يستطع التاريخ الأدبي أن يضع عليها المنار ، وقيم في طريقها الأنوار . . تلك هي الحياة الخاصة لهؤلاء الأدباء . . مع إيماني بأن معرفة هذه الحياة تمكن الدارس من الحكم على الأديب ، وتبصره مصادر إلهامه ، لذلك - وأمام هذه الظاهرة الشائعة في تاريخنا الأدبي - سرت في بعض خطباتهم سير الجمل أعيان التفصيل ، فاكتفى بالتعريف . . وفصلت ما استطعت التفصيل فيه ، فكان المختار التقني أوفقهم حظاً ، وترجمت لشاعرين من شعراء هذه الفترة ، يمثل كل منهما ناحية شيعية : « الكميّ بن زيد » رجل الإمامية ، و « السيد الحميري » أستاذ « الكيسانية » .

ثم سجلت ذلك في الفصل الخامس .

أما الفصل الأخير : أثر التشيع في الأدب العربي ؛ فقد جمعت لبيناته من رسالتي ، وما احتفظت به أثناء دراستي .

وبعد : فهذا منهجى فى البحث ، وهذه رسالتى ، أخرجتها على شرط التزمته : بروز الفكرة ، والإفاضة فى الأدلة .

وأنا سعيد أن أضعها — في أدب الباحث — بين يدي قرائي الأجلاء ،
فليس من شك في أنها أثر من آثارهم ؛ لأن صاحبها أثر من آثارهم ، وغصن
من دوحهم الظليلة .

والإقرار بالجميل كفاء الواجب ؟

عبد الحبيب طر

القاهرة في { ربيع الأول سنة ١٣٦٢ هـ
فبراير سنة ١٩٤٣ م

مقدمة الطبعة الثانية

هذا كتاب أدب الشيعة .

أدب العاطفة المتأججة والحب الصادق .

أدب تظاهر على إنضاجه عقول صقلها الإسلام وهذبها كتابه .

وقامت دعائمه على حياة اجتماعية وسياسية ، فإذا هو جديد في كل شيء .

جديد في تفكيره ، وحججه ، وفهمه لقضاياه ، جديد فيما يعتمد منه من دفاع قوى ، وحوار ممتع ، وعاطفة مرهفة ، وإحساس صادق .

والأدب إذا تظاهر على إبرازه عاطفة وإحساس وعقيدة ، كان في عرف المتأدين جديراً بالبحث ، وحقيقاً بالحياة .

وإذا كان في الأدب الشيعة شيء فعذره أنه أدب حزبي ، ينافع عن فكرة آمن بصوابها ، ويدافع عن عقيدة أشرب قلبه حبها .

ثم أبرز ذلك في صراحة العربي ووثوق المؤمن ، يرى في رسول الله وآله قدوته الصالحة ، ومثله الأعلى :

أناس إذا وردت بحرهم	صَوَادِي الْغَرَائِبِ لم تغرب
وليس التفحش من شأنهم	ولا طيرة الغضب المغضب
ولا الطعن في أعين المقبلين	ولا في قفا المدبر المذنب
نجوم الأمور إذا أدلست	بظلماء ديجورها الغيب
وأهل القديم ، وأهل الحديث	إذا عُقِدَت حبوة المحتجب

فلا غرو أن انطلق — بعاطفته وإحساسه — ينتصر لحقهم ويستبدل

لقضيتهم ، ويكي مصارع قتلاهم ، ويصور ما أصابهم من بغى الأمويين ،

ثم العباسيين ، تصويراً عاطفياً ، صادق الأداء ، ناصع الأسلوب ،
متدفق الحجة :

فآل رسول الله نحف جسومهم وآل زياد حفل القصرات
بنات زياد في القصور مصونة وآل رسول الله في الفلوات
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم أكنناً عن الأوتار منقبضات
أو يقول :

تبيت سكارى من أمية نوما وبالطف قتلى ما ينام حميمها
وما أفسد الإسلام إلا عصاة تأثر نوكاها ، ودام نعيمها
فصارت قناة الدين في كف ظالم إذا اعوج منها جانب لا يقيمها

* * *

هذا هو أدب الشيعة أقدمه على شرط التزمته ، وضوح الفكر ، والإفاضة
في الأدلة .

وأنا سعيد في أن أضعه — في أدب الباحث — بين يدي قرائي الأجلاء
راجياً أن يجدوا في طبعته الثانية ما وجدوه في طبعته الأولى من دراسة وتحقيق

دكتور

عبد الحسين طه حميده

أستاذ الأدب العربي ، ووكيل كلية
اللغة العربية — جامعة الأزهر

القاهرة في { ربيع الأول ١٣٨٨ هـ
يونيه ١٩٦٨ م }

مقدمة

الفكرة الشيعية: نشأتها وأطوارها

الطور الأول :

نشأت الفكرة الشيعية يوم وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فطرية ساذجة ، تقوم أسسها على القرابة من الرسول - صلى الله عليه وسلم - والسبق في الإسلام ، والجهاد في سبيل الله ، وتتلخص دعوتها : في أنه إذا مات الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأولى الناس أن يخلفه آل بيته .

يقول علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - وقد بايع^(١) الناس أبا بكر الصديق

(١) كانت الخلافة أول مسألة اشتد فيها النزاع بين المسلمين وتشعبت آراؤهم . . . فمذ اللحظة الأولى لوفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - شعر المسلمون بالحاجة إلى من يخلفه ، فاجتمعوا في سقيفة بني ساعدة : أنصار يدلون بالإيواء والنصرة ، ومهاجرون يعتزون بالعشيرة والهجرة ، كل يرى الأمر له ؛ فتشعب الرأي ، وطال الحوار ، وبدت الفتنة ، ثم أدركها عمر رضى الله عنه - وكم لعمر من إلهامات ! - فبايع أبا بكر ، فبايع الناس ، وكانت فتنة ، وقي الله شرها ، ونجى المسلمين من أرواح ساءة في تاريخ الإسلام ، بل في تاريخ الوجود .

والتاريخ مضطرب في موقف طي من هذه البيعة التي لم يحضرها لاشتغاله واشتغال الهاشميين بتجهيز الرسول - صلى الله عليه وسلم - ودفنه ، ففي بعض الروايات ، أنه ذهب عجلا إلى أبي بكر فبايع ، مع اعتقاده أنه أحق الناس بهذا الأمر . وفي بعضها ، أنه امتنع حتى توفيت زوجته فاطمة بنت الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم ذهب فبايع . وما أظن ذلك يكون موقف علي بن أبي طالب من أخطر قضية إسلامية مهما

- رضى الله عنه - : يا معشر المهاجرين ، الله الله ، لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ، فوالله يا معشر المهاجرين لنحن - أهل البيت - أحق بهذا الأمر منكم ؛ أما كان منا القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بالسنة ، المضطلع بأعباء الرعية ، والله إنه لقينا فلا تتبعوا الهوى ، فتردادوا من الحق بعداً^(١) .

دعوة فطرية تقوم على نظرة العربى - الذى هذبه الإسلام - للرياسة ، وبيت الرياسة ، وقد جمع على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أسسها ، كان كما يقول عدى بن حاتم : « سيد المسلمين ، أفضلها سابقة ، وأحسنها فى الإسلام أثراً »^(٢) .

== كانت نظرتة للخلافة وحقه فيها . ولعل من مواقف التضحية لصالح الدعوة الإسلامية ما سجله له التاريخ بمعداد من نور .. وقد روى الطبرى وغيره لابن أبى طالب عديدا من الخطب ذكر فيها من سبقه فائى ومدح يقول : فيذكر إنعام الله على هذه الأمة بالجماعة ؛ بالخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذى يليه ثم الذى يليه . طبرى ج ٥ ص ١٩٤ . ومن قول على - رضى الله عنه وفى ذلك : أما بعد فإن الله جل ثناؤه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق فأنقذ به من الضلالة . وانتاش به من الهلكة . وجمع به من الفرقة . ثم قبضه الله إليه . وقد أدى ما عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ثم استخلف الناس أبا بكر رضى الله عنه . واستخلف أبو بكر عمر رضى الله عنه . فأحسننا السيرة . وعدلا فى الأمة ؛ وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله صلى الله عليه وسلم خفرتنا ذلك لهما . وولى الناس عثمان رضى الله عنه فعمل بأشياء عابها الناس عليه فساروا إلى قتله فقتلوه . طبرى ج ٦ ص ٤ .

فهذا يدل على موقف على من سبقه من الخلفاء .. ومها يكن من شئ فقد بدأت الفكرة الشيعية من هذا الوقت .

(١) ابن أبى الحديد ج ٦ ص ٥ .

(٢) طبرى ج ٥ ص ٢٤٢ وابن الأثير ج ٣ ص ٢٥ .

وورث - بحكم مولده ومرباه - مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة ، وبلاغة
الوحي ، وصراحة المؤمن ، وبسالة المجاهد ، وشرف الفجار ، فأجمع الناس على
إجلاله ، وكادوا يطبقون على حبه ، وأهله هذه الخلال ، وما حبي به من سبق
في الإسلام ، وبلاء في نصرة الدين ، وشرف القرابة القريبة من نبي الله - صلى
الله عليه وسلم - والصهر ، والأبوة الكريمة للسبطين : الحسن ، والحسين
رضي الله عنهما .

أهله ذلك كله لأن يرى نفسه ، وتراه جماعة من الصحابة أحق من يخلف
الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قومه ، ويرهثه سلطانه . فتكون حول هذه
الشخصية النبيلة « جماعة الشيعة » ^(١) .

ظهرت الفكرة الشيعية يوم وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما قلنا ،
وكانت جماعتها الأولى الهاشميين ونفراً من الصحابة ؛ فلما بايع الناس أبا بكر
- رضي الله عنه - وقام بعده عمر - رضي الله عنه - كتبت في نفس أصحابها طيلة
خلافة الشيخين ، وساعد على خمودها عدل أبي بكر وعمر ، واتصافهما ، حتى
من أنفسهما ، ومحاربتهما العصبية القبلية ، واشتغال الناس بالحروب والفتوح
ونشر الدعوة الإسلامية ، فلم تجد هذه الفكرة مجالاً للظهور .

(١) في اللغة شيعة الرجل : أتباعه ، وأنصاره ، والفرقة على حدة ، ويقع على الواحد
والجمع ، والاثنين ، والمذكر والمؤنث ، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى علماً
وأهل بيته ، حتى صار اسماً خاصاً لهم ، والجمع : أشيع ، وشيع ، ولم تستطع المصادر
أن تحدد بالضبط الوقت الذي صار فيه هذا الاسم علماً على هذه الفرقة ، وأقدم نص
عثرنا عليه ما نقلناه في هذه الرسالة . . عن ابن الأثير عن عمرو بن الأصم في حديثنا
عن الترجمة .

وتولى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - بحلقه اللين ، وقلبه الرحيم ، وشيخوخته الهادئة الوديعه ؛ فوهنت اليد المصرفة ، فسندتها يد أخرى^(١) ، وتشتت الأمر ، فلم يصدر عن الخليفة وحده ، بل حكم آله الناس بعصبيتهم الأموية ، لا بقوميتهم العربية ؛ فاستيقظت الفتنة ، وتحرك ما كان كامناً فى نفوس القوم ، من العداوة القديمة الجاهلية ، وخاصة بين بنى هاشم وبنى أمية . وتبرم الناس من عثمان وأنصاره ، فانتشرت الجمعيات السرية ، تدعو إلى خلع الخليفة ، وتولية غيره . . . وهنا وجدت الدعوة العلوية فى هذا الجو المضطرب ، والفتن المتأججة . مرتعاً خصيباً تحيا فيه وتزدهر ، ودعاة تختلف أغراضهم فى التشيع : فمنهم المخلص لمبادئه ، المخلص لدينه ، يدعو لعلى ؛ لإيمانه بحقيقته ونفعه ، ومنهم من اتخذ ستاراً لأغراض خبيثة ، ونيات أئيمة ، يسرون محاربة الإسلام ، وهزم سلطانه ، وتشويه عقائده . . . وأصبح التشيع - كأي حزب - فيه المخلص والملدس ، ومن يعتقد ديناً ، ومن يراه جلباً لمصلحة ، وتحقيقاً لغاية ، واختلطت الدعوة ؛ فإذا هى مزيج من أفكار مختلفة ، وديانات متعددة ، عرفها الإسلام بالفتح ، وتشربها التشيع بالبيئة . . . فرأينا القول بالرجعة ، وسمعنا مذهب الوصاية ، واستحق على بها - وبما ورث من دم هاشمى - الخلافة ، والإمرة . . .

وهكذا عرف الإسلام عقائده لم يكن يعرفها من قبل ؛ قبل أن يرث المسلمون مدائن كسرى وقيصر ، وترث عقولهم حضارات الفرس والروم .

لكن هذه الأفكار الشيعية الجديدة - وإن نجحت فى الأمصار ، فأحدثت الفتنة وولدت الفرقة ، وقتلت الخليفة - لم تصادف نجاحاً فى الأفق العربى إلا بعد

(١) يد مروان بن الحكم ، وقد استوزره عثمان بن عفان - رضى الله عنه .

حين ، فظلت مقصورة على أصحابها ، محصورة في هذه الطائفة السبئية^(١) محاربة من على وآله ، مبغضة إليهم ، ومضى التشيع على أدلاله : عربياً صريحاً قائماً على الفضائل ، والقراية ، والسبق ، لم يتأثر بتلك الأفكار الدخيلة من يهودية ، ونصرانية ، وفارسية . . . فعلى^٢ يحتاج على معاوية بالقدم السابق ، والشرف السابق^(٢) ، ويقول لمن سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأتم أحق به ؟ : « أما الاستبداد علينا بهذا المقام - ونحن الأعلون نسباً والأشدون برسول الله صلى الله عليه وسلم - نوطاً ؛ فإنها كانت أثره ، شحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس آخرين »^(٣) .

ويخطب عدي بن حاتم في « صفين » فيذكر خلال على التي بها استحق الخلافة فيقول :

« والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة : إنه لأعلم الناس بهما ، ولئن كان إلى الإسلام : إنه لأخو نبي الله والرأس في الإسلام ، ولئن كان إلى الزهد والعبادة : إنه لأظهر الناس زهداً ، وأنهكمهم عبادة ، ولئن كان إلى العقول والنحائر : إنه لأشد الناس عقلاً ، وأكرمهم نحيظة ، ولئن كان إلى الشرف والنجدة : إنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن كان إلى الرضا : لقد رضى عنه المهاجرون والأنصار في شورى عمر - رضى الله عنه - وبابعوه بعد عثمان ،

(١) نسبة إلى عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم في خلافة عثمان - رضى الله عنه - انظر الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ ، وانظر الطبرى ج ٥ ص ٩٨ ، واللؤلؤ والنحل ج ١ ص ٣٦٥ - مطبعة الأزهر .

(٢) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٢ ، تحقيق أستاذنا الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، والغالب في القدم التأنيث ؛ فالوصف السابقة ولكن نطق الإمام حجة .

(٣) نهج البلاغة ج ٢ ص ٧٩ ، والنوط - بالفتح - التعلق .

ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام»^(١).

وتقول أم سنان بنت خزيمة المذحجية :

يا آلَ مَذْحِجٍ لا مَقَامُ فَشَمَّروا إن العَدُوَّ لآلِ أَحْمَدِ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَى كَاهِلِ لَاحِ كَحْفُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَشْعَدُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنْ يَهْدِكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مَخَافَةً وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوَائِهِ مَا يُفْقَدُ^(٢)

وتقوم سودة بنت عمار بن الأشتر الهمدانية ، فتقول - تخاطب أخاها وتحضه - :

وَانْصُرْ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَاقْصِدْ لِهَنْدٍ وَابْنَهَا بَهْوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخَا النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عِلْمُ الْهَدْيِ وَمَنَارَةُ الْإِيمَانِ^(٣)

ويرثي « أبو الأسود الدؤلي » « علي بن أبي طالب » ؛ فيقول :

قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَرَحَلَهَا ، وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا
وَمَنْ لَيْسَ النَّعَالَ ، وَمَنْ حَذَاهَا وَمَنْ قَرَأَ الثَّنَائِيَّ وَالْمُثْنِيَا
إِذَا اسْتَقْبَلَتْ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَدْرَ زَانَ الْمَاطِرِينَا^(٤)

(١) جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٢٠٢ والنهك : المبالغة في كل شيء ، والنجزة : الطبيعة .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٤ ، وبلاغات النساء ص ٦٧ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥ والطبرى ج ٦ ص ٨٧ ، والأغانى ج =

وكل أولئك نظرات عربية صريحة ، وعقائد فطرية صافية ، تمثل العقلية العربية في صفائها ، وفطرتها ، ومدح بما يمدح به شيخ القبيلة ، من الإشراق والضياء ، والأدب الجاهلي حافل بتشبيه الممدوح بالبدر والشمس ، فالخليقة عندهم - عند الشيعة الأولين - كشيخ القبيلة سواء ، رجل منهم ، أهله خلالهم وكريم محتده ، لأن يختار رئيساً ، والفرق أن فضائل الرئيس في الجاهلية : كرم وسؤدد ، وشجاعة ، وعقل ، وهي كذلك في الإسلام ، مضافاً إليها السبق في الإسلام ، وحسن البلاء في نصرته ، والقربة الوثيقة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولن يرفعه هذا عن أن يكون رجلاً ككل الناس : يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ، ويخطئ ، ويصيب ؛ فيقال له : أخطأت ، كما يقال له : أصبت . . . وهكذا كانت الفكرة الشيعية في دورها الأول .

الدور الثاني :

ويقتل الحسين بن علي - رضي الله عنه - في العاشر من المحرم سنة إحدى وستين من الهجرة ، فتشاهد الشيعة أول انقسام حول الإمام ، كيسانية :

= ص ١٢٢ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٧١ والبدء والتاريخ ج ٥ ص ٢٣٣ والخطاب للخوارج (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) وأول الرثاء :

ألا قل للخوارج حيث كانوا فلا قرت عيون الشامتينا

وأبو الأسود : ظالم بن عمرو من مضر بن نزار . شاعر شيعي ، مقدم ، معدود في طبقات الناس ، مأثور عنه الفضل في جميعها ، كان معدوداً في التابعين ، والفقهاء ، والشعراء ، والمحدثين ، والأشراف ، والفرسان ، والأمراء والدهاة ، والنحويين ، والحاضري الجواب ، والبخلاء ، مات قبل قتل الحسين رضي الله عنه ، انظر ترجمته في الأعاني ج ١١ ص ١٠١ .

تنقل الأمر إلى ابن الحنفية^(١) - محمد بن علي بن أبي طالب - وإمامية : تتولى على ابن الحسين . . ويظهر في مكة والمدينة صوت جديد من أصوات الفرقة يدعو لعبد الله بن الزبير ، وتغدو الجزيرة العربية منبعاً للأهواء والفتن ، ومسرّحاً للتحزب والحروب . . فإذا سموم ابن سبأ تنتشر هنا وهناك ، وتجد في العقلية العراقية - الفارسية أصلاً - مجالاً فسيحاً ، وتتخذ من حادثة الحسين واضطهاد بني هاشم - على يد ابن الزبير بمكة ، وبني أمية بالشام - وقودها ومطيتها ، وإذا هذه العقائد السبئية من رجعة ، ووصاية ، وتناسخ ، وبداء ، هي أسس التشيع ، وقواعده ، وإذا الفكرة الشيعة تتحول إلى شيء جديد على العقلية العربية كل الجدة ، غريب عن تعاليم الإسلام كل الغرابة ، فعلى أن ليس ولي الأمر بالفضائل والسبق فقط ؛ بل بهما ، وبالوراثية ، وبالنص . . « لأن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم فيها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، لا يجوز لنبي إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام »^(٢) . . وقد عين الرسول - صلى الله عليه وسلم - علياً ، وأوصى له بالأمر بعده ، وأمر الصحابة أن يبايعوه ؛ فهو الوصي ، وهو ولي الأمر بعد محمد ، وورثه ؛ وقد أوصى علي بالأمر لابنه الحسن ، وأوصى الحسن للحسين ، وورث ابن الحنفية هذا الميراث الضخم عند الكيسانية ، أو ورثه علي بن الحسين عند الإمامية .

وبالنص والفضائل تولى زيد بن علي عند بعض الإمامية - وهم الزيدية -

(١) نسبة إلى أمه خولة بنت إياس ، من بني حنيفة ، أو أمة لهم ، وهو إمام الفرقة الكيسانية كما سيأتي ، ولي الأمر بالنص عن الحسين عند بعض الكيسانية ، أو عن أبيه علي عند بعض آخر ولد سنة ١٦ هـ ، وتوفي بأيلة أو بالطائف س ٨١ هـ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٥ .

أو تولى أخوه محمد الباقر عند بقية الإمامية . . وهكذا كل إمام كان يتولى الأمر بوصاية من قبله ؛ فالصحابة إذ بايعوا غير على خالفوا أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وغضبوا الحق من صاحبه ، وعلى إنما بايع هؤلاء « تقية » ، إذ لم يجد من ينهض بحقه ، فضن بأصحابه عن المنية ، وبجماعة الإسلام عن الفرقة ، والتقية جائزة ، بل هي تسعة أعشار الدين ، فلا دين لمن لا تقية له . . .

ومن هذا الوقت تظهر « التقية » في الجو الشيعي ، فتأخذ مكانها في سياستهم وعقيدتهم ، وتظهر عقيدة أخرى تنتج عن غيبة الإمام ، ورجعته ، وتنتج بوجه خاص عن أمانى الشيعة في عودة الأمر إليهم ، ووجود من ينتقم لهم ، فكان حديث المهدي المنتظر ، الذي اتخذ أجل مكان من عقائد الشيعة ، وأدبهم - وبخاصة الأدب الكيساني - ولعب - ولا يزال يلعب - دوراً خطيراً في التاريخ الإسلامي .

وهذه الدعاوى لا بد لها من حجج تعضدها ، وتقويها ؛ فالتمسوها في القرآن : يؤولون آياته ، والحديث : يفسرون نصوصه ، وكذلك كان موقف خصومهم ، وليس من سبيل إلى اختراع قرآن يتفق مع مذهبهم ، ويسد حاجة نفوسهم ، فعصم الله قرآنه منهم ، ولكن السبيل سهل ميسور إلى اختراع الأحاديث ، والكذب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتقول على عليّ وأبنائه ، فوضع الشيعة الأحاديث في فضل عليّ ، وولاية عليّ ، والنص على عليّ ، والتبغيض لأعداء عليّ ، ووضعوا الأحاديث كذلك في إثبات عقائدهم ، وشرح قضيتهم ، ومدح مذهبهم ، والنيل من أعدائهم .

وقابلهم الخصوم بمثله ؛ فوضع الأمويون في فضائل عثمان ومساوىء عليّ ،

ووضع آخرون في أبي بكر وعمر ، وبهذا فتح الشيعة - أو غلاة الشيعة - باباً من الشر ، حملوا وزره إلى يوم الدين ؛ يقول ابن أبي الحديد الشيعي المعزلي : « واعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من الشيعة »^(١) ، وعنده أن ما روى عن عليّ - عليه السلام - أكثره مكذوب عليه ، وولدت العصبية أحاديث لا أصل لها^(٢) . . فما لعلى والمهدى المنتظر ، وما لعلى والتحدث عن الدولة المستقبلية ، وموقعة كربلاء ، وولاية الحجاج ، والإخبار عما كان ، وما سيكون ؟؟؟ !

ولكن غلاة الشيعة تريد أن تدعى لعلى من الفضائل ما لا يتحمله بشر ، وتضعه في منزلة تساوى - إن لم تكن تفوق - مقام الرسالة قال الأعمش^(٣) : دخلت على المغيرة بن سعد فسألته عن فضائل عليّ ، فقال : إنك لا تتحملها ، قلت : بلى ، فذكر آدم صلوات الله عليه ، فقال : على خير منه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء ، فقال : على خير منه ، حتى انتهى إلى محمد - صلى الله عليه وسلم -

(١) شرح نهج البلاغة ج ١١ ص ٧ .

(٢) ج ٢٠ ص ٤٦٢ .

(٣) سليمان بن مهران مولى بنى كاهل . كوفي ، عالم ثقة ، فاضل ؛ وهو الذى كتب إليه هشام بن عبد الملك : اكتب لى مناقب عثمان . ومساوىء على ؛ فأخذ الأعمش القرطاس ، وأدخلها فى فم شاة ، فلا كتبها ، وقال لرسوله : هذا جوابك . فقال له الرسول : إنه قد آلى أن يقتلنى إن لم آت به بجوابك - فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : يا أمير المؤمنين : فلو كانت لعثمان - رضى الله عنه - مناقب أهل الأرض ما نفعتك » ولو كانت لعلى - رضى الله عنه - مساوىء أهل الأرض ما ضرتك . فعليك بخويصة نفسك » توفى سنة ١٤٨ هـ « وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٠١ » .

فقال : على مثله ، فقلت : كذبت ، عليك لعنة الله ؛ فقال : قد أعلمتك أنك لا تحتملها^(١) .

ومهما يكن من شيء ، فلم يكذب ينتهى القرن الأول من الهجرة ، إلا وقد أثمرت العقائد السبئية ثمرها الكريه خصوصاً فى العقلية الإسلامية والعواصم الفارسية ، فأصبحت الوصاية ، والرجعة ، والمهدية ، والتقية ، ونظرية الوراثة ، ومبدأ النيل من الصحابة : هى أسس التشيع ، ودعائم حججه ، والميدان الفسيح لشعراء الشيعة ، وخطبائهم ، على اختلاف الفرق الشيعية فى تفهم هذه العقائد وتفسيرها ، فالإمامية ، والكيسانية ، والسبئية على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نص على على بالاسم ، وأمر الصحابة أن يبايعوه ، ولكنهم تناسوا حقه ، فبايعوا أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان متخطين علياً ؛ فهم كفار ، وإمامة هؤلاء باطلة . . فلما ظهرت الزيدية - أتباع زيد بن على بن الحسين - صاغت هذا النص فى أسلوب مخفف ، فزعم جمهورهم أن الرسول نص على على بالوصف - لا بالاسم - فأخطأ الصحابة تطبيق الوصف واختاروا أبا بكر - أخطئوا ، ولم يكفروا - بخلافة أبى بكر صحيحة ، وإن كان على أفضل ؛ لأنه يجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . . وبهذا قال شيوخهم المعتزلة . . وهذا القول مهما تحور : قول بالنص ، وإن كان من طريق الوصف .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥٠ ، والأغانى ج ٧ ص ٢٥٦ ، وإلى المغيرة تنسب فرقة المغيرة من الروافض السبئية ، وقد كان المغيرة يقول : لو شاء على لأحيا عادا وتمدود والقرون بينهما . قتله خالد بن عبد الله القسرى وإلى الكوفة من قبل هشام بن عبد الملك . وصلبه . أنظر المعارف ص ١٦٧ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٦٩ ، والبدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٠ .

الطور الثالث :

على أن الإمام في نظر هؤلاء - إذا استثنينا الغلاة من السبئية - لا يزال خلقاً من خلق الله - بشراً خلقه الله كما يخلق الناس ، وولد وتعلم ، كما يولد الناس ، وكما يتعلم الناس ، لا فضل له ، إلا أنه من تلك السلالة الطاهرة : سلالة النبوة ، اصطفاه الله لدينه ، واختاره لإمامته ، نخصه بالفضل ، وفقهه في الدين ، وعرفه حلاله وحرامه ، ورباه تربية خاصة ، تؤهله لهذه الرسالة : الدينية ، والدينية ..

ولكن انظر إلى الإمام في الطور الشيعي الثالث ، وقد تغلفت الفكرة في أصل العقيدة ، كيف خلق ؟ وكيف ولد ؟ وكيف ارتفع به النظر الشيعي فصار يتلقى الوحي كما يتلقى الرسول ؟ ويفسر الشريعة كما يفسرها الرسول .. والفرق أن الإمام لا يرى الملك ، ويراها الرسول .

اقرأ إن شئت في أوثق كتبهم ، وأصحها عندهم ، لترى كيف أصبح التشيع قبيل القرن الثاني عقيدة تشل الفكر وتميت العقل ، كما أصبحت خطراً على الإسلام والمسلمين ، وشرأ مستطيراً على الدين .

في كتاب الكافي^(١) : إذا أراد الله أن يخلق الإمام من الإمام بعث ملكاً فأخذ شربة من تحت العرش . ودفعها إلى الإمام ؛ فشربها . فيمكث في الرحم أربعين يوماً لا يسمع الكلام . فإذا وضعت أمه بعث الله إليه ذلك الملك الذي

(١) الكافي : لمحمد بن يعقوب الكليني التوفي سنة ٣٢٨ هـ وهو عند الشيعة كالبخاري عند أهل السنة . ألفه في ثلاثة أجزاء الأول في الأصول والثاني والثالث في الفروع وأخباره منسوبة إلى الأئمة العلويين كجعفر الصادق ومحمد الباقر وغيرها ، طبع بفارس سنة ١٢٨١ هـ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٣ .

أخذ الشربة فكتب على عضده الأيمن : « تمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » ، فإذا قام بهذا الأمر رفع الله له في كل بلدة مناراً ، ينظر به إلى أعمال العباد ، فأعمال العباد تعرض على الإمام ، وتأتيه الملائكة بأخبار الناس . . وهو يعلم ما كان ، وما سيكون ، يعلمه الله بوحى يسمعه ، ولا يراه ، كما أن الرسول أمر أن يعلم علياً كل ما عرف . . وأورث على بنيه ذلك العلم ، ومع الإمام الروح الأعظم ، فهو معصوم ، موفق ، مسدد ، قد أمن الزلل والخطأ والعتار ، يخصه الله بذلك ليكون حجته على عباده ، وشاهده على خلقه (وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) والإمام وحده هو الذى يعلم القرآن كله ، وعنده الجفر^(١) ومصحف فاطمة - ثلاثة أضعاف هذا القرآن - وهو مخصوص بالفضل كله ، من غير طلب منه ولا اكتساب ، بل اختصاص من المفضل الوهاب . . . وهو شجرة النبوة ، وبيت الرحمة ، ومفاتيح الحكمة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، وموضع سر الله ، وديعة الله فى عباده . وحرم الله الأكبر . وذمته . وعهده . . . هو ظل الله فى الأرض ونوره ، والوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق من الباطل ، والحلال من الحرام ، هو فوق أن يحكم عليه . طاعته واجبة ، ومعصيته كبيرة . ومعرفته جزء من الإيمان ، والخروج عليه كفر . قد أخبر الله بذلك فى قرآنه . فقال : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، قال أبو عبد الله : المؤمنون هم الأئمة . وقال تعالى : (وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم) وقد نزلت هذه فى على والحسن والحسين . . . والأئمة هم الهداة . قال تعالى فيهم : (ولكل قوم هاد) وهم النور يؤتم به ، قال تعالى : (وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس) ، (فآمنوا بالله

(١) وعاء من جلد فيه علم النبيين ، والوصيين ، وعلماء بنى إسرائيل ، وأخبار ما سيكون ، مروي عن جعفر الصادق .

ورسوله والنور الذى أنزلنا) ونور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة فى النهار ، ويحجب الله نورهم عن يشاء فتظلم قلوبهم ، ويقول الله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها ، وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار) فيقول الشيعة : الحسنة معرفة الولاية ، وحبنا أهل البيت ، والسيئة إنكار الولاية ، وبغضنا أهل البيت .

والإمام غيبة ؛ قال تعالى : (فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس) . . والخنس عند الشيعة إمام يخنس فى زمانه ، ثم يبدو كالشهاب الواقد فى ظلمة الليل .

وهكذا تدرج النظر إلى الإمام والأئمة ، كما تدرجت العقائد الشيعية حتى صارت فى أواخر القرن الأول إلى ما ترى من إسراف وغلو ، فأصبحت معولا من معاول الهدم فى الدين ، وسبيلا لمن شاء التفصى منه ، والكيد له ، وأساساً لدرجات الدعوة الشيعية فى عهد الفاطميين (١) .

وبعد ؛ فقد كان التشيع فيما مضى عنوان حب الله ورسوله ، ومودة كريمة لمن أنقذ الناس من الضلال ، وبصرهم سواء السبيل ، كان خلة من خلال الفضل ، والإقرار بالجميل ، يتمدح بها صاحبها ، ويعلمها خوراً ؛ لأنها دليل حب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهل ترى أفضل من حب الرسول - صلى الله عليه وسلم ؟؟؟ - كان عقيدة لاصقة بالقلب ، يراها صاحبها دليل السعادة وسبيل رضا الله ، وامثالاً لقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) . .

(١) خطط للقرينى ج ١ ص ٣٦٢ . وانظر ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢١٣ وما بعدها .

استمع إلى أبي الأسود وقد لامه بنو قشير على تشييعه :

يَقُولُ الْأَرْدَلُونُ بَنُو قُشَيْرٍ طَوَالَ الدَّهْرِ لَا تَنْسَى عَلَيْنَا !! ؟
فَقُلْتُ لَهُمْ : وَكَيْفَ يَكُونُ تَرْكِى مِنْ الْأَعْمَالِ مَفْرُوضًا عَلَيْنَا !! ؟
أَحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا وَعَبَّاسًا ، وَحِزَّةً ، وَالرَّضِيَّا
بَنُو عَمِّ النَّبِيِّ وَأَقْرَبُوهُ أَحَبُّ النَّاسِ كُتَّاهُمْ إِلَيْنَا
فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أُصِيبُهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا
هُمُ أَهْلُ النَّصِيحَةِ غَيْرَ شَكٍّ وَأَهْلُ مَوَدَّتِي مَا دُمْتُ حَيًّا
أَحِبُّهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ حَتَّى أَجِءْ إِذَا بُيُوتُ عَلَى هَوَا
هَوَى أُعْطِيَتْهُ لَمَّا اسْتَدَارَتْ رَحَى الْإِسْلَامِ لَمْ يَفْدِلْ سَوِيًّا
رَأَيْتُ اللَّهَ خَالِقَ كُلِّ شَيْءٍ هَدَاهُمْ وَاصْطَفَى مِنْهُمْ نَبِيًّا
وَلَمْ يَخْصُصْ بِهَا أَحَدًا سِوَاهُمْ هَنِئًا مَا اصْطَفَاهُ لَهُمْ مَرِيًّا^(١)

ويقول كثير عزة^(٢) — أو عبد الله بن كثير السهمي على رواية الجاحظ :

إِنَّ أَمْرًا كَانَتْ مَسَاوِيُهُ حُبُّ النَّبِيِّ لَعَيْرُ ذِي ذَنْبٍ
وَبَنِي أَبِي حَسَنِ وَوَالِدِهِمْ مِنْ طَابَ فِي الْأَرْحَامِ وَالصُّلْبِ
أَتَرَوْنَ ذَنْبًا أَنْ نُحِبَّهُمْ ؟ ! بَلْ حُبُّهُمْ كَفَّارَةُ الذَّنْبِ^(٣)
ويقول الكهيت بن زيد الأسدي :
أَجْرُكَ عِنْدِي مِنَ الْأَوْدِ لِقُرْ بِكَ سَجِيَّاتُ نَفْسِي الْوُظْبِ^(٤)

(١) الأغاني ج ١١ ص ١١٨ .

(٢) كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة بن خزاعة ويكنى أبا صخر شاعر أموي شيعي مضطرب يتولى محمد بن الحنفية . فهو كيساني .

(٣) ديوان كثير . والبيان والتبيين ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٤) الأود : المحبون . والوُظْب : المواظبة — انظر الهاشميات للكهيت .

هذا هو التشيع قبل أن تضطرب العقلية الشيعية هتاف بفضائل أهل البيت ،
وتكريم لأشرف الأخلاق الفاضلة ، وأطهر الأعراق النبيلة . . . أما وقد
اضطربت فاندس في الشيعة من ليس منهم ، فقد أصبح التشيع بغيضاً إلى النفس ،
وسبيلاً إلى السخر والتهم . . .

يقول الشعبي : لقد بغضوا إلينا حديث علي بن أبي طالب . . .

ويقول الجاحظ : « كان معنا في السفينة شيخ شرس الأخلاق ، طويل
الإطراق ، وكان إذا ذكر له الشيعة غضب ، فاربد وجهه ، وزوى عن حاجبه ،
فقلت له يوماً : يرحمك الله ، ما الذي تكرهه من الشيعة ؟ فإني رأيتك إذا ذكروا
غضبت ، وقبضت ؛ فقال : ما أكره فيهم إلا هذه الشين في أول اسمهم ، فإني
لم أجدها قط إلا في كل شر ، وشؤم ، وشيطان ، وشغب ، وشقاء ، وشنار ،
وشرر ، وشين ، وشوك ، وشكوى ، وشهوة ، وشتم ، وشح . . .
قال أبو عثمان : فما ثبتت لشيعة بعدها قائمة »^(١) .

وسبيلنا الآن : أن نتحدث عن التاريخ السياسي للشيعة ، والفرق المناوئة لهم ،
لنعلم أثر هذا التاريخ في الحياة الشيعية ، والفكرة الشيعية ، ونعلم بوجه خاص ،
كيف ومتى نشأت فرقهم ؟ وتعاليم كل فرقة ، ولنتصور هذا العصر على حقيقته .

ثم نتناول بالتفصيل طائفة من العقائد الشيعية ، التي لعبت دوراً خطيراً
في السياسة ، والدين ، كما كانت مسبباً طويلاً لخيال الشعراء ، والخطباء ، فغزر
بها الأدب ، وتنوعت فنونه .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥٤ . وهي إحدى دعابات الجاحظ .

الفصل الأول

التاريخ السياسي للشيعة

خلافة علي - التحكيم بين علي ومعاوية وأثره - الحسين بن علي - صلح الحسن وأثره في التشيع - سياسة معاوية إزاء الشيعة - الحسين بن علي ويزيد بن معاوية - نصيحة خالصائه - إباء الحسين - موقعة كربلاء - رأى التاريخ - أثر قتل الحسين في السياسة والعقائد الشيعية - حزب الثوابين - المختار ابن أبي عبيد الثقفي - حزب الكيسانية - تعاليمه - قتل المختار وأثره - زيد بن علي وهشام بن عبد الملك - ظهور الزيدية - تعاليم الزيدية - خلعاء زيد - يحيى بن زيد والوليد بن يزيد ابن عبد الملك - تحول الخلافة من الأمويين إلى الهاشمين - الدولة العباسية مبراث الكيسانية - محمد بن علي - العلويون والعباسيون - النفس الزكية والمنصور - قتيل باخرى - إبراهيم بن عبد الله والمنصور - موقعة فخ - يحيى بن عبد الله - الثورات العلوية والخلفاء العباسيون - المأمون والخلافة .

نسير في التاريخ السياسي للشيعة بروح الأديب لا بروح المؤرخ ، نسجل أثره الأدبي ، وفواعله النفسية ، فذلك بموضوعنا أليق .

منذ وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشيعة علي تتطلب الخلافة له ثم لنسله ، لأمور تجلت قبل ، لذلك ظلت حياتهم بين وثبة و واستعداد للوثبة ، وغدا تاريخهم صفحة دامية تذيب القلب ، وتستنزف الدمع ، وتطلق اللسان .

ولقد كانت حركاتهم هادئة أيام أبي بكر، وعمر، وصدرًا من خلافة عثمان - رضى الله عنهم - حتى إذا نقم الناس على عثمان فقتلوه ، وتناسوا جلال الخلافة فاتهم كوا حرمتها ، أقبلوا يهرعون إلى مبايعة على ، فتحققت بذلك نظرية الشيعة ، وتم لهم ما أرادوه .

خلافة على :

لكن على بن أبي طالب - رضى الله عنه - تولى والنفوس مضطربة ، والفتنة هائج ، وتناست دنيا الفتوح دين البساطة والزهد . ولم تعد السياسة الدينية وحدها - وهى سلاح على - قادرة على كبح النفوس العربية ، التى ورثت خزائن كسرى وقيصر ، وتأثرت بأنظمة الفرس والروم ، وتطلعت إلى جلال الإمارة وسلطانها ؛ فهى لا تريد حاكمًا يحملها على التقشف والزهد . فقد مضى زمن التقشف والزهد ، كما مضى أهل التقشف والزهد ، فأراعه إلا خروج طلحة والزبير ومعهما أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق بالبصرة ، وامتناع معاوية بالشام ، كل يتهم عليًا بقتل عثمان ، أو التخذيل عنه وإيواء قتلته ، فتخرج الأمر ، وانشقت العصا وانصرف العرب إلى جهاد أنفسهم ، واضطر أمير المؤمنين إلى محاربة هؤلاء الخارجين عن طاعته ، لأنه قد بايعه القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، على ما بايعوا عليه ، فليس للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد^(١) وقد بايعه طلحة والزبير بالمدينة ، ونكثا بيعته بالعراق ، فكانا أول من بايع وأول من غدر ، فيجب أن يحاربهما على نكثهما ، كما يجب أن يحارب معاوية على امتناعه .

فأما طائفة والزبير فقد انتهى أمرها سريعًا بقتلها حين وقعت موقعة الجمل ، وأما معاوية فكان أشد خصوم على مراسًا ، وأقواهم شكيمة ، وأعلمهم بشئون

(١) من كتابه إلى معاوية : « النهج ج ٣ ص ٤٨ » .

السياسة ، وأخبرهم بنفسيات العرب ورغباتهم ، فكثرت أنصاره ، وقوى جانبه ، واتخذ من حادثة عثمان - ابن عمه - وقوداً يلهب به النفوس ، ويثير الفتنة .

وبقتل طلحة والزبير انقسمت المملكة الإسلامية إلى معسكرين : معسكر الشام مع معاوية ، ومعسكر العراق مع علي . . . فبعد سفارات فاشلة ومفاوضات سادها العنف الهاشمي من جانب ، والاثرة الأموية من الآخر ، قامت الحرب بين الطائفتين بصيفين^(١) سنة سبع وثلاثين من الهجرة النبوية ، حتى إذا أحس معاوية بنفس الهزيمة ، واستيقن الدائرة عليه أوعز إلى جنوده برفع المصاحف ، محتكاً إلى كتاب الله ، فكانت كما قال علي : خديعة ضعفت قوة ، وأسقطت منه . وأورثت وهناً وذلة^(٢) إذ لم يكد جند علي يرون المصاحف على أسنة الرماح حتى دب الشقاق في صفوفهم ، واختلفوا على أنفسهم ، يرى بعضهم قبول التحكيم ، ويأباه على وجماعة معه .

التحكيم بين علي ومعاوية :

وأخيراً تم الأمر وأجبر أمير المؤمنين على التحكيم ، كما أجبر على اختيار أبي موسى الأشعري حكماً عنه ، واختار معاوية عمرو بن العاص . . واجتمع الحكمان ثم افترقا دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين ، وكان الحكم الذي لم يرضه علي وأنصاره . وإن تغير به وجه التاريخ .

(١) صيفين : كسجين : محلة بين نهري الفرات ودجلة وهي اليوم في ولاية حلب .

(٢) طبرى ج ٣ ص ٣١ .

أثر التحكيم :

ولقد كان لهذا التحكيم نتائج خطيرة في حياة الدولة العربية وسياستها ، إذ لم يكذب قبله على وصحبه حتى اعتزله جماعة من جنده . جمهرتهم من تميم وبكر . رأت أن التحكيم خطأ ومداهنة ؛ لأن حكم الله في الأمر واضح جلي وعلى ضوءه حاربوا طلحة والزبير ، ومعاوية وصحبه « وقتلوا ، وقتلوا ؛ والتحكيم معناه شك كل فريق في أحقية قضيته ، هذه المعاني صاغها « عروة بن أدية^(١) » . في « لاحكم إلا الله » وكانت هذه الجماعة هي نواة « حزب الخوارج » .

وكثير من النقاد يذهبون إلى أن قبول التحكيم غلطة سياسية . نزلت بعلي إلى أن يكون هو ومعاوية أمام الخلافة سواء ، وأضاعت من يده ما كان يحتج به من مبايعة القوم الذي بايعوا أبا بكر وعمر ، وأصبح على كغيره من سائر العرب وأصبح الأمر للحكمين ، ولقد كان من الخير لعلي أن يمضي بمن أطاعه حتى يحكم الله ، أو أن يطبق على نفسه ما كان يشير به على عثمان ، حين انتفضت عليه الأمور ؛ فيعتزل الخلافة ، ويترك أمور الناس للناس ، يختارون خلافة الإسلام من شاءوا من الصحابة ، خصوصاً وقد رأى من جنده ما رأى ، أما أن يعرض نفسه لرجلين يعلم بغض أحدهما ورأى الآخر فذلك أمر يدعو إلى الدهش .

والقول بأن صاحب الحق كثيراً ما يريد أن يؤكد للشعب بأن الحق له فيحكم كما تفعل الحكومات اليوم من عرض تفتها على مجلس الأمة مثلاً ، تحكيم للعاطفة لا للعقل ، والقول بأن علياً قد أكره على التحكيم ، كما أجبر على أبي موسى لا يغني عن علي فتيلاً ، فما كان أحوجه ألا يلوث نفسه وآله بحكم لصق بهم ، وكان حجة لخصومهم .

(١) عروة بن أدية : أول من حكم ووضع شعار الخوارج - لاحكم إلا الله - وأدية جدة له في الجاهلية : « رغبة الآمل ج ٧ ص ٩٧ » .

وتعجبني كلمة عبد الله بن وديعة الأنصاري ، وقد سأله علي : ما قول ذوى
الرأى فى هذا الأمر ؟ فقال : يقولون : إن علياً كان له جمع عظيم ففرقه ، وكان له
حصن حصين فهدمه ، ففتى بينى ما هدم ، ويجمع ما فرق ! ؟ فلو أنه مضى بمن
أطاعه - إذ عصاه من عصاه ؛ فقاتل حتى يظفر أو يهلك كان ذلك الحزم ^(١) .

وكان الحسن البصرى يقول : لم يزل علي - رحمه الله - يتعرفه النصر .
ويساعده الظفر حتى حكم ، فلم تحكم والحق معك ! ؟ . ألا تمضى قدماً - لا أبالك -
وأنت على الحق ^(٢) .

على كل حال ، كان من نتائج التحكيم أن قوى أمر معاوية واشتد ساعده ،
فأخذ يغير على أطراف المملكة الإسلامية يقطعها من أمير المؤمنين ، ويدخلها فى
سلطانه ، وأخذ يحارب علياً بذهنه وذهبه ، بعد أن حاربه فى « صفين » بسيفه
وخدعه ، وقضى على بقية حياته بين محاربة الخوارج ، وجمع الجيش المتناقل لحرب
معاوية ، إلى أن ائتمر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة - معاوية وعمرو بن
العاص وعلى ، رضى الله عنهم - فكان أمير المؤمنين من نصيب عبد الرحمن بن
ملجم المرادى ؛ فاغتاله - وهو قائم يصلى الفجر - فى الخامس عشر من رمضان سنة
أربعين من الهجرة .

فكان محياه ومماته تاريخاً دائماً للفضيلة المعذبة ، والنفس الطمئنة الشهيدة .

(١) الطبرى ج ٦ ص ٣٤ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٤٠ .

(٢) الكامل للبرد ج ٧ ص ١٧٥ ، العقد الفريد ج ١ ص ٧٤ .

خلافة الحسن بن علي :

قتل علي فبايع أنصاره ابنه الحسن ، وكان ما شئت فضلا ، وكرما ، ونبلا ، وعقلا : أبوه علي ، وأمه فاطمة ، وجده رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

والتاريخ يحدثنا : « أن عليا لما طعن سأل القوم : أنبايع الحسن ؟ فقال « لا آمركم ، ولا أنهاكم ، أتم أبصر »^(١) . والشيعه على أن عليا أوصى للحسن بالخلافة من بعده ، وأمره أن يأخذ قاتله بكتاب الله .

وكتب الحسن إلى معاوية : « من عبد الله الحسن - أمير المؤمنين - إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإن الله بعث محمداً - صلى الله عليه وآله - رحمة للعالمين ، فأظهر به الحق ، وقمع به الشرك ، وأعز به العرب عامة ، وشرف به قريشاً خاصة ، فقال « وإنه لذكر لك ولقومك » فلما توفاه الله تنازعت العرب في الأمر بعده ؛ فقالت قريش : نحن عشيرته وأولياؤه فلا تنازعونا سلطانه ؛ ففرفت العرب لقريش ذلك ، وجحدتنا قريش ما عرفت لها العرب ، فهيهات !! ، ما أنصفتنا قريش - وإن كانوا ذوى فضيلة في الدين ، وسابقة في الإسلام - واليوم فليتعجب المتعجب من منازعتك إيانا الأمر بغير حق في الدنيا معروف ، ولا أثر في الإسلام محمود ، فالله الموعد ، نسأل الله معرفه ألا يؤتينا في هذه الدنيا شيئاً ينقصنا عنده في الآخرة .

إن عليا لما توفاه الله ، ولاني المسلمون الأمر بعده ؛ فاتق الله يا معاوية ، وانظر لأمة محمد - صلى الله عليه وآله - ما تحقن به دماءها ، وتصلح به أمرها ، والسلام .

(١) الطبري ج ٦ ص ٨٥ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٣٣ ، وابن الأثير ج ٣

فكتب إليه معاوية : « أما بعد ، فقد فهمت ما ذكرت به رسول الله ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرت تنازع المسلمين الأمر بعده فصرت بتهمة أبي بكر الصديق ، وعمر ، وأبي عبيدة الأمين ، وصلحاء المهاجرين ، فكرهت لك ذلك .

إن الأمة لما تنازعت الأمر بينها رأت قريشاً أخلقها به ، فرأت قريش والأنصار ، وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يولوا من قريش أعلمها بالله ، وأخشأها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ، ولم يألوا ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مقامه ، ويذب عن حرم الإسلام ذبه ، ما عدلوا بالأمر إلى أبي بكر .

والحال اليوم بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمت أنك أضبط لأمر الرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة وأكيد للعدو ، وأقوى على جمع الفء ، لسلمت إليك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سعى على عثمان حتى قتل مظلوماً ، فطالب الله بدمه ، ومن يطلبه الله فلن يقوته .

ثم ابتز الأمة أمرها ، وفرق جماعتها ، فخالفه نظراؤه من أهل السابقة والجهاد والقدم في الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ؛ فقاتلهم ، فسفكت الدماء ، واستحلت الحرم .

ثم أقبل إلينا لا يدعى علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يملكنا اغتراراً ، فحاربنا وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلاً واختارنا رجلاً ، ليحكم بما تصلح عليه الأمة ، وتعود به الجماعة والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقاً ، وعليه مثله ، وعلينا مثله ، على الرضا بما حكما . فأمضى الحكمين عليه الحكم بما علمت ، وخلعاه . . . فوالله ما رضى بالحكم ، ولا صبر لأمر الله ، (٣ — أدب العيمة)

فكيف تدعوني إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك ، وقد خرج منه ٩٩ . . . فانظر لنفسك ولدينك والسلام .»

ثم قال لرسولى الحسن : « ارجعا ، فليس بينى وبينكم إلا السيف »^(١) .

خرج معاوية لحرب الحسن ، وسار الحسن يقدمه قيس بن سعد فى اثنى عشر ألفاً ، فبينما هو فى المدائن إذ نادى مناد فى عسكره : ألا إن قيس بن سعد قد قتل ، فانفروا . . . فانفروا بسرادق الحسن ، فنهبوا متاعه ، حتى نازعوه بساطاً كان تحته ، وطعمه أحدهم برحمه ، فامتلاً الحسن بغضاً لهم وذعراً .

الصلح بين الحسن ومعاوية وأثره :

ثم فكر ، وفكر . . . فكر فى جنده ، واستعرض حياتهم مع أبيه ، وفكر فى جند الشام وإخلاصهم لمعاوية . وفكر فى صالح الإسلام ، ودماء المسلمين ، فراسل معاوية فى الصلح - ولم يكن شىء أحب إلى معاوية من ذلك - فأرسل إلى الحسن صحيفة بيضاء مختومة ، فاشتراط لأصحابه الأمان ، وله ما فى خزائن الكوفة ، وخراج « دَرَابْجَرْد » من فارس ، وألا يشتم على . . . فأجابه إلى كل ذلك إلا شتم على ، فاتفقا على ألا يشتم والحسن يسمع .

وبذلك انتهى الأمر لمعاوية ، وانتصر الحزب الأموى ، وانحصر النزاع بين الأمويين والخوارج . ورحل معاوية إلى الكوفة ، فبوع له بالخلافة سنة إحدى

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ١٦ ص ٩ . ومقاتل الطالبين ص ٣٦

وأربعين ، وسمى المسلمون هذا العام « عام الجماعة » ورحل الحسن وجماعة الهاشميين إلى المدينة ، فأقام بها حتى مات^(١).

ولقد كان الحسن بعمله هذا مسدداً للرأى ، موفق النظر ، صادق الفراسة ، مؤثراً لمصلحة المسلمين . وبحق يقول — وقد أراده معاوية أن يخطب الناس — : « أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا . وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول »^(٢).

نعم ، حقن الحسن بصلحه دماء المسلمين ، وخشى كما يقول : أن يأتى يوم القيامة سبعون أو ثمانون ألفاً تشخب أوداجهم دمًا ، كلهم يستعدى الله . . فيم هريق دمه؟^(٣).

(١) اختلف المؤرخون في سبب وفاة الحسن ، وتاريخ موته ، فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه — في الطواف — بزج مسموم ؛ وقال آخرون : إن معاوية بن أبي سفيان دس إلى جعدة بنت الأشعث — زوج الحسن — بأن تسمه ، ويزوجها ابنه يزيد ؛ فسمته ، فقال لها معاوية : إن يزيد منا بمكان ، وكيف يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ! . ثم عوضها عنه مائة ألف درهم ، وكان ذلك سنة تسع وأربعين ، وقد رثاه النجاشي قيس بن عمر بن مالك من بني الحارث بن كعب وهو شاعر على صاحبه رثاء يقوى هذه الرواية .

وفي رواية : أن الحسن مات حنط أنفه بعد أربعين يوماً من دخوله المدينة . انظر في هذا : البدء والتاريخ ج ٦ ص ٥ ، وابن الأثير ج ٣ ص ١٦٣ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٤١ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٤١ . وتحقق بذلك قول الرسول الكريم : « إن ابني هذا سيصلح الله به بين طائفتين عن المسلمين » .

(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٧ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٢٢٥

وبصلح الحسن خمدت روح التشيع في نفوس الشيعة ، وانضووا تحت لواء معاوية الذي أصبح صاحب السلطان المطلق ، ولم يبق في معترك السياسة والحرب إلا حزب الخوارج والأمويين .

سياسة معاوية إزاء الشيعة :

بيد أن السياسة التي سار عليها معاوية وولاته من سب علي بن أبي طالب على المنابر ، كانت كثيراً ما تثير حنق الشيعة ، فيتبرمون الفينة بعد الأخرى ، ويقابلون معاوية بالمثل ، وأظهر مثل هؤلاء « حجر بن عدى » سيد الشيعة بالكوفة الذي قتله معاوية سنة إحدى وخمسين من الهجرة .

ولسنا نجد سبباً معقولاً نعلل به تمسك معاوية بسبّ عليّ ولعنه كلّ منابر المسلمين — حتى بعد موت علي واجتماع الأمر لمعاوية — ولن نستطيع أن نجتمع بين أمرين : دين معاوية ، وحلمه ، ودهاته ... حلماً يحسبه الجاهل خوراً . . . حلماً يتسع به صدره إلى أن يسمع الإقذاع من الناس ، والنقد لسياسته ، فيقابل إساءتهم بالصفح ، وإقذاعهم بالعطاء . ثم هو مع ذلك يحلو له أن تعج منابره بسبّ علي وآله .

ولعل معاوية — كساسة اليوم — قد علم أن الدعاية من أشد أسلحة الحرب مضاء ، وأبلغها نفاذاً ، فاستعمل هذا السلاح ، ليصرف الناس عن آل البيت ، ويحول قلوبهم عنهم . وفي هذا دوام ملكه ، فاستحل سياسياً ما حرمه الدين ، ووضع لمن بعده شرعة السباب لهذا البيت الكريم ، فاستعملها خلفاء بني أمية ، حتى غدت سخرية الناس وتندرهم ، إلى أن أبطلها إمام عادل :

وَسِعَ الْخَلَائِقَ عَذْلُهُ وَوَفَاؤُهُ حَتَّى ارْعَوَى وَأَقَامَ مَيْلَ الْمَائِلِ^(١)

ذاك هو عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وقد عرف الشيعة له ذلك فانطلقوا يسجلون هذه المأثرة فيقول كَثِيرٌ عَزَّة :

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتَمْ عَلَيَّ ، وَلَمْ تُخَفِ

بَرِيًّا ، وَلَمْ تَقْبَلْ إِشَارَةَ مُجْرِم

وَصَدَقْتَ بِالْفِعْلِ الْمَقَالِ مَعَ الَّذِي

أَنْبَيْتَ ، فَأَمَتْنِي رَاضِيًا كُلُّ مُسْلِمِ^(٢)

نعود فنقول : بصلح الحسن خمدت روح التشيع في نفوس الشيعة ، وإن ظل
حهم لآل البيت ، وشجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصقاً بقلوبهم ،
متغلغلا في نفوسهم ، وزاد في خوده سيف معاوية ، وذهبه ، وسياسة زياد بن
أبيه والى معاوية على العراق — موطن الشيعة — تلك السياسة التي أقامها على ،
الفسف ، والتنكيل بكل من يحس فيه روح التشيع ، وقد كان زياد من شيعة على
فكان بالشيعة أعرف ، فأخذ يقتبهم في كل سبيل ، حتى أباد الألوف من شيعة
الكوفة والبصرة ، ومثل بهم أشنع تمثيل ، فقطع الأيدي والأرجل ، وسمل العيون
وصلبهم في جذوع النخل^(٣) .

(١) البيت من قصيدة لجرير بن عطية الخطفي الشاعر الأموي الشهور — توفي
سنة ١١٠ — مدح فيها عمر بن عبد العزيز حين وفد عليه مع الشعراء « العقد ج ١
ص ٤٠٧ » .

(٢) العقد ج ١ ص ٢٠٤ ، وهي قصيدة طويلة . انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة

(٣) ابن أبي الحديد ج ١١ ص ١٥٠ ، وزياد ولد لأبي سفيان من سمية كانت أمة

الحسين بن علي ويزيد بن معاوية :

وتوفي معاوية سنة ستين من الهجرة ، فتولى ابنه يزيد إمرة المؤمنين ، ويزيد — كما يصوره التاريخ — « صاحب لهو وشراب وقنص ، قد لزم طاعة الشيطان ، وترك طاعة الرحمن ، وأظهر الفساد ، وعطل الحدود ، واستأثر بالنعى ، وأحل حرام الله ، وحرم حلاله ... »^(١).

وكذلك كان يزيد في نظر الحسين ولداته ، فسقاً وفجوراً ومجوناً ، واستهانة بالدين ، فما كان — ولن يكون — لمثل هذا أن يتولى خلافة المسلمين ، وأن يبائع له الحسين ، مع اعتقاده أنه أحق بالأمر منه ، ومع هذه البيعات المتوالية تأتيه من قبل الكوفة .

لذلك خرج الحسين ليلاً متوجهاً لتقاء مكة ، ليرحل منها إلى الكوفة — شيعته وشيعة أبيه — وكذلك خرج ابن الزبير أملاً أن يجد له أنصاراً بمكة يستعين بهم على تولى الخلافة .

== لدهقان فارسي اتصل بها أبوسفیان بن حرب في خماره أبی مریم السلولی حملت بيزاد من أبی سفیان فلما ولدته أنكره فقيل زياد بن أبيه حتى عرف معاوية مكانه في السياسة والحرب فألحقه بأبيه واعترف بأخوته ولكنه ظل يغلب عليه «زياد بن أبيه» وكان هذا الاستلحاق من معاوية . مشار حديث طويل في العصر الأموي ومدداً لشعراء الهجاء .

ومن ذلك قول يزيد بن مفرغ :

الا أبلغ معاوية بن حرب مغلفة عن الرجل اليماني
أنفضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني
وأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأنان

(١) انظر خطبة الحسين في ابن الأثير ج ٤ ص ٢١ . وقد نقلناها في هذا البحث .

... سار الحسين إلى مكة ، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ،
ليتين حقيقة الأمر ، ويخبره بما يراه .

وهنا ننقل إلى مرحلة أخرى من مراحل الصراع الهاشمي الأموي ، كان لها
أكبر الأثر في الحياة العربية .

موقف خلاصاء الحسين :

والرواية على أن أصحاب الحسين وآله لم يألوا جهداً في النصيحة له ، وتحذيره
أن يصيبه ما أصاب أباه وأخاه .

يقول له ابن الحنفية — محمد بن علي بن أبي طالب — : « يا أخى أنت أحب
الناس إلى » ، وأعزهم عليّ ؛ ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك
تنحّ بيعتكم عن يزيد وعن الأمصار ما استطعت ، وابعث رسلك إلى الناس ،
وادعهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك حمدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على
غيرك لم ينتقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا تذهب به مروءتك ولا فضلك
إني أخاف أن تأتي مصراً من الأمصار وجماعة من الناس ، فيختلفوا عليك ،
فمنهم طائفة معك وأخرى عليك ، فيقتتلون فتكون لأول الأسنة ؛ فإذا خير هذه
الأمة كلها ، نفساً ، وأباً ، وأماً ، أضيّعها دماً ، وأذلها أهلاً .

قال الحسين : فأين أذهب يا أخى ؟ !

قال : انزل إلى مكة ، فإن اطمانت بك الدار ، فسبيل ذلك ؛ وإن نبت بك
لحقت بالرمال وشعف الجبال ؛ وخرجت من بلد إلى بلد حتى تنظر إلى من
يصير أمر الناس ؛ ويفرق لك الرأي ؛ فإنك أصوب ما تكون رأياً ؛ وأحزمه
عملاً . حين تستقبل الأمور استقبالا . ولا تكون الأمور أبداً أشكل منها
حين تستدبرها .

قال : يا أخى . . . قد نصحت ، وأشفقت ، وأرجو أن يكون رأيك سديداً ،
وموفقاً إن شاء الله . . . ثم دخل مسجد الرسول ، وهو يتمثل بقول يزيد
ابن مفرغ :

لَا ذَعَرْتَ السَّوَامَ فِي شَقِّ الصُّبْحِ مُغِيرًا وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضِيًّا ۖ وَالْمَنَائِيَا يَرْصُدُنَنِي أَنْ أَحِيدًا^(١)

وفى طريقه إلى مكة سأله عبد الله بن مطيع : « يا أبا عبد الله ، لا سقانا الله
بعدك ماء طيباً ، أين تريد ؟ ! قال : العراق ؛ قال : سبحان الله ! ! لم ؟ قال :
مات معاوية ، وجاءني أكثر من حمل صحف^(٢) ؛ قال : لا تفعل - أبا عبد الله -
فوالله ما حفظوا أبالك ، وكان خيراً منك ، فكيف يحفظونك ! ؟ والله لئن قتلت

(١) طبرى ج ٦ ص ١٩١ . وابن الأثير ج ٤ ص ٧ انظر ترجمة يزيد بن مفرغ
في الأغاني ج ١٧ ص ٤٨ . والشعر والشعراء لابن قتيبة . وهو يزيد بن ربيعة بن مفرغ
الحميري حليف قريش صحب زياد بن أبى سفيان فلم يحمله فقال فيه وفى ولاته شعرا
كثيراً وهذه الأبيات قالها فى سجن عباد بن زياد بسجستان حين حبسه بها عبيد الله
ابن زياد ومظلمها :

حى ذا الزور وأنه أن يعودا إن بالباب حارسين قمودا
من أساويد لا ينون قياماً وحللال شهر الولودا
وطماطيم من سباج عتما يلبسون مع الصباح قيودا
طماطيم : أعاجم لا يفصحون فى كلامهم والعمّة عجمة فى اللنطق . والسباج قوم
من الهند أو السند ذوو جلد يكونون مع رئيس السفينة واحد منهم سيديجى .
(٢) قيل : إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف
الجماعات .

لا بقيت حرمة بعدك إلا استحلت^(١) .

وأتاه عبد الله بن عباس بمكة ؛ فقال له : « قد أرجف الناس أنك سائر إلى العراق ، فبين لي ما أنت صانع ؟ فقال له : قد أجمعت السير في أحد يومى هذين - إن شاء الله تعالى - فقال ابن عباس : فإني أعيذك بالله من ذلك . خبرني - رحمك الله - أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم ، وضبطوا بلادهم ، ونفوا عدوهم ؟ فإن كانوا فعلوا ذلك ، فسر إليهم ، وإن كانوا إنما دعوك إليهم ، وأميرهم عليهم قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فإنا دعوك إلى الحرب ، ولا آمن عليك أن يغروك ، ويكذبوك ، ويخالفوك ، ويخذلوك ، ويستنفروا إليك ؛ فيكونوا أشد الناس عليك » .

وفي الغد أتاه ؛ فقال له : « يا ابن عم ، إني أتصبر ولا أصبر ، إني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك ، والاستئصال ، إن أهل العراق قوم غدر فلا تقربهم ، أقم في هذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك - كما زعموا - فاكتب إليهم ، فلينفوا عاملهم ، وعدوهم ، ثم أقدم عليهم . . . فإن أبيت إلا أن تخرج ، فسر إلى اليمن ، فإن بها حصوناً ، وشعاباً ، وهي أرض عريضة ، طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس في عزلة ، فتكتب إلى الناس ، وترسل إليهم ، وتبث دعواتك ، فإني أرجو أن يأتيك عند ذلك الذي تحب في عافية ؛ فقال له الحسين : يا ابن عم ، إني لأعلم أنك ناصح مشفق ، وقد أزمعت ، وأجمعت المسير ، فقال ابن عباس : فإن كنت سائراً ، فلا تسر بنسائك ، وصبيتك ، فإني لخائف أن تقتل - كما قتل عثمان - ونساؤه ، وولده ينظرون إليه ، لقد أقررت عين ابن الزبير بخروجك من الحجاز ، وهو

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٣ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٧ .

اليوم لا ينظر إليه أحد معك ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنتى إن أخذت
بشعرك ، وناصيتك ، حتى يجتمع علينا الناس ، أعطتني فأقت لفعلت ذلك » .

ثم خرج من عنده ؛ فربابن الزبير ، فقال : « قرت عينك يا ابن الزبير
يا لك من قُبْرَةٍ بمَعْمَرٍ
خَلَا لَكَ الْجَوْ فَبِضَى وَأَصْفَرِي
وَنَقَرِي مَا شِئْتَ أَنْ تُنْقَرِي
هذا الحسين يخرج إلى العراق . ويخليك والحجاز ^(١) .

والواقع أنه لم يكن أحديجب خروج الحسين من مكة إلا رجل واحد هو
عبد الله بن الزبير ، فقد كان يعلم أن الناس لا يعدلون بالحسين أحداً ، لذلك طالما
رغبه في الخروج إلى الكوفة ، في أسلوب مليء بالمكر والدهاء ، والغريب أن
الحسين كان يعلم ذلك من ابن الزبير ، فكان يقول : « إن هذا ليس شيء من
الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز ، وقد علم أن الناس لا يعدلونه بي ،
فودأنى خرجت حتى يخلوله ^(٢) » .

ونصحه أبو بكر بن الحارث بن الحارث بن هشام الخزومي فقال : « يا بن عم ،

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦ والطبرى ج ٦ ص ٢١٦ ، ٢٣٦ ، ومروج الذهب
ج ٢ ص ٦٨ والخضرى ج ١ ص ١٢٧ والرجز لطرفة بن العبد الشاعر الجاهلى ،
وقد صار مثلاً يضرب في التحكك من الشيء .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٧ ، والطبرى ج ٦ ص ٢١٦ .

إن الرحم يظأرنى^(١) عليك ، ولا أدرى كيف أنا فى النصيحة ، كان أبوك أشد بأساً والناس له أرجى ، ومنه أسمع ، وعليه أجمع ، فسار إلى معاوية ، والناس مجتمعون عليه إلا أهل الشام - وهو أعز منه - فخذلوه ، وثأفوا عنه ، حرصاً على الدنيا ، وضناً بها ، فجرعوه الغيظ ، وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه ، من كرامة الله ورضوانه . . . ثم صنعوا بأخيك بعد أبيك ما صنعوا - وقد شهدت ذلك كله ورأيت - ثم أنت تريد أن تسير إلى الذين عدوا على أبيك ، وأخيك تقاتل بهم أهل الشام ، وأهل العراق ، ومن هو أعد منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرجى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطفوا الناس بالأموال - وهم عبيد الدنيا - فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه ممن ينصره . فاذكر الله فى نفسك .

فقال له الحسين : « جزاك الله خيراً يا بن عم . فقد أجهدك رأيك . ومهما يقض الله يكن . »

فقال : « وعند الله تحتسب أبا عبد الله » ثم دخل على الحارث بن خالد الخزومى - والى مكة - وهو يقول :

كَمْ تَرَى نَاصِحًا يَقُولُ فِيْهِ مَعْصَى وَظَنِينَ الْمَغِيبِ يَلْمُقَى نَصِيحًا

فقال : وما ذاك ؟ فأخبره بما قال للحسين . فقال : نصحت له ورب الكعبة^(٢) .

* * *

(١) يظأرنى : يعطفنى

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٦٨ ، طبرى ج ٦ ص ٢١٦ .

لكن الحسين ... :

لكن الحسين — وقد ورث عن أبيه عزمه الثاقب . وجده العاثر — أبى أن يستمع لهذه الجمهرة الكريمة من خالصائه . كما أبى أن ينتفع بهذه الحكمة الصادقة التى قالها الفرزدق الشاعر — وقد سأله الحسين عن حال الناس بالكوفة . فأجابه — : « قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » ^(١) .

نعم . أبى الحسين — رضى الله عنه — أن ينتفع بذلك فصار بأهله . وشيعته . حتى بلغ القادسية . وهناك أتم قتله مسلم بن عقيل . وما فعله عبيد الله بن زياد — والى العراق الأموى — به وبسائر الشيعة . فهم الحسين بالرجوع ، وأبى إخوة مسلم إلا الأخذ بالتأثر . فلم يجد بدا من السير .

موقعة كربلاء :

وعلى بطحاء « كربلاء » ... كانت الموقعة التى قتل فيها الحسين . وسائر رجالاته ، قتلة لا تزال ترتعد منها فرائص الدهر .

يصفها زحر بن قيس الجعفى . وقد سيره ابن زياد برأس الحسين وثقله إلى الخليفة « يزيد بن معاوية » . فلما وقف بين يديه سأله يزيد : ما وراءك يا زحر ؟

(١) طبرى ج ٦ ص ٢١٨ ، وانظر العقد الفريد ج ٣ ص ١٣٩ .

فيقول : « أبشر - يا أمير المؤمنين - بفتح الله ، وبنصره : ورد علينا الحسين ابن علي ، في ثمانية عشر من أهله ، وستين من شيعته ، فسرنا إليهم ، فسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال ، فاختاروا القتال ، ففدونا عليهم مع شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى إذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يهربون إلى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذ الحمام من صقر ، فوالله ما كان إلا جزر جزور ، أو نومة قائل ، حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة . وخدودهم معفرة . تصهرهم الشمس . وتسفي عليهم الريح . زوارهم العقبان والرخم بقاع سبب^(١) » .

قتل الحسين ومن معه . ونساؤه وولده ينظرون إليه . وتحقق ما قاله ابن الحنفية في نصيحته له : « فإذا خير الناس كلها نفساً . وأماً . وأباً . أضيعها دماً . وأذلها أهلاً » .

وديس الحسين بسنابك الخيل حتى تكسرت أضلاعه . وتقاسم القوم أسلابه . ثم حملوا رأسه إلى ابن زياد . فعرضها بالكوفة . ثم بعث بها - مع

(١) طبرى ج ٦ ص ٢٦٤ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٣٧ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ١٣٦ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٣٥١ . والوزير : الملجأ . والآكام : جمع أكمة الشجر الملتهب والمكان المرتفع .

وعبيد الله هو عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان - ابن أبيه - سياسي حازم قوى الشكيمة لكن تتابع الأحداث والفتن وإحاطة الأعداء جعل الزمام يفلت من يده وتنطوى صفحات المرونة السياسية فيقتل الحسين ويحمل عبيد الله وزره الذي لم يغفر له حتى اليوم .

نسائه وأطفاله على الأفتاب — إلى يزيد ، فوضعها هذا بين يديه . . . ينكت
نفره بقضيب في يده^(١) . . . !

رأى التاريخ :

والخضرى يرى أننا إذا تركنا العاطفة استبحنا أن نقول : بقتل الحسين ،
انتهت موقعة « كربلاء » التى أثارها عدم التريث والأناة والبصر بالعواقب .
والغفلة عن دراسة أخلاق الناس ، وسياسة الحكم ، تلك الدراسة التى هى ألزم
ما تكون لمن يريد سياسة الناس ، وولايتهم^(٢) .

فالكوفة التى اعتد بها الحسين ، هى الكوفة صاحبة على ، والحسن ،
والملك لا يقوم إلا بعصبية ، ولم تكن لبني هاشم فى جاهلية ولا إسلام^(٣) .

فالحسين — وإن خالف يزيد عن اجتهاد — هو الذى جر على نفسه وآله
نتيجة هذه المعركة ، التى دميت — ولا تزال تدمى — لها قلوب المؤمنين .

قال يزيد بن معاوية — وقد وضع رأس الحسين بين يديه — أتدرون من
أين أتى هذا ؟ . . قال : أبى « على » خير من أبيه ، « وفاطمة » أمى خير من
أمه ، وجدى « رسول الله » خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر
منه . . فأما قوله : أبوه خير من أبى ، فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله ، وعلم الناس
أيهما حكم له ، وأما قوله : أمى خير من أمه ، فلعمري « فاطمة » بنت رسول الله

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٧ ، وانظر مقاتل الطالبين ص ٩٠ ، ٩١ .

(٢) الخضرى ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ص ١٧١ .

خير من أمي ، وأما قوله : جدى رسول الله خير من جده ، فلمعمرى ما أحد يؤمن بالله ، واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ، ولا ندأ . . . ولكنه إنما أتى من قبل فقهاء ، ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك ^(١) » .

* * *

أثر قتل الحسين :

وبعد ففي العاشر من المحرم سنة إحدى وستين قتل الحسين بن علي - رضي الله عنه - فكان لمقتله أثر كبير في حياة العرب السياسية والاجتماعية والأدبية .

كان قتله أكبر صدمة للنفوس الإسلامية ، كما كان من الخواطر التي شغلت بال المسلمين ولا تزال تشغلهم - إلى اليوم - فيما يصنعه الشيعة يوم عاشوراء .

ظهر بقتله حزب الزيريين بالحجاز ، يدعو لعبد الله بن الزبير .

ونهب شيعة الكوفة ؛ فكونوا حزب « التوابين » ثم « الكيسانية »

ينادى بثارات الحسين .

وأصبح التشيع عقيدة ممزوجة بالدماء ، متغلغلة في النفوس ، بعد أن كان رأياً تنقصه الحماسة ، وشتان بين الرأي والعقيدة .

وغدت ذكرى « كربلاء » - المملوطة بدماء ابن بنت الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - كافية لأن تثير عاطفة الحماسة والحزن في قلوب الناس ، ومنبعاً للأخيلة ، والأقاصيص .

وتشيع الفرس عن عقيدة ، بعد أن كان تشيعهم شعوبية ، وبغضاً لحكم العرب ؛ فقد كان الفرس ينظرون إلى الحسين نظرة الرجل إلى صهره ، والمخاطب لقطعة من كبده ، كما كانوا ينظرون إليه - وقد تزوج « شاهر بانو » بنته

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٣٨ . « تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء

وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

« يَزْدَجُرْد » ملكهم - أنه قد جمع بين أشرف دم عربي ، وأعرق دم فارسي ، فهو أحق الناس بالحكم . . . هو صاحب الحق المقدس .

ووجد صفوف الشيعة . . . وصرف قلوب الناس عن بني أمية ، وكثر الخافدين عليهم ، فأخذوا يعضون بنان الندم ، فكان يزيد بن معاوية - كلما ذكر الحسين - يقول : « وما على لو احتملت الأذى ، وأنزلت الحسين معي في دارى ، وحكمته فيما يريد - وإن كان على في ذلك وهن في سلطاني - حفظاً لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورعاية لحقه ، وقربته من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعن الله ابن « مرجانة » فإنه اضطره وقد سأله أن يضع يده في يدي ، أو يلحق بشعر حتى يتوفاه الله ؛ فلم يجبه إلى ذلك ؛ فقتله . . فبغضنى بقتله إلى قلوب المسلمين ، وزرع في قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر ، والفاجر ؛ لما استعظموا من قتل الحسين . . . مالى ولا بن « مرجانة » !! لعنه الله وغضب عليه .

حزب التوابين :

ندم شيعة الكوفة على ما فرطوا في جنب الحسين ، ورأوه خيانة وعاراً لا يحويه إلا السيف ؛ فاجتمعوا ، وأمروا عليهم الصحابي الجليل « سليمان بن صرد الخزاعي » وكونوا حزب « التوابين » ؛ ثم أخذوا يعملون سراً على اجتماع كلمتهم ، واصطنعوا مبدأ « التقية » حتى مات « يزيد بن معاوية » وتولى « مروان بن الحكم » ، فكان لهم في ربيع الآخر سنة خمس وستين مع جيوش « عبيد الله بن زياد » موقعة « عين الوردة ^(١) » التي انهزم فيها « التوابون »

(١) معجم البلدان ج ٦ ص ٢٢٨ وهي مدينة بالجزيرة تقع بين حران ونصيبين .

وقتل رؤسائهم وتفرقت فلولهم ، فانضموا إلى دعوة « المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي » .

المختار بن أبي عبيد والكيسانية :

وقد ظهر المختار على بساط الشيعة في رمضان سنة أربع وستين ، وكان رجلاً ذا أطماع كبيرة ، تواقاً إلى الرياسة والإمرة ، فأعلن الدعوة لابن الحنفية - محمد ابن علي بن أبي طالب - على أنه الإمام بعد أخيه الحسين ، فتحزب له نفر أكثرهم من « همدان » حتى اجتمع عليه ملا الشيعة بعد موقعة « عين الوردة » .

وبهذه الدعوة صار الشيعة فريقين ، يتولى بعضهم « علي بن الحسين » ، وهم المسمون « بالإمامية » ويتولى المختار وشييعته « محمد بن الحنفية » وهم « حزب الكيسانية ^(١) » .

كان أول ما عمل المختار أن وثب بمن معه سنة ست وستين على « عبد الله

(١) تنسب هذه الطائفة : على رواية الطبري ، وابن خلد - كان ج ١ ص ٤٥٠ . والفرق بين الفرق ص ٥٧ ، والشهرستاني ج ١ ص ١٩٦ : إلى كيسان مولى على ابن أبي طالب . وعليه جرى الأستاذ « أحمد أمين » في الجزء الثالث من ضحى الإسلام .. ولكن كيسان قتل بصفين سنة سبع وثلاثين (طبري ج ٦ ص ١٠) قبل ظهور هذه الطائفة بأكثر من ربع قرن ، و « على » حي .

ويرى المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ٧٩ ، وصاحب العقد ج ١ ص ٣٥٢ وابن قتيبة في المعارف ص ٢٦٧ . والنوبختي في فرق الشيعة ص ٢٣ نسبتها إلى المختار - على أن اسمه كيسان - .

والصحيح ما ذهب إليه ابن سعد في الطبقات ج ٥ ص ٧٧ ، والدينوري في الأخبار الطوال ص ٢٩٤ وابن حزم ج ٤ ص ٩٤ و ١٧٩ من نسبتها إلى أبي عميرة - كيسان - مولى بجيلة ورئيس شرطة المختار .

ابن مطيع « - عامل ابن الزبير على الكوفة - فطرده منها ، واستولى عليها ، ثم حاله الظفر ، ففتح قتلة الحسين حتى أبادهم ، فكان آخر من قتل « عمر بن سعد ابن أبي وقاص ، أمير الجيش الأموي في موقعة « كربلاء » ، فتعلقت قلوب الناس به ، وكثر أنصاره ، وهنا رأى الفرصة قد سنحت له للقضاء على « ابن زياد » فأرسل « إبراهيم بن الأشتر » لحربه . . والتقى الجيشان على نهر « الخازر » فقتل « ابن زياد » ، وكثير من أشرف الشام ، وحمل رأس الأمير الأموي إلى « المختار » ، فعرضها بالكوفة ، ثم حملها إلى « ابن الحنفية » ، كما حمل غيرها ، فكان هذا العمل جزاء وفاقاً لما فعله ابن زياد « بالحسين بن علي » - رضي الله عنه .

ويجب ألا ننسى أثر هذه الموقعة في نفوس الشيعة ، وموقف المختار ، فقد عظم شأنه واتسعت دعوته ، فشملت : الكوفة ، والبصرة ، والمدائن ، والموصل ، وارتعدت منه فرائص « الزبيريين » بالحجاز ، و « الأمويين » بدمشق ، وتكون حوله مذهب شيعي جديد - كما قلنا . انتشرت في ظله عقائد السبئية^(١) من : رجعة ، ووصاية ، وتناسخ ، وبداء ، وإسراف في تقديس علي وأبنائه ، حتى

(١) الفرق بين الطائفتين - السبئية والكيسانية - : أن السبئية تقول بمحلول الجزء الإلهي في الإمام ، وتجهل له نصيباً في الألوهية نفسها ، بينما تعتبره الكيسانية رمزا للعلم الإلهي ، ويبدلون له الطاعة باعتباره رجلاً رفيع المنزلة . محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة .

وتتفق الطائفتان في القول بالرجعة : إلا أن السبئية تقول : بعودة الإمام من مقره الدياوي ، على حين ترى الكيسانية : أنه لا يعلم مكانه حتى ساعة ظهوره - السيادة العربية والشيعة ص ٨١ ، والمثل والنحل ج ١ ص ٢٨٠ و ٢٦٣ .

وفي السبئية يقول السيد الحميري :

قوم غلوا في علي لا أبا لهم وأجشموا أنفساً في حبه تعباً
قالوا : هو ابن الإله جل خالقنا من أن يكون له ابن أو يكون أبا

العقد ج ٢ ص ٢٢٧ .

زعموا أنهم أنبياء ، وقالوا : بإحاطة الأئمة بالعلوم الإلهية . . . فمحمد إمامهم قد ورث علم التأويل والباطن وافرد بتأويل الشريعة فطاعته واجبة .
وفي ظل هذا المذهب أيضاً ظهر القول بالمهدي المنتظر^(١) .

وقد كان المختار - لولا ما يتهم به التاريخ من عقائد خبيثة ، ونهاية شريرة - هو الآخذ بثأر « الحسين » والحامى للهاشميين من « ابن الزبير » ، والباذل لحياته وقوته في سبيل آل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وذريته ، فقد امتنع الهاشميون عن مبايعة « ابن الزبير » بمكة . وبعث بعضهم بطاعته إلى الخليفة الأموي ، فكان هذا وهنا في دعوة « ابن الزبير » فضيق عليهم ، واستحل أذاهم ، حتى إذا ظهر المختار اشتد خوفه منهم ، فجمعهم في سجن « عارم » بمكة ، وجمع الخطب حوله ليكونوا طعمة للنار - إن لم يبايعوا بعد ثلاث - وقد كادوا لولا أن أدركهم جيش المختار نفلصهم ، وخرجوا جميعاً إلى شعب على ، وهم يسبون « ابن الزبير » ويستأذنون « محمد بن الحنفية » - شيخ الهاشميين - في حربه ، فيأبى عليهم ، فاجتمع معه في الشعب أربعة آلاف رجل ، قسم بينهم المال الذي أرسله المختار ، وعزوا ، وامتنعوا طيلة حياة المختار^(٢) .

قتل المختار وأثره :

لذلك عمل « ابن الزبير » على الخلاص من هذا الخصم القوي ، فولى أخاه

(١) انظر فرق الشيعة للنويعي ص ٢٧ ، ٢٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٥ .

« مصعبا » العراق ، وإمرة الجيش الذى أعده لحرب المختار . . والتقى الجمعان بالقرب من الكوفة ، فكانت موقعة قتل فيها « المختار » وسبعة آلاف من أتباعه ، وحاصمت العراق لابن الزبير ^(١) .

أما بنو أمية فقد تركوا الحزبين يقتتلان ، ليبيد أحدهما الآخر ، فلما قضى على المختار وجها ضرباتهم إلى ابن الزبير ، فقبضوا على « مصعب » بالعراق ثم على « عبد الله » ممكة ، واجتمع الأمر لبني أمية فى « الفرع المروانى » .

* * *

وباتهاء المختار رجع التشيع إلى عقيدة قلبية ، وحب عاطفى ، واكتفى الشيعة بالعمل سراً على قلب الدولة الأموية ، واقتصرت الحروب مرة أخرى على « الأمويين والزبيريين » ، ثم « الأمويين والخوارج » .

ولقد كان الشيعة من أمهر الناس فى الدعوات السرية ، وأشدهم خطراً على الدولة ، وقد عرف الأمويون لهم ذلك ، فوقفوا منهم وقفة لارحة فيها ، وقفة سياسية ، والسياسى إذا نظر إلى العلويين رأهم إما ثواراً إن ظهروا ، أو متآمرين على قلب الدولة إن اختفوا .

والخلفاء الأمويون شباب تأخذهم الحدة ، وتماؤهم الحمية ، والملك عقيم . نعم إن عبد الملك كان يدرك الأثر الخاطير لسفك دماء سلالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكان يصانعهم ، ويغطف عليهم ، وكتب إلى الحجاج - عامله على العراق - جنبنى دماء بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الحرب ، وإنى رأيت آل بنى حرب قد سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن على ^(٢) .

(١) المصدر نفسه ص ١١٣ .

(٢) المقدم ج ٣ ص ١٤٩ .

ولكن الحجاج وإن غلت يده على الهاشميين ، فقد انطلقت في شيعتهم يقتلهم ، ويسفك دماءهم ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر ، أحب إليه من أن يقال له شيعة على^(١) . وحتى خشى الناس أن يتسموا بأسماء علوية ؛ وقف رجل في طريق الحجاج ، فقال : أيها الأمير ، إن أهلي عقوني فسموني علياً ، وإني فقير بائس وأنا إلى صلة الأمير محتاج ؛ فتضاحك الحجاج ، وقال : بلطف ما توصلت به قد وليتك موضع كذا^(٢) .

زيد بن علي بن الحسين وهشام بن عبد الملك :

أغمد السيف العلوي حيناً من الدهر ، فاخفى التاريخ السياسى للشيعة حيناً من الدهر ، حتى إذا تولى هشام بن عبد الملك (١٠٥ — ١٢٥ هـ) شاء القدر أن تتلاحق الفواجع العلوية ، فإذا شيعى جديد يخرج ، وحزب جديد يظهر . فيتخذ له في الحياة السياسية ، والعقائد الشيعية مكاناً له خطره وله استقلاله ، ذاك الداعية هو « زيد بن علي بن الحسين » ، وهذا الحزب ، هو « حزب الزيدية » .

طمع زيد في الخلافة ، وكان رجلاً جلدًا ، لسنًا ، واسع العلم بالدين ، قوى الحججة ، نافرًا مما يناله وقومه من ظلم الأمويين ، لا يؤمن « بالتقية » فحدثته نفسه بالخروج ، فشاور أخاه أبا جعفر - محمد الباقر بن علي - فأشار عليه ألا يركن إلى أهل الكوفة « فهم أهل غدر ومكر . بها قتل جدك على وطعن عمك الحسن ، وقتل أبوك الحسين ، وفيها وفي أعمالها شتمنا أهل البيت »^(٣) .

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ١٤ .

(٢) المصدر نفسه ج ١٦ ص ١٥ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ .

لكن « زيدا » يريد الخلافة ، لأنه أحق بالأمر من هشام ، وقد بايعه الكوفيون ، ووعدوه النصر ، فبلغ خبره هشاما ، فاحتفظها له . . دخل عليه « بالرصافة » فلم يحفل به ، فجلس حيث انتهى به المجلس ، ثم تنازعا كلاما^(١) ، فقال زيد : « يا أمير المؤمنين ، ليس أحد يكبر عن تقوى الله » ، فقال هشام : « اسكت — لا أم لك — أنت الذى تنازعتك نفسك فى الخلافة ، وأنت ابن أمة ؟ » ، فقال زيد : « يا أمير المؤمنين ، إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات ، قد كانت أم اسماعيل أمة لأم إسحاق — عليهما السلام — فلم يمنع ذلك أن بعثه الله نبيا وجعله للعرب أبا ، فأخرج من صلبه خير البشر محمداً — صلى الله عليه وسلم — فتقول لى هذا ، وأنا ابن فاطمة ، وابن على ؟ ! » ثم قام وهو يقول :

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ فَازْرَى بِهِ كَذَلِكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَّ الْجِلَادِ
مُنْخَرَقُ الْخَفَيْنِ يَشْكُو الْوَجَا تَنْكَوهُ أَطْرَافُ مَرَوْ حِدَادِ^(٢)
قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ الْعِبَادِ
إِنْ يُحْدِثِ اللَّهُ لَهُ دَوْلَةً يَبْزُكُ آثَارَ الْعَدَا كَالرَّمَادِ^(٣)

(١) انظر الطبرى جزء ٨ ص ٢٦٠ وما بعدها .

(٢) المرو : حجارة بيض براقه ، تتقد منها النار .

(٣) الشعر لمحمد بن عبد الله بن الحسين — وكان زيد كثيرا ما يتمثل به —
الطبرى ج ٩ ص ١٦١ ، وزهر الآداب ج ١ ص ٧٢ ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٣١١ ، وج ٣ ص ٣٥٩ ، والعقد الفريد ج ٤ ص ٤٨٣ ، وج ٥ ص ٨٩ .

ظهور الزيدية :

ومضى إلى الكوفة ، فدعا لنفسه سرّاً ، فتكون حوله شيعته المسمون « بالزيدية^(١) » .

وفي سنة اثنتين وعشرين ومائة ، أظهر دعوته ، فقاتله « يوسف بن عمر الثقفي » — وإلى هشام بن عبد الملك على العراق — فلما جد الجدل ، مثل الكوفيون معه دورهم مع أجداده ، فحارب في قليل وهو يقول :

أَذُلَّ الحَيَاةِ وَعِزَّ المَآتِ وَكَلَّا أَرَاهُ طَعَامًا وَبَيْلًا ! ؟
فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ وَاحِدٍ فَسِيرِي إِلَى المَوْتِ سَيْرًا جَمِيلًا

(١) يشترط في الإمام عند الزيدية ، أن يكون فاطميا ، عالما ، زاهدا ، شجاعا ، مسخيا ، خرج مطالباً للإمامة ؛ فالزيدية لا تقول « بالثقية » كالإمامية ، بل ترى الخروج شرطاً في كون الإمام واجب الطاعة ، ولا يتبرءون من أبي بكر وعمر ، بل يجيزون إمامتهما — وإن كان على أفضل — بل يرى بعضهم أنهما بويها لمصلحة دينية واجتماعية ؛ فسياف على من دماء المشركين لم يحف ، لذلك لم تكن العرب لترضى به خليفة في ذلك الوقت .

ومن أجل هذه النظرة الكريمة من زيد نحو الشيخين فارقه كثير من أتباعه فساهم زيد « الرافضة » . . . والزيدية لا تقول بعصمة الأئمة ، ولا باختلافهم ، ومن قال بالوصية : يرى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — نص على « علي » بالوصف . ولا اشتراط العلم في الإمام أكثر فيهم الاجتهاد والمجاهدون ، وكان زيد عالماً ضليعاً تلمذ في الأصول لواصل بن عطاء رأس المعتزلة ، واقتبس منه الاعتزال ، وتأثر بذلك مذهبه ، وله مجموعتان في الفقه والحديث ، وقد انقسم الزيدية إلى فرق عدة ذكرها المسعودي في مروح الذهب ج ١ ص ١٤٤ والنوبختي ص ٢١ ، والرازي في « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » ص ٥٢ وانظر مناقب الزيدية ، والزيدية ورجالها في الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٣٠٢ — ٣٢٣ مطبعة الأزهر .

وحال المساء ، فراح زيد مشخناً بجراحه وقد أصابه سهم غرب^(١) في جبهته ،
فلما نزع منه مات ، فدفنه أصحابه ليلاً ، ودُلَّ عليه يوسف بن عمر الثقفي ،
فاستخرجه وصلبه ، وبعث برأسه إلى هشام ، ثم أحرقه في عهد الوليد وذراه .

وفي زيد يقول حكيم بن عياش الكلبي ، شاعر الأمويين :

« صَدَّيْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جِذْعٍ نَخْلَةٍ

وَلَمْ أَرَ مَهْدِيًّا عَلَى الْجِذْعِ يُضَلِّبُ

وَقِسْتُمْ بِمُثْمَانٍ عَلِيًّا سَفَاهَةً

وَعَمَّانُ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ وَأَطْيَبُ »^(٢)

* * *

خلاصه زيد بن علي :

وهكذا مثل زيد وهشام دور الحسين ويزيد ، ويأبى القدر إلا أن تتشابه
الفاجعتان ، فقد ركن الحسين إلى الكوفيين واغتر بهم ، وكذلك فعل حفيده
زيد بن علي . وأكثر الناس من نصح الحسين ، وكذلك فعلوا مع زيد .

يقول له سلمة بن كهيل : « نشدتك الله كم بايعك ؟ ! قال : أربعمائة ألفاً ، قال :
فكم بايع جدك ؟ قال : ثمانون ألفاً . قال : فسكم حصل معه ؟ قال : ثلاثمائة . قال :
نشدتك الله ، أنت خير أم جدك ؟ قال : بل جدى . قال : أفقرتك الذى خرجت

(١) فى اللسان : وأصابه سهم غرب بسكون الراء وغرب بالتهريك : إذا كان
لا يدرى من رماه ، وقيل إذا أناه من حيث لا يدرى وقد يوصف به . ويضاف
ولا يضاف .

(٢) تاريخ ابن عساكر ج ٤ ص ٤٢٣ . وطبرى ج ٨ ص ٢٧٩ ، ومروج
الذهب ج ٢ ص ١٤٣ .

فيه خير أم القرن الذي خرج فيه جدك ؟ قال : بل القرن الذي خرج فيه جدى .
قال : أفتطمع أن ينفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك ؟ قال : قد بايعونى ،
ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم » .

وكتب إليه عبد الله بن حسن بن على : « يا بن عم ، إن أهل الكوفة نفخ
العلانية خور السريرة ، هرج فى الرجاء ، جزع فى اللقاء ، تقدمهم ألسنتهم ، ولا
تسايعهم قلوبهم ، لا يثبتون بعدة فى الأحداث ، ولا ينوءون بدولة مرجوة ،
ولقد تواترت إلى كتبهم بدعوتهم ، فصمت عن نداءهم ، وألبست قلبى غشاء
عن ذكرهم ، بأساً منهم واطراحاً لهم . وما لهم مثل إلا ما قال على بن أبى طالب
إن أهملتم خضتم وإن حوربتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإن
أجبتهم إلى مشاققة نكصتم » ^(١) .

ولم ينتفع الحسين بنصح الناصحين ، وكذلك لم ينتفع زيد بتلك النصائح ،
ونسى الأمويون الدين وال عاطفة فى « كربلاء » ، وكانوا مع زيد أشد نكراً ،
وأفسى قلباً .

يحيى بن زيد والوليد بن يزيد بن عبد الملك :

قتل زيد فورث ابنه يحيى رئاسة الطائفة الزيدية ، فهرب إلى خراسان ، وسار
إلى « بلخ » ، وأقام بها يث دعاة ، ويتمها للثورة .

(١) طبرى ج ٨ ص ٢٦٥ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٤٣ : وكلمة على من خطبة
له فى ذم أصحابه (نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢١)
وخور السريرة : ضماها ، هرج : أى لا أمل فيهم ، جزع : أى غير صابرين ، عدة :
أى عدد ولا يثبتون بعدة فى الأحداث أى أنهم يكونون قليلا ولو كثروا مشاققة
نكصتم : المشاققة الخلاف والعداوة وهم ينكصون عنها أى لا يثبتون لها جنبا

ثم خرج على الوليد بن يزيد سنة خمس وعشرين ومائة ، فكان نصيبه نصيب أبيه — القتل والصلب والإحراق والتذرية في ماء الفرات — في عهد يوسف بن عمر الثقفي ، فكان قتل زيد وابنه يحيى على هذا النحو سبباً من أسباب زيادة البغض للأمويين ، والاستعداد للثورة عليهم ، فما هي إلا سنوات حتى دالت دولتهم ، واشتملها التاريخ بحسناتها وآثامها ، سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبوية .

وبذلك انتهى النزاع بين الأمويين والشيعة ، أو نقول : بين حزين يحكم أحدهما العقل والعصبية ، ويحكم الآخر العاطفة والحنو : فالشيعة تحكم عاطفة شريفة نبيلة ، عاطفة الحنو على آل البيت ، والعطف على نسل الرسول صلى الله عليه وسلم ، عطفاً أنتج قضية « حكمنا الرسول فليحكمنا نسله » .

والأمويون يرون أن الحكم أهلية تمنح ، لا مال يورث ، والحب شيء ، والحكم شيء آخر ، وفي هذا جلال العقل ، وإن لم يكن فيه جمال العاطفة .

تحول الخلافة إلى بني هاشم :

سقطت الدولة الأموية ، وتولى الهاشميون الحكم . وبنو هاشم فرعان : فرع على ، وفرع العباس ؛ فمن أولاد على : « الحسن » ، و « الحسين » و « محمد بن الحنفية » .

وحول تعيين الإمام تقسمت شيعتهم إلى فرق^(١) ، أهمها ثلاث :

(١) عد الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » نحواً من ثلاثين فرقة شيعية .

الإمامية : وهى تقول بإمامة على بن أبى طالب المتوفى سنة ٤١ هـ ، ثم الحسن ابن على المتوفى سنة ٤٩ هـ ، ثم الحسين المتوفى سنة ٦١ هـ ، ثم — زين العابدين — على بن الحسين المتوفى سنة ٩٤ هـ ثم — الباقر — محمد بن على بن الحسين المتوفى سنة ١١٣ هـ ، ثم جعفر — الصادق — بن محمد الباقر المتوفى فى خلافة المنصور العباسى سنة ثمان وأربعين ومائة .

ثم اختلفوا ، فقال بعضهم بإمامة « اسماعيل بن جعفر » المتوفى فى حياة أبيه ، ليصلوا بذلك إلى خلافة « محمد بن اسماعيل » وهؤلاء هم الاسماعيلية ، أو الباطنية ومنهم الفاطميون خلفاء مصر والمغرب .

وقال آخرون بإمامة موسى — الكاظم — بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٨٣ هـ ثم ابنه على الرضا ، المتوفى بطوس فى حياة المأمون سنة ثلاث ومائتين ، وهؤلاء هم « الاثنا عشرية » لقولهم بالإمام الثانى عشر ، محمد المهدي بن الحسن العسكري . وهو عندهم المهدي المنتظر ، لا انتظارهم رجعتهم . ولد سنة خمس وخمسين ومائتين ، وتوفى — أو غاب عند الشيعة — سنة خمس وسبعين ومائتين .

والفرقة الثانية : الزيدية ، وهى التى تولت بعد على بن الحسين ابنه زيد بن على . ثم يحيى بن زيد ، ثم تابع جمهورهم النفس الزكية محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن . ابن على بن أبى طالب ، ثم أخاه إبراهيم كما سيأتى .

والفرقة الثالثة : الكيسانية ، أتباع محمد بن الحنفية ، ثم ابنه أبى هاشم عبد الله ابن محمد .

أما فرع العباس : فأولهم العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس هو العاصب الوحيد له .

ولكن علياً كان قد سبقه إلى الإسلام ، وبزه بالفضائل الدينية ، فكان أولى بالخلافة منه ، وقد عرف العباس له ذلك فلم ينازعه حقه ، بل سأله يوم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبايع له بالخلافة ، فيقول الناس : عم النبي صلى الله عليه وسلم بايع ابن عمه ، فأبى على ذلك لاشتغاله وقومه بجهاز النبي صلى الله عليه وسلم ، ودفنه ، ولم يكن يدور بخلد - ولا بخلد الهاشميين جميعاً - أن الناس يعدلون به أحداً .

وقد خلف العباس عبد الله ، وكان مع علي ثم مع أبنائه ، ثم سالم الأمويين ، كذلك كان ابنه « السجاد » على بن عبد الله ، ذهب إلى عبد الملك ، فأقام معه بدمشق ، فلما تولى الوليد بن عبد الملك أساء إليه ، فرحل إلى إقليم الشراة بالشام ، وأقام بالحريمة^(١) حتى مات سنة ثمان عشرة ومائة ، ثم أتى بعده محمد ابن علي ، فتظاهر بالعلوية ، في الوقت الذي كان يعمل فيه سراً لتحويل الخلافة إلى بيته .

ونحن نعلم أن العصر الأموي مضى وأبناء على هم أبطال هذا النزاع ، وفي سبيله ذهب سادتهم وكبرائهم طعمة لل سيف والنار ، وغير السيف والنار ، من أنواع التعذيب والقتل والمثلة .

وظل بنو العباس على شاطئ السياسة لم يسمع لهم صوت ، بل كانوا مع العلويين بالسيف أحياناً ، وبالقلب في كثير . . . ولكن التاريخ يتحول فجأة ، فإذا هؤلاء الذين ذهب سادتهم وكبرائهم ينادون عن الخلافة ، وينتقلون إلى

(١) الحريمة : إقليم الشراة : جنوبي فلسطين ، بالقرب من العقبة .

مرحلة أخرى من التعذيب والظلم ، بل إلى شر منها ، يقول فيها « أبو عطاء »
أفلح بن يسار :

يَا لَيْتَ جَوْرَ بَنِي مَرْوَانَ عَادَ لَنَا
يَا لَيْتَ ظَلَمَ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي النَّارِ^(١)

نعم ، فإذا التاريخ يتحول فجأة ، وإذا نحن أمام دولة عباسية لاعلوية ، وخليفة
من أبناء العباس هو عبد الله « السفاح » بن محمد بن عبد الله بن عباس عم النبي
صلى الله عليه وسلم .

فكيف تحول التاريخ ؟ ؟ ...

وكيف آل الأمر إلى بني العباس ؟ ؟ ...

مرحلة شائكة ، تهمننا في موضوعنا السياسي ، لأنها كما يقولون : نهاية حزب
شيعي هو « الحزب الكيساني » .

الدولة العباسية ميراث الكيسانية :

قالوا : لما مات محمد بن الحنفية سنة إحدى وثمانين بالطائف ... بايع
الكيسانية ابنه أبا هاشم — عبد الله بن محمد — وكان سيداً نبيلاً ذكياً داهية ،
يحسن جمع القلوب حوله ؛ فخشيه سليمان بن عبد الملك — الخليفة الأموي (٩٦ —
٩٩ هـ) ؛ فعمل على الخلاص منه . مخافة أن يدعو لنفسه . فيجد له من
هذه الخلافة نصيراً ... فاستدعاه سنة ست وتسعين من الهجرة ؛ وأكرم

(١) الأعاني ج ١٦ ص ٧٨ « وأبو عطاء » من مخزومي الدولتين الأموية
والعباسية كانت به لكمة ؛ فاتخذ له مولاه « عطاء » منشداً وراوية لشعره وتكفي به

وفادته ، ثم دس له من قعد على طريق الحميمة بلبن مسموم وتلطف حتى سقاه ، فلما أحس أبو هاشم بالسّم عرج على ابن عمه « علي بن عبد الله بن عباس » بالحميمة - فمّرضه حتى مات .

قالوا : فأوصى أبو هاشم بالأمر بعده لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس - وكان صغيراً - وسلم وصاته ، وكتبه إلى دعائه - من الكيسانيين - لوالده علي ابن عبد الله ، ولقنه أسرار الدعوة ، وأمره أن ينهض بها « محمد » في تمام المائة الأولى للهجرة ، فبذلك أخبره والده محمد بن الحنفية وأمره .

ومن هنا انتقل الأمر إلى العباسيين ، وانماح الحزب الكيساني في البيت العباسي ، فأطلق المحدثون على الدولة العباسية « ميراث الكيسانية »^(١) .

فإذا أنت سألت : ما الذي حدا بأبي هاشم أن يحول الخلافة إلى بني عمه ويترك بني أبيه من العلويين مع كثرتهم ، وعلو شأنهم ! ؟ لم تجد من التاريخ جواباً .

على أن هناك هاشمياً آخر ادعى وصاة أبي هاشم له . . فعبد الله بن معاوية ابن جعفر بن أبي طالب زعم لنفسه هذه الدعوى ، وخرج بالكوفة ،

(١) يكاد المؤرخون يجمعون على هذه الوصاية . فأنت تراها في الطبرى ، وابن الأثير ، والفرى ، والمعاف ، وشرح النهج لابن أبي الحديد ، ومروج الذهب ، وابن خلدون ، وقرق الشيعة . على أن الدينورى يروى فى الأخبار الطوال ص ٣١٨ أن جماعة الشيعة ذهبوا إلى محمد بن على وأرادوه على البيعة فبايعهم .

فتكون حوله « فرقة الحارثية »^(١) ، كما ادعاها جماعة لعلى بن محمد بن الحنفية^(٢) .

فلن يا ترى أوصى أبو هاشم ! ؟

محمد بن علي :

ومهما يكن من شيء فقد قام « محمد » بالدعوة على رأس المائة الأولى من الهجرة . . وبث دعائه فشمروا عن ساعد الجذ - متظاهرين بالتجارة^(٣) - ووفق فاختار خراسان قاعدة دعوته ، وحفظه الله من غدر الكوفة ومكرها .

وقد سجل له التاريخ كتابا يدل على ما اجتمع لهذا الزعيم من علم بأحوال الناس في عصره ، وبصر بأخلاق الشعوب ، وجولات النفوس ، استمع إليه يقول لدعائه :

« أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية ، تدين بالكف ، وأما الجزيرة فخرورية مارقة ، وأعراب أعلاج ، ومسلمون في أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية ، وبني أمية ، وعداوة راسخة ، وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر .

ولكن عليكم بخراسان ، فإن فيها العدد الكثير ، والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تنقسمها الأهواء ، ولم تتنازعها النحل^(٤) » .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١

(١) فرق الشيعة ص ٣٢

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٤١

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٤ وأحسن التقاسيم ج ٣ ص ٣٩٢ .

وانظر كتب التاريخ الأخرى .

وكانوا يدعون للرضا من آل البيت ، فلم يصرحوا بإمام بعينه ، لينتفعوا بشعور الشيعة وبني هاشم جميعاً ، وليخفوا أمر الإمام عن بني أمية .

وفي سنة خمس وعشرين ومائة ، توفي « محمد » بعد أن قطعت الدعوة العباسية أشواطاً في سبيل النجاح ، خلفه ابنه « إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس » فانقل إلى دور العمل . . . وتسلم « أبو مسلم الخراساني »^(١) مقاليد الدعوة ، فأعمل الحيلة ، واستخدم العصبية بين « اليمنية والزارية » .

وعلم « مروان بن محمد » الخليفة الأموي ، فقبض على « إبراهيم » وسجنه وقتله ، في وقت كانت الدولة الأموية تحتضر ، فأجهز العباسيون عليها سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ورفرف العلم الأسود - وهو شعار العباسيين - على حصون دمشق ، وأظهر أبو العباس نفسه أميراً المؤمنين سنة ١٣٢ هـ ، فبدأ بذلك عهد جديد وتاريخ جديد ، ونزاع شيعي جديد .

العلويون والعباسيون :

كان النزاع الأول بين الهاشمين والأمويين ، وكان قرب الأولين من الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجذب الناس فيهم ، ويجذب العاطفة نحوهم ، فقالوا واستمع الناس . . . أما الصراع اليوم فبين الهاشمين أنفسهم ، بين

(١) أبو مسلم الخراساني فارسي اختاره إبراهيم بن محمد قائداً لدعوته وممثلاً شخصياً له فاستطاع بدهائه وذكائه أن يقضى على الدولة الأموية ويسلم الأمر لابن العباس السفاح أول خليفة عباسي وقد حفظ له السفاح ذلك فلما أخذته العزة وجمع حوله شيعة قتله المنصور خوفاً على ملكه .

حفدة الرسول وأبناء عم الرسول . . . وليس لأحدهما فضل على الآخر ، فكل منهما يُدِلُّ بالقرابة ، ويقتسم الحجة .

كان أكبر حجة للعلويين أنهم أوصياء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبنائوه ، فهم أحق الناس بميراثه ، فجاء العباسيون ينازعونهم هذه الحجج ، وتولى ذلك « أبو جعفر المنصور » ، الخليفة العباسي الثاني . . فهم - فضلا عن وصاية أبي هشام - أقرب الناس إلى الرسول ، وأحق بميراثه ، فقد توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عاصب له إلا العباس ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة الأولياء ، فالبنت لا تحوز المال ، ولا يجوز أن تؤم ، فلا تورث الإمامة من قبلها . وعلى ليس له في الأمر شيء . ولا في ميراث النبي قليل ولا كثير^(١) . فنحن ورثناه دون عبد المطلب على أنه قد حضرت رسول الله الوفاة فأمر بالصلاة غير علي . وطلب الإمامة فقدم الناس غيره . حتى إذا صارت إليه حكم فلوثة الحكمان . والحسن باعها لمعاوية بخرق ودراهم . والعسین أسلمه شيعته . فإن كان لكم فيها حق فقد بعتموه . . .

أما الوصاية فقد أوصى النبي لنا ، وبشر بدولتنا ؛ فقال للعباس : « إنها تكون في ولدك » .

وحين أتاه بابنه عبد الله ، أذن في أذنه ، وتقل في فيه ؛ وقال :

(١) كان من أثر ذلك أن تأثر نظام التوريث عند الشيعة ، فعندهم تقدم القرابة ، وتحوز البنت كل المال ، وللعاصب التراب ، وابن العم الشقيق مقدم على العم ، والأنبياء تورث ؛ كل ذلك ليثبت حق علي وفاطمة في الخلافة .

والشيعة فقه يخالف الفقه السني ، يقوم على التفسير الشيعي للقرآن ، والحديث الذي رواه شيعي ، وقول الأئمة ، وإنكار الإجماع والرأى .

« اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل » ، ثم دفعه إلى أبيه ؛ وقال : « خذ إليك أبا الأملاك »^(١) ، ففحن بنو الأوصياء ، والأئمة من بعد النبي ، فالخلافة خلافتنا وميراث النبي لنا .

وهكذا أخذ الهاشميون يتقاسمون الحجاج ، كلما أدلى العلويون بحجة قابلهم العباسيون بمثلها ، وكان هذا النزاع سبباً في انقسام الناس إلى علويين وعباسيين ، وانحاز الأدباء أيضاً إلى فريقين : علويين وعباسيين ، وظهر للعباسيين فرق دينية وسياسية ، تناوئ الفرق العلوية ، منها المعتدل ، ومنها المسرف المتغفل في سخف العقائد « كالراوندية » مثلاً .

وبهذا الوضع أصبحت حجة العلويين على العباسيين أضعف من حججهم على الأمويين ، لاشتراك الجميع في الهاشمية ، والقربى من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وانحصار النزاع في أيهما أقرب ، فيكون أحق بميراث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأولى بالإمامة .

النفس الزكية والمنصور :

على أنه قد تم الأمر للعباسيين فأبادوا الأمويين ، وكالوا لهم بالصاع أصوعا ، وتربعوا في دست الخلافة . . . ففضب العلويون ، وسكتوا يتحينون الفرص لاستئناف الثورة ، وكان أبرز رجالاتهم سيدان يقيمان بالمدينة ، هما : النفس الزكية : — محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب

وأخوه « إبراهيم » ، فالتف العلويون - الإمامية ، والزيدية . وشاركهم المعتزلة - حول « النفس الزكية » ، وأرادوه على الخروج والدولة في نشأتها . . . وكتب إليه « ابن هبيرة » ببيعته ونصره^(١) . . . وعلم « السفاح » ذلك فقتل « ابن هبيرة » ، وصانع « النفس الزكية » مستعيناً عليه بأبيه عبد الله وعمه جعفر الصادق ، علماً منه أن الإساءة لهؤلاء - والدولة ناشئة ، وقلوب القوم معهم - ليس من مصلحة الخلافة .

وفي عهد المنصور سنة ١٤٥ هـ بدأ محمد - النفس الزكية - بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي يتحرك بالمدينة ، وبايعه أشرف بن هاشم ، وتبعه أعيان المدينة ، وزكاه الإمام مالك ، فاستولى على المدينة من عامل المنصور ، وبعث أخاه إبراهيم إلى البصرة . . ثم أخذ هو والمنصور يتسكبان يعرض كل منهما الأمان لصاحبه ، ويدعوه للدخول في طاعته محتجاً لنفسه باستحقاق الإمامة . . .

ثم تدخل السيف إذ لم يفلح القلم ، فأرسل إليه المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى في جيش كثيف ، فقتل محمد بالقرب من المدينة^(٢) وحمل رأسه إلى المنصور .

قتيل باخري إبراهيم بن عبد الله والمنصور :

ثم خرج إبراهيم ، فأظهر دعوته بالبصرة ، فكثر أنصاره ، وانضوت تحت لوائه شيعة أخيه ، وكان الامام أبو حنيفة يعاونه سراً ، فعمت دعوته ، « واسط والأهواز وفارس » ، وعظم أمره على المنصور ، فاشتغل به عن كل

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ٣٣٨ . وابن هبيرة هو :

(٢) ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ

شيء . . ثم كان له مع « عيسى بن موسى » موقعة في « باخرى »^(١) قتل فيها إبراهيم فلعب بقتيل « باخرى » .

ومثل العباسيون بالعلويين أشنع تمثيل ، فمن بقي منهم حبسهم المنصور في سرداب على شاطئ الفرات (بالقرب من الكوفة) لا يصل إليه ضوء ، ولا هواء حتى ماتوا ، وامتلأ قلبه حقداً وغيظاً على هؤلاء الطالبين . .

تجد ذلك واضحاً في خطبته في أهل خراسان التي عرض فيها لتاريخ العلويين ، فصوره كما يراه ، واقتصر ما فعله الأمويون بأبناء علي ، فقام العباسيون يناصرونهم واحتملوا الضيم والشريد في سبيلهم ، حتى بعث الله إليهم شيعتهم من أهل خراسان ، فأظهروا حقهم ، وأصاروا إليهم ميراثهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يلبث أن وثب العلويون عليهم ظمأ وحسداً ثم تمثل :

جَهْلًا عَلَى وَجْبِنَا عَنْ عَدُوِّهِمْ كَيْبُتِ الْخِلَتَانِ الْجَهْلُ وَالْجُبْنُ^(٢)

. . . .

موقعة فخ - « الحسين بن علي بن حسن ، والهادي :

وتوالى النزاع بين فرعي الهاشميين ، كلما قام خليفة عباسي قام داع علوي يدعو لنفسه ، ثم يقتال فيقتل ، أو يعرف أمره قبل الخروج ، فيحبس أو يسم .

ففي عهد الهادي خرج الحسين بن علي بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة ، وسار إلى مكة ، فقابله جيش الهادي « بفخ »^(٣) فحمل

(١) بين الكوفة وواسط .

(٢) طبري ج ٩ ص ٣١٣ ، وانظر مقاتل الطالبين .

(٣) فبقى قتلاهم ثلاثة أيام حتى أكلتهم السباع (معجم البلدان ج ٦ ص ٣٤١)

وفخ : واد بمكة .

رأسه إلى الهادى فى موقعة قيل فيها : « لم تكن مصيبة بعد « كربلاء » . أشد وأجمع من فح « وذلك سنة تسع وستين ومائة ؛ وفيها يقول الشاعر :

فَلَا بُكَيْنَ عَلَى الْحُسَيْنِ بِمَوَلَةٍ وَطَى الْحَسَنَ
وَعَلَى ابْنِ عَائِشَةَ الَّذِي وَارَوْهُ لَيْسَ بِذِي كَفَنٍ
تُرْكُوا بِفَحٍّ غُدُوَّةً فِي غَيْرِ مَنْزِلَةِ الْوَطَنِ
كَانُوا كِرَامًا قُتِلُوا لَا طَائِشِينَ وَلَا جُبْنَ
غَسَلُوا الْمَذَلَّةَ عَنْهُمْ غَسَلَ الثَّيَابِ مِنَ الدَّرَنِ
هُدَى الْعِبَادُ بِحَدِّهِمْ قَلَمُهُمْ عَلَى النَّاسِ الْمِنَنِ

* * *

يحيى بن عبد الله أخو النفس الزكية :

وفى عهد الرشيد ، خرج يحيى بن عبد الله - أخو النفس الزكية - فأقلق باله ، وأقضى مضجعه ، فأرسل إليه « الفضل البرمكى » فأعمل الحيلة حتى أراضاه وأجابه إلى الصلح ، على أن يكتب الرشيد أمانه بخطه ، ففعل الرشيد ، وأشهد على ذلك الفقهاء ، والقضاة ، وجلة بنى هاشم ، ومشايخهم ، ثم قدم يحيى مع الفضل ؛ فقبض عليه الرشيد وسجنه ، ثم دس له من سمه ^(١) .

* * *

وتتبع الطالبين بالاذاب والتنكيل ، وفى ذلك يقول على بن عبيد الله بن محمد بن عمر بن أبى طالب :

(١) طبرى ج ١٠ ص ٥٤ ، حوادث سنة ١٧٦ ، ومقاتل الطالبين ص ٣٠٨

كُلَّمَا قُلْنَا : أَتَيْنَا دَوْلَةً أَذْهَبَتْ عُسْرًا وَجَاءَتْ يُسْرًا
عَظَفَ الْخَوَفُ عَلَيْنَا وَالرَّدَى وَصَفَاءُ الدَّخْرِ رَهْنٌ بِالْكَدَرِ
صَارَ وَاللَّهِ عَلَيْنَا مَا لَنَا إِنَّ هَذَا كِبَالَةٌ مُسْتَعِيرِ
نَزَغَ الشَّيْطَانُ فِيمَا بَيْنَنَا فَأَتَانَا مِنْ جِهَاتِ الْخَيْرِ شَرٌّ^(١)

وفي عهده هرب إدريس بن عبد الله إلى الطرف الشمالى الغربى من إفريقية
فأسس دولة الأدارسة ، وضاعت هذه البلاد من يد العباسيين .

محمد بن إبراهيم والأمين ثم المأمون :

فلما ولى الأمين سنة ثلاث وتسعين ومائة ، كانت سيرته خلاف من تقدم
لتشاغله بما كان فيه من اللهو والإدمان ، ثم بالحروب التى كانت بينه وبين أخيه
المأمون^(٢) ، فاستغل محمد بن إبراهيم - من نسل الحسين - هذا النزاع القائم فخرج
بالكوفة سنة تسع وتسعين ومائة ، وولى إمارة جيشه « لأبى السرايا بن منصور
الشبائى » فعظم أمر « أبى السرايا^(٣) » ، وضرب النقود باسمه ، فلم يستطع المأمون
إخماد هذه الفتنة إلا ببذل دماء كثيرة على يد « هرثمة بن أعين^(٤) » .

المأمون يوصى بالخلافة لعلى الرضا الإمام الثامن الإمامية :

كل هذه الأحداث جعلت المأمون يفكر فى حال الخلافة بعده ، فاستعرض

(١) معجم الشعراء ص ٢٨٤ . (٢) مقاتل الطالبين ص ٣٣٦ .

(٣) أبو السرايا : نائر عصامى شجاع انحاز لجانب المأمون فى فتنته مع الأمين ،
ولما قتل الأمين نقصت أرزاقه فخرج فى فرسانه واستولى على الأنبار والرقعة ونوى
به أميراً فترة غير قصيرة .

(٤) طبرى ج ١٠ ص ٢٢٧ وهرثمة : قائد شجاع له عناية بالمران استعمله الرشيد
على مصر وأفريقية ثم على خراسان ، وانحاز إلى جانب المأمون حتى انتظمت له الدولة ،
ثم قم عليه أمرا فحبسه ، وقيل إن الفضل بن سهل وزير المأمون دس عليه من قتله فى حبسه .

أهل البيتين ، فلم ير أصلح لهذا الأمر من أبي الحسن على « الرضا » بن موسى « الكاظم » بن جعفر « الصادق » ، الإمام الثامن للإمامية « الإثنا عشرية » فعهد إليه سنة إحدى ومائتين^(١) وزوجه ابنته ، وكتب العهد بيده وأخذ البيعة له بخراسان ، واتخذ شعار العلويين - وهو اللباس الأخضر - شعاراً رسمياً للدولة ، فكان لهذا أثر كبير في نهوض الشيعة ، واجتماع كلمتهم .

لكن هذا الخبر ما كاد يصل إلى بغداد ، حتى غضب العباسيون ، وخلصوا المأمون ، وبايعوا عمه « إبراهيم بن المهدي » ، وشاء القدر أن يموت على « الرضا » في حياة المأمون^(٢) ، فاضطر أمير المؤمنين أن يرجع إلى الشعار الأسود العباسي ... وماتت الفكرة !!

وهكذا كانت ساحة البلاد :

فأنت ترى أن ساحة البلاد الإسلامية ، كانت مجالاً للدسائس ، والفتن والحروب المستمرة طيلة هذه الفترة الشيعية .

وأنت ترى كذلك أنه كان :

لِكُلِّ أَوَانٍ لِلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ قَتِيلٌ ذِكْرٌ بِالدِّمَاءِ مُضَرَّجٌ

كل هذا أثر من آثار شهوة الحكم ، ولم نذكر لك ما فعله الأمويون ، ثم العباسيون بمن تشيع من عامة الناس ، وإن شئت فاقرأ رسالة الخوارزمي لترى أنك مهما بالغت في عظم ما أنفق المسلمون من الرؤوس والأموال فلست ببالغ قدره ، حتى قال الجاحظ : ولم يظهر في عدد القتلى مثل الذي ظهر في آل

(١) طبري ج ١٠ ص ٢٤٣ .

(٢) فلما مات على الرضا انهم المأمون بسمه رغم جزعه عليه .

أبي طالب وآل الزبير ، وآل المهلب^(١) ، وحتى ألف أبو الفرج الأصفهاني كتاباً سماه « مقاتل الطالبين » .

وإذا نحن لم نستطع أن نحكم بين الأمويين والهاشميين أيهما الحق ، فوقفنا هنا أدق وأعمق ، فعلينا أن نأخذ عدتنا لبحث آخر نصور فيه إجمالاً بقية الأحزاب السياسية التي نشأت في هذا العصر ، فوجهت تاريخ الناس وحياتهم ، كما وجهت آدابهم وعقائدهم وجهة شغلت المشرع ، والسياسي والأديب ، وتركت العالم العربي كما يصوره الشاعر :

لَا شَيْءَ لِلْقَوْمِ سِوَى السَّهَامِ مَشْحُودَةً فِي غَلَسِ الظَّلَامِ

...

وقد استطعنا في التاريخ السياسي للشيعه . أن نلم بموقف الحزب الأموي ونضاله ، فلم يبق من هذه الأحزاب المهمة إلا حزبان ، هما : « الخوارج » ، و « الزبيريون » ، وذلك موضوع بحثنا في الفصل الثاني .

الفصل الثاني

الأحزاب الأخرى المناوئة للشيعة

(١) الخوارج :

نشأتهم — الرأى الخارجية — فرقهم وتعاليمهم — الخوارج والخلافة .

نشأة الخوارج :

انتهت وقعة صفين بالتحكيم بين على ومعاوية ؛ فشهدت الجزيرة حزباً ثالثاً له خطره وشأنه . . . نشأت فكرته من جيش على . وكون رأيه حول التحكيم . رأى — كما قلنا — أن حكم الله فى الأمر واضح جلى . وقد حاربوا القوم وهم على بينة من عدالة قضيتهم ، وضلال عدوهم ، فليس التحكيم بعد إلا ادهاناً فى دين الله ، وجنوحاً عن سبيل الله ، وكفراً يجب الرجوع عنه ، والتوبة إلى الله منه . . كل هذه المعانى صاغها « عروة بن أدية » فى : « لا حكم إلا لله » فما إن نطق بها حتى تجاوبتها أنحاء جيش على ، ورددها كل من يدين بهذا الرأى فأصبحت « لا حكم إلا لله » شعار هذه الفرقة الجديدة . . « فرقة الخوارج » .

رجع جند على من « صفين » وقد فشا فيهم التحكيم ، يتشائمون الطريق كله ، ويتضاربون ، حتى إذا أتى العراقيون الكوفة ، توجه الخوارج إلى « حروراء »^(١)

(١) قرية بظاهر الكوفة ، والنسبة إليها حرورى . « معجم البلدان » . وانظر القاموس المحيط ، ولسان العرب فى مادة (حرر) .

فأجمعوا أمرهم على أن يكون « شبت بن ربيع التميمي » أميراً للقتال ، و « عبد الله بن الكواء الشكري » أميراً للصلاة ، والأمر شورى بعد الفتوح .

وبذلك أصبحنا أمام ثلاث فرق سياسية : « هاشميين » مع علي و « وأمويين » مع معاوية و « خوارج » تكفر هؤلاء وأولئك .

وقد حاول علي رضي الله عنه أن يرجع القوم إلى حوزته ، وأبى الخوارج إلا أن يؤمن « علي » بفكرتهم ، فينقض ما أبرم ، ويقر بالخطيئة ، وينهض لحرب معاوية . . .

وهيهات . . . هيهات أن ينقض علي عهداً أبرمه ، والدين يأمر بالوفاء بالعهود ، وأن يقر علي نفسه بالكفر ، وما أشرك بالله مذآمن . . .

فتخرج المواقف ، وازدادت الخوارج غلواً ، وعم أذاهم ، فذهبوا يقتلون كل من لم يشاطرهم رأيهم من تكفير « علي » و « معاوية » ، ومن قبل التحكيم ، وزادهم شوكة إخفاق الحكمين في مهمتهما ، وإيمان كثير بفكرتهم ، وعطفهم عليهم ، فاضطر أمير المؤمنين أن يحسم الداء بالكى ، فأوقع بهم في « النهروان »^(١) وقعة كادت تبيدهم ، ولكنها لم تبسد فكرتهم ، بل زادت — اشتعالا ، وملأت قلوبهم حقداً ، فدبروا قتله . وتولى كبير ذلك « عبد الرحمن بن ملجم المرادي — كما سبق — .

واعتبر « الخوارج قتل « ابن ملجم » لعلي رضي الله عنه أكبر ما تقرب به العبد إلى ربه .

(١) النهروان : مدينة تقع بين واسط وبغداد

يقول « عمران بن حطان السدوسي »^(١) شاعر الشراة .

« يَا ضَرْبَةً مِنْ كَرِيمٍ مَا أَرَادَ بِهَا
إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانًا
إِنِّي لَأَفْكَرُ فِيهِ ، ثُمَّ أَحْسِبُهُ

أَوْفَى الْبَرِّيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانًا
لِلَّهِ دَرُّ الْمُرَادِي الَّذِي سَفَكَتْ
كِفَاهُ مُهْجَةً شَرُّ الْخَلْقِ إِنْسَانًا
أَمْسَى عَشِيَّةً غَشَّاهُ بَضْرَبَتِهِ مِمَّا جَنَّاهُ مِنَ الْآثَامِ عُرْيَانًا »

وتقول « ابن أبي مياس المرادي » يفتخر :

« وَنَحْنُ ضَرْبَنَا — يَا لَكَ الْخَيْرُ — حَيْدَرًا

أَبَا حَسَنٍ — مَأْمُونَةً فَتَقَطَّرَا

وَنَحْنُ خُلَعْنَا مُلْكُهُ عَنَّا نِظَامِهِ
بَضْرَبَةٍ سَيْفٍ ، إِذَا عَلَا وَتَجَبَّرَا
وَنَحْنُ كِرَامٌ فِي الصَّبَاحِ أَعَزَّةٌ
إِذَا الْمَوْتُ بِالْمَوْتِ ارْتَدَّى وَتَأَزَّرَا^(٢) »

الخوارج وبنو أمية :

قتل « علي » ، وانهى الأمر إلى « بنى أمية » ، فاتصلت الحروب بينهم
وبين « الخوارج » ، ووقف كل فريق من صاحبه موقفًا لا رحمة فيه ،
ولا شفقة ، ولا هوادة .

(١) رأس القعدة من الصفرية وخطيبهم وشاعرهم ترجم له في الأغاني ج ١٦

ص ١٥٢ ، وخزانة الأدب ج ٢ ص ٤٣٦ .

(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ١٧١ ، وانظر مقاتل الطالبين ، والعقد الفريد .

نظر الخوارج إلى بنى أمية نظرة المسلمين إلى المشركين ، في الوقت الذى يرى فيه بنو أمية أنهم المسلمون وحدهم . وأن القضاء على الخوارج أمر يدعو إليه الدين ، وعلى ضوء هذه النظرات كان كل فريق يحارب صاحبه .

...

وقد أبلى الخوارج في هذه الحروب بلاء منقطع النظير ، حتى ضرب بشجاعتهم انبل ، فقيل : « أفتك من حرورى » ، ويقول ابن عبد ربه : « وليس في الفرق كلهم أشد بصائر من الخوارج ، ولا أشد اجتهاداً ، ولا أوطن نفساً على الموت منهم الذى طعن بالرمح فأنفذه الرمح ، فجعل يسعى إلى قاتله ويقول : (وعجلتُ إليك ربُّ لترضى) »^(١) .

وأرسل « ابن زياد » « أسلم بن زرعة » فى ألفين لمحاربة الخوارج ، فهزمه « أبو بلال مرداس بن أدية » الخارجى « بآسك »^(٢) فى أربعين من صحابته ، فقال شاعرهم :

أَلْفًا مُؤْمِنٌ - فِيمَا زَعَمْتُمْ - وَيَقْتُلُهُمْ - بَاسَكٌ - أَرْبَعُونَ
كَذَبْتُمْ ، لَيْسَ ذَاكَ كَمَا زَعَمْتُمْ وَلَكِنَّ الْخَوَارِجَ مُؤْمِنُونَ
هِيَ الْفِئَةُ الْقَلِيلَةُ قَدْ عَلِمْتُمْ عَلَى الْفِتَّةِ الْكَثِيرَةِ يُنْصَرُّونَا^(٣)

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٠ .

(٢) آسك - بفتح السين - بلدة من نواحي الأهواز .

(٣) طبرى ج ٦ ص ٧٥ ، والكامل للبردج ج ٧ ص ١٩٢ . والشعر لعيسى بن

هاتك الخطى ، أحد بنى تميم الله بن ثعلبة .

المرأة الخارجية :

وفي هذه الحروب اشتركت نساء الخوارج مع رجالهم ، واشتهر منهن « أم حكيم » في جيش « قطرى بن الفجاءة » ، كانت تحارب وهي تقول :

أَحْمِلُ رَأْسًا قَدْ سَنِمْتُ حَمْلَهُ
وَقَدْ مَلَأْتُ دَهْنَهُ وَغَسَلَهُ
أَلَا فَيَ يَحْمِلُ عَنِّي ثِقْلَهُ

و « غزالة » التي آلت أن تصلى في مسجد الكوفة ، فخارت الحجاج بن يوسف مع زوجها « شبيب بن يزيد الشيباني » حتى اعتصم الحجاج بقصر الإمارة ، وبرئت غزالة بقسمها .

يقول « عمران بن حطان » وقد طلبه الحجاج :

أَسَدٌ عَلَى وَفَى الْحُرُوبِ نِعْمَاءَةٌ فَتَحَاهُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعَى بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ
صَدَعَتْ غَزَالَةٌ جَمْعُهُ بِمَسَاكِرٍ تَرَكْتَ كَتَائِبَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

قالوا : « قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك ، وعليه درع وعمامة سوداء ، وقوس عربية ، وكنانة . فبعثت إليه « أم البنين » — زوجه — من هذا الأعرابي المستلم في السلاح عندك ، وأنت في غلالة ؟ ^(١) فبعثت إليها : هذا الحجاج بن يوسف . فأعادت تقول : والله لأن يخلو بك ملك الموت أحب إلي .

(١) الغلالة : الثوب الرقيق .

من أن يخلو بك الحجاج . فأخبره الوليد بذلك وهو يمازحه ، فقال : يا أمير المؤمنين
دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ؛
فلا تطل بها على شرك ، ومكايدة عدوك .

فلما قام أخبرها الوليد بما قال ، فقالت : حاجتي أن تأمره غداً يأتيني مسلماً ،
فأتاها الحجاج ، فحجبتة ، فلم يزل قائماً ، ثم أذنت له ، وقالت : إياه يا حجاج ،
أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك « عبد الله بن الزبير » و « ابن الأشعث » ؟
أما - والله - لولا أن الله يعلم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك برمي « الكعبة » ،
وقتل ابن « ذات النطاقين » ^(١) أول مولود في الإسلام .

وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء ، وبلوغ أوطاره منهن ، فإن
كن ينفرجن عن مثلك فما أحقه بالأخذ عنك ، وإن كن ينفرجن عن مثله فغير
قابل لقولك .

أما - والله - لقد نفّض نساء أمير المؤمنين الطيب عن غداثرهن ، فبعثته في
أعطية أهل الشام ، حين كنت في أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم وأنجأك
كناحهم ؛ وحين كان أمير المؤمنين أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم ، فما نجاك الله
من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه ، والله در القائل ، إذ نظر إليك وسنان غزالة
بين كتفيك :

أَسَدٌ عَلَىٰ وَفَى الْحُرُوبِ نِعَامَةٌ فِتْنَاءٌ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

(١) ذات النطاقين : أسماء بنت أبي بكر الصديق - زوج الزبير بن العوام -
شقت نطاقها ليلة الهجرة وربطت به جراب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وصاحبه - أبي بكر - فبشرها رسول الله بأن الله قد أبدلها نطاقين في الجنة ،
ولقبها بذلك .

هَلَا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعْيِ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ
صَدَعَتْ غُرَاةُ جَمْعِهِ بَعَسًا كَرِيًّا تَرَكْتُ كِتَابَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ
أَخْرَجَ؛ فُخْرِجَ»^(١).

وقد كان عهد «عبد الملك بن مروان» عهد الحروب الطاحنة ،
والمعارك العنيفة ، بين هذه الأحزاب السياسية ، وعلى يد «الحجاج بن
يوسف الثقفي» استطاع أن يتخلص من ابن الزبير وحزبه ، ثم رمى به
الكوفة ، وأمره بقتال الخوارج ، فرماهم هذا «بالمهلب بن أبي صفرة
الأزدى» ، فاعمل الخيلة والسيف ، واستخدم ما ابتلوا به من الانقسام
لأتفه الأسباب حتى قضى عليهم .

فرق الخوارج :

وكما كان الانقسام سبباً في القضاء عليهم ، كذلك كان سبباً في تشعب
آرائهم ، حتى غدا الباحث لا يستطيع أن يجمعهم تحت فكرة واحدة ،
وعقيدة متفقة^(٢).

فَأَزَارِقَةُ : تكفر المسلمين جميعاً ، وتحرم ذبائهم ، والتزوج فيهم ، والتوارث
بين الخارجى وغيره ، كما تكفر مرتكب الكبيرة .

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٥٠ ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٠ ، وشرح
النهج لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٤٧ ، وعيون الأخبار في الجبناء .

(٢) تناول «الشهرستاني» في كتابه : «الملل والنحل» فرق الخوارج
وتعاليم كل فرقة ، وقد اشتمل على بضع وعشرين فرقة ، ج ١ ص ١٩٥ - ٢٥٦ .

وإِبَاضِيَّةٌ : تخالفهم في كل ذلك ، وتنظر إلى المسلمين نظرة المسالمة .
وتجَدَّات : لها في التشريع رأى خاص ، ترى أن الدين معرفة الله ورسوله
وماعدا ذلك فالناس معذورون في جهله ومن أداه اجتهداه إلى تحليل
حرام ، أو تحريم حلال فهو معذور ، والكذب أشد جرمًا من
الزنى وشرب الخمر .
وَصُفْرِيَّةٌ : لها رأيها كذلك .

وهكذا كان « الصلتان العبدى » شاعر بنى أمية أصدق ما يكون حين يقول :
« أَرَى أُمَّةً شَهَرَتْ سَيِّئَةً وَقَدْ زِيدَ فِي سَوْطِهَا الْأَصْبَحِي
بَعَجْجِدِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وَأَزْرَقَ يَدُوُّ إِلَى أَزْرَقِي
فَمِلَّتُنَا أَنْتَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى دِينِ صِدِّيقِنَا وَالنَّبِيِّ »^(١)

الخوارج والخلافة :

أبرز فكرة عند هؤلاء رأيهم في الخلافة ، فقد رأوا أن الخلافة - إن كان
لابد للمسلمين من خليفة - يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين .
وأصلح الناس أولاهم للناس ، فليس بلازم أن يكون علويًا ، ولا قرشيًا
ولا عربيًا . ففي الحديث « اسمعوا وأطيعوا ولو وُلِّيَ عليكم عبد حبشيَّ كان
رأسه زينة » وهذا عمر يقول - وقد سئل يوم طعن أن يعهد لأحد بالأمر -
« لو كان سالم مولى أبي حذيفة حيًّا لوليت^(٢) » .

(١) الكامل للمبرد ج ٧ ص ١٠٢ ، وابن أبي الحديد ج ٤ ص ٣٨٠ - وسوط
أصبحى نسبة إلى ذى أصبح من ملوك حمير وهو أول من اتخذها أداة للعقاب .
(٢) طبرى ج ٥ ص ٣٤ وابن الأثير ج ٣ ص ٢٧ .

وأما الحديث « الأئمة من قریش » فغير متواتر ، ولذا اختلف فيه الأنصار .
 حتى قال بعضهم : إن غير العربى أحق - إن تكافأ العربى وغيره - ليسهل
 عزله إن جار ، ثم الخليفة إذا اختير لا يصح له أن يتنازل أو يحكم .
 فهم بهذا يخالفون جمهور الشيعة القائلين : بحصر الخلافة فى آل البيت ،
 وأهل السنة : المشترطين قرشية الخليفة .

وعلى ضوء هذا حاربوا أعداءهم من : (أمويين ، وشيعة ، ثم عباسيين)
 لأنهم حكموا الناس بالسيف ، وجعلوها وراثه .

* * *

ولعلك معى فى أن رأى الخوارج فى الخلافة أصلح رأى لاختيار الزعيم الذى
 يحقق للناس سبل السعادة . . . هو رأى الإسلام والعقل ، لولا أن حمل لواءه
 قوم أسرفوا ؛ فضلوا ، وبالفوا فى تنفيذه وحمل الناس عليه فتخطوا فى عمياء
 مدلهمة أوردتهم أخبت مورد .

* * *

على أنك إذا تعديت هذه النظرية لتجمع عقائدهم تحت وحدة ، وجدت
 اختلافاً بين المؤرخين ، لعل أقربها ما يقوله أبو الحسن الأشعرى : « الذى يجمعها
 إكفار على ، وعثمان ، وأصحاب الجبل ، والحكمين ، ومن رضى بالتحكيم وصوب
 الحكمين ، ووجوب الخروج على السلطان الجائر »^(١) .

وقدم عروة بن أدية أسيراً إلى ابن زياد ، فسأله عن أبى بكر وعمر ، فقال
 فيها خيراً ، فسأله عن عثمان ، فقال : كنت أتولاه فى خلافته ست سنوات ، ثم
 تبرأت منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن على ، فقال : أتولاه إلى أن
 حكم ، ثم أتبرأ منه بعد ذلك ، وشهد عليه بالكفر ، فسأله عن معاوية فسبه سباً

(١) الفرق بين الفرق ص ٥٥ . والمثل والنحل ج ١ ص ١٩٨ .

قبيحاً ، فسأله عن نفسه ، فقال : إن أولك لربية ، وإن آخرك لدعوة ، وأنت فيما بينهما - بعد - عاصٍ لربك . . فأمر بضرب عنقه^(١) .

* * *

فأنت ترى : أن فكرة الخوارج قد بدأت حول الخلافة والخليفة . . . فإن توسعت في الحكم على الخلفاء حكماً فردياً ، ولسكنها لم تلبث - في عهد عبد الملك ابن مروان - أن شملت غير الخلافة من أسس الدين فتناولوا الإيمان ، فحدوه بالقول والعمل ، وبحثوا في أمر مرتكب الكبيرة وغيرها من أمور التشريع ، فتحكموا في عقائد الناس ، ودمائهم ، وأموالهم .

* * *

وقد نشأ هذا الحزب والإسلام في نشأته ، والناس قريبو عهد بالنبوة ، ودرج على بساط الجزيرة العربية - ولا تزال بقاياه إلى اليوم - فلم يلبث أن كوّن له رأياً خاصاً ، وأدباً خاصاً ، وحياة اجتماعية وتشريعية خاصة بهم ، تستمد أصولها من حرفية الكتاب والسنة ، فاعله الحزب الوحيد الذي كان أبعد ما يكون عن التطور الديني والعلمي والأدبي ، فظل إيمانه إيمان قلب لا إيمان علم ، وظلت حياته عربية خالصة ، تمثل باديتهم وعقيدتهم .

كما كان أهم ما يمتاز به التفرق حول الفكرة ، لا الأشخاص - شأن الشيعة - والقسوة في تنفيذ عقائده ، ومعاملته لخصومه ، وتعرضه لسفك الدماء ، حتى كرههم الناس ، فاستطاع المهلب بن أبي صفرة أن يحاربهم - كما قلنا - بقلوب العرب وسيوفهم ، وأن يوجه إليهم سيفاً فيه الحتف المبيد والموت الزؤام ، وأن يسلمهم إلى الدولة العباسية فلولاً تحتضر .

(١) اللال والنحل ج ١ ص ٢٠٥ وعروة بمن نجا من موقعة النهروان .

(ب) الزبير بونه^(١) :

نشأتهم — رأيهم في الخلافة

نشأتهم :

مما لا شك فيه أن هذا الحزب لم يظهر في الحياة السياسية حزباً منظماً إلا بعد قتل الحسين بن علي — رضى الله عنه — سنة إحدى وستين من الهجرة ، فما إن قتل الحسين حتى خلا الجو « لعبد الله بن الزبير » ، وغدا — كما يعتقد — أمثال أبناء الصحابة ، وأحقهم بهذا الأمر ؛ فدعا لنفسه ، متخذاً من حادثة « كربلاء » وقوداً يلهب به النفوس ، وينفرها من بنى أمية ، ويجمع الناس حوله .

وقد علمنا ما خلفته موقعة « كربلاء » من الأثر الدامى في نفوس المسلمين ، فاستخدم ابن الزبير هذه الأحاسيس للدعاية له ، متخذاً مكة حاضرة للمسكة ، إذ كان — ككل قرشى — يرى أن يرجع الأمر إلى الحجاز مقر السيادة العربية . . . فوجد الحزب « الزبيرى » .

وعلم « يزيد بن معاوية » — الخليفة الأموى — بدعوة « ابن الزبير » فانتدب لحربه « الحصين بن نمير » في جيش بلغ مكة في الحرم سنة أربع

(١) في العقد الفريد ج ٢ ص ١٦٠ « كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير — يوم الدار — على الدار فبذلك ادعى ابن الزبير الخلافة » لذلك يرى كثير من المؤرخين أن هذا الحزب كان نتيجة لرغبة قديمة في نفس عبد الله . عمل على تحقيقها في الجمل وصفيين وغيرها حتى تمت له بعد قتل الحسين سنة ٦١ هـ .

وستين من الهجرة ؛ فحاصر الكعبة ورمها بالمنجنيق ، وأوقد النار فيها ،
فأثار هذا العمل — بعد موقعة « كربلاء » — عواطف الناس ، وزادهم بغضاً
للخليفة الأموي .

وفي شهر ربيع الآخر مات يزيد ، فكان ذلك فاتحة خير لابن الزبير ،
وهزيمة للجيش الشامي ، إذ أصبح ابن الزبير خليفة مبايعاً له : في الحجاز ،
ومصر ، والعراق ، وجزء كبير من الشام ، مقر الخلافة الأموية .

وساعد على نشر دعوته ضعف البيت السفياي : فقد خلف يزيد ابنه معاوية ،
وكان شاباً ضعيفاً ، لا قبل له بالخلافة ، فنزل عنها ، وترك أمور الناس .
فانقسم البيت الأموي على نفسه ، ثم اجتمع ملوئهم على مروان بن الحكم ،
فبويج له بالشام في ذى القعدة سنة أربع وستين ، وانتقل الأمر إلى
البيت المرواني .

وهنا تنتقل السياسة العامة انتقالا سريعاً ، ويشتد النزاع بين الأحزاب
— الأمويين بالشام ، والشيعة بالكوفة ، والخوارج بالبصرة وفارس ، والزبيريين
بالحجاز — كل حزب يريد أن يتغلب على الآخر ، فيسوس الناس . وهنا كذلك
تلعب القدرة السياسية دورها الخطير ، فتوجه ابن الزبير إلى تشتيت جيشه
لحاربة هؤلاء وأولئك في وقت واحد ، بينما تلهم عبد الملك بن مروان — الخليفة
بعد أبيه — أن يظل قابلاً بالشام ينظر إلى خصومه يقضى بعضهم على بعض . . .
فهذا « مصعب بن الزبير » يسير بجيشه إلى الكوفة لحاربة « المختار بن أبي عبيد »
فيشتد في قتال الشيعة ، حتى يقضى على المختار سنة سبع وستين من الهجرة .
ويعيد الأمر لابن الزبير . . . وهذا « المهلب بن أبي صفرة الأزدي » يقود جيشاً
زبيرياً آخر لحاربة الخوارج فتفنى زهرة شبابه . . . فكان لهذا كله أثره الواضح
في إضعاف قوة ابن الزبير .

لذلك انتهز عبد الملك هذه الفرصة ، فخرج بنفسه لملاقاة مصعب . واستعمل الحيلة حتى استمال إليه قلوب قواد ابن الزبير . وأدخل الفتنة في صفوفهم والتقى الجيشان ، ففترق أنصار مصعب وأسلموه - شأن العراق إذ ذاك في كل حرب - فقتل مصعب ، ودخلت الكوفة في طاعة عبد الملك سنة إحدى وسبعين ، ولم يبق أمامه إلا صحارى الحجاز المقفرة يعتصم فيها « عبد الله بن الزبير » زاعماً أنه عائد بالبيت . فجهز إليه « عبد الملك » جيشاً كثيفاً بقيادة « الحجاج بن يوسف الثقفي » ف قضى على ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين وفعل بمكة الأفاعيل .

وبذلك سقط الحزب الزبيرى ، بعد أن بسط سلطانه على كثير من الولايات الإسلامية تسع سنين (٦٤ — ٧٣) وقضى على الحجاز أن يظل إقليماً تابعاً للخلافة ، تصدر إليه الولاة من دمشق ثم بغداد .

نعم سقط الحزب الزبيرى بعد أن خلف أثراً واضحاً في السياسة ، والحياة الأدبية ، وكان له - ككل حزب - السنة تدافع عنه ، ودعاة تحتج لنظريته . ويعتبر « عبد الله بن قيس الرقيات » شاعر الزبيريين النذ ، الذى دافع عنهم ، وأخلص في الولاء لهم ، وبكاء قتلاهم ، حتى بعد سقوط حزبهم ، واحتمل في سبيل ذلك آلاماً ثقالاً .

وبعد : فهناك أحزاب أخرى نشأت في هذا العصر ، كالرجئة ، والمعتزلة كان لها من غير شك رأى في الحياة السياسية ، وفكرة خاصة في سياسة الحكم ، ومن يسوسه ، لكنها لم تكن من الشيعة بحيث تتطلبنا دراسة خاصة . فلنتركها - لكتب العقائد - لنبحث في موضوع آخر ، هو العقائد الشيعية . وأثرها في الأدب العربى .

الفصل الثالث

العقائد الشيعية وأثرها في الأدب العربي

نشأة العقائد — مم نبع التشيع — المستشرقون ومبادئ الشيعة —
أهم العقائد الشيعية المؤثرة في الأدب .

(أ) الوصاية : كلمة عنها — موقف الفرق الشيعية منها — أثرها
في الأدب .

(ب) الرجعة : كلمة عنها — موقف الفرق الشيعية منها — غيبة
الإمام — لماذا تغيب الإمام .

(ج) المهديّة : أصلها — موقف الفرق الشيعية منها — الأثر
الأدبي لكل من المهديّة والرجعة .

كيف نشأت العقائد الشيعية :

يقول الطبري - عن السري - : « كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل
صنعاء - أمه سوداء - فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول
ضلاتهم ؛ فبدأ بالحجاز ، ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على
ما يريد عند أحد من أهل الشام ؛ فأخرجوه حتى أتى مصر فاعتمر فيهم ، فقال
لهم - فيما يقول - : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمداً يرجع ،
وقد قال الله عز وجل : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ؛ فمحمد
أحق بالرجوع من عيسى . . . قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة ،
فتكلموا فيها .

ثم قال بعد ذلك : إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي ، وكان « علي »
وصي « محمد » .

ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، وعلى خاتم الأوصياء ، فمن أظلم ممن لم يحز وصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ووثب على وصي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتناول أمر الأمة . .

إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانهضوا في هذا الأمر فحركوه ، وابدأوا بالظعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر^(١) .

نشأ عبد الله بن سبأ في اليمن ، فتنقف بالثقافتين — اليهودية والفارسية — ثم أسلم في السابعة من خلافة عثمان — رضى الله عنه — « سنة ٢٩ - ٣٠ هـ » ، فاستخدم ثقافته في هدم الإسلام ، وتشويه عقائده ، تحت ستار الغيرة على الدين ، والتعصب لآل البيت ، وهم منه ومن عقائده براء .

وما كان ابن سبأ إلا عضواً من عصاة شريرة هالها الفتح الإسلامى لبلادها ، فأخذت تسمم عقائد الناس ، وتقشى فيهم مقالة السوء ، وتسلك بهم مسالك شتى ، حتى أخرجتهم عن طريق الهدى . . كيداً للإسلام بالحيلة إذ فشلوا في هدمه بالسيف^(٢) .

ولم تقف أثنى ابن سبأ وشيعته عند هذا الحد : من الرجعة ، والوصاية ،

(١) الطبرى ج ٥ ص ٩٨ ، وابن الأثير ج ٣ ص ٩٤ ، واللؤلؤ والنحل ج ١

ص ٢٦٦ .

(٢) خطط المقرئى ج ١ ص ٣٦٢ ، وابن أبى الحديد ج ٧ ص ١٣٦ / ج ٨

ص ٣١٩ .

بل تعدتها إلى تأليه على^(١) ، وطبقوا عليه وعلى أبنائه نظرة الفرس إلى ملوكهم .. والفرس ينظرون إلى ملوكهم كأنهم كائنات إلهية ، اصطفاهم الله للحكم ، ولهم وحدهم حق لبس التاج ، بما يجرى في عروقهم من دم إلهي ... فعلى^٢ — فوق أنه وصى الرسول — قد استحق الحكم عن هذا الطريق أيضاً — عن طريق الأسرة الحاكمة — وهو يتولى حكمه بأمر الله كما يتولى الإكاسرة .. وهذه النظرية هي التي سماها المحدثون بالحق الملكي المقدس^(٣) .

المستشرقون ومبادئ الشيعة :

على أن ذلك الاختلاط في المبادئ الشيعة جعل المستشرقين يتساءلون عن أصل مبادئ الشيعة .

فالأستاذ « ولهوسن Wellhausen » يرى أن العقيدة الشيعية نبتت من اليهودية أكثر مما نبتت من الفارسية ، مستدلاً بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ وهو يهودي ، وهذا الرأي خلاصة كلام الشعبي في العقد الفريد^(٣) .

ويميل الأستاذ « دوزي Dozy » إلى أن أصلها فارسي ، لقول الشيعة بنظرية الوراثة ، والنص على « على » وبنيه ، وتلك نظرات فارسية لا عربية ، فالعرب

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ واللعل والنحل ج ١ ص ٣٦٥ ، وقد حرقهم على ، ونفى ابن سبأ وغيره إلى المدائن ، وأظهر آل البيت النبوي البراءة من أمثال هؤلاء ، في كل مناسبة كما سنرى .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي .

(٣) ج ١ ص ٢٥٣ .

تدين بالحرية ، والفرس يدينون بالملك ، وبالوراثة في البيت المالک ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة^(١) .

ويقول « فان فلوٲن Van Vloten » : قد تسرب كثير من العقائد غير الإسلامية إلى الشيعة ، تلك العقائد التي انتقلت إليهم عن المجوسية ، والمناوية والبوذية ، وغيرها من الديانات التي كانت سائدة في آسيا قبل الإسلام^(٢) .

وأنت إذا نظرت إلى ما تسرب إلى التشيع من عقائد سبئية أرجعها المؤرخون إلى الديانات الآسيوية من : رجعة ، ووصاية ، وعصمة ، ومهدية ، وتناسخ ، وبداء ، وتقية ، وتمتدیس لعلی وبنیه ، آمنت بأن هذا الحزب — إن صح ما قالوا — كان مسترداً لكثير من الديانات الآسيوية من غير شك ، وأن عناصر دخلت فيه فشوهت جماله .

فقد زعموا أنه أخذ عن الهندية مبدأ التناسخ ، كما أخذ عن البراهمة والمسيحية واليهودية مبادئ حلول الإله في الإنسان ، وعن الفارسية الرجعة والوصاية ووراثة الحكم^(٣) .

(١) فجر الإسلام ج ١ ص ٢٤٠ .

(٢) السيادة العربية ص ٨٢ .

(٣) ومن الإنصاف للشيعة أن تقرأ في هذا : أصل الشيعة وأصولها ، والشيعة في التاريخ ، والشيعة : لتعرف رأى المعاصرين في هذه العقائد وأنكارهم لما داخلها من اسراف شوه جمال العقائد الشيعية ونفر الناس منها وأن لاهيب بالشيعة أن ينشروا كتبهم في العالم الإسلامي والعربي ليسهل الاطلاع عليها ففيها خير كثير وعلم =

ولقد لعبت هذه النظريات دوراً خطيراً في السياسة ، والعقائد الإسلامية كما كان لها تأثير كبير في الأدب العربي .

ونحب - الآن - أن نتناول أهم هذه العقائد بشيء من التفصيل ، نذكر فيه نشأتها ، وتدرجها ، وموقف الفرق الشيعية ، والعقيدة العربية منها ، وكيف كانت هذه العقائد ينبوعاً من ينابيع الأدب ، وسبيلاً من سبل القول والجدال .

بذلك تفهم الأدب الشيعي ، وتستطيع دراسته والحكم عليه ، لأنه أدب عقيدة قبل كل شيء ، يخدم رأياً معيناً يسجله ويدافع عنه ، وقد استطاع أن يصور الفكرة الشيعية تصويراً فنياً دقيقاً ، تفهم ذلك حين تفهم الفكرة الشيعية والعقائد الشيعية ، ومقدار أصالتها وتغلغلها في نفوس الشيعة .

(١) الرواية :

عقيدة — كما قال ابن جرير — نقلها ابن سبأ عن اليهودية — دينه القديم — فتأثر بها التشيع ، وحاطها بسياج من الحجب والأحاديث « فالإمامة عند الشيعة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لنبي إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً من الكبراء والصغائر »^(١) . . وقد عين الرسول — صلى الله عليه وسلم — علياً ، فقال : « من يبايعني على روجه وهو وصي ، وولى هذا الأمر من بعدى » ، فلم يبايعه .

= كثير واتفاق واضح مع كثير من تعاليم أهل السنة وبذلك تتقارب العقيدة الإسلامية شيعياً وسنانياً .

(١) فرق الشيعة ص ١٩ ، ومقدمة ابن خلدون ص ١٥٥ ، والشهرستاني ج ١ ص ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، وانظر الشيعة في التاريخ ، وأصل الشيعة وأصولها .

إلا « عليّ » ؛ وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ولم تطرد هذه الولاية إلا في « عليّ » ؛ ولهذا قال فيه عمر : « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » ، وقال : « أقضاكم عليّ » . . وأرسل أبا بكر يقرأ على الناس سورة براءة ؛ فنزلت عليه (ليبلغه رجل منك) ، فبعث علياً ليكون القارئ المبلغ^(١) ، وفي هذا تقديم « عليّ » .

قال ابن خلدون : « وهكذا ذهب الشيعة يستدلون لعقيدتهم بنصوص ينقلونها ، ثم يؤولونها ، على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهاذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ، بل أكثرها موضوع ، أو مطعون في طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة »^(٢) .

الفرق الشيعية والوصاية :

وقد ذهبت الشيعة في طريق تعيين الرسول لعلى مذاهب شتى ، كان لها أثر في تفرق كلمتهم ، ونظرهم إلى الصحابة ، فالإمامية ، والكيسانية ، والسبئية يعتقدون أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — نص على « عليّ » بالاسم ، وعينه للصحابة — بل ذهب بعضهم إلى أنه دعى بأمر المؤمنين في حياته^(٣) —

(١) الشهرستاني ج ١ ص ٣٢٤ ، والشيعة في التاريخ ص ١٨ ، والفخر الرازي في تفسير قوله تعالى « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك . . » ، وأصل الشيعة وأصولها ص ٥٣ وابن أبي الحديد ج ٧ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٥ . والشهرستاني في الصفحات السابقة . وابن

أبي الحديد ج ١١ ص ٧ / ٢٠ ص ٤٦٢ .

(٣) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤ . والشهرستاني في السبئية — وأصل الشيعة وأصولها ، والشيعة في التاريخ .

ولكن الصحابة غضبوا حق « علي » ، ووثبوا على « وصي » رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فبايعوا غيره ، فالصحابة كفار ، وإمامة غير « علي » باطلة .
ومذهب الزيدية : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نص على « علي » بالوصف ، فأخطأ الصحابة تطبيق الوصف ، فهم مخطئون ، لا كفار ، وإمامة أبي بكر وصاحبيه صحيحة ، وإن كان علي أفضل ، لجواز إمامة المفضل مع وجود الفاضل ، وبهذا قال أساتذتهم المعتزلة .

فالقول بالنص مذهب الفرق الشيعية . . نص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على « علي » و « علي » نص على « الحسن » و « الحسن » نص على « الحسين » و « الحسين » نص على ابنه - زين العابدين - « علي » عند الإمامية أو على أخيه - ابن الحنفية - « محمد بن علي بن أبي طالب » عند الكيسانية^(١) ثم جاء الزيدية فنقلوا الأمر بعد « علي بن الحسين » إلى ابنه « زيد » ، بينما نقله جمهور الإمامية إلى ابنه الآخر - الباقر - « محمد بن علي بن الحسين » .
وهكذا كان كل إمام ينص على من بعده ، ويورثه علومه الظاهرة والباطنة .

للمنكرين للوصاية :

أما المنكرون للوصاية فيرون أن الرسول لحق بالرفيق الأعلى دون أن يعهد لأحد بالأمر بعده ، بل ترك الأمور للناس ، فانتخب أبو بكر انتخاباً يتفق والروح الإسلامية .

(١) هذا قول جمهور « الكيسانية » ، ويرى بعضهم : أنه الإمام الثاني بعد أبيه « علي » بنص منه .

ففي البخارى عن ابن عباس : أن « على بن أبى طالب » - رضى الله عنه - خرج من عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وجعه الذى توفى فيه ، فقال له الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : أصبح بحمد الله بارئاً ، فأخذ بيده « عباس بن عبد المطلب » فقال له : أنت والله بعد ثلاث عبد العسا ، والله إني لأرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سوف يتوفى من وجعه هذا ، إني لأعرف وجوه بنى عبد المطلب ، اذهب بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا علمناه ؛ فأوصى بنا .

فقال على : أما - والله - لئن سألتها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده ، وإني - والله - لا أسأله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه وسلم^(١) .

وعلى كان يقول : « والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ، ولا في الولاية إربة ، ولكنكم دعوتوني إليها ، وحملتوني عليها^(٢) » .

ولم نسمعه على كثرة احتجاجه لنفسه ، ومكاشفته لأصحابه ، أنه ذكر هذا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو جرى على لسانه لفظ وصية ووصاية .

وحديث السقيفة دليل على عدم النص ، إذ لو كان هناك نص على استخلاف الرسول لعلى لذكره ، إذ لا عطر بعد عروس ، كما يقول ابن أبى الحديد^(٣) ، أو ذكره في السقيفة أحد من الصحابة : من المهاجرين أو الأنصار ، بل كان أكبر دليل للقرشيين على استحقاقهم الخلافة .

(١) البخارى ج ٦ ص ١٢ ، وشرح النهج ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) نهج البلاغة ج ٢ ص ٢١٠ .

(٣) شرح النهج ج ٦ ص ٥ : والكلمة مثل يضرب لمن لا يدخر عنه نفيس

« الميداني ج ٢ ص ١٤٥ » .

بل لو كان هناك نص لما تخلف الصحابة عن بيعته في وقت كان المسلمون يتسابقون إلى تنفيذ أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولم يكن هناك معنى للاختلاف فيما بينهم في أيهما أحق بالخلافة .

ولو كان هناك نص ، لما بايع « علي » أحداً ، ولو كان عليه أن ينهض في تنفيذ هذه الوصية التي عقدت - من غير شك - لمصلحة الإسلام والمسلمين شأن أوامر الرسول الأئمين ، وتاريخ « علي » مليء بالصرامة في تنفيذ أوامر الرسول .

ومع هذا فاستمع إلى علي - رضي الله عنه - يقول : « اللهم إني كنت أول من آمن به ، فلا أكون أول من كذب عليه ، لم يكن عندي فيه عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولو كان عندي فيه عهد من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما تركت أخا تيم وعدى على منابرها^(١) .

ومهما يكن من شيء ؛ فلقد كان لعقيدة الوصاية أثرها الواقعي في الحكم ، وعلى ضوءها تقسم الشيعة إلى فرق ؛ كما انقسموا حول تعيين الإمام ، وفي سبيل تنفيذها وقفوا وقتهم المشهورة أمام « الأمويين » ثم « العباسيين » .

وكذلك كان أثرها في الأدب العربي عظيم الشأن جليل الخطر ، كانت ميداناً فسيحاً لخطباء الشيعة وشعرائهم ، ومسبجاً طويلاً للأخيلة الشعرية ، فلم يكد التشعب يصبح مزيجاً من طوائف مختلفة ، وثقافات عراقية متنوعة ، ويفمره العنصر الفارسي - خاصة - حتى رأينا عقيدة الوصاية تتخذ أسمى مكان من الاحتجاج الشيعي ،

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٨٩ : ونيم ابن مرة : رهط أبي بكر ، وعدى رهط عمر بن الخطاب وإليهما يشير علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً .

وبخاصة في الأدب الكيساني ، فلهج بها « الكميت » شاعر الإمامية ، كما لهج بها « كثير عزة » و (السيد الحميري) وغيرهما من لسن الكيسانية ، وطفحت حتى على السنة الأمراء والرؤساء .

وفي العصر العباسي رأبناها في حجة النفس الزكية ، محمد بن عبد الله بن حسن على المنصور ، كما استخدمها الشعراء - العالويون والعباسيون - كما شغلت بال المفسرين والمحدثين والمشرعين من الشيعة ، يفسرون بها الآيات ، ويؤولون لها الأحاديث ويضع غلاتهم أخرى .

العقلية العربية والوصاية :

ولم تجد هذه العقيدة رواجاً أول ظهورها - على لسان ابن سبأ - في الوسط العربي ، لأن العقلية العربية قد تربت على الاستقلال ، ووضع لها الإسلام أساس المساواة والشورى .

لذلك نشك كثيراً فيما رواه ابن أبي الحديد من شعر قرشي يفيد إطلاق هذا الاسم على « علي » في حياته .

قال : خرج يوم المجل غلام - من بني ضبة - من عسكر عائشة يقول :

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ - أَعْدَاءُ عَلِيٍّ
ذَلِكَ الَّذِي يُعْرِفُ قَدَمًا بِالْوَصِيِّ
وَفَارِسِ الْخَلِيلِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ
مَا أَنَا عَنْ فَضْلِ عَلِيٍّ بِالْعَمِيِّ
لَكِنِّي أَنبِي ابْنَ عَمَّانَ التَّقِيِّ
إِنَّ الْوَلِيَّ طَالِبُ نَارِ الْوَلِيِّ

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٤٧ وما بعدها .

وقال عبيد الله بن سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَمِنَّا عَلَى ذَاكَ صَاحِبُ خَيْرٍ وَأَصَاحِبُ بَدْرٍ يَوْمَ سَأَلَتْ كِتَابَتُهُ
وَصِيُّ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَابْنُ عَمِّهِ قَمَنْ ذَا يُدَانِيهِ وَمَنْ ذَا يُقَارِبُهُ

وقال المغيرة بن الحارث يوم صفين :

يَا عُصْبَةَ الْمَوْتِ صَبْرًا لَا يَهْوُلُكُمْ جَيْشُ ابْنِ حَرْبٍ فَإِنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ
وَأَيُّقُنُوا أَنَّ مَنْ أَضْحَى يُخَالِفُكُمْ أَضْحَى شَقِيًّا ، وَأَمْسَى نَفْسُهُ خَيْرًا
فِيكُمْ وَصِيُّ رَسُولِ اللَّهِ قَائِدُكُمْ وَصَهْرُهُ ، وَكِتَابُ اللَّهِ قَدْ نَشَرَ

نشك كثيراً في نسبة هذا الشعر إلى رجالات هذا العصر - وخاصة
القرشيين منهم ، ونعتقد أنه من وضع الشيعة ، وأن هذا اللقب لم يكن يعرفه
الأدب العربي أيام علي ، بل لم يكن مألوفاً إلا على لسان ابن سبأ وشيعته .

ولسنا بأول من شك في نسبة هذه النصوص ؛ فكلام شارح النهج نفسه
يدل على أن هذا الشعر ، وتلقيب علي بالوصي في حياته كان موضع شك . . استمع
إليه يقول - بعد أن روى جمهرة من هذه الأشعار (ذكر هذه الأشعار
والأراجيز بأجمعها أبو مخنف - لوط بن يحيى - في كتاب موقعة الجمل ، وأبو مخنف
من الحديثين ، ومن يرى صحة الإمامة بالاختيار ، وليس من الشيعة ، ولا معدوداً
من رجالاتها^(١)) .

ألست معي أن ابن أبي الحديد كان يتوقع الشك من الناس - إن لم يكن
قد حصل فعلاً - فاضطر إلى التعقيب بهذا القول ؟

على أن صاحب القاموس يقول : وأبو مخنف - لوط بن يحيى - إخباري شيعي تالف متروك . . . وهذه شهادة شيعي على شيعي .

وكتب التاريخ - مع عنايتها الكبيرة بذكر ما كانوا يقولونه تحت ظلال السيوف - لم تسجل لنا شيئاً من هذه الأشعار ، التي ملأت ثلاث صفحات من شرح النهج لبضعة وعشرين شاعراً - لم نر لأحد منهم ذكراً في التراجم - ثم يقول : « والأشعار التي تتضمن هذا اللفظ كثيرة جداً ، ولكننا ذكرنا منها بعض ما قيل في هذه الحربين - الجمل وصفين - فأما ما عداها فإنه يحل عن الحصر . ويعظم عن الإحصاء والعد ، ولولا خوف الملل والإضجار لذكرنا من ذلك ما يملأ أوراقاً كثيرة^(١) » .

الوصاية والأدب :

لم تتأثر العقلية العربية بعقيدة الوصاية في عهد علي ، فلم يتأثر بها الأدب الشيعي بل مضى على أذلاله إذا مدح فبالقراءة والسبق ، وإذا رثى فبالحجا والعلم . يقول أبو زبيد الطائي « حرمة بن المنذر » يرثي علي بن أبي طالب - صلوات الله عليه :

إِنَّ الْكَرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ رَهْطَ انْزَرِيءْ خَارَهُ لِلدِّينِ مُحْتَارِ
طَبَّ بِصِيرٍ بِأَضْعَانِ الرِّجَالِ وَلَمْ يُمَدَّلْ بِحَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ أَحْبَارِ
وَقَطْرَةٌ قَطَرَتْ إِذْ حَانَ مَوْعِدُهَا وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ وَقْتُ وَمِقْدَارِ
حَتَّى تَذَهَّبَهَا فِي مَسْجِدٍ طَهْرٍ عَلَى إِمَامٍ هُدَى أَنْ مَعَشَرٌ جَارُوا

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٥٠ .

مُتَّ لَيْدٌ خَلَّ جَنَاتِ أَبِي حَسَنِ وَأَوْجَبَتْ بَعْدَهُ لِلْقَاتِلِ النَّارَ^(١)

حتى إذا قتل الحسين بن علي - رضي الله عنه - كثر القول بالوصاية في الأدب الشيعي^(٢) ، وحمل لواءه الشيعة الكيسانية ، وقد كانوا في عصرهم أبرز الفرق الشيعية فسمعتها في شعر « كثير عزة » و « أبي الطفيل » ثم « السيد الحميري » وغيرهم من شعراء الكيسانية ودرج على بساط الإمامية في شعر « الكميت » وغيره فأخذ يردده في هاشمياته .

في الكامل : وقال كثير - لما حبس عبد الله بن الزبير محمد بن الحنفية في خمسة عشر رجلا من أهله في سجن « عارم » :

تُخَبِّرُ مَنْ لَاقَيْتَ أَنَّكَ عَائِدٌ بَلْ الْعَائِدُ الْمُخْبُوسُ فِي سِجْنِ عَارِمٍ
وَصِيَّ النَّبِيِّ الْمُضْطَّافِ وَإِنْ عَمَّه وَفَكَالْكَ أَعْنَاقٍ وَقَاضِي مَغَارِمٍ
أَبَى فَمَوْ لَا يَشْرِي هُدًى بِضَلَالَةٍ وَلَا يَتَّقِي فِي اللَّهِ لَوْمَةً لِأُمِّ
وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ نَقْلُو كِتَابَهُ خُلُولاَ بِهَذَا الْخَفِيفِ خَيْفِ الْمِحَارِمِ
بِحَيْثُ الْحَمَامُ آمَنَ الرَّوْعُ سَاكِنٌ وَحَيْثُ الْعَدُوُّ كَالصَّدِيقِ الْمَسَالِمِ
فَمَا رَوْنَقُ الدُّنْيَا بِيَاقٍ لِأَهْلِهِ وَلَا شِدَّةُ الْبَلْوَى بِضَرْبَةٍ لِأَزِمِ^(٣)

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل ج ٧ ص ١٣٢ .

(٢) وغير الشيعي ، فيقول عبيد الله بن قيس الرقيات الشاعر الزبيري - وكان يفتخر بقريش عامة . رغبة الآمل ج ٧ ص ١٣٢ :

نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ أَحْمَدُ وَالصَّدِيقُ مِنَّْا التَّقِيُّ وَالْحَكَمَةُ
وَعَلِيُّ وَجَعْفَرٌ ذُو الْجَنَاحَيْنِ هُنَاكَ الْوَصِيُّ وَالشَّهَدَاءُ

(٣) رغبة الآمل من كتاب الكامل ج ٧ ص ١٣٢ وكان عبد الله بن الزبير يلقب بالعائد بالبيت لاعتصامه بمكة . وكثير يتحدث عن ابن الحنفية فلما راد : ابن وصي النبي ، حذف المضاف .

ويقول الكميت في رثاء علي بن أبي طالب :

وَالْوَصِيُّ الَّذِي أَمَالَ التَّجْوُ بِيْ بِهِ عَرْشَ أُمَّةٍ لَانْهَدَامَ
قَتَلُوا يَوْمَ ذَلِكَ إِذْ قَتَلُوهُ حَكَمًا لَا كَغَارِ الْحَكَامِ
الإمام الزُّكِّي والفَارَسُ لِلْعِلْمِ تَحْتَ الْعِجَاجِ غَيْرَ الْكَمَامِ
رَاعِيًا كَانَ مُسَجِّحًا فَفَقَدْنَا هُوَ وَفَقَدَ الْمُسِيمُ هَلَاكُ السَّوَامِ^(١)

بل استمع إلى الكميت يحدثنا عن عقد الولاية لعلّي - رضى الله عنه - عند
غدير « خُم »^(٢) فيقول :

وَأَصْنَفَاهُ النَّبِيُّ عَلَى اخْتِيَارٍ بِمَا أَحْيَا الرَّفُوضَ لَهُ الْاُذْيَا
وَيَوْمَ الدَّوْحِ - دَوْحَ غَدِيرِ خُمٍ - أَبَانَ لَهُ الْوَلَايَةَ لَوْ أُطِيَا
وَلَكِنَّ الرَّجَالَ تَبَايَعُوهَا فَلَمْ أَرْ مِثْلَهَا خَطَرًا مَبِيَا
فَلَمْ أُبْلَغْ بِهِمْ لَعْنًا وَلَكِنْ أَسَاءَ بِذَلِكَ أَوْلَهُمْ صَنِيعَا
أَضَاعُوا أَمْرَ قَائِدِهِمْ فَضَلُّوا وَأَقْدَمَهُمْ لَدَى الْخِذْلَانِ رِيَا
تَنَاسَوْا حَقَّهُ وَبَغَوْا عَلَيْهِ بِلَا تَرَةٍ وَكَانَ لَهُمْ قَرِيَا

ويسجل الكميت حادثة الغدير في كل مناسبة فيقول في قصيدة أخرى :

إِنَّ الرَّسُولَ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ لَنَا إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى غَيْرِ مَا هَجَرَ
فِي مَوْقِفٍ أَوْقَفَ اللَّهُ الرَّسُولَ بِهِ كَمْ يُعْطِيهِ قَبْلَهُ مِنْ غَيْرِهِ بَشَرَا
مَنْ كَانَ يَرَغْمُهُ رَغْمًا قَدَامَ لَهُ حَتَّى يَرَى أَنْفَهُ فِي الثَّرْبِ مُنْعَفَرَا^(٣)

هذا الموقف كان يوم « غدير خم » في الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر

(١) رغبة الآمل والهاشميات .

(٢) غدير خم : بين مكة والمدينة . بينه وبين الجحفة ميلان (معجم البلدان) .

(٣) الهاشميات : وفي البيت الأول عيب عروضي (الاصراف) .

بعد حجة الوداع^(١) ، والشيعية تعتبره مصدر ولايتهم ، فاتخذوه عيداً لهم ، وكان لشعرائهم فيه خيال واسع .

وقد قالوا : لما عقد الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - البيعة لعلی قام « حسان ابن ثابت » فقال :

يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْقَدِيرِ نَدِيَّهُمْ « بِحُجْمٍ » وَأَسْمِعْ بِالنَّبِيِّ مُنَادِيَا
وَقَالَ : فَمَنْ مَوْلَاكُمْ وَوَلِيُّكُمْ فَقَالُوا - وَلَمْ يُبْدُوا هَذَا التَّعَامِيَا -
إِلَهُكَ مَوْلَانَا ، وَأَنْتَ وَلِيُّنَا وَمَا لَكَ مِنَّا فِي الْوَلَايَةِ عَاصِيَا
فَقَالَ لَهُ : قُمْ يَا عَلِيُّ فَإِنِّي رَضِيْتُكَ مِنْ بَمْدِي إِمَامًا وَهَادِيَا
فَمَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا وَلِيُّهُ فَكُونُوا لَهُ أَنْصَارَ صِدْقٍ مَوَالِيَا^(٢)

ثم يحىء « السيد الحميرى » شاعر الكيسانية فيقول :

عَجِبْتُ مِنْ قَوْمٍ أَتَوْا أَحَدًا بِخَطَّةٍ لَيْسَ لَهَا مَوْضِعُ
قَالُوا لَهُ : لَوْ شِئْتَ أَغْلَمْتُنَا إِلَى مِنَ الْغَايَةِ وَالْمَضْرَعُ
إِذَا تُوفِّيتَ وَفَارَقْتَنَا وَفِيهِمْ فِي الْمُلْكِ مَنْ يَطْمَعُ
فَقَالَ : لَوْ أَعْلَمْتُكُمْ مَفْزَعًا كُنْتُمْ عَسِيْتُمْ فِيهِ أَنْ تَضُنُّوْا
كَصْنَعِ أَهْلِ الْعِجْلِ إِذْ فَارَقُوا هَارُونَ ، فَالْتَزَكَ لَهُ أَوْرَعُ
ثُمَّ أَتَتْهُ بَعْدَهُ عَزْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَيْسَ لَهُ مَدْفَعُ
أَبْلِغْ وَإِلَّا لَمْ تَكُنْ مُبْلِغًا وَاللَّهُ مِنْهُمْ عَاصِمٌ يَمْنَعُ
فَعَنْدَهَا قَامَ النَّبِيُّ الَّذِي كَانَ بِمَا يَأْمُرُهُ يَصْدَعُ

(١) الشيعة في التاريخ ص ١٨ .

(٢) الشيعة في التاريخ ص ١٩ . ومع هذا كان حسان عثمانيا ولم يبايع عليا .
رغم هذه الأشعار التي لم نجد لها في ديوانه .

يَخْطُبُ مَأْمُورًا ، وَفِي كَفِّهِ كَفٌّ عَلَى ، نُورُهَا يَلْمَعُ
 رَافِعُهَا أَكْرَمُ بِكَفِّ الَّذِي يَرْفَعُ وَالْكَفُّ الَّذِي تَرْفَعُ
 مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا لَهُ مَوْلَى فَلَمْ يَرْضُوا وَلَمْ يَقْبَلُوا
 وَظَلَّ قَوْمٌ غَاضِبُهُمْ قَوْلُهُ كَأَنَّمَا أَنَا فُهُمْ تُجْدَعُ
 حَتَّى إِذَا وَارَوْهُ فِي لَحْدِهِ وَانْصَرَفُوا عَنْ دَفْنِهِ ضَيَعُوا
 مَا قَالَ بِالْأَمْسِ وَأَوْصَى بِهِ وَاشْتَرَوْا الضَّرَّ بِمَا يَنْفَعُ
 وَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ بِمَدَّةٍ فَسَوْفَ يُحْزَوْنَ بِمَا قَطَعُوا
 وَأَزْمَعُوا مَكْرًا بِمَوْلَاهُمْ تَبًّا لِمَا كَانُوا بِهِ أَزْمَعُوا
 لَا هُمْ عَلَيْهِ يَرِدُوا حَوْضَهُ غَدًا ، وَلَا هُوَ لَهُمْ يَشْفَعُ (١)

وهكذا أخذ السيد يحدثنا بنفسه الطويل عن هذه العقيدة ، ولعلك ترى
 أن نظرية الحق الملكي المقدس قد بان أثرها في شعر السيد ، فاستحق على الخلافة
 بأمر الله ، وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بعقد الولاية له ، فنزل عليه
 قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ
 تَفْعَلْ فَا بَلِّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) ، فقام مبلغاً
 ما أمر به من ربه :

يَخْطُبُ مَأْمُورًا وَفِي كَفِّهِ كَفٌّ عَلَى نُورُهَا يَلْمَعُ
 مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا لَهُ مَوْلَى

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣١ ، الألوسي والفخر الرازي في تفسير الآية
 الكريمة (يا أيها الرسول بلغ . .) وقرأ حديث أم سلمة لعائشة رضى الله عنهما
 في ابن أبي الحديد ج ١ ص ٧٨ ، وأخبار السيد في الأغاني ج ٧ ص ٢٧٦ وفوات
 الوفيات ثم في هذا البحث .

فعلى بهذا النص الإلهي والإبلاغ الحمدي ولى الأمر بعد محمد ووارثه ،
ثم انتقل هذا الحق إلى بنيه ، فالحسن :

وَصِيُّ الْوَصَى ذُو الْخُطَةِ الْقَمْسَلِ وَمُرْدِي الْخُصُومِ يَوْمَ الْإِصْلَامِ^(١)

ثم جاء الحسين بعده ، ثم ابن الحنفية عند « السكيسانية » ، أو على بن الحسين
عند « الإمامية » ، ثم زيد بن علي عند « الزيدية » أو « الباقر » محمد بن علي
ابن الحسين عند بقية « الإمامية » وهكذا .

أثر الوصاية في الأدب العباسي :

على أن عقيدة الوصاية كانت في العصر العباسي أكثر شيوعا ، وأوسع
مدى ، فلم تقتصر على شعراء العلويين ، بل تعدتها إلى لسن العباسيين أنفسهم
يدعونها لخلقائهم ، ويتخذونها ضمن حججهم التي بها استحقوا الخلافة .

فهذا أفلح بن مالك بن أسماء بن خازجة الفزاري يفد على أبي مسلم بخراسان
وقد ظهرت الدعوة العباسية فيقول :

قُلْ لِلْأَمِيرِ أَمِينَ الْإِمَامِ وَصِيٌّ وَصِيٌّ وَصِيٌّ الْوَصَى
أَتَيْتَكَ لَا طَالِبًا حَاجَةً وَمَا لِي فِي أَرْضِكُمْ مِنْ كَفَى^(٢)

ويقول شاعر آخر للرشيدي :

يَا بَنِي الْأُمَّةِ مِنْ بَنِي النَّبِيِّ وَيَا بَنِي الْأَوْصِيَاءِ أَقْرَبَ النَّاسِ أَوْ دَفَعُوا
إِنَّ الْخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثَ وَالِدِكُمْ مِنْ دُونِ تَيْمٍ وَعَفُوُ اللَّهِ مُتَّسِعُ
لَوْلَا عَدَى وَتَيْمٌ لَمْ تَكُنْ وَصَلَتْ إِلَى أُمِّيَّةٍ تَمْرِهَا وَتَرْتَضِعُ

وَمَا لَالٍ عَلَىَّ فِي إِمَارَتِكُمْ وَمَا أَمُّمٌ أَبَدًا فِي إِزَارَتِكُمْ طَمَعٌ^(١)

في الوقت الذي يقول فيه دعبل بن علي الخزاعي^(٢) - الشاعر العلوي -

يرثي الحسين بن علي - رضى الله عنه - .

رَأْسُ ابْنِ بِنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَصِيهِ
وَالْمُسْلِمُونَ يَمْنُظَرُونَ بِمَنْظَرٍ
كَحِلَّتْ بِمَنْظَرِهِ الْعَيُونُ عِمَاةً
أَيَقُظْتُ أَجْمَانًا وَكُنْتُ لَهَا كَرَى
يَا لَرَجَالٍ عَلَى قَنَاسَةٍ تَرْفَعُ
لَا جَارِعَ مِنْ ذَا وَلَا مُتَخَشِّعُ
وَأَصَمَّ رُزُوكَ كُلُّ أُذُنٍ تَسْمَعُ
وَأَتَمَّتْ عَيْنَا لَمْ تَكُنْ بِكَ تَهْجَعُ
مَا رَوْضَةٌ إِلَّا تَمَّتْ أَنَّهَا
لَكَ تَرْبَةٌ وَلِخَطِّ قَبْرِكَ مَضْجَعُ^(٣)

ويقول شيعي آخر ، لم تذكر الرواية اسمه :

تَأْسٌ فَكَمْ لَكَ مِنْ سَلَوَةٍ تُفَرِّجُ عَنْكَ غَلِيلَ الْحَزَنِ
بِمَوْتِ النَّبِيِّ ، وَقَتْلِ الْوَصِيِّ وَقَتْلِ الْحُسَيْنِ ، وَسَمِّ الْحُسَيْنِ^(٤)

وهكذا درج الأدباء يستخدمون هذه العقيدة في أدبهم حتى تعدت عامة الناس
الناس إلى الخلفاء أنفسهم - العلويين منهم والعباسيين - فرأيناها أقوى حجج
النفس الزكية - محمد بن عبد الله - في رسالته التي سننقلها لك كما رأيناها دائرة
على ألسنة الخلفاء العباسيين في خطبهم ورسائلهم .

(١) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣١٢ .

(٢) شاعر شيعي عباسي . مطبوع هجاء خبيث لم يسلم منه أحد . وله للدائح
الفاخرة في آل البيت . وتأتيه فيهم « مدارس آيات خلت من تلاوة » من أحسن
الشعر وفاخر المدائح ؛ ترجم له في الأغاني ج ١٨ ص ٢٩ وابن خلكان ج ١ ص ١٧٨
والشعر والشعراء والفهرست ٢٢٩ وانظر تاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٢٣٣ وزهر
الآداب ج ١ ص ١٥١ ، وتنوير الأبصار .

(٣) معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٢ .

(٤) ابن الاثير ج ٢ ص ٤٠ .

فلنترك هذه العقيدة إلى عقيدة أخرى نجد فيها متاعاً ولذة أدبية . . . تلك
هى عقيدة « الرجعة » ونعنى بها عودة الإمام - بعد اختفائه عن أعين الناس -
حين يؤذن له بالرجوع إلى العالم الإنسانى فيصلح ما أفسده خصوم العلويين .

(ب) الرجعة:

عقيدة عرفها الإنسان فى عصوره الأولى . . . قالت بها اليهودية فى نبي الله
الياس^(١) وغيره ، والنصرانية فى عيسى بن مريم^(٢) . وفى البخارى : « والذى
نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فىكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ،
ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية^(٣) » .

وفى رواية « كيف أتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم؟^(٤) » .
فلما أسلم ابن سبأ قال بها فى محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم نقلها إلى على بن
أبى طالب - رضى الله عنه - بعد موته ، فكان يقول : لو أنيتمونا بدماعه سبعين
مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً^(٥) .
الفرق الشيعية والرجعة :

وقد كان موقف صحابة على من هذه العقيدة موقفهم من عقيدة الوصاية لم
تتشربها عقولهم ، لبعدها عن طبيعة العقلية العربية ، حتى اصطبغ التشيع بالصبغة
الفارسية ، وأصبح مزيجاً من أجناس شتى ، وديانات مختلفة ، ذاع القول بالرجعة ،
واتسع مداه ، وأصبح عقيدة جبهة الطوائف الشيعية .

(١) الفصل - لابن حزم - ج ٤ ص ١٨٠ (٢) الانجيل والقول الصحيح .

(٣) العيني ج ٧ ص ٤٥١ (٤) الجامع الصغير ج ٤ ص ٦٦٠ والنقراوى ج ١ ص ٨٢

(٥) الفصل : لابن حزم ج ٤ ص ١٨١ . والبيان والتبيين ج ٣ ص ٤٦ وتاريخ

ابن عساكر ج ٥ ص ٧٧ .

فعندهم أن آخر إمام يتولونه لا يموت بل هو حي باق ، يرجع حين يؤذن له ؛
فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ..

بذلك قالت : « السبئية » في علي ، و « الكيسانية » في محمد بن الحنفية ،
وقليل من « الزيدية » في يحيى بن زيد ، و « الحمدية » في - النفس الزكية - محمد
ابن عبد الله ^(١) ، « والإثنا عشرية » في الإمام الثاني عشر - محمد بن الحسن
المسكري ^(٢) ، بل قال بعضهم برجة الأئمة والخصوم معاً للمحاكمة . . محاكمة
أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وسائر الخلفاء على تعديهم ، وجورهم واغتصابهم حق
على ، وأولاده ^(٣) ، ثم يموتون إلى يوم القيامة .

قال الشريف المرتضى : ويصلب أبو بكر وعمر على جذوع الشجر ^(٤) .

بل توسع بعضهم ، فزعم أن الخلق كلهم يرجعون قبل يوم القيامة ، يمثل
ذلك أصدق تمثيل ما نقله أبو الفرج في أغانيه عن « كثير عزة » و « السيد
الخيرى » و « دعل بن علي » وغيرهم من شعراء الشيعة - خاصة شعراء الكيسانية .
فلم يكذبوا من هذه العقيدة إلا جمهور الزيدية ، فقد أنكروا الرجعة ، وكفروا
القائلين بها ، وذلك أثر من آثار تلمذتهم للمعتزلة الذي حفظهم من كثير ^(٥) .

وعلى الجملة ، فقد شرع ابن سبأ عقيدة الرجعة ، وبثها في الجو الشيعي ،
فصارت - كما يقول ابن جرير - عقيدة من عقائدهم ، كما صارت أساساً لعقيدة
أخرى - عربية فيما نعتقد - وهي « المهديّة » ومع أن علياً قد حارب هذه الطائفة ،

(١) البغدادى ص ٤٤ . (٢) معتقدات فرق المسلمين والمشرّكين ص ٥٥ .

(٣) أنظر فرق الشيعة للذوّبختى ص ٤٢ .

(٤) ضعى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٦ (٥) ضعى الاسلام ج ٣ ص ٢٤٣ .

وأحرقهم بالنار ، ونفى ابن سبأ إلى المدائن^(١) فقد تفلت منهم ففر نجوا من الإحراق ، فانبثوا في غمار الناس ، وصاروا يظهرن الفينة بعد الفينة

في العقد ، قال ابن عباس : « قرع اليوم على الباب رجل - حين وضعت ثيابي للظاهرة - فقلت : ما أتى به في هذا الحين إلا أمر مهم ، أدخلوه ، فلما دخل قال : متى يبعث ذلك الرجل ؟ قلت : أي رجل ! ؟ قال : علي بن أبي طالب ؛ قلت : لا يبعث حتى يبعث الله من في القبور ، قال : وإنك لتقول بقول هذه الجبهة ! ؟ قلت : أخرجوه عنى لعنه الله^(٢) . »

وفي ابن الأثير ، قال عمرو بن الأصم : قلت للحسن بن علي : إن هذه الشيعة تزعم أن علياً مبعوث قبل يوم القيامة ، فقال : كذب والله هؤلاء الشيعة ، لو علمنا أنه مبعوث قبل يوم القيامة ما زوجنا نساءه ولا قسمنا ماله^(٣) .

وفي الأغاني : دخل عبد الله بن حسن ، علي « كثير » يعود في مرضه الذي مات فيه ؛ فقال له كثير : أبشر ، فكأنك بي بعد أربعين ليلة ، قد طلعت عليك على فرس عتيق . فقال عبد الله : مالك ! ؟ . عليك لعنة الله ، فوالله لئن مت لا أشهدك ، ولا أعودك ، ولا أكلمك أبداً^(٤) .

ومن حقل أن تسأل عن هذا الإمام العلوي المقول برجعتة ، والمنتظر عودته إلى يومنا هذا^(٥) : حي أم ميت . وما الحكمة في اختفائه هذه القرون المتعاقبة ؟ .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٦٩ ، والفرق بين الفرق ص ١٨ ، وانظر الملل للشهرستاني

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣٥٢ . (٣) ابن الأثير ج ٣ ص ١٧ .

(٤) ج ٩ ص ١٧ وانظر أخبار كثير والسيد الحميري في الأغاني والعقد الفريد فسوف ترى لهما عجبا في هذه العقيدة .

(٥) فلا تزال عقيدة الرجعة إحدى عقائد الشيعة الإمامية ، وأصل من أصولهم وإن شئت فاقراً « أصل الشيعة وأصولها » للاستاذ الشيعي المعاصر : محمد الحسيني ص ٤٢ وكذا كتاب « الشيعة في التاريخ » للاستاذ محمد الزين .

والجواب عن السؤال الأول ضرورى فى دراستنا الأدبية فى وضع حد فاصل بين تراث رجلين اختلط نتاجهما الأدبى قديماً وحديثاً ، هما : « كثير عزة » و « السيد الحيرى » .

وينفرد ابن خلدون بالفصل بين عقيدة الرجلين فيقول :
 « ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره - بحسب من يعين لذلك عندهم - وهؤلاء هم الواقفية ، فبعض يقول هو حى لم يميت ، إلا أنه غائب عن أعين الناس ، ويستشهدون لذلك بقصة الخضر . . . قيل مثل ذلك فى على - رضى الله عنه - وأنه فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق من صوته ^(١) ، وقالوا مثله فى محمد بن الحنفية ، وأنه فى جبل رضوى من أهل الحجاز ، قال شاعرهم :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قَرِيشٍ وَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءُ
 عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ
 فَسَبَّطُ سَبَّطِ إِيْمَانٍ وَبَرٍّ وَسَبَّطُ غَيْبَتِهِ كَرِّ بَلَاءِ
 وَسَبَّطُ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللَّوَاءُ
 تَغْيِبَ لَا يَرَى فِيهِمْ زَمَانًا بَرِضَوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءُ ^(٢)

وقال مثله غلاة الإمامية - وخصوصاً الاثنا عشرية منهم - يزعمون أن الثانى عشر من أئمتهم وهو « محمد بن الحسن العسكرى » ، ويلقبونه المهدي ، دخل فى سرداب بدارهم بالخلعة ، وتغيب حين اعتقل مع أمه ، وغاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان ، فيملأ الأرض عدلاً ، يشيرون بذلك إلى الحديث الوارد فى كتاب الترمذى فى المهدي ، وهم إلى الآن ينتظرونه ، ويسمونه المنتظر لذلك ، ويقفون

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٣٦٦ والبدء والتاريخ ج ٥

ص ١٢٩ . (٢) الشعر لكثير عزة .

كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب - وقد قدموا مركبا - فيمتفون باسمه ؛ ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ، وهم على ذلك لهذا العهد .

وبعض الواقفية يقول : إن الإمام الذي مات يرجع إلى حياته الدنيا ، ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن الكريم ، من قصة أهل الكهف ، والذي مر على قرية ، وقتل بنى إسرائيل - حين ضرب بعظام البقرة التي أمروا بذبحها - ومثل ذلك من الخوارق التي وقعت عن طريق المعجزة ، ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها .

وكان من هؤلاء « السيد الحميري » ومن شعره في ذلك :

إِذَا مَا الْمَرْءُ شَابَ لَهُ وَقَالَ وَعَدَلَهُ الْمَوَاطِيطُ بِالْخَضَابِ
فَقَدْ ذَهَبَتْ بِشَاسْتُهُ وَأَوْدَى قَعْمُ يَا صَاحِبِ نَبِكَ عَلَى الشَّبَابِ
فَلَيْسَ بِعَائِدٍ مَا فَاتَ مِنْهُ إِلَى أَحَدٍ إِلَى يَوْمِ الْمُنَابِ
إِلَى يَوْمٍ يَتُوبُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى دُنْيَاهُمْ قَبِيلَ الْحَسَابِ
أَدِينُ بَأَنَّ ذَلِكَ دِينُ حَقٍّ وَمَا أَنَا فِي الدُّشُورِ بِذِي ارْتِيَابِ
كَذَاكَ اللَّهُ خَبَّرَ عَنْ أَنَسٍ حَيُّوَا مِنْ بَعْدِ دَرَسٍ فِي التَّرَابِ

قال ابن خلدون : « وقد كفانا مئونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة ، فإنهم لا يقولون بها ، ويبطلون احتجاجاتهم عليها »^(١) .

فأنت ترى أن « الإمامية » تقول بحياة الإمام أيام اختفائه ، وتختلف

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٦ . وانظر في الفرق بين الفرق موقف علي من ابن سبأ ص ١٧ - ٢٨ والعقد الفريد ج ١ ص ١٥١ وفي السيادة العربية والشيعة حديث عن موقف الأئمة من هذه المعتقدات وأصحابها ص ٩٠ نقلا عن الشهرستاني وطبقات ابن سعد والأغاني والطبري واليعقوبي وابن خلكان .

« الكيسانية » في ذلك ، فبعض يرى أنه حي ، ومن هؤلاء « كثير عزة » ،
بينما يرى الآخرون أنه مات ومن هؤلاء « السيد الحميري » .

فهل نستطيع أن نقول: إن كل شعريه حياة الإمام في محبته لا يمت إلى السيد
في شيء ، رغم ما في هذا من مخالفة صريحة للرواية الأدبية ؟ ولعل مما يؤيد ذلك
قوله يرثي أخاه :

يَا بْنَ أُمِّ فِدْتِكُ نَفْسِي وَمَالِي كُنْتُ رُكْنِي وَمُقَرَّعِي وَجَمَالِي
وَأَمْرِي لَنْ تَرَكَتْكَ مَمِيئًا رَهْنَ رَمْسٍ ضَنْكَ عَلَيْكَ مُهْمَالِ
لَوْ شِئْتُ أَلْقَاكَ حَيًّا صَحِيحًا سَامِعًا مُبْصِرًا عَلَى خَيْرِ حَالِ
قَدْ بُعِثْتُمْ مِنَ الْمُبُورِ فَأَبْتُمْ بَدَدَ مَا رُمَّتِ الْعِظَامُ الْبَوَالِي
أَوْ كَسَبَعِينَ وَافِدًا مَعَ مُوسَى عَابَيْنَا هَائِلًا مِنَ الْأَهْوَالِ
حِينَ رَامُوا مِنْ خُبْنِهِمْ رُؤْيَا الْإِلَهِ وَأَنْنَى بَرُؤْيَا التَّعَالِي
فَرَمَاهُمْ بِصُعْقَةٍ أَخْرَقَتْهُمْ نَمَّ أَحْيَاهُمْ شَدِيدُ الْمَحَالِ^(١)

أما لماذا تغيب الإمام هذه القرون المتعاقبة ؟ فقد تغيب لحكم ربانية ،
وأسرار خفية ، والله حكم لا تصل إليها عقول البشر ، وليس يبعد أن يحيا
هذه المدة الطويلة ، وأخبار المعمرين كثيرة ، ونوح لبث في قومه ألف سنة
إلا خمسين عاما ، والخضر وإلياس ، أليس أهل السنة يقولون بحياتهما
إلى اليوم؟^(٢) .

على أن الكيسانية قد أخذوا منذ القدم يتلمسون العلل في تغيب « ابن
الحنفية » إمامهم ، فمنهم من ترك ذلك لله ومنهم من قال : إن الله عاقبه بالحبس
نخروجه بعد قتل الحسين إلى يزيد بن معاوية ، وطلبه الأمان منه ، وأخذه

(١) العقد ج ١ ص ٣٥١ . (٢) اقرأ في هذا كتب الشيعة الإمامية .

عطاءه ، ثم لفراره من وجه ابن الزبير إلى عبد الملك ، فقد كان يجب عليه أن يقاتل مع شيعته ابن الزبير ، فعصى ربه بتركه قتاله ، وعصاه بقصده عبد الملك بعد أن عصاه بقصده يزيد ، فعاقبه بالحبس في شعب رضوى إلى أن يؤذن له ^(١) .

وهكذا يكون إمام الكيسانية - عندهم - صورة مجسمة من المعاصي ، ولعلمهم لا يقولون بعصمة الإمام من الصفائر والكبائر حتى صح لهم ذلك .

(م) المهمة :

وبعد : فهذا الإمام الغائب عن شيعته ، المحبوس بأمر من ربه ، يعود حين يؤذن له ، فيبايعه الناس بمكة - بين الركن والمقام - ثم يخرج ومن معه فيستولى على الممالك ، ويقىم الكتاب ، ويملا الأرض عدلا ، وهو المهدي المنتظر ، لا انتظار الشيعة خروجه .

وقد أخبر الرسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه فقال : « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لطول الله ذلك اليوم ، حتى يبعث الله فيه رجلا مني ، أو من أهل بيتي ، يواخي اسمه إسمي ، واسم أبيه اسم أبي » - وفي رواية - « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ، لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملأها ، كما ملئت جورا » ^(٢) .

وتحدث عنه علي - رضي الله عنه - فيما تحدث من إخبار بالمغيبات ، بل حدده لهم تحديدا لا يقبل الشك « فهو من ولد الحسين - عليه السلام - رجل أجلى

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧ وانظر الشهرستاني ، ثم إلى يومنا هذا لم يؤذن لابن الحنفية بالخروج حتى قيل في المثل أبطأ من مهدي الشيعة (الميداني) .

(٢) البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٨ . والفخرى ص ١٢٨ .

الجبين ، أفتى الأنف ، ضخم البطن ، أزيل الفخذين ، أبلغ الثنايا ، بفخذه
الأيمن شامة ^(١) ، ويقول : « لتعطفن الدنيا عليكم بعد شماسها ، عطف
الضروس على ولدها ؛ ثم تلا : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ،
ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، وننسكن لهم في الأرض) » ^(٢) .

فهذا وعد فالإمام منتظر : الثاني عشر عند « الإمامية الاثنا عشرية » أو من
ولد فاطمة على مذهب « الزيدية » ، أو رجل يملك الأرض ، وليس بلازم أن
يكون موجودا عند « المعتزلة » .

وحدث على عن بنى أمية وعسفهم ، وضلالهم ، ثم قال : « ثم يفرجها الله
عنكم كتفريج الأديم ، بمن يسومهم خسفا ، ويسوقهم عفا » . فقالت
الإمامية : هو الإمام الثاني عشر - محمد بن الحسن العسكري - وقالت المعتزلة :
هو فاطمي يولد في مستقبل الزمان لأم ولد ، وليس بموجود .

لكن علياً يحدث عن بنى أمية ، وأن الله سيسلط عليهم من يسومهم
العذاب . . وهنا يقول ابن أبي الحديد : « فإن قيل : فمن يكون من بنى أمية
في ذلك الوقت موجوداً حتى يقول في أمرهم ما قال من انتقام هذا الرجل
منهم ؟ قيل : أما الإمامية فتقول « بالرجعة » ، ويزعمون أنه سيعاد قوم
بأعيانهم من بنى أمية وغيرهم إذا ظهر الإمام المنتظر ، فيقطع هذا الرجل
أرجلهم وأيديهم ، ويسمل عيونهم ؛ وقال أصحابنا المعتزلة : إنه سيظهر وقد
استولى على الإسلام رجل من بنى أمية ، هو السفيفاني الموعود به في الخبر الصحيح

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٨٢ . واللسان في « زابل » .

(٣) ابن أبي الحديد ج ١٩ ص ١٣٦ . والضروس : العضوض لتذب عن ولدها

انظر ج ٧ ص ١٧٩ شرح النجج .

فيقتله الفاطمي . ويقتل أشياعه ، ثم ينزل عيسى عليه السلام ، وتبدو أشرار الساعة »^(١) .

وحديث السفيناني هذا حديث عجب . . . فما كادت الشيعة تقول : بأن لها مهديا ، حتى زعم بنو أمية بأن لهم سفينانيا !

قالوا : وتولى كبر ذلك « خالد بن يزيد بن معاوية »^(٢) ، لما ضاع الأمر من البيت السفيناني وانتقل نهائياً إلى الفرع المرواني . . . فقالت الشيعة : إذا ظهر السفيناني خرج المهدي ، فقاتله ، وقتله ، ثم يسلم الأمر لعيسى بن مريم - عليه السلام - وسندت قولها بحديث نزول عيسى .

فما انتقل الأمر إلى بني العباس كان لا بد أن يكون لهم مهدي ، فادعوا أن المهدي منهم . . . روى الحاكم عن عبد الله : « منا السفاح ، ومنا المنصور ، ومنا المنذر ، ومنا المهدي »^(٣) .

وجلس المنصور ليأخذ البيعة لابنه المهدي ، فلهما فرغ من ذلك قال مطيع : حدثنا فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : المهدي منا محمد ، وابن عبد الله ، وأمه من غيرنا ، يملؤها عدلا كما ملئت جوراً ؛ ثم أقبل على العباس

(١) النفرأوى ج ١ ص ٨٢ بتصرف . وابن أبي الحديد ج ٧ ص ١٧٩ ، وانظر مختصر تذكرة القرطبي ج ١ ص ١٥٩ والطبري ج ٩ ص ١٣٨ .

(٢) عرف خالد بالعلم والشعر ، وكان موالماً بالكيمياء - وإليه ينسب حديث السفيناني . اقرأ هذا في الأغاني ج ١٦ ص ٨٨ - وكما كان للأمويين سفيناني كان للبحنين قحطاني منتظر وادعاء غير واحد منهم - وللمصريين تيمى منتظر ، كما كان هنالك كلبى منتظر ، السيادة العربية ص ١٢٠ ، ١٤٤ .

(٣) الأغاني ج ١٠ ص ٨٥ ، وتاريخ بغداد ج ١ ص ٦٢ . وضعى الاسلام ج ٣

فقال له : أنشدك الله هل سمعت هذا ؟ فقال : نعم - مخافة من المنصور -^(١) ، كل ذلك ليحاربوا العلويين بسلاحهم ، ولعل المنصور سمي ولده المهدي لذلك^(٢) .

وهكذا أصبح القول بالمهدي شغل العالم العربي ؛ من شيعة وأمويين ، ثم علويين وعباسيين ، كما أصبح أداة سياسية يستخدمها الجميع لنشر مذهبه ودعم رأيه ، كما غدت المهديّة من أبرز العقائد الشيعية ، وأكثرها شيوعاً ، وأبعدها أثراً في السياسة والتشريع والأدب ، إذ قامت على أسسها دول شاذّة وبطولات غامضة ، وحروب طاحنة ، لا تزال تذكرها في مهدي السودان ، كما كانت سنداً لنزاع عقلي بعيد الغور ، طويل الأمد في حياة الناس وعقائدهم .

نشأة المهديّة وموقف الفرق الشيعية :

وقد رأينا أن المهديّة عقيدة متممة لعقيدة الرجعة . . . ويحدثنا الأستاذ أحمد أمين عن نشأة هذه العقيدة فيقول : « وعندنا أن الأمر لما خرج من الشيعة رأى رؤساء الشيعة أن هذا قد يسبب اليأس في نفوس أتباعهم ، وخافوا أن يذوب حزبهم ، فوضعوا لذلك خططاً منها : الدعوة السرية للشيعة ، والعمل في الخفاء على قاب الدولة الأموية ، وإضعافها ، ثم رأوا أن ذلك لا يتم إلا بقيام رئيس للشيعة ، يلتف حوله الناس ولو سراً ، ولقبوه بالخليفة حقاً وصبغوه بصبغة دينية ، فهو الإمام ، وهو المعصوم . . . ومنوا الناس بأن الأمر راجع إليهم . ثم قال : ولكن قوماً حولوا الأخبار الواردة من الشيعة الأولين في الحكومة المنتظرة إلى حاكم منتظر ؛ لأن ذلك أقرب إلى أذهان العامة ، فالأولون كانوا يرمزون بالمهدي المنتظر إلى حكومة شيعية منتظرة ، فجعلها المتأخرون حقيقة ، وجعلوا المهدي المنتظر

(١) الأغاني ج ١٢ ص ٨٥ .

(٢) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٠ .

حَقِيقَةً ، وَأَكْثَرُوا مِنَ الْقَوْلِ فِيهِ ، وَزَادُوهُ أَوْصَافًا وَأَخْبَارًا ، لِيَلْبِسُوهُ ثَوْبَ الْحَقِيقَةِ .

قال الألوسي في تفسيره : « وتأول جماعة من الإمامية ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة ، والأمر والنهي ، دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات ، فوضعت لذلك أخبار المهدي المنتظر بشخصه ووصفه » (١) .

نقول : والفكرة في ذاتها قد تكون مقبولة ، وعودة الأمر إلى بني علي أمنية الشيعة طالما تمتها نفوسهم ، وهتفت بها ألسنتهم ، وفي سبيلها أربقت دماؤهم .

نقول أبو الطيفيل عامر بن وائلة الكندي ، الشاعر الكيساني :

ومن عجب الأيام والدَّهْرِ أَنَّهَا قَرِيشٌ عَلَى آلِ النَّبِيِّ تَحْزَبُ
قضى الله في الفرقان أنْ عَدُوُّهُ وَإِنْ كَانَ ذَا كَيْدٍ يَذَلُّ وَيُغْلَبُ
فلا تحسبوا أن الرِّخَاءَ لِأَهْلِهِ يَدُومُ ، وَلَا أَنَّ الْبَلِيَّةَ تَرْتَبُ (٢)

ويقول الكمي ، الشاعر الإمامي :

فِيَارَبِّ عَجَلْ مَا يُؤَمِّلُ فِيهِمْ لِيَذْفَا مَقْرُورٌ ، وَيَشْبَعَ مُرْمَلٌ
وَيَنْفُذَ فِي رَاضٍ مُقَرَّرٍ بِحُكْمِهِ وَفِي سَاخِطٍ مِمَّا الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ (٣)

ويقول :

فَقُلْ لِبَنِي أُمِّيَّةٍ حَيْثُ حَلُّوا وَإِنْ خِفْتَ الْمُهْمَدَ وَالْقَطِيعَا
أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَهْتُمُوهُ وَأَشْبَحَ مَنْ يَجُوزُكُمْ أَجِيعَا
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِيَا يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رَبِيعَا

(١) ضحى الاسلام بتصرف ج ٣ ص ٢٤١ . وتفسير الألوسي « روح المعاني »

ج ٦ ص ٢١٦ . (٢) معجم الشعراء ص ١٤٧ .

(٣) الهاشميات للكميت .

وَلَيْثٌ فِي الْكَتِيبَةِ غَيْرُ نَكْسٍ لَتَقْوِيْمِ الْبَرِيَّةِ مُسْتَطِيعًا
يُقِيمُ أُمُورَهَا ، وَيَذُبُّ عَنْهَا وَيَتْرَكَ جَذْبَهَا أَبَدًا مَرِيعًا^(١)

ويقول « معاذ الهراء » الإمام النحوى المشهور :

وَمَا زِلْتُ فِي طَمَعٍ رَاجِيًا أَوْ مَلُّ كِبَشَهُمْ أَنْ يَحْمِنَا
وَأَرْقُبُ مِنْ هَاشِمٍ قَائِمًا تَقْرَأُ بِهِ أَعْيُنُ الْمُؤْمِنِينَ
أَبُوهُ رَسُولُ مَلِيكَ السَّمَاءِ نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِينَ^(٢)

والجديد في عقيدة المهدي أنها نشأت بعد قتل الحسين بن علي - رضى الله عنه - فلم نسمع عنها إلا في الأدب الكيساني - أدب المختار وشيعته - وليس بصحيح أن واضعها كيسان مولى علي بن أبي طالب كما يقول الأستاذ أحمد أمين^(٣) ، فكيسان هذا قتل بصفين - كما قلنا - قبل أن تخلق هذه العقيدة - المهدي - بربع قرن أو يزيد، ولعل هذا الزعم جاء من ترجيحه أن مولى «علي» هذا هو نواة فرقة الكيسانية - وليس كذلك .

ثم هي عربية النشأة - لا فارسية - كما يرى الدكتور حسن إبراهيم^(٤) ، وقد استعملت أولاً في معناها اللغوى - رجل هداه الله فهو مهدي - ثم اتخذت معنى جديداً فصارت لقباً للإمام المنتظر ، ثم صارت عقيدة الفرق الشيعية جميعها من : زيدية ، وإمامية ، وكيسانية ، تطلقها كل فرقة على الإمام الذى تنتظر عودته ، ثم صارت فيما بعد من دعوى العباسيين .

أثر الرجعة والمهدية في الأدب :

ومهما يكن من شيء فقد لعبت الرجعة والمهدية دوراً هاماً في الأدب العربى ،

(١) الهاشميات للكثير .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٨٠ . (٣) ضحى الاسلام ج ٣ ص ٢٣٦ .

(٤) تاريخ الاسلام السياسى ج ١ ص ٥٤١ وانظر السيادة العربية ص ١٢١ .

وشغلت السنة الأدباء في هذا العصر - شيعيين وغيرهم - فأتسع مجال القول ، وغزرت مادة الأدب ، وقد استمعنا إلى شيء من هذا ، فاسمع الآن ما يقول كثير عزة في ابن الحنفية :

أَلَا قَلَّ لِلْوَصِيِّ فَدَنَكَ نَفْسِي
أَضَرَّ بِمَعَشَرٍ وَأُلُوكٍ مَنَّا
وَنَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ
لَقَدْ أُمْسَى بِمُورِقِ شَعْبِ رَضْوَى
وَأَنَّ لَهُ بِهِ لِمَقِيلٍ صِدْقٍ
هَدَانَا اللَّهُ إِذْ جُرْتَمَ لِأَمْرِ
تَمَامَ مَوَدَّةِ الْمَهْدِيِّ حَتَّى
ويقول يحدث عن هذا الإمام :

أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي
وَأَتْنِي فِي هَوَايَ عَلَى خَيْرٍ
وَكَيْفَ ذَكَرْتَ حَالَ أَبِي خَبِيبٍ
هُوَ الْمَهْدِيُّ خَبَّرَنَاهُ كَتَبُ
أَمِينُ اللَّهِ يَلُطْفُ فِي السُّؤَالِ
وَيَسْأَلُ عَنْ بَنِي وَكَيْفَ حَالِي
وَزَلَّةَ فَعَلِهِ عِنْدَ السُّؤَالِ
أَخُو الْأَخْبَارِ فِي الْحَقَبِ الْخَوَالِي

ويسأله الناس : هل رأيت كعباً ؟ قال : لا ، قيل : فكيف قلت خبرناه كعب ؟ قال : بالتوهم^(١) .

(١) الأغاني ج ٩ ص ١٤ ، وكعب الأخبار : من حمير إخباري ، كان على دين يهود ثم أسلم فحمل أخبار بني إسرائيل معه إلى الإسلام مات بحمص سنة ٣٤ ، وأبو خبيب لقب عبد الله بن الزبير ، وخبيب هذا عربي عقيم فنبذ به ابن الزبير ، وانظر أخبار كثير في الأغاني والعقد الفريد ، قالوا ولما سمع هذا الشعر قال : لا يشئ عليك إلا من هو على هواك .

ويسير أبو الطفيل في ركاب ابن الحنفية - حين مسيره إلى عبد الملك ابن مروان - فيقول :

يَا إِخْوَتِي يَا شُعَيْبِي لَا تَبْعُدُوا
وَوَازِرُوا الْمَهْدِيَّ، كَيْمَا تَهْتَدُوا
مُحَمَّدَ الْخَلِيفَاتِ يَا مُحَمَّدُ
أَنْتَ الْإِمَامُ الطَّاهِرُ الْمُسَدَّدُ
لَا ابْنَ الزُّبَيْرِ السَّامِرِيَّ الْمُلْحَدُ
وَلَا الَّذِي نَحْنُ إِلَيْهِ نَقْصِدُ

ويرتجز كثير - وكان في ركابه أيضاً فيقول :

هُدَيْتَ يَا مَهْدِيْنَا ابْنَ الْمَهْدِي
أَنْتَ الَّذِي نَرَضَى بِهِ وَنَهْتَدِي
أَنْتَ ابْنَ خَيْرِ النَّاسِ مِنْ بَنِي النَّبِيِّ
أَنْتَ إِمَامُ الْحَقِّ لَسْنَا نَمْتَرِي
يَا ابْنَ عَلِيٍّ سِرُّهُ، وَمَنْ مِثْلُ عَلِيٍّ؟^(١)

وحدث الأصفهاني ، قال : « جاء رجل إلى السيد الحميري ، فقال : بلغني أنك تقول بالرجعة ؛ قال : صدق الذي أخبرك وهذا ديني ؛ قال : أفتعطيني ديناراً بمائة دينار إلى الرجعة ، قال السيد : نعم ، وأكثر من هذا ، إن وثقت لي بأنك ترجع إنساناً ، فقال : وأى شيء أرجع ؟ قال : أخشى أن ترجع كلباً أو خنزيراً فيذهب مالي ، فألحم الرجل^(٢) ، وذلك قول بالتناسخ .

(١) الفرق بين الفرق وابن الأثير ج ٤ ص ١٦ .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٢ .

وتناول دعبيل بن علي الخزاعي حديث الرجعة والمهدية في تائيته الرائعة ،
ودعبيل شاعر إمامي ، فقال :

قَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ لَقَطَّعَ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِ
خُرُوجِ إِمَامٍ لَا مَحَالَةَ خَارِجٌ يَقُومُ عَلَى اسْمِ اللَّهِ وَالْبَرَكَاتِ
يُمَيِّزُ فِينَا كُلَّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَيَجْزِي عَلَى النِّعَاءِ وَالنِّقَمَاتِ^(١)

ولعلنا على ذكر من هذا الشاعر الذي يقول للزيدية :

صَلَّيْنَا لَكُمْ زَيْدًا عَلَى جِدْعِ نَخْلَةٍ وَلَمْ أَرَمَهْدِيًّا عَلَى الْجِدْعِ يُصَلِّبُ
على أنه كان من الشيعة رجال حكموا عقولهم ، فأنفوا من هذه العقائد ،
وسجلوا إنكارهم لها . . يقول (كثير بن كثير) في رثاء أهل البيت :

أَهْلُ بَيْتٍ تَتَابَعُوا لِلْعَمَايَا مَا عَلَى الدَّهْرِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِقَابِ
فَارَقُونِي وَقَدْ عَلِمْتُ يَقِينًا مَا لِيِنْ ذَاقَ مَيْتَةٍ مِنْ إِيَابِ^(٢)

وهكذا كانت الوصية والرجعة والمهدية مستراداً لأخيلة الأدباء في هذا العصر
— شيعيين وغير شيعيين — فظهر أثرها في الأدب العربي ، وتنوعت فنونه .

وهناك عقائد أخرى كالنقمة ، والتناسخ ، والبداء ، . . . ولكن هذه
وأماها - وإن أحدثت أثراً كبيراً في السياسة والعقائد الإسلامية - قد كانت
ضئيلة الأثر في الأدب العربي ، لذلك آثرنا أن نترك تحقيقها لعلماء العقائد ،
والمعنيين بدراسة الأهواء والملل ، لنفرغ لموضوعنا . . أدب الشيعة .

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٩٤ . وتنوير الأبصار .

(٢) المؤلف والمختلف .

الفصل الرابع

أدب الشيعة

مصادر الأدب العربي - الأدب الشيعي : أغراضه - بيئته - أطواره .
(أ) الطور الأول : أسس الحجاج فيه - على أستاذ الأدب الشيعي ،
المرأة العربية والتشيع - رأى زكي مبارك -
رأينا في ذلك .

(ب) الطور الثاني : قتل الحسين - المناحي الأدبية في هذا الطور .
أدب الشيعة في صدر الدولة العباسية - آداب
الأحزاب الأخرى .

نحن في حاجة حين ندرس الأدب الشيعي ، إلى تفهم الحياة الاجتماعية والعقلية
للعرب عامة . وللبيئة الشيعية بوجه خاص . . فإدب - كما يقولون - إلا ظل
الحياة ، وصحيفة الوجود ، ونتيجة طبيعية لعقليات الأمة وعاداتها وبيئتها ، يخضع
لما تخضع له الحياة الإنسانية ، فيتأثر بمؤثراتها المختلفة ، وفواعلها المتنوعة : من بيئة
وحضارة ، ودين ، وسياسة ، وفواعل نفسية ، وأحداث اجتماعية ، واتصال
بالشعوب .

ولقد استطاع العرب أن يصوروا حياتهم تصويراً منطبقاً على الحقيقة من غير
زويق ولا تشويه ، فجاء أدبهم مرآة مجلوة ، تنعكس عليها تماثيل الحياة
وانتزاعات العقول .

مصادر الأدب العربي في الجاهلية :

ونحن نعلم أن العربي قبل إسلامه قد تحكمت فيه جاهلية قاسية ، وعقلية جافية ،

وعصبية مفرقة ، وأخلاق فضائلها : الشجاعة ، والشهامة ، والكرم الموفى على الإصراف والتلف ، والفناء في القبيلة ، والقسوة في الانتقام . . . وما بعد ذلك فسلب ونهب . وسفاهة وطيش ، وحياة يمثلها القطامي^(١) في أبياته :

ومن تَكُنِ الحُضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيَّ رِجَالٍ بِأَدِيَةٍ تَرَانَا
وَمَنْ رَبَطَ الْجِحَاشَ فَإِنَّ فِينَا قَنًا سُلْبًا ، وَأَفْرَاسًا حِسَانَا
وَكُنَّ إِذَا أَعْرَنَ عَلَى جَنَابٍ وَأَعْوَزَهُنْ نَهَبٌ حَيْثُ كَانَا
أَعْرَنَ مِنَ الضَّبَابِ عَلَى حُلُولِ وَضْبَةٍ ، إِنَّهُ مِنْ حَانَ حَانَا
وأحيانًا على بَكْرٍ أَخِينَا إِذَا مَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا^(٢)

فكان الأدب الجاهلي مظهر هذه الصفات وباعثها ، كما كان الأدب الجاهلي سجل هذه الحياة ومصورها .

وفي صدر الإسلام :

حتى إذا جاء الإسلام فسن الشرائع ورسم الآداب ، وهذب الأخلاق ، وفتح القلوب لكلمة التوحيد وحقيقة البر ، ونادى بأن السيادة للدين لا للنسب ، والإخاء في الله لا في العصب - تغيرت العقلية العربية ، فتغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول .

(١) القطامي - بفتح القاف وضمها - الصقر. سمي به « عمير بن شليم بن عمر من تغلب » شاعر أسلامي فحل رقيق الحواشي . كثير الأمثال . حسن التشبيب بالنساء الحماسة ج ١ ص ٣٢٨ ومعجم الشعراء ص ٢٤٤ .

(٢) قنا سلبا : تسلب النفوس . جمع سلوب . ويروى سلبا بفتح فكسر أي طويل . والضباب : اسم لقبائل . وضبة وضيب وحسل وحسيل . والحلول : الدين يكونون في مكان واحد وقوله « إنه من حال حانا » التفات . أي : من بلى يغزونا هلك

فالشاعر الذى كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء ، والخطيب الذى كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء . والفارس الذى كان يخوض ليله ونهاره فى الدماء وبين الأشلاء ، وقفوا جميعاً أمام الدين صامتين منصتين ، لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به ويدعو إليه .

وأصبح الأدب — الذى كان بالأمس أنغام صبا ، وحماسة وفتوة ، وعواطف أثر — صورة من هذه الحياة الجديدة . . . قبساً من هدى الله ورسولا يدعو إلى الخير ، ويحبب فى الدين الجديد ، كما أفاده هذا المدد الإلهى عذوبة فى اللفظ ، ورقة فى التركيب ، ودقة فى الأداء ، وقوة المنطق ، ووحدة الغرض .

وفى عهد بنى أمية :

على أن تأثير الإسلام لم يقف طويلاً عند عقيدته وروحه ، وأسلوب كتابه ، فسرعان ما تعدى ذلك إلى تأثير آخر من جهة ما نشأ عنه من الفتوح ونظام الحكم .

فقد امتد سلطانه بالفتح والجهاد ، وانساح فى مختلف البلاد ، فاستولى على ممالك كسرى وقيصر ، وورث عقليات الفرس والروم ، وامتزج بالأجناس والأمم ، ونقل هؤلاء إلى العربية بنحياهم ، وأفكارهم ، وعقائدهم نقلهم ذاتاً ، ومعنى ، ووطناً ، وأخضعهم لسلطانه إخضاعاً مادياً ، ومعنوياً ، فظهر أثر ذلك فى الحياة العربية ، والعقلية العربية ، والخيال العربى .

والأدب حينئذ ريبب الخصومة والجلد ، تبعثه العصبية ، ويقويه الهراش ، وتوحيه شياطين الفرقة ، وتلك حال — وإن أماتها الإسلام — فهى دستور الحياة فى هذا العصر .

فقد رأينا كيف كانت الجزيرة العربية منذ قتل عثمان - رضى الله عنه - يهدر جوفها من ضرم الفتن ، هدير الحميم المكظوم ، وتفرق الناس حول الخلافة شيعاً وأحزاباً ، كل يدعو لخليفة . ويستاف من أجل فكرة . . . ففي الشام حزب بنى أمية ، وفي الحجاز أنصار ابن الزبير ، وفي العراق شيعة على . ثم حزب آخر ينكر هؤلاء وأولئك ويكفر الزعماء ويقول بالشورى .

وفي هذه الأحزاب توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم ، فانصلت الخصومة ، وأعنف الخصوم ، واقتضى ذلك إحياء العصبية القبلية ؛ بل تعددت العصبيات ، فهي بين القبائل ، والأقطار ، والبلاد ، والعلماء ، والأدباء .

وسعد الأدب من ذلك كله - وإن شق الاجتماع - فتعددت موضوعات الأدب وتنوعت أغراضه ، وكثر فحوله ، وسائر هذه النهضة ؛ فصخب وغزر ، كما صخبت الحياة وغزرت . فإذا هو أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطاع حياة ، ولسان فتنة . . . وتطلع إلى الحياة الجاهلية ، والعصبية الجاهلية ، فابتعثها من مرقدتها ، وأحيا ما اندثر من آثامها . وصار في مظهره وجوهره ونوعه امتداداً للأدب الجاهلي ، كما صارت الحياة الأموية في مظهرها وجوهرها ونوعها امتداداً للحياة الجاهلية .

فواعل الأدب الشيعي وأغراضه :

هذه هي فواعل الأدب الأموي ومصادره ؛ تراث جاهلي ، وإلهام إلهي ، وتأثير أجنبي ، وعصبية قبلية ، وأهواء سياسية . . . وهذه هي بعينها فواعل الأدب الشيعي في هذا العصر لأنه نوع منه . يصدر عن دوافعه ؛ وينبع من منابعه ويستقي من روافده . . . أخذ من لغة الآباء لغته وألفاظه ؛ ومن القرآن والحديث أسلوبه وحججه . ومن عقليات العراق وحضارته معانيه وأخيلته ؛ ثم استخدم

كل ذلك في أغراضه الشيعية : حب آل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والإخلاص لقرباته - رضى الله عنهم - ، والاحتجاج لحقهم في الخلافة ، ومناخة خصومهم من أمويين ، وزيرين ، وخوارج ، ثم عباسيين ، ورثاء قتلاهم ، ومدح عقيدتهم .

بيشته :

ولقد كان العراق مدرج هذا النوع من الأدب . والعراق منذ القدم موطن أم عظيمة ، ونحل متعددة : فالبابليون ، والأشوريون ، والكلدانيون ، والفرس ؛ كل هؤلاء اتخذوا العراق وطنًا ، فخلقوا فيه حضارة ، كما عرفه العرب قديمًا فنزلت فيه قبائل من بكر وتغلب ، وكونوا إمارة المناذرة ؛ وظل - حتى بعد الفتح - منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه .

في الطبرى : بعث عتبة أنس بن جحية إلى عمر بمنطقة مرزبان «دست ميسان» فقال له عمر : كيف المسلمون ؟ فقال : انثالت عليهم الدنيا ، فهم يهيلون الذهب والفضة . . . فرغب الناس في البصرة فأتوها ^(١) .

وقد فتح المسلمون العراق في عهد عمر - رضى الله عنه - ، فعرفوا هذا الميراث الوافر الذى خلفته تلك الأمم من العلم والأدب والسياسة والعقائد . والعراق - إلى العهد الذى نؤرخه - لم يؤت قوة التمثيل والهضم ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر ، وغدا موطن الفرق ، وعش الخلاف والتحزب .

(١) عتبة بن غزوان المازنى . ولى البصرة وما حولها لعمر بن الخطاب . رضى الله عنه - (طبرى ج ٤ ص ١٤٩) ومرزبان : الرئيسى الدينى . ودست ميسان : اسم بلد هناك .

يقول ابن أبي الحديد : وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء ، وأصحاب النحل العجيبة ، والمذاهب البديعة . وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ، ونظر وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة في المذاهب ، وقد كان منهم في أيام الأكَسرة مثل (ماني) و (يُصَان) و (مزدك) وغيرهم^(١) .

ولذلك رأينا العراق في هذا العهد مهد الفتن ، ومنبت الأحزاب ، ومستقر المعارضة الشيعية في شماله ، والخارجية في جنوبه .

ولا شك أن البيئة والوطن الجغرافي أكبر الأثر في تكوين الملكات ، وظهورها في سمات العصر التي تكون قد ولدت فيه ، فلا غرو أن كان الأدب العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة ، والأهواء الخلقية ، فهو قوى عنيف ، يكثر فيه الهجاء والفخر ، والنزعات المذهبية ، وتتلون فيه المساجلة الحزبية ألواناً شتى ، في لفظ جزل ، وأسلوب رصين ، وحجاج عنيف ، وصور بدوية . . . وكذلك كان الأدب الشيعي .

أطوار الأدب الشيعي :

عماد الأدب الشيعي الاحتجاج لعليّ وبسط نظريته في الخلافة ، وتبيان أنه - ثم ذريته من بعده - أولى الناس بسلطان الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد تدرج يدعو إلى ذلك تدرج الفكرة الشيعية ، والحياة السياسية للشيعية ؛ وسوف نذكر دائماً الفكرة الشيعية وتدرجها لنرى أن الأدب الشيعي قد سائر هذه الفكرة وصورها ، فبدأ قوياً محكم الجدل ، عربي التفكير والخيال أيام علي ومعاوية ، حتى إذا اصططخت الحياة الشيعية ، وأريقَت الدماء العلوية ؛ رأينا الأدب الشيعي ثائراً ، عنيفاً ، هداماً ، مضطرباً ، يموج بالفتن والعقائد الشيعية .

(١) ابن أبي الحديد ج ٧ ص ١٧٦ .

الطور الأول وأسس الحجاج فيه :

ولقد كانت حادثة « كربلاء » الملتطخة بدماء الحسين وآل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - حداً فاصلاً بين طورين من أطوار هذا الأدب الخصب ، كان في الأولى حباً صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وموازنة جريئة بين خليفة وخليفة ، وحجاجاً عربياً صريحاً ، مؤسساً على نظرة العربي الذي هذبته الإسلام للرياسة وبيت الرياسة ، فأسبق الناس إلى الإسلام ، وأمسهم رحماً بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وأشدهم جهاداً للعدو ، وبلاء في نصرة الدين ، وأرسخهم قدماً في الجاهلية أحق الناس بخلافة المسلمين ، وزعامتهم ، وذلك كله قد اجتمع لعلى بن أبي طالب - رضى الله عنه - الفضله وسبقه وقرابته وجهاده .

في ذى الحجة سنة ٣٦ هجرية وفد - أبو عمرة - بشير بن عمرو بن محصن الأنصارى ، وسعد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي - رسلاً من قبل على - على معاوية بن أبي سفيان ، ليدعوه إلى الله والطاعة لأمر المؤمنين على بن أبي طالب ، فحمد الله بشير ، وأثنى عليه ، ثم قال : « يا معاوية ، إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة . وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ، وجازيك بما قدمت يداك ، وإني أشدك الله - عز وجل - أن تفرق جماعة هذه الأمة ، وأن تسفك دماءها بينها .

فقال معاوية : هلا أوصيت بذلك صاحبك ؟ .

فقال أبو عمرة : إن صاحبى ليس مثلك ، إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر ، في الفضل ، والدين ، والسابقة في الإسلام ، والقرابة من الرسول - صلى الله عليه وسلم .

قال : فيقول ماذا ؟ . قال : يأمرك بتقوى الله عز وجل ، وإجابة ابن عمك إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فإنه أسلم لك في دنياك ، وخير لك في عاقبة أمرك .

قال معاوية : ونطل دم عثمان - رضى الله عنه - !؟ لا والله ، لا أفعل ذلك أبداً ، فذهب سعيد بن قيس يتكلم ؛ فبادره شبت بن ربيع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

يا معاوية إني قد فهمت ما رددت به على ابن محصن ، إنه - والله - لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب ، إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم ، إلا قولك : « قتل عثمان مظلوماً ، فنحن نطلب بدمه ، فاستجاب لك سفهاء طغام ، وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل ، لهذه المنزلة التي أصبحت تطلب ، ورب متمنى أمر وطالبه الله عز وجل يحولُ دونه بقدرته ، وربما أوقى المتمنى أمنيته ، وفوق أمنيته ، والله ما لك في واحدة منهما خير . . . لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالاً في ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق صلى النار . فانق الله يامعاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله .

فحمد الله معاوية . وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإن أول ما عرفت فيه سفهك ، وخفة حلمك قطعك على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقته ، ثم عنيت بعد فيما لا علم لك به . فقد كذبت ولومت أيها الأعرابي الجاف الجافي في كل ما ذكرت ووصفت ، انصرفوا من عندي ، فإنه ليس بيني وبينكم إلا السيف .

فخرج القوم ، وشبت يقول : « أفعلينا تهول بالسيف !؟ . أقسم بالله ليمعلن بها إليك^(١) » .

* * *

ونحب أن نقف قليلا عند كلمة بشير بن عمرو وما اشتملت عليه من أصول الحجاج الشيعي .

بدأ بشير كلمته ، ففاضل بين الدنيا والآخرة ، فتلک زائلة عن معاوية ، وهذه مآبه ، ليتلفت إلى ما هو خير له ، وأبقى لسعادته ، وفي الآخرة يحاسب الإنسان على عمله ، ويجازى بما قدمت يداه ، وتلك تعاليم إسلامية بحجة لم يكن يلتفت إليها الذهن الجاهل .

ثم ناشده الله ألا يفرق الجماعة ويسفك الدماء ، حتى إذا ذكر صاحبه أخذ يبين له فضله واستحقاقه الخلافة ، فلم نر إلا حجباً عربية صريحة ، فضل ودين ، وسابقة في الإسلام ، وقرابة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم . . . وهكذا كانت أصول الاحتجاج الشيعي في هذه الفترة .

وكلمة شبت بن ربعي في موقف معاوية من عثمان تذكرنا بنقاش طريف جرى بين معاوية وأبي الطفيل - عامر بن وائلة الكندي - حين قال له : يا أبا الطفيل ؛ قال نعم ؛ قال : أنت من قتلة عثمان ؟ قال : لا ، ولكني ممن حضره ولم ينصره ؛ قال : فما منعك أن تنصره ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار فلم أنصره ؛ قال : لقد كان حقه واجباً وكان عليهم أن ينصروه ؛ قال : فما منعك من نصره - يا أمير المؤمنين - وأنت ابن عمه ؟ قال : أو ما طلبى بدمه نصرة له ، فضحك أبو الطفيل ، ثم قال : مثلك ومثل عثمان كما قال الشاعر :

لَأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبُنِي وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدَنِي زَادِي^(١)

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٢٩ . والبيت يضرب مثلاً لمن يضيع أخاه في حياته ثم يبكيه بعد موته (اليداني ج ٢ ص ١٧٩)

ولا نريد أن ندخل في التفاصيل التاريخية لهذه الحادثة التي اتخذها بنو أمية مطية إلى الملك ، وليس من سبيلنا أن نفصل في هذه القضية ، وموقف الصحابة منها ، على أنه قد سئل على بن أبي طالب - رضى الله عنه - عن رأيه في عثمان - رضى الله عنه - وقتليه ؟ فقال : « استأثر فأساء الأثرة ، وجزعوا فأساءوا الجزع ، والله حكم واقع في المستأثر والجازع ^(١) » .

وتحاور الحسن بن علي - رضى الله عنهما - مع أبيه ، فقال الحسن ، « دع عنك هذا ، والله إنى لا أظن ، بل لا أشك أن ما بالمدينة من عاتق ، ولا عذراء ولا صبي إلا وعليه كفل من دمه ^(٢) » .

نترك هذا إلى مثال آخر من أمثلة الحجاج الشيعي في هذا الطور ، في الطبرى وابن الأثير : « لما تواضع على ومعاوية يوم صفين في الحرم سنة ٣٧ ، اختلف بينهما الرسل رجاء الصلح ، فبعث على عدى بن حاتم ، ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزباد بن خضفة إلى معاوية ، فلما دخلوا حمد الله عدى بن حاتم ثم قال :

« أما بعد فإننا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كlettنا وأمتنا ، ويحقق به الدماء ، ويؤمن به السبل ، ويصلح به ذات البين . . . إن ابن عمك سيد المسلمين : أفضلها سابقة ، وأحسنها في الإسلام أثراً ، وقد استجمع له الناس ، وقد أرشدهم الله عز وجل بالذى رأوا ، فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فاتته يا معاوية ، لا يصبك الله وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل » .

فقال معاوية : « كأنك إنما جئت متهدداً ، لم تأت مصلحاً ! هيهات - يا عدى

(١) ضى الاسلام ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٢) الامامة والسياسة ص ٤٧ والعائق الجارية أول إدراكها .

كلا والله إني لابن حرب ، ما يقعق لي بالشنان ، أما والله إنك لمن المجالين على ابن عفان - رضى الله عنه - وإنك لمن قتلته ، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به ، هيهات يا عدى بن حاتم قد حلبت بالساعد الأشد^(١)

فقال له شبت بن ربيع ، وزباد بن خصفة - وتنازعا جواباً واحداً : « أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ؟ دع مالا ينتفع به من القول والفعل ، وأجبنا فيما نعمنا وإياك نفعه » .

وتكلم يزيد بن قيس فقال :

« إنا لم نأتك إلا لنبلغك ما بعثنا به إليك ، ولنؤدى عنك ما سمعنا منك ونحن - على ذلك - لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة ، وأنت راجع به إلى الألفة والجماعة - إن صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله . ولا أظنه يخفى عليك ، إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميلوا^(٢) بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ، ولا تحالف علياً ، فإنا والله ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه » .

فحمد الله معاوية ، ثم أثنى عليه وقال :

« أما بعد فإنكم دعوتكم إلى الطاعة والجماعة ، فأما الجماعة التى دعوتكم إليها

(١) القعقة : تحريك الشئ اليابس . والشنان جمع شن بالفتح : القرية البالية وهم يفعلون ذلك لحث الإبل ؛ فإذا قعق لها نفرت . والكلمة مثل يضرب لمن لا يقعق لما ينزل به أو لا يروعه مالا حقيقة له . وفى المثل حلبتها بالساعد الأشد أخذتها بالقوة إذ لم تأت بالرفق . يعنى معاوية شدة استعدادة للقتال وتأهبه له .

(٢) التميل : الترجيح .

فمعناها هي ، وأما الطاعة لصاحبكم فإننا لا نراها ؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرق
جماعتنا ، وأوى ثأرنا^(١) وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله ، فنحن لا نرد ذلك
عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ، ألسن تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم إلينا
فلنقتلهم به ، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة » .

فقال شبت : أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار^(٢) تقتله ؟ .

فقال معاوية : وما معنى من ذلك ؟ والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلتها
بعثمان - رضي الله عنه - ولكن كنت قاتله « بناتل » مولى عثمان .

فقال شبت : وإله الأرض ، وإله السماء - ما عدلت معتذلا^(٣) ، لا والذي
لا إله إلا هو ، لا تصل إلى عمار ، حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام ، وتضيق
الأرض الفضاء عليك برحبها » .

فقال معاوية : « إنه لو قد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق » .

(١) الثأر : قاتل حميك .

(٢) عمار بن ياسر - رضي الله عنه - أحد السابقين الأولين : تحمل هو وآله
في سبيل عقيدتهم الإسلامية مالا يحتمله بشر وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يمر عليهم وهم يعذبون فيقول : « اصبروا آل ياسر فمروعدكم الجنة » تلاحى هو وعثمان
ابن عفان فسبه عثمان فغضب رسول الله لعمار وقال : عمار جلدة ما بين عيني وأنفي » وفي
عمار يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا ابن سمية لا يقتلك أصحابي ، ولكن تقتلك
الفئة الباغية » ، فأراد شبت أن يخرج معاوية بذلك إذ كان عمار في جيش على .
فكأنه يقول : إنك إن قتلت عماراً - وكان من أصحاب علي - كنت من الفئة الباغية
كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٣) يريد لست عادلاً أن عدلت عماراً بمولى عثمان . وتندر الهام تسقط الرموس
عن الأعناق ، والرحب بالضم الاتساع .

وتفرق القوم عن معاوية ، فلما انصرفوا بعث إلى زياد بن خصفة التميمي نخلا به ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد يا أخا ربيمة ، فإن علياً قطع أرحامنا ، وآوى قتلة صاحبنا ، وإني أسألك النصر بأسرتك وعشيرتك ، ثم لك عهد الله جل وعز ، وميثاقه ؛ أن أوليك إذا ظهرت - غلبت وانتصرت - أي المصيرين أحببت » .

فقال زياد : « أما بعد ، فإني على بينة من ربي ، وبما أنتم على ، فلن أكون ظهيراً - معيناً - للمجرمين » ^(١) .

ويقول عياض ^(٢) الثمالي لما بايع شرحبيل بن السمط معاوية :

فإن ابن حربٍ ناصبٌ لك خُدعةً
تكونُ علينا مثلَ رَاغِيَةِ البَكْرِ ^(٣)
فإن نالَ ما ترجو له كانَ مُلْكُنَا
هنيئاً له ، والحربُ قاصمةُ الظَّهِرِ
وإنَّ عَدِيًّا خَيْرٌ من وطِيءِ الحَصَا
من الهاشميين ، المداريك للوتر
له في رِقَابِ النَّاسِ عهدٌ وذِمَّةٌ
كعهد أبي حفصٍ وعهد أبي بكر

(١) طبري ج ٦ ص ٢ وابن الأثير ج ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) عياض شاعر شامي . روى أن علياً - رضى الله عنه - أرسل جرير بن عبد الله البجلي ليأخذ البيعة من معاوية ، فأشار عليه عمرو بن العاص أن يرسل إلى شرحبيل - سيد الشام - فيشركه في أمره ، ويلزم علياً دم عثمان ، ففعل .

(٣) وفي اللؤلؤ كانت عليهم كراغية البكر - يضرب للتشاؤم بالشيء ، والراغية : الرغاء ، والمراد بكر محمود - لما عمر قدار بن سالم ناقة رسول الله صالح - فأهلكهم الله .

فبايع ولا ترجع إلى العقب كافرًا أُعِيذُكَ بِاللّهِ الْعَزِيزِ مِنَ الْكُفْرِ
ويقول عمرو بن الحُمَيْق :

« والله يا أمير المؤمنين ، إني ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك
ولا إرادة مال تؤتيني ، ولا التماس سلطان ترفع ذكرى به ، ولكنني أحببتك
بخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ووصيه ، وأبو الذرية
التي بقيت فينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأسبق الناس إلى الإسلام ،
وأعظم المهاجرين سهمًا في الجهاد . فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي ، ونزح
البحور الطوامي ، حتى يأتي عليّ يوم في أمر أقوى به وليك ، وأهين به عدوك ،
ما رأيت أني قد أديت فيه كل الذي يحق عليّ من حقك » .

ولما انتهى أمر القوم إلى التحكيم وأجمع أهل العراق على طلب أبي موسى
الأشعري^(١) ليكون حكمًا على مروق عليّ أتاه عبد الله بن عباس رضى الله عنهما
وعنده وجوه الناس وأشرفهم فيبين له الخديعة ، ومقام عليّ من القضية ، ومنزلة
معاوية ، ودهاء عمرو بن العاص ، كما أتاه شريح بن هانئ فقال له :

« يا أبا موسى ، إنك قد نُصِبْتَ لأمر عظيم لا يُجْبَرُ صدعه ، ولا تستقال فلتته
ومهما تقل من شيء لك أو عليك يثبت حقه ، ويرى صحته وإن كان باطلاً ، وإنه
لا بقاء لأهل العراق إن ملكهم معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكهم

(١) كان أبو موسى الأشعري عامل « علي » على الكوفة ، فكتب إليه « علي »
ليستنفر الناس لقتال عائشة ومن معها في وقعة الجمل ، فنبطهم حين خطبهم فقال :
« فأما إذ كان ما كان فإنها فتنة صماء ، النائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها
خير من القاعد ، والقاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الراكب ، فكونوا
جرثومة من جراثيم العرب ، فأغمدوا السيوف ، وأنصلوا الأسنة » .

على ، وقد كانت منك تثبيطة أيام الكوفة والجل ، فإن تشفعها بمثلها يكن
الظن بك يقيناً ، والرجاء منك ياساً ، ثم قال :

أبا موسى : رُميت بشر خصم فلا تضع العراق ، فذلك نفسي
وأعط الحق شامهم وخذه فإن اليوم في مهل كأمس
وإن غداً يجيء بما عليه كذلك الدهر من سعد ونحس
ولا يخذعك عمرو ، إن عمراً عدو الله مطلع كل شمس
له خدعٌ يحار العقل فيها موهة ، مزخرفة بلبس
فلا تجعل معاوية بن حرب كشيخ في الحوادث غير نكس^(١)
هداهُ اللهُ للاسلام فرداً سوى عرس النبي وأى عرس^(٢)

ويخطب الأشر النخعي^(٣) - قائد على ومساعدته - على فرس أدهم « بقناصرين »
يحرض الناس على القتال فيقول :

« الحمد لله الذي خلق السموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى

(١) التمسك : الضعيف ،

(٢) يريد خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من أسلم
من النساء ، كما كان على أول من أسلم من الصبيان - ابن أبي الحديد ج ١ ص ١٩٠
والإمامة والسياسة ج ١ ص ٩٩ .

(٣) الأشر النخعي : مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي ، توفى سنة ٣٨ هـ ،
مات مسموماً ، سمه معاوية بن أبي سفيان حين أراد على إرساله إلى مصر فعظم ذلك
عليه فبعث إليه من سمه فى الطريق بشرية عسل . وفيه قال معاوية : « إن لله جنوداً
فى العسل » ثم قام خطيباً فقال : أما بعد ، فإنه كان لعلى بن أبى طالب يدان يمينان ،
قطعت إحداهما يوم صفين - يعنى عمار بن ياسر - وقطعت الأخرى اليوم - يعنى
الأشر النخعي - طبرى ج ٦ ص ٦٤ .

السموات وما في الأرض ، وما بينهما وما تحت الثرى . أحمد على حسن البلاء وتظاهر النعماء ، حمداً كثيراً ، بكرة وأصيلاً . من هداه الله فقد اهتدى ، ومن يضلل فقد غوى » أرسل محمداً بالصواب والهدى ، فأظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وآله .

ثم قد كان مما قضى الله سبحانه وقدر ، أن ساقطنا المقادير إلى أهل هذه البلدة من الأرض ، فلفت بيننا وبين عدو الله وعدونا ، فنحن بحمد الله ونعمه ، ومنه وفضله ، قريرة أعيننا ، طيبة أنفسنا ، نرجو بقتالهم حسن الثواب ، والأمن من العقاب .

معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله : على بن أبى طالب ، صلى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ، ولا نبوة ، ولا هفوة^(١) ، ولا سقطة ، فقيه في دين الله تعالى ، عالم بحدود الله ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل » وعفاف قديم .

فاتقوا الله ، وعليكم بالحزم والجد ، واعلموا أنكم على الحق ، وأن القوم على الباطل . . . إنما تقاتلون معاوية وأنتم مع البدرين - قريب من مائة بدرى^(٢) - سوى من حواكم من أصحاب محمد ، أكثر ما معكم رايات قد

(١) الصبوة : جهلة الفتوة . ونبا السهم عن الهدف : قصد ولم يصب ، والمراد : لا يعرف التقصير في الدين .

(٢) شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوة بدر الكبرى التي نشبت في السنة الثانية من الهجرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم : « يا آل بدر اضلوا ما شئتم فقد غفر لكم » .

انظر مع كتب الحديث أصل الشيعة وأصولها .

كانت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعاوية مع رايات قد كانت مع
المشركين على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فمن يشك في قتال هؤلاء
إلا ميت القلب .

أتم على إحدى الحسينين - إما الفتح وإما الشهادة - عصمنا الله وإياكم بما عصم
به من أطاعه واتقاه ، وألهمنا وأياكم طاعته وتقواه ، وأستغفر الله لي ولكم^(١) .
وكلمة الأشر - فوق دلالتها الشيعية - نموذج حسن للخطابة الإسلامية ،
ودليل صادق على ما فعله الاسلام في العقل العربي من الصقل والتهذيب ، والتلفت
بالخطابة إلى غرض خلقى أسمى من أغراضها في الجاهلية .

بدأ الأشر كلمته بحمد الله والثناء عليه ، والصلاة على محمد - صلى الله عليه
وسلم - وتلك ميزة الخطابة الإسلامية ، ثم ذكر كيف ساقه القدر إلى بلد جمع
بينه وبين عدو الله وعدوه . . . ووصف أعدائه بأنهم أعداء الله تعبیر يلهب
النفوس المسلمة ، ويدفعها إلى الاخلاص في سبيل الله ، ونصرة دينه ، ولا يزال
الأشر مع صحب يرون الجهاد واجباً ، ومحاربة أعداء الله ديناً ، لا يرجون من
وراء ذلك إلا حسن الثواب ، والأمن من العقاب ، يخوضون غمرات الحروب على
إحدى الحسينين - الفتح أو الشهادة - وكذلك يقول الأشر .

ثم أخذ يحتاج لصاحبه فسلك كل سبيل تقر به نفوسهم ، وتقوى عزائمهم ،
وانظر إلى هذا الأسلوب الرائع الجذاب الذى بدأ به حججه لخليفته . . « معنا
ابن عم نبينا ، وسيف من سيوف الله ، على بن أبى طالب » . . . أفلمست معى
أن من ينتصر لسيف الله ، ويقا تل تحت رايته ، فقد استمسك بالعروة الوثقى ،
وسلك سبيل الحجة ؟

حتى إذا وصل إلى غرضه ، فجمع قلوبهم بيده ، أمرهم بالحزم والجد ، وأعلمهم أنهم على الحق ، وأن القوم على الباطل .

ثم انتقل بهم إلى أسلوب آخر يبعث على الاستماتة في الجهاد ، هو أنهم يقاتلون مع « بدرين » مع من جاهد تحت لواء الرسول - صلى الله عليه وسلم - في هذه الموقعة الفاصلة ، فضمن لهم رسول الله الجنة ، وبشرهم بمغفرة الله ورضوانه ، والمراء يحشر مع من أحب ، أما معاوية وصحبه - أعداء الله وأعداؤهم - فتخفق فوق رؤوسهم راية الشرك والضلال ، راية طالما حاربت رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

والأشتر في هذه الموازنة خطيب درس أحاسيس القوم .

فأنت ترى كيف أفاد الإسلام العقل العربي إلى حد بعيد ، فنظم تفكيره ، وهذب من حواشيه ، وكيف أن القرآن علمهم قوة الحجاج ، ودقة المنطق ، ووحدته الفرض .

وأنت ترى كذلك أن الحجاج الشيعي في هذه الفترة تقوم أسسه على الخلال الإسلامية الكريمة ، والقراية من رسول الله - عليه الصلاة والسلام .

أدب الموازنة بين بنى هاشم وبنى أمية :

وفي كلمة الأشتر موازنة صريحة بين علي ومعاوية ، والموازنة بين الهاشميين والأمويين سبيل من سبل القول الشيعي .

يقف ابن عباس - رضى الله عنه - بصفين ، فيقول بعد حمد الله والثناء عليه : « وقد ساقنا قدر الله إلى ما ترون ، حتى كان مما اضطرب من حبل هذه الأمة ، وانتشر من أمرها ، أن معاوية بن أبي سفيان وجد من طعام الناس أعواناً على ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصهره ، وأول ذكر صلى

معه ، بدرى قد شهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل مشاهدته التي فيها الفضل ، ومعاوية مشرك ، كان يعبد الأصنام ؛ والذي ملك الملك وحده ، وبأن به وكان أهله ، لقد قاتل على بن أبي طالب - عليه السلام - مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : صدق الله ورسوله ، ومعاوية يقول : كذب الله ورسوله .

فعلیکم بتقوى الله والجهد والحزم والصبر ، والله إنا لنعلم أنکم لعلی الحق وأن القوم لعلی الباطل ، فلا یكونن أولى بالجهد علی باطلهم منکم فی حقکم ، وإنا لنعلم أن الله سيعذبهم بأيديکم أو بأيدي غیرکم ، اللهم أعنا ولا تتخذنا ، وانصرنا علی عدونا ، ولا تحمل عنا ، وافتح بیننا وبين قومنا بالحق ، وأنت خير الفاتحين »^(١) .

على أستاذ الحجاج الشيعي :

وأدب الموازنة وضع على بن أبي طالب - رضى الله عنه - أسسه ، وعلى - من غير شك - هو المؤسس الأول للحجاج الشيعي ، وتستطيع أن ترجع إلى التراث الأدبي لابن أبي طالب ليتجلى لك كيف استطاع أبو الحسن أن يشرح فكرته في سياسة الناس ، ويبسط استحقاقه للخلافة .

وقد رأينا في حديثنا عن الفكرة الشيعية كيف احتج على نفسه يوم السقيفة^(٢) ، فلنسمع إليه الآن يوازن بين بنى أمية وبنى هاشم في كتابه إلى معاوية فيقول :

« ولولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذا كر فضائل حجة

(١) ابن أبي الحديد ج ٥ ص ٥٠٤ .

(٢) أنظر أوائل هذا الكتاب .

تعرفها قلوب المؤمنين ، ولا تمجها آذان السامعين ، فدع عنك من مالت به الرمية^(١) ، فإننا صنائع ربنا ، والناس بعد صنائع لنا ، لم يمنعنا قديم عزنا ، ولا عادى طولنا على قومك أن خلطناكم بأنفسنا ، فنكحنا وأنكحنا فعل الأكفاء ، واستم هناك وأنى يكون ذلك كذلك ، ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا أسد الله ومنكم أسد الأحلاف ، ومنا سيدا شباب أهل الجنة ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ومنكم حمالة الحطب^(٢) ، وفي كثير مما لنا وعليكم ، فإسلامنا ما قد سمع ، وجاهليتنا لا تدفع ، وكتاب الله يجمع لنا ما شذ عنا ، وهو قوله : (وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) ، وقوله تعالى : (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين) .

فنحن مرة أولى بالقرابة ، وتارة أولى بالطاعة ، ولما احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلجوا عليهم ، فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم^(٣) .

وعلى يؤمن بأن خلافة المسلمين سيادة دينية ودنيوية ، فهي تحتاج مع السبق

(١) الرمية الصيد يرميه الصائد ، ومالت به : خالفت قصده فاتبعها ، مثل يضرب لمن اعوج غرضه فقال عن الاستقامة لطلبه .

(٢) الكذاب : أبو جهل . وأسد الله حمزة ، وأسد الأحلاف : أبو سفيان ، لأنه حزب الأحزاب وحالفهم على قتال النبي في غزوة الخندق . وسيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين بنص قول الرسول وصبية النار : قيل أولاد مروان بن الحكم وقد أخبر عنهم النبي بأنهم من أهل النار . وقيل أولاد عقبة بن أبي معيط أسر في بدر فأمر الرسول بقتله . فقال : من للصبية يا محمد ؟ فقال : النار ، وخير نساء العالمين فاطمة بنت محمد وحمالة الحطب أم جميل بنت حرب عمة معاوية - وزوج أبي لهب .

(٣) نهج البلاغة ج ٣ ص ٣٥ .

الدينى إلى سيادة عربية قديمة ، وقد كان له من ذلك حظ لم ينله معاوية فأخذ يذكر معاوية بقديمه وجديده ، ويبين له « أن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كهبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ، ولا الصريح كاللصيق ، ولا الحق كالبطل ، ولا المؤمن كالمدغل ^(١) » فكيف يقرن على معاوية ؟ وكيف يطمع ابن أبى سفيان أن يرقى فيكون من ساسة الرعية ، وولاة أمر الأمة ، بلا قدم سابق ، ولا شرف باسق ؟

وهكذا وضع على أدب الموازنة بين البيتین الهاشمی والأموي ، كما وضع عمد الحجاج الشيعى لخطباء الشيعة وشعرائهم ، فكانت كتبه وخطبه المنبع الذى يمتحنون منه جميعاً .

وبدهى أن أدب الموازنة يقوم على التكمشيف ، وبعث الماضى ، وفى ذلك تبيان للناس أى البيتین ذو أصل ثابت فى الجاهلية ، وفرع باسق فى الإسلام ، وأيهما أولى بسيادة الأمة ، فلاغزو أن كان هذا النوع من الأدب الحزبى أوسعها مجالا ، وأكثرها ذبوعاً ، حتى امتلأت به كتب الأدب والتاريخ .

المرأة الشيعية :

وقد اشتركت المرأة العربية فى هذا الجدال الحزبى ، فكان لها صوت

(١) نهج البلاغة ج ٣ ص ١٩ ، والطليق : أبو سفيان وابنه معاوية ، كانا من الطلقاء يوم فتح مكة سنة ثمان ، يوم أن قال الرسول لشركى مكة بعد الفتح - وفيهم أبو سفيان ومعاوية - اذهبوا فأنتم الطلقاء ، والصراحة والاتصاق هنا بالنسبة إلى الدين ، فالصريح : من أسلم اعتقاداً وإخلاصاً لم يلجئه إلى ذلك ملجئ . واللصيق : من أسلم تحت السيف أو رغبة فى الدنيا — انظر شرح النهج لأستاذنا محمد محيى الدين عبد الحميد .

مسموع ، ورأى فى الخلافة ، وعقيدة تنافح عنها ، فتردد فى الجو الشيعى أصوات « عكرشة بنت الأطرش » و « الزرقاء بنت عدى » و « أم الخير بنت الحريش » و « سودة بنت عمارة » و « أم سنان بنت خيثمة » و « دارمية الحجونية^(١) » كما سمعنا فى الجو الخارجى « أم حكيم صاحبة قطرى بن النجاة » و « غزالة زوج شبيب بن يزيد الشيبانى » ، ثم « فارعة بنت طريف » ، وموقف أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر فى وقعة الجمل يعرفه كل مسلم .

وقد ذكر ابن عبد ربه فى العقد فصلا ممتعا سجل فيه أدب الوافدات على معاوية من نساء الشيعة .

رأى زكى مبارك :

ويعتقد الدكتور زكى مبارك أنه من وضع الشيعة ، يصورون به أهواءهم فى حب آل البيت ، ولا يمكن أن يكون صحيحا ، ولا من وضع الأمويين ، ففى بعض هذه المواقف قذف لآل حرب ، ورمى بالبغى والنسوق ، وتذكير بمخازيهم فى الجاهلية والإسلام . . ومعاوية مهما حلم فعنده هيبة الملك ، وهى كفييلة أن ترد سفه الخطاب عند الحد المعقول^(٢) .

رأينا :

وعندنا أن الدكتور يحكم فى هذا خلق العصر الذى يعيش فيه ، وفاته أنه أدب قوم لا يزالون على فطرة البداوة وأخلاقتها ، ربوا على صراحة القول

(١) ترجم لمن فى بلاغات النساء . والدر للثور فى ربات الخدور ج ١ ، وانظر العقد الفريد ، وصبح الأعشى .

(٢) المدائح النبوية ص ٦٤ - ٦٥ بتصرف .

وصدق اللهجة ، وحرية التعبير عن أغراضهم ، والتاريخ ملئ بكثير من هذه المواقف التي جبه فيها ناس هذا العصر الخلفاء والأمراء ، وردوهم إلى حظيرة الصواب والحق ، لا ينههم سيف الحكم ولا بسطة السلطان .

« عدد معاوية بن أبي سفيان على الأحنف بن قيس ذنوباً ؛ فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ! لم ترد الأمور على أعقابها ، أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لعل عواتقنا ، ولئن مدت فترا من غدر لئمن باعا من ختر ، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك . . . قال : فإني أفعل » ^(١) .

وقدم عقبة الأسدى على معاوية فدفع إليه رقعة فيها :

« معاوىَ إِنَّا بشرٌ فَأَسْجَحُ فَلَسنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ
أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا فَجَرَدْتُمُوهَا قَهْلٌ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدٍ؟
قَهَبْنَا أُمَّةً هَلَكْتَ ضِيَاعًا يَزِيدُ أَمِيرَهَا وَأَبُو يَزِيدِ
أَتَطْمَعُ بِالْخُلُودِ إِذَا هَلَكْنَا وَلَيْسَ لَنَا وَلَا لَكَ مِنْ خُلُودٍ؟
ذَرُوا خَوَلَ الْخِلَافَةِ وَاسْتَقِيمُوا وَتَأْمِرَ الْأَرَاذِلَ وَالْعَبِيدِ

فدعابه معاوية فقال : ما جرأك على ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك ، فقال معاوية : ما أظنك إلا صادقاً ، وقضى حوائجه » ^(٢) .

(١) العقد ج ٢ ص ٣٢٧ .

(٢) العقد ج ١ ص ٢٩ وج ٣ ص ٤٠٩ ، وانظر نهاية الأرب ج ٢ ص ٨١ .

وكم سمع معاوية من صحابة على، وقد وفدوا عليه يذكرونه الله والجماعة، من القول الصريح الجارح، الذى تناول خلقه وإسلامه، فقابله بحجاج مثله .

ولقد كان معاوية يفهم نفسية الشعب ، ويعتقد أن القوم لم يسلموا إليه أمرهم عن حب ورضا ، ولكنه ملكهم قهراً .

« قدم المدينة بعد عام الجماعة ، فدخل دار عثمان بن عفان -رضى الله عنه- فبكت عائشة بنت عثمان ونادت أباه ، فقال معاوية: يا بننة أخى ، إن الناس أعطونا طاعة، وأعطيناهم أماناً ، وأظهرنا لهم حملاً تحت غضب ، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل إنسان سيفه ، ويرى موضع أصحابه ، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعليتنا تكون أم لنا ، ولأن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض الناس » .

وكلمة معاوية تصوير صادق لحالة العرب الحزبية ، وموقفهم من الدولة القائمة ، فكان على معاوية ألا يحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بينه وبين ملكه ، فلم يتجاوز ، وصانع رموس العرب وقروم مضر ، بالإغضاء والصبر واحتمال المكاره . يصفه عمرو بن العاص فيقول : « يضحك عند الغضب ، ولا ينام إلا على الرضى ، ويتناول ما فوقه من تحتة » .

ويقول فيه أبو الجهم العلوى متمثلاً :

ونفضبه لنخبر حالتيه
فنخبر منهما كرمًا ولينا
نمىل على جوانبه كأننا نمىل - إذا نمىل - على أيننا^(١)

ويقول عنه ابن عباس رضى الله عنهما : « كان الناس يردون منه على أرجاء

وادر حب»^(١) . . . فاستطاع أن يجمع الناس حوله بحلمه وصفحه ، ودهائه وحزمه حتى سجل له التاريخ خلال السياسى الحنك .

على أننا فى عصر النبوة ، ومع قوم ينزلون آل النبى - صلى الله عليه وسلم - من قلوبهم أسمى المنازل وأقدسها ، ويعتقدون حبهم ديناً وعقيدة ، لأنه حب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وزكاة يتقربون بها إلى الله ، حب يمثله قول المكفوف :

أَحِبُّكُمْ حُبًّا عَلَى اللَّهِ أَجْرُهُ تَضَمَّنَهُ الْأَحْشَاءُ وَاللَّحْمُ وَالْدَّمُ^(٢)

وقدم أبو الطفيل على معاوية ، فقال له : ما بلغ من حبك لعلى ؟ قال : حب أم موسى موسى ؛ قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال : بكاء العجوز الشكلى ، والشيخ الرقوب ، وإلى الله أشكو التقصير ؛ قال معاوية : إن أصحابى - هؤلاء - لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى ما قلت لصاحبك ؛ قالوا : إذأ ، والله ، لا نقول الباطل ؛ فقال معاوية : لا والله ولا الحق تقولون^(٣) .

وبعث زياد إلى رجل من رؤوس أصحاب حجر بن عدى - سيد شيعة الكوفة - فقال له : يا عدو الله ، ما تقول فى أبى تراب ؟ قال : ما أعرف أبا تراب ، فقال : ما أعرفك به ، أتعرف على بن أبى طالب ؟ قال : نعم ، قال : فذاك أبو تراب ، قال : كلا ! ذاك أبو الحسن والحسين ، فقال صاحب شرطته : يقول الأمير : هو أبو تراب ، وتقول لا ؟ ! قال : فإن كذب الأمير أكذب أنا ، وأشهد على

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٢٨ والعقد الفريد ج ١ ص ٢٩ .

(٢) العقد ج ١ ص ٢١ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٩ ، والعقد ج ٢ ص ٢٢٩ والأغانى ج ٣ ص ١٦٧ .

والرقوب من لا يبقى له ولد - وهى رقوب .

باطل كما شهد ؟ ! فقال زياد : وهذا أيضاً ! علىّ بالعصا ، ما تقول في علي ؟ قال : أحسن قول ، قال : اضربوه ، فضربوه حتى لصق بالأرض ، ثم قال : أقلعوا عنه ، ما قولك في علي ؟ قال : والله لو شرحتني بالمواصي ما قلت فيه إلا ما سمعت مني ، قال : لتلعننه أو لأضربن عنقك ، قال : لا أفعل . فأوثقوه حديداً حتى مات في سجنه » .

وهكذا كانت شيعة علي حباؤه ، وإيماناً بحقه ، يتعرضون للأذى في سبيل عقيدتهم وحريتهم ، فلا يزيدهم إلا تمسكاً . . . وإذا كان لا بد للمصدر أن يتنفث ، كان لا بد لكلامه أن يكون عنيفاً حاراً .

صراحة البدوي :

وأنت إذا درست الحياة العربية وجدت هذه الصراحة ، والفناء في العقيدة ، دين العربي إبان الدولة الأموية ، إذ كانت دولة عربية ، تمتاز ببداوتها ، وتفتى في سبيل إرادتها . وفي الأدب الأموي - الخارجي والزيري - كثير من هذه المواقف ، مع ولاية ليسوا كعاقبة حلماء وسماحة وديناً ، مع الحجاج وزيد ، وأمثال الحجاج وزيد ، ممن سجل لهم التاريخ خلال الجبروت والقسوة ، ومع هذا يقف العربي أمام هؤلاء ، وسيوفهم مُصلّية تقطر دماً ، فلا يزحزحه ذلك عن رأيه . . . لا ، بل لا يزيد ذلك إلا صراحة وعففاً ، ذاك لأن نفوس القوم في هذا العصر لم تكن لتعرف الذل والخنوع .

تقف حرورية بين يدي الحجاج ، فيسأل أصحابه : ما تقولون في هذه ؟ قالوا : اقتلها ، أصلح الله الأمير ، ونكل بها غيرها ؛ فتبسمت الحرورية ، ثم قالت : لقد كان وزراء أخيك « فرعون » خيراً من وزرائك يا حجاج !! استشارهم في قتل موسى - عليه السلام - ، فقالوا : « أرْجِهْ وأخاه » ، وهؤلاء

يأمرؤنك بتمجيل قتلى ؟ ! فضحك الحجاج وأمر بتركها»^(١).

فهذه حرورية مع الحجاج ، مع من قتل بسيفه مائة وعشرين ألفاً من المسلمين - كما يقولون - غير من ماتوا في سجنه ، ومع ذلك جبهته برأيها ، في موقف كانت فيه أحوج ما تكون إلى التضرع .

« وقدم إليه أسارى من الخوارج ، فعرضهم على السيف ، فقال أحدهم : لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيراً ، فإن الله تعالى يقول : (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أخفتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منّا بعد) وإما فداء) ، فهذا قول الله في كتابه ، ولقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

وما نقتلُ الأسرى ، ولكن فكهم

إذا أثقلَ الأعناقَ حلُّ المغارم

فأفاق الحجاج من سكرة السلطان ، ثم قال : ويحكم ! أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني به هذا المنافق ؟ ! .. وأمسك عن القتل»^(٢).

ودخل زيبرى على عبد الملك بن مروان ، فقال له : أليس الله قد ردك على عقبيك ؟ فقال : ومن رد إليك - يا أمير المؤمنين - فقد رد على عقبيه ، فسكت عبد الملك ، وعلم أنه أخطأ .

ووفد يزيد بن مسلم على سليمان بن عبد الملك ، فقال له : على امرئ أمرك ، وجراك ، وسلطك على الأمة لعنة الله ، أظن الحجاج استقر في قعر جهنم ، ام

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) العقد الفريد ج ٢ ص ١٥٤ والبيت للفرزدق .

هو يهوى فيها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الحجاج يأتى يوم القيامة بين أبيك وأخيك . فضعه من النار حيث شئت ^(١) .

وقال عبيد الله بن زياد لقيس بن عباد : « ما تقول فى وفى الحسين ؟ قال : اعفى - أعفك الله . قال : لا بد أن تقول . قال : يحىء أبوه يوم القيامة فيشفع له ، ويحىء أبوك فيشفع لك . . . قال : قد علمت غشك وخبتك ، لأن فارقتنى يوماً لأضعن أ كثرك شعراً بالأرض » ^(٢) .

هذا هو عصر بنى أمية ، وتلك أخلاق القوم فيه ؛ صراحة وجراءة وعنف ، وحرية رأى ، وقوة شكيمة . . . فإذا أضفنا إلى ذلك شيئاً آخر هو أن معاوية كان أكبر همة ، وأسمى نفساً من أن يقدم على قتل امرأة مهما أغلظت له ، فيعرض نفسه وعرضه لشر كثير ، وألوان من النقد لا قبل له بها .

وأخرى أن هذا الأدب قد قيل جملة بهصفين ، وصاحبته بين قومها ، وشجعان عشيرتها ، فهى فى مأمن حصين من معاوية وسيفه ، كان لا بد لنا أن نؤمن بصحة هذه المواقف على ما فيها من قوة وعنف ، وأن تطمئن نفوسنا إلى رواية هذا الأدب النسوى على أنه من سجلات الأدب الشيعى الخالد .

فلنستمع إلى المرأة العربية تعلن رأيها فى هذه المشكلة ، التى أسالت الدماء ، وحيرت العقول .

وسوف نرى أنها فى أسلوبها ، وأصول احتجاجها ، لم تخرج عما عرفناه من أصول الاحتجاج الشيعى فى هذا الطور .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٢٩ ويزيد كاتب الحجاج وانظر الجزء الثانى من العقد .

(٢) العقد القريد ج ١ ص ٢٤٥ وابن الأثير ج ٣ ص ١٠٥ .

عن الشعبي قال : « وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية ابن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه ، فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر ؟ قالت : بخير ، يا أمير المؤمنين ، فقال لها : أنت القائلة لأخيك :

سَمَرْتُ كَفَعَلِ أَيْبِكَ يَا بْنَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعَانِ وَمُلْتَقَى الْأَقْرَانِ
وَأَنْصُرُ عَلِيًّا ، وَالْحُسَيْنَ وَرَهْطَهُ وَأَقْصِدْ لَهْنَدَ وَابْنَهَا بَهْوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عِلْمَ الْهَدَى ، وَمَنَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدْ الْجِيُوشَ ، وَسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدَمَاءَ بِأَبْيَضَ صَارِمٍ وَسَيْنَانَ ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبتر الذنب ، فدع عنك تذكارا ما قد نسي . . قال : هيهات ! ليس مثل مقام أخيك يفسى . قالت : صدقت ، والله يا أمير المؤمنين ، ما كان أخى خفى المقام ، ذليل المسكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارُ

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيتني . قال : قد فعلت ، فقولى حاجتك . قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأموورهم مقلد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك ، ويبسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد السنبيل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة ، ويسألنا الجليلة . . . هذا ابن أرطاة^(١) قدم بلادي ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا

(١) بسر بن أرطاة : هو الذى أرسله معاوية فى خلافة على إلى الحجاز . ثم اليمى لىستولى عليها ففعل بهما الأفاعيل ، وكان على اليمى عبيد الله بن عباس من قبل على ، فهرب عبيد الله فترها بسر . وذبح عبد الرحمن وقثم ابنى عبيد الله . وكانا طفلين بين يدى أمهما عائشة بنت عبد المدان فأصابها من ذلك حزن شديد ، وورثهما بشعر يذيب القلب حسرة ، رغبة الآمل ج ٨ ص ١٥٨ . والأغانى ج ١٥ ص ٤٢ .

الطاعة لكان فينا عز ومنعة ، فإما عزلته عنا فشكرناك ، وإما لا فعرفناك ؛ فقال معاوية : إياي تهديدن بقومك ؟ ! والله لقد هممت أن أردك على قتب^(١) أشرس ، فينفذ حكمه فيك . فسكتت ثم قالت :

صَلَّى الْإِلَهُ عَلَى رُوحِ تَضَمَّنَهُ قَبْرٌ ، فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْغِي لَهُ ثَمَنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : على بن أبي طالب ، رحمه الله . قال : ما أرى عليك منه أثراً . قالت : بلى ، أتيتته يوماً في رجل ولاء صدقاتنا ، فكان يديننا ويدينه ما بين الفث والسمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فانفتل من الصلاة ، ثم قال - برأفة وتعطف - : ألك حاجة ؟ ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ، ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . . (قد جاءكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ) إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يدك ، حتى يأتي من يقبضه منك . . . والسلام » .

فأخذته منه يا أمير المؤمنين ، ما خزمه بخزام ، ولا ختمه بخاتم .

فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والعدل عليها . فقالت : ألى خاصة ، أم لقوم عامة ؟ ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي ، والله ، إذا الفحشاء واللؤم إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ،

(١) القتب : الإكاف الصغير ، والأشرس الحشن القليظ . وهو صفة البعير .

قال : هيهات ! لظنكم^(١) ابن أبي طالب الجراءة على السلطان ، فبطيئاً ما تفتطمون ،
وغيركم قوله :

فلو كُنْتُ بَوَّاباً عَلَى بَابِ جَنَّةٍ
لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ ، اذْخُلُوا بِسَلَامٍ

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُعَلِّقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ
كَالْمُهْنَدُ وَانَى لَمْ تُفَلِّلْ مَضَارِبُهُ وَجْهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ رُجَابٍ
اكتبوا لها بحاجتها^(٢) .

وعن عبد الله بن عمر الفسائي عن الشعبي ، قال : « كتب معاوية
إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقبة البارقي
يرحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه ، بالخير خيراً ، وبالشر شراً .
فلما ورد عليه كتابه ، ركب إليها فأقرأها كتابه ، فقالت : أما أنا فغير
زائفة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب ، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين
لأُمُورٍ تختلج في صدري .

فلما شيعها ، وأراد مفارقتها قال لها : يا أم الخير ، إن أمير المؤمنين
كتب إليّ أنه مجازي بقولك فيّ بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فما لي

(١) التلمظ : التدقيق وتتبع بقية الطعام في النعم ، والمراد عودكم .

(٢) سنى : سهل : العقد ج ١ ص ٢١١ ، وبلاغات النساء ص ٣٥ ، والدر المنثور
ج ١ ص ٢٥٣ وكان على كثيراً ما ينشد شعره هذا كلما رأى وفد همدان ، انظر
العقد ج ٢ ص ٢٤٧ والعمدة ج ١ ص ٢١ .

هناك ؟ قالت : يا هذا ، لا يطعمنك برك بى أن أسرك بباطل ، ولا يؤيسنك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق .

فسارت خير مسير ، حتى قدمت على معاوية ، فأنزلها مع الحرم ، ثم أدخلها .
فى اليوم الرابع ، وعنده جلساؤه . فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال لها : وعليك السلام يا أم الخير ، بحق ما دعوتنى بهذا الاسم ؟ قالت : يا أمير المؤمنين [مه ، فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ، و [لكل أجل كتاب . قال : صدقت ، فكيف حالك يا خالة ؟ وكيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : لم أزل - يا أمير المؤمنين - فى خير وعافية ، حتى صرت إليك ، فأنا فى مجلس أنيق ، عند ملك رفيق ...

قال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم . قالت : يا أمير المؤمنين ، يعيذك الله من دحض المقال ، وما تردى عاقبته ، . . . قال : ليس هذا أردنا ، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل « عمار بن ياسر » ؟ قالت : لم أكن - والله - زورته ^(١) قبل ، ولا رويته بعد ، وإنما كانت كلمات نقشتها لسانى عند الصدمة ، فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت ، [قال معاوية : لا أشاء ذلك] ...

ثم التفت إلى جلسائه ، فقال : أيكم يحفظ كلامها ؟ فقال رجل منهم : أنا أحفظ بعض كلامها يا أمير المؤمنين . قال : هات . قال : كأتى بها ، وعليها برد زبيدى ^(٢) ، كثيف التسج ، وهى على جل أرمك ^(٣) ، وقد أحيط

(١) زور الشيء : حسنه وقومه وهذبه .

(٢) الزبيدى : نسبة إلى زيد ، بلدة باليمن .

(٣) الجمل الأرمك : الرمادى اللون .

بها ، ويبيدها سوط منتشر الضفيرة ، وهى كالفحل يهدرُ في شتقته ،
تقول :

« يَايها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم . . . إن الله قد أوضح
لكم الحق ، وأبان الدليل ، وبين السبيل ، ورفع العلم . . . ولم يدعكم فى عمياء
[مُبهمة ولا سوداء] مدلهمة ، فأين تريدون — رحمكم الله — أفراراً عن أمير
المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟
أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين
ونبلو أخباركم) .

ثم رفعت رأسها إلى السماء ، وهى تقول :

« اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشرت الرغبة ، ويبدك — يارب —
أزمة القلوب ، فاجمع اللهم بك الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ،
واردد الحق إلى أهله . »

« هلموا — رحمكم الله — إلى الإمام العادل ، والرضى التقي ، والصدىق الأكبر ،
إنها إحن بدرية ، وأحقاد جاهلية ، [وضغائن أحدية] ، وثب بها واثب حين
العقلة ، ليدرك ثارات بنى عبد شمس . »

ثم قالت : « قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ، صبراً يامعشر
المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم ، فكأنى بكم
غداً ، وقد لقيتم أهل الشام ، كحمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، لا تدرى أين يسلك
بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى [وباعوا
البصيرة بالعمى] وعما قليل ليصبحن نادمين ؛ حين تحل بهم الندامة ، فيطلبون
الإقالة . ولات حين مناص . »

إِنَّه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستطابوا الآخرة فسعوا إليها ، فإِنَّه الله أيها الناس قبل أن تبطل الحقوق ، وتعطل الحدود [ويظهر الظالمون] وتقوى كلمة الشيطان ، فإلى أين تريدون - رحمكم الله - عن ابن عمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصهره ، وأبى سبطيه ، خلق من طينته ، وتفرع من نبعته ، [وخصه بسره] ، وجعله باب مدينته ، وأبان ببغضه المنافقين ، وها هو ذا مفلق الهام ، ومكسر الأصنام . صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزى بدر^(١) ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خير ، وفرق به جمع هوازن . . . فيالها من وقائع زرعت في القلوب نفاقاً ، وردة وشقاقاً ، وزادت المؤمنين إيماناً . . .

قد اجتهدت في القول ، وبالغت في النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة الله .

فقال معاوية : يا أم الخير ، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ، ولو قتلتك ما خرجت في ذلك ، قالت : والله ما يسوءني أن يجرى قتلى على يدي من يسعدني الله بشقائه ، قال : هيهات ! يا كثيرة الفضول ، ماتقولين في عثمان بن عفان - رحمه الله - ؟ قالت : وما عسيت أن أقول في عثمان ؟ استخلفه الناس وهم بهراضون ، وقتلوه وهم له كارهون ، قال معاوية : يا أم الخير ، هذا تناؤك الذي تشين ؟ قالت : لكن الله يشهد ، وكفى بالله شهيداً ، ما أردت بعثمان نقصاً ، ولكن كان سابقاً إلى الخير ، وإِنَّه لرفيع الدرجة غداً [قال : فما تقولين في طلحة بن عبيد الله ؟ قالت : وما عسى أن أقول في

(١) لما التقى الجمعان في بدر خرج عتبة بن ربيعة (والد هندام معاوية) بين أخيه شيبه وابنه الوليد طالبين مبارزة أقرانهم من قريش فنازلهم على وحمة وعبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب ، فقتل على الوليد ، وماعد عبيدة في قتل عتبة ، وقتل حمزة شيبه (سيرة ابن هشام . وغيرها من كتب التاريخ) .

طلحة ؟ اغتيل من مأمنه ، وأتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الجنة [قال : فما تقولين في الزير ؟ قالت : وما أقول في ابن عمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحواريه ؟ وقد شهد له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالجنة] ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام ، وأنا أسألك بحق الله - يا معاوية - فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها - [أن تسعني بفضل حلمك و] أن تعفيني من هذه المسائل ، وتسألني عما شئت من غيرها . . قال : نعم ، ونعمة عين ، قد أعفيتك منها .

ثم أمر لها بجائزة رفيعة ، وردها مكرمة ^(١) .

وفي صبح الأعشى : استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية ، فأذن لها ، فدخلت عليه ، وعليها ثلاثة دروع تسحبها ذراعاً ، قد لاثت على رأسها كوراً كالمنسف ^(٢) ، فسلمت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا بنة صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : ضعفت بعد جلد ، وكسلت بعد نشاط ، قال : شتان بينك اليوم وحين تقولين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَارُونَقَ عَضْبَ الْمَهْزَةِ لَيْسَ بِالْخَوَارِ
أَسْرِجَ جَوَادَكَ مُسْرِعًا وَمُشْمَرًا لِلْحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ بِفِرَارِ
أَجِبَ الْإِمَامَ وَذُبَّ تَحْتَ لَوَائِهِ وَالْقَى الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بِقَارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَمِيدَةً فَأَذِبَ عَنْهُ عَسَاكَرَ الْكَفَارِ

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢١٧ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٤٨ ، وبلاغات النساء ص ٤١ ، ونهاية الأرب ج ٧ ص ٢٤٧ والدر المنثور ج ١ ص ٥٧ .
(٢) درع المرأة قميصها - مذكر . ولاثت على رأسها كوراً أى لفت عمامتها على رأسها عدة لفات ، والمنسف : القربال وما ينسف به الحب ، وهو شيء ، طويل منتصب الصدر .

قالت : قد كان ذاك ، ومثلك من عفا ، والله - تعالى - يقول : (عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه) قال : هيهات ، أما والله لو عاد لعدت ، ولكن أخترم منك ، قالت : أجل ، والله إني لعلى بينة من ربى ، وهدى من أمرى ، قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : أنسيته ، قال بعض جلسائه هو - والله - حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مُصيبةٍ فُدِحَتْ ، فليس مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ
الشمسُ كاسفةٌ لِفَقْدِ إِمَامِنَا خَيْرِ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَىَّ وَمِنْ مَشَى فَوْقَ التَّرَابِ لِحَتْفٍ أَوْ نَاعِلِ
حَاشَا النَّبِيَّ لَقَدْ هَدَدَتْ قَوَاءَنَا فَالْحَقُّ أَصْبَحَ خَاضِعًا لِلْبَاطِلِ

فقال معاوية : قاتلك الله ! ! فما تركت مقالا لقاتل ، اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ، وقامت فغثرت ؛ فقالت : تعس شانىء على ، فقال : زعمت أن لا ؛ قالت : هو كما علمت .

فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ١٠ وقال : إذا ضيعت الحـلم من يحفظه !؟ (١) .

ويقول ابن عبد ربه فى العقد الفريد :

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية متوكئة على عكاز ، فسلمت عليه بالخلافة ، ثم جلست . . فقال لها معاوية : الآن يا عكرشة صرت عند أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، إذ لا علىّ حى ، قال : ألسـت المتقلدة حمائل السيموف بصفين ، وأنت واقفة بين الصفين تقولين :

« أيها الناس : عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إن الجنة لا يرحل من أوطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها ، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم ، مستظهِرين^(١) بالصبر على طلب حقهم ، إن معاوية دلف^(٢) إليكم بعجم العرب ، غلف^(٣) القلوب ، لا يفقهون الإيمان ، ولا يدركون الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه ، فاتقوا الله عباد الله في دين الله ، إياكم والتواكل ، فإن ذلك ينقض عز الإسلام ، ويطفىء نور الحق ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى^(٤) .

يا معشر المهاجرين والأنصار ، امضوا على بصيرتكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً وقد لقيم أهل الشام كالحجر الناهقة ، تصقع تصقع البعير » .
فكأنى أراك على عصاك هذه ، وقد انكفأ عليك العسكران ، يقولون : هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة ، فإن كدت لتفأين أهل الشام لولا قدر الله ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، فما حملك على ذلك ؟ .
قالت : يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) الآية ، وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يحب إعادته ، قال : صدقت ، فاذكري حاجتك .

(١) مستظهِرين : أى مستعينين .

(٢) دلف : مشى مشى اللقيد ، تريد ضعيفا واهنا .

(٣) غلف جمع أغلف ، وقلب أغلف : غشى بغلاف فهو لايعى .

(٤) تشير إلى بيعة العقبة الأولى والثانية حين بايع المسلمون الأولون من الانصار النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة على نصرته ، فهذه أيضا دفاع عن الإسلام ونصر له كبيعة العقبة .

(٥) الصقيع : رفع الصوت .

قالت : إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فتد على فقرائنا ، وإنا قد فقدنا ذلك ، فما يجبر لنا كسير ، ولا ينعش لنا فقير ، فإن كان ذلك عن رأيك فمثلك تنبه من الغفلة وراجع التوبة ، وإن كان من غير رأيك فما مثلك من استعان بالخوانة ولا استعمل الظلمة .

قال معاوية : يا هذه ، إنه ينوبنا من أمور رعيئنا أمور تنبثق ^(١) ، وبحور تنفث ^(٢) .

قالت : يا سبحان الله ! والله ما فرض الله لنا حقاً فجعل فيه ضرراً على غيرنا ، وهو علام الغيوب .

قال معاوية : يا أهل العراق نهكم على بن أبي طالب فلم تطاقوا ، ثم أمر برد صدقاتهم لهم ، وإنصافهم ^(٣) .

وذكرت الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية عند معاوية يوماً ، فقال جلسائه أيكم يحفظ كلامها ؟ قال بعضهم : نحن نحفظه يا أمير المؤمنين . قال : فأشيروا على في أمرها ، فأشار بعضهم بقتلها ، فقال : ليس بالرأى ، أيحسن بمثل أن يقتل امرأة ! ! ! .

ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه مع ثقة من ذوى محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهدها وطاء ^(٤) ليناً ، ويسترها بستر خفيف ^(٥) ، ويوسع

(١) انبثق : انفجر ، وانبثق السيل عليهم أقبل ولم يحتسبوه .

(٢) تنفث : تنسع .

(٣) المقد الفريد ج ٢ ص ١٣١ ، صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٣ .

(٤) وطاء : فراشاً .

(٥) من خصف النعل يخصفها ، كضرب ، ظاهر بعضها على بعض وخرزها وهي نعل خفيف ، وكل ما ظوهر بعضه على بعض فقد خصف .

لها النفقة ، فأرسل إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار لى فإنى لا آتية ، وإن كان حَتَمَ فالطاعة أولى .

فحملها وأحسن جهازها ، على ما أمر به ، فلما دخلت على معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً ، قدمت خير مقدم قدمه وافد ، كيف حالك ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، أدام الله لك النعمة . قال : كيف كنت فى مسيرك ؟ قالت : ربيبة بيت أو طفلاً ممهّداً . قال : بذلك أمرنا . . . أتدرين فيم بعثت لك ؟ قالت : وأنى لى بعلم مالا أعلم ؟! قال : ألت الراكبة الجمل الأحمر ، والواقفة بين الصفين بصيفين ، تحضين على القتال وتوقدين الحرب ؟ فما حملك على ذلك . . ؟

قالت : يا أمير المؤمنين ، مات الرأس ، وبت الزنب ، ولن يعود ما ذهب ، والدهر ذو غير^(١) ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعد الأمر .

قال لها معاوية : أتحفظين كلامك يومئذ ؟ فقالت : لا والله لا أحفظه ، ولقد أنسيته . . قال : لكنى أحفظه ، لله أبوك حين تقولين :

« أيها الناس : ارعوا وارجعوا ، إنكم قد أصبحتم فى فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد الحجّة^(٢) ، فىا لها فتنه عمياء صماء بكاء ، لا تسمع لناعقها . ولا تنساق لقائدها . ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس : إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها . فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الفصص ، فكأن قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة الحق ، ودمغ الحق الظلمة . فلا يجهن أحد فيقول : كيف وأنى ؟ ! ليقضى الله أمراً كان .

(١) أى ذو أحداث جمع غيره بالكسر ، أو مفرد وجمعه أغيار .

(٢) الحجّة الطريق .

مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، ولهذا اليوم ما بعده ، « والصبر خير في الأمور عواقباً » .

إيهاً في الحرب ^(١) قدماً غير ناكصين ولا متناكسين .

ثم قال لها : والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه .

قالت : أحسن الله بشارتك . وأدام سلامتك . فثلك بشر بخير وسر جليسه .

قال : أويسرك ذلك ؟ !

قالت : نعم . والله لقد سررت بالخير . فأني لى بتصديق العقل . . .

فضحك معاوية وقال : والله لوفاءكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته . اذكري حاجتك .

قالت : يا أمير المؤمنين . . آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً ، ومثلك أعطى من غير مسألة ، وجاد من غير طلبه .

قال : صدقت . . . وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكساء ^(٢) .

وأمثال هذا كثير تراه في العقد الفريد ، وصبح الأعشى ، وبلاغات النساء ، ونهاية الأرب ، والدر المنثور .

وليس من سبيلنا أن ننقله في هذا البحث . فلندعه إلى تصوير طور آخر من أطوار هذا الأدب الشيعي .

(١) إيهاً : كلمة زجر بمعنى حسبك ، وإيه بالكسر منونة وغير منونة كلمة استزادة واستنطاق ، والقدم : المعنى أمام ، وهو يمشى القدم إذا مضى في الحرب ؟ ورجل قدم : شجاع ، وفي الحديث « طوبى لعبد فقير قدم في سبيل الله » والقدم : الإقدام ، وأقدم على قرنه إقداماً وقدما : تقدم عليه بجرأة صدر .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٣ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٢ .

الطور الثاني — قتل الحسين :

ثم كانت حادثة « كربلاء » — تلك الحادثة المروعة المشنومة — فاتحة طور جديد من أطوار هذا الأدب الشيعى . . . كما كانت ذات أثر عميق فى النفوس الإسلامية ، والعقائد الشعبية ، والحياة السياسية .

والواقع أن قتل الحسين — رضى الله عنه — على هذه الصورة الفادرة ، والحسين هو من هو ديناً ومكانة بين المسلمين ، لا بد أن يلهب الشاعر ويرهف الأحاسيس ، ويطلق الألسن ، ويترك فى النفس الإسلامية أثراً حزيناً دامياً ، ويجمع القلوب حول هذا البيت المنكوب .

وَأَيُّ رَزِيَّةٍ عَدَاتُ حُسَيْنًا غَدَاةَ تَبِينُهُ كَفَا سِنَانًا^(١)

نعم ، ولا بد أن يكبر الناس هذا التنكيل الجائر ، والتمثيل الشائن ، بعثرة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وسلالته ، وفلذات كبده ، وقرّة عينه ، ويروا فيه إذاية له ، وكفراناً بحقه ، وتعرضاً لفضبه .

ماذا تقولون إذ قالَ النَّبِيُّ لَكُمْ ماذا قَعَلْتُمْ ، وأنتم آخرُ الأمم ؟
بِعِثْرَتِي ، وبأهلى بعدَ مُفْتَقَدِي ،

نصفٌ أَسَارَى ، ونصفٌ ضُرِّجُوا بِدَمٍ ۱۹

ما كان هذا جزأى إذ نصحتُ لَكُمْ

أَنْ تَخْلُقُونِي بَشَرًا فى ذَوَى رَحِمِي^(٢)

(١) سنان بن أنس النخعى : قاتل الحسين ، ومبين رأسه « مروج الذهب

ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٧٥ . والطبرى ج ٦ ص ٢٢١ ، وابن الأثير ج ٤ =

فبهذا وأمثاله قامت النائحات في العواصم الإسلامية ، يندبن الحسين ويبكين مصرعه . . .

وبهذا وأمثاله انطلقت الألسن الشاعرة ترى ابن بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتصور أسف النبي — صلى الله عليه وسلم — في قبره ، وحزنه على سبطه ، واحتجابه على أمته ، وتلقى على بنى حرب سوء فعلهم ، وفتح ضلالهم ، وجور سلطانهم . وتسجل في صراحة وعنف مروقههم عن الدين ، وانتهاكهم لحرم الله .

يقول أبو دهيل الجحى^(١) :

نبئت سُكَّارِي مِنْ أُمِّيَّةٍ نُومًا وبالطَّفِّ قَتَلِي مَا يَنَامَ حَمِيمُهَا
وما أَفْسَدَ الإسلامَ إِلَّا عِصَابَةٌ تَأَمَّرَ نوكَاهَا ، ودام نعيمها
فصارت قناة الدين في كفٍّ ظالم إذا أعْوَجَّ منها جانبٌ لا يقيمها

ويقول أبو الأسود الدؤلي :

أَقُولُ وَذَلِكَ مِنْ جَزَعٍ وَوَجْدٍ : أزالَ اللهُ مُلْكَ بَنِي زِيَادٍ
وأَبْعَدَهُمْ بِمَا غَدَرُوا وَخَانُوا كما بَعَدَتْ ثُمُودُ وَقَوْمُ عادٍ
ولا رَجَعَتْ رِكَائِبُهُمْ إِلَيْهِمْ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالتَّنَادِ^(٢)

= ص ٣٩ والشعر لبنت عقيل بن أبي طالب . خرجت تندب به في نساء من قومها حواسر حين ورد عليهم قتل الحسين مع سبعة عشر من آلِه (انظر اسماءهم ومصارعهم في مقاتل الطالبين ص ٥٤) .

(١) وهب بن زمعة : شاعر جميل عفيف . ترجم له صاحب الأغاني ج ٧ ص ١٣٧ . والطف . أرض من ضاحية الكوفة بها قتل الحسين بن علي (معجم البلدان ج ٦ ص ٥١) .

(٢) تلريح ابن عساكر ج ٧ ص ٢١٦ .

وهال الناس هذا الحادث الجلل — حتى الأمويين أنفسهم — فأقض المضاجع ، وأذهل العقول ، وارتسم في الأذهان ، وصار شغل الجماهير وحديث النوادي ، وانتهالت عليهم التخيلات ، فهذا هائف يهتف بالمدينة :

أيها القاتلون جَهْلًا حُسِينًا أبشروا بالعذابِ والتنكيلِ
كلُّ أهل السماء يدعو عليكم من نبي وَمَلَأَكِ وقبيل
قد لُعِنتم على لسان ابن داو دَ ، وموسى ، وصاحب الإنجيل^(١)

ومكث الناس شهرين أو ثلاثة كأنما تتلطح الحوائط بالدماء ساعة تطلع الشمس حتى ترتفع^(٢).

وأقبل « خولى بن يزيد الأصبحى » برأس الحسين — رضى الله عنه — إلى « ابن زياد » ، فأراد القصر ، فوجده مغلقاً ، فاحتمله إلى منزله ، ووضعه تحت إجازة ، ثم أوى إلى فراشه ، فقالت له زوجته الفوار : ما الخبر ، ما عندك ؟ فقال : جئت بك بغنى الدهر . . . هذا رأس الحسين معك فى الدار . قالت : ويلك ! جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ؟ والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبداً ، قال : ثم قت من فرائى نخرجت إلى الدار . فدعا الأممية — زوجه الأخرى — فأدخلها إليه وجالست أنظار . . . فوالله ما زلت أنظر إلى نور يسطع مثل العمود من السماء إلى الإجازة ورأيت طيراً بيضاً ترفرف حولها^(٣).

(١) طبرى ج ٦ ص ٢٦٩ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ ، وطبرى ج ٦ ص ٢٢٣ .

(٣) طبرى ج ٦ ص ٢٦١ .

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : « رأيت النبي — صلى الله عليه وسلم — الليلة التي قتل فيها الحسين ، ويده قارورة ، وهو يجمع فيها دماً فقلت : يا رسول الله ، ما هذا ؟ قال : دماء الحسين وأصحابه ، أرفعها إلى الله تعالى »^(١) .

وأمثال هذا كثير . . . تراه في الطبرى ، وابن الأثير ، والأغانى ، والعقد الفريد ، وصبح الأعشى . . .

والذين يُغمرون بموجات من الحزن والعواطف تطمئن نفوسهم إلى صدق هذه التخيلات .

* * *

أثر قتل الحسين في الأدب :

استغل الشيعة هذه الحادثة ، فأخذوا يحكيون حولها شتى الأقاصيص ويروون فيها الأحاديث ، ويصفونها بألوان شعرية دامية يصدرها قلب مكلوم تأثر ، فكان أثر ذلك كله في أدب هذا الطور ، فهو نتيجة هذا العواطف المستعرة ، والحق الدفين . . . هو تأثر حزين ، يدعو إلى الثورة العارمة في عنف وصراحة ، ويسجل هذه الأحزان العلوية في أسف ولوعة ، وينادى بثارات الحسين .

يقول سليمان بن قتة العدوى :

مَرَرْتُ عَلَى أَيْيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَمْ أَرَهَا أَمْثَلَهَا يَوْمَ حُلَّتِ

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١٢٩ . وتاريخ بغداد ج ١ ص ١٤٢ ، وابن الأثير

فلا يُبْعِدُ اللهُ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ بَرَغَى تَحَلَّتِ
وإنَّ قَتِيلَ الطِّفْلِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَذَلَّ رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ فَذَلَّتِ
وكانوا غِيَاثًا ، ثم صاروا رَزِيَّةً أَلَا عَظُمَتْ تِلْكَ الرِّزَايَا وَجَلَّتِ
وعند « غنى » قطرةٌ من دَمَانَا سَنَجْزِيهِمْ يَوْمًا بِهَا حَيْثُ حَلَّتِ
إِذَا افْتَقَرْتُ « قَيْسٌ » جَبَرْنَا فَقِيرَهَا
وتقتلنا « قَيْسٌ » إِذَا النِّعْلُ زَلَّتِ^(١)

وهذا عبد الله بن الأحرر — أحد التوأمين — يرثى الحسين ، فيدعو إلى
الثورة ويحض على القتال ، فيقول :

صَحَوْتُ ، وَقَدْ صَحَّ الصَّبَا وَالْعَوَادِيَا
وَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : أَجِيبُوا الْمُنَادِيَا
وَقُولُوا لَهُ — إِذَا قَامَ يَدْعُو إِلَى الْهَدَى —
وَقَبْلَ الدُّعَا : كَبَيْكَ ، كَبَيْكَ دَاعِيَا
أَلَا وَأَنْجِ خَيْرَ النَّاسِ جَدًّا وَوَالِدًا
« حُسَيْنًا » لِأَهْلِ الدِّينِ ، إِنْ كُنْتَ نَاعِيَا

(١) الكامل ج ٣ ص ٣٤ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ٧٣ ومعجم البلدان ج ٦
ص ٥٢ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٣ وحماسة أبي تمام .

وغنى : قبيلة عبد الله بن عقبة الغنوي قاتل أبي بكر بن الحسين .

وقيس : قبيلة ثمر بن ذى الجوشن ، الذى حرّض « ابن زياد » وحجّب إليه
الخلاص من « الحسين » رضى الله عنه ، ثم جاء إلى المعركة وهو يقول : اقتلوه ،
نسكتكم أمهاتكم .

ليكَ « حُسَيْنًا » مُرْمِلٌ ذُو خِصَاصَةٍ
 عَدِيمٌ ، وَأَمَامُ تَشَكِّي المواليا
 فَأَضْحَى « حُسَيْنٌ » لِلرَّماحِ دَرِيئَةٌ
 وَغُودِرَ مَسْلُوبًا لَدَى الطَّفِّ ثَاوِيًا
 فَيَالِيَتَنِي — إِذَا ذَاكَ — كُنْتُ شَهِدَتُهُ
 فَضَارَبْتُ عَنْهُ الشَّائِثِينَ الْأَعَادِيَا
 سَقَى اللَّهُ قَبْرًا مُضْمِنَ الْجَدِّ وَالتَّقَى
 بِغَرَبِيَّةِ « الطَّفِّ » النِّهَامِ الْفَوَادِيَا
 فَيَا أُمَّةً تَاهَتْ ، وَضَلَّتْ سَفَاهَةً ،
 أَنْيَبُوا . . . فَأَرْضُوا الْوَاحِدَ الْمُتَعَالِيَا

وكذلك كان الأدب الشيعي في رثائه : صادق العاطفة ، بدوى الخيال ،
 يبكي في الرثى وفاه وصبره ، وغناه في الملأت ، ويصور عظم الفجيعة .
 فشيخ المعرة حين يقول : « ما سمعت في أمر الحسين بن علي — رضى
 الله عنه — شيئا يجب أن يحفظ »^(٢) كان قاسيا في حكمه على القوم ، بعد
 أن أبلوا في رثائه ومدحه أجمل البلاء وأحسنه ، وصوروا مصرعه تصوير
 الشاعر الفنان . . .

ولست أدري ماذا يريد أبو العلاء من شعراء هذا العصر ؟ أفيريدهم أن يسلكوا
 سبيل عصره ، فيزعموا أن الأرض مادت بثقلها ، وانقضت السماء بنجومها ،
 واضطرب نظام الكون ، فإذا الليل النهار ، والنهار الليل .

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨ .

(٢) معجم الأدباء ج ١ ص ١٧٢ .

وأعتقد أن هذا شطط في التشكيف ، وغلو في النقد ، وتحويل للطبائع ... فما كان - ولن يكون - أن يسلك شعراء القرن الأول وخطباؤه هذا السبيل من سبل الرثاء ، وهم بعد لا يزالون على فطرة البداوة ، وطبائع الجاهلية ، يؤثرون صدق اللهجة ، وإبراز الحقائق . اللهم إن رأى شيخ المعرة أنه مهما قيل في الحسين من رثاء ، فلن يبلغ مداه في تصوير الفاجعة وإبراز عظم المصيبة على الإسلام والمسلمين ؛ لمكانة الحسين من رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

وأحب أن أسمعك هذه القطعة فهي من الشعر العاطفي الرقيق ، وسوف ترى كذلك أنها صورة صادقة للخيال البدوي الصريح ؛ تقول الرباب بنت امرئ القيس بن عدى الكلبي - زوج الحسين - رضى الله عنه :

إِنَّ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ بَكَرُ بَلَاءٍ قَتِيلٌ غَيْرُ مَدْفُونٍ
سَبَطَ النَّبِيُّ جِزَاكَ اللَّهُ صَالِحَةً عَنَا ، وَجَنَّبَتْ خُسْرَانَ الْمَوَازِينِ
قَدْ كُنْتُ لِي جَبَلًا صَعْبًا أَلُوذُ بِهِ وَكُنْتُ تَصْنَعُنَا بِالرَّحْمِ وَالِدِينَ
مَنْ لِلْيَتَامَى ، وَمَنْ لِلْسَّائِلِينَ ، وَمَنْ يُعْنَى ، وَيَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ مُسْكِينٍ ؟
وَاللَّهِ لَا أَبْتَنِي صَهْرًا بِصَهْرِكُمْ حَتَّى أَغِيبَ بَيْنَ الرَّمْسِ وَالطِّينِ (١)

ويقول خالد بن غفران وقد أتى برأس الحسين إلى دمشق :

جاءوا برأسك يا بن بنت محمد مُتَزَمِّلًا بِدُمَائِهِ تَزْمِيلاً
وَكَأَنَّمَا بَكَ يَا بن بنت محمد قَتَلُوا جِهَارًا عَامِدِينَ رَسُولًا

(١) أغاني ج ١٤ ص ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٢٩ . وقد كانت الرباب من خيار النساء وأفضلهن وأرفاهن - خطبت بعد قتل الحسين - رضى الله عنه - فقالت ما كنت لا أتخذحاً به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأقامت على حدادها حتى ماتت بعد عام من قتله .

قتلوك عطشاً ، ولم يترقبوا في قتلك التأويل والتنزيلا
ويكبرون بأن قتلتي ، وإنما قتلوا بك التكبير والتهميل^(١)

وكذلك كان موقف الخطابة الشيعية في هذه الحادثة ، يصدر عن عاطفة صادقة ، وقلب مكلوم .

اجتمع شيعة الكوفة تفكر في قتل الحسين ، وتدبر الأمر للأخذ بثأره ، فقام سليمان بن سرد الخزاعي - أمير التوابين - فحمد الله ، وأثنى عليه . ثم قال : أما بعد ، فإنني والله لخائف ألا يكون آخرنا لهذا الدهر - الذي نكدت فيه المعيشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجور أولى الفضل من هذه الشيعة - لما هو خير ، إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ونمنهم النصر ، ونحشمهم على القدوم ، فلما قدموا ونينا وعجزنا ، وأوهنا ، وتربصنا ، وانتظرنا ما يكون ، حتى قتل فينا ولدنا ولد نبينا وسلالته ، وعصارتة وبضعة من لحمه ودمه ، إذ جعل يستصرخ ويسأل النصف فلا يعطاه . . . اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل ودريئة للرماح ، حتى أقصدوه ، وعدوا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سخط ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله . . . والله ما أظنه راضياً دون أن تنالوا من قتله ، أو تبيدوا . . . ألا لانهبوا الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالأولى من بني إسرائيل ، إذ قال لهم نبيهم : (إِنْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ، فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ ، فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ) فما فعل القوم ؟ . . . جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه ؟ . . . اشعدوا السيوف ، وركبوا

الأُسنة : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل) حتى تدعوا ،
وتستنفروا^(١) » :

وحدث رجل من مزينة قال : ما رأيت من هذه الأُمة أحداً كان أبلغ من
عبيد الله المرى في منطق ولا عظة ، وكان من دعاة أهل المصر ، زمان سليمان بن
صرد ، وكان إذا اجتمعت عليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله ، والثناء
عليه ، والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يقول :
أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً - صلى الله عليه وسلم - على خلقه بنبوته ، وخصه
بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان فحقن به دماءكم المسفوكه ، وآمن
به سبلكم المخوفة ، (وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين
الله لكم آياته لعلكم تهتدون) فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم
حقاً على هذه الأُمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم
أعظم حقاً على هذه الأُمة من ذرية رسولها ؟ . . لا والله ما كان ولن يكون ،
لله أتم ! . . ألم تروا ويبلغكم ما اجترم إلى ابن بنت نبيكم ؟ . أما رأيتم إلى
اتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدته ، وترميلهم إياه بالدم ، وتجرارهموه على
الأرض ، ولم يراقبوا فيه ربهم ، ولا قرابته من الرسول - صلى الله عليه وسلم -
اتخذوه للنبل غرضاً ، وغادروه للضبايع جزراً . . فله عيناً من رأى مثله ! والله
حسين بن علي ! . . ماذا غادروا به ؟! . ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ،
ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قلت حماته ، وكثرت
عداته حوله ، فقتله عدوه ، وخذله وليه ، فويل للقاتل ، وملامة للخاذل ، إن الله
لم يجعل لقاتله حجة ، ولا لخاذله معذرة ، إلا أن ينصح لله في التوبة ، فيجاهد
القاتلين ، وينابذ القاسطين ؛ فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيّل العثرة ،

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٦٨ ، وطبري ج ٧ ص ٤٨ .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد
الحلّين والمارقين ، فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظهرنا ردّدنا هذا الأمر
إلى أهل بيت نبينا^(١) .

وعبيد الله قد وضع بهذه الكلمة كثيراً من عناصر الرثاء الشيعي في هذا
الدور ، حتى تستطيع أن تعدّه أستاذ الكميّة في أدب كربلاء ، وتصوّر هذه
الفاجعة . . . وأنا أسمعك شيئاً من أدب الكميّة في هذه الحادثة حيث يقول :

ومن عَجَب لم أقضه أن خيلهم لأجوافها تحت العَجاَجة أزمَل^(٢)
هَمَاهِمُ بالمُسْتَقْلَمِينَ عوَابِسُ كَدِ آنَ يَوْمِ الدَّجَن تَعَلَو وَتَسْفَل^(٣)
يُحْمَلْنَ عَنْ مَاءِ الْفَرَاتِ وَظِلِّهِ حُسَيْنَا وَلَمْ يُشْرَ عَلَيْهِنْ مَنْصَلُ^(٤)
كَانَ حُسَيْنَا وَالْبَهَائِلُ حَوْلَهُ لَأَسْيَافُهُمْ مَا يَخْتَلِي الْمُتَبَقِّلُ^(٥)
يَخْضَنُ بِهِ مِنْ آلِ أَحْمَدَ فِي الْوَغَى دَمًا طُلَّ مِنْهُمْ كَالْبَهِيمِ الْمُحْجَلِ^(٦)
وَغَابَ نَبِيُّ اللَّهِ عَنْهُمْ وَفَقَدَهُ عَلَى النَّاسِ رُزْمًا هُنَاكَ مُجَلَّلُ
فَلَمْ أَرْ مَخْذُولًا أَجَلَ مُصِيبَةٍ وَأَوْجَبَ مِنْهُ نَصْرَةً حِينَ يَخْذَلُ

- (١) طبرى ج ٧ ص ٤٢ وعلى هذا للنعمي كانت كلمات أم كلثوم بنت علي في
الكوفة وأختها زينب أمام يزيد بن معاوية (بلاغات النساء) .
(٢) العجاَجة : غبار الحرب ، والازمَل : كل صوت مختلط .
(٣) الهمهمة : تريد الصوت في الصدر ، وأصله صوت البقر . ثم استعمل في القيل
والالسد والرد ، وأشبه ذلك ، والحدآن : جمع حدأة ، والدجن : الغيم .
(٤) حلاؤه عن الماء : طرده ومنعه . والمنصل السيف .
(٥) البهاليل : جمع بهلول . وهو السيد الجامع لحصال الخير ، ويختل : يقطع
الحلا (الحشيش) والمتبقل : طالب البقل .
(٦) البهيم : الأسود . والخالص الذي لم يشبه شيء ، والتحجيل : بياض في قوائم
الفرس كلها والفرس محجلة .

يُصيب به الرّامون عن قوس غيرهم
تهافت ذُبّان المطامع حوله
إذا شرّعت فيه الأسنة كبرت
فما ظفر الجري إليهم برأسه
فلم أرَ مَوْتورين أهل بصيرة
كشميعته ، والحرب قد تَفَيّت لهم
فريقان : هذا راكبٌ في عداوة
فما نفع المستأخرين نَدِكيصهم
فيا آخرا أمدى له النّقى أول^(١)
فريقان شتى : ذو سلاح وأعزل
غواثهم من كل أوبٍ وهَلّوا
ولا عدل الباكي عليه المُوأول
وحقّ لهم أيدي صحاحٍ وأرجل
أماهم قدر تجيش ومِرْجل^(٢)
وباكٍ على خذلانه الحق معول
ولا ضَرَّ أهل السابقات التّعجّل

أو يقول :

ومن أكبر الأحداث - كانت مصيبة
قتيل بجنب الطّفّ من آل هاشم
ومُنْعَفِر الخلدَيْن من آل هاشم
قتيل كأن الولّه المَفْر حوله
علينا - قتيل الأدعيّاه المُلحَب^(٣)
فيالآك لَحْمًا ليس عنه مُذَبَّب
ألا حَبِذَا ذاك الجبين المترب
يطفن به شمّ العرائن ربربُ
المناحي الأدبية في هذا الطور :

ومهما يكن من شيء فقد صبغت حادثة الحسين - ولا تزال تصبغ - أدب

(١) الرّامون : القاتلون ، وهو يخاطب هشام بن عبد الملك ، وأمدى له النّقى
يزيد بن معاوية .
(٢) تَفَيّت : أقيم لها الاتّافي (حجارة يوضع عليها القدر) والجملة كناية عن
قيام الحرب .

(٣) المُلحَب : المقطع بالسيف ، والدعى : عبيد الله بن زياد بن سمية ، نسب إلى
أمه إذ لم يعرف أباه حتى ألحقه معاوية بن أبي سفيان بأبيه .

الشيعة بالحنن العميق ، والرثاء النأخ ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة ، وأمدته بمدد زاهر من المعاني والاخليلة والعواطف ، فغزرت مادته ، واتسع مجال القول فيه ، وغدونا أمام أدب تبعته عاطفتان بارزتان - عاطفة الحزن وعاطفة الغضب - تصدره الأولى حزناً باكياً ، وتبعته الثانية قوياً نائراً ، والعاطفة أقوى دعائم الادب ، فإذا أثرت وهاجت وكان بجانبها لسان طلق ، وبيان ناصع ، ونفس شاعرة متوثبة ، فهناك الادب الحى ، والقول الساحر . وكذلك كان الشيعة ...

تجمعت لهم كل عناصر الادب ، لسان ، وعاطفة ، وفواجع من شأنها أن تستنزف الدم وتذيب القلب ، وتنطق الاخرس ؛ فقالوا وبكوا : قالوا فى الحق وطلبه ، والإرث وغصبه ، وبكوا على حق ضاع ، ودم أريق ، وحرمان انتهكت ، وبيوت دمرت ، وجثث كريمة على الله والناس مثل بها أشنع تمثيل ، وافتتان أموى أثيم فى اختلاج الطالبيين وشيعتهم ... فقتل وصلب ، وإحراق وتذرية . . . وهم يقابلون ذلك بالشجاعة والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من من التنزيه والتقدیس ، أشرفت بهم على مقام العبادة ، ثم ظهرت فى صور من العقائد ، فقالوا بالوصاية والرجعة وإرث الخلافة عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وجعلوا الخلافة من أصول الدين ، وطعنوا فى إمامة الخلفاء من غير هذا البيت ...

فكانت القصائد الباكية ، والخطب الرائعة ، والاقوال الدامية ، صدى لهذه الدماء المسفوحة ، والجثث المطروحة ، تبعث ذكراها فى كل قلب حزناً ، فيبعث الحزن أدباً ، يصور الآلام ، ويعلم الفضائل ، ويستميل القلوب ، ويسجل العقائد ، ويشرح القضية الشيعية ، ويحتج لها فى صراحة وعنف ، فيتناولها من أطرافها ، مفتتناً فى كل ذلك ، ففاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية .

فمن المفاضله والمدح قول أيمن بن خريم بن فانك الاسدى :
نهاركم مكابدةً وصوم وليلكم صلاة واقتراء

بليتكم بالقران وبالتزكى فأسرع فيكم ذاك البلاء
بكي نجد غداة غد عليكم ومكة والمدينة والجواء
وحق لكل أرض فارقوها عليهم - لا أبا لكم - البكاء
أأجمعكم وأقواماً سواء وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء؟^(١)

وأمر هشام بن عبد الملك عامله على المدينة أن يأخذ الناس بسب أمير المؤمنين
« على بن أبي طالب » و « الحسين » ، فيقول كثير بن كثير بن عبد المطلب من
كعب بن لؤى بن غالب :

لعن الله من يسب علياً وحسناً من سوقة وإمام
أتسب المطيبين جدوداً والكريم الأخوال والأعمام ؟
طببت نفساً وطاب بيتك بيتاً أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليكم كلما قام قائم بسلام
يأمن الطير والطباء ولا يئاً من رهط النبي عند المقام ؟^(٢)

ويحتج الكميت لنظرية الوراثة ، فيقول :

يقولون : لم يورث ، ولولا تراثه إذا شركت فيه بكيل وأرحب
وعك ، ونخم ، والسككون ، وحمير وكندة ، والحيان : بكر وتغلب

(١) ديوان المعاني ج ١ ص ٢٦ ، وإعجام الاعلام ص ٦٩ ، والاغانى ج ٢١
ص ٦ ، والجواء : الواسع ، وأيمن بن خريم ينتهى إلى مضر : وهو شاعر أموى
شيعى ، أبوه خريم صحابى اعتزل صفين والجل .
(٢) هكذا ينسبها الليدانى فى مجمع الامثال ج ١ ص ٣٨٣ . وينسبها الجاحظ إلى
عبد الله بن كثير السهمى . البيان ج ٣ ص ٣٠٣ .

ولا نَشَلْتَ عضوين منها يُحَايَرُ وكان لعبد القيس عضو مؤرَّب^(١)
ولا تَنَقَّلْتَ من خِنْدَفٍ في سِوَاهُم ولا قَتَدَحْتَ قيس بها ثم أُنْقَبُوا^(٢)
ولا كانت الأنصار فيها أدلة ولا غِيَّيَا عنها : إذا الناس غُيِّبُ
هم شهدوا بدرأ ، وخير بعدها ويوم حنين ، والدماء تَصَبَّبُ
وهم رَأَعُوها غير ظئر ، وأشبلوا عليها بأطراف القنا ، وتحدَّبوا
فإن هي لم تصلح لحي سِوَاهُمُ فإن ذوى القرُبي أحقُّ وأقرب^(٣)

وقد رأينا في شرحنا للعقائد ، وسوف نرى في دراستنا لأدباء البيان الشيعي إلى أى حد استطاع هؤلاء الأدباء أن يحتجوا لقضيتهم في صراحة وقوة .

أدب الشيعة في صدر الدولة العباسية :

على أننا إذا وصلنا إلى العصر العباسي رأينا الأدب الشيعي يستبد به غرض واحد ، هو الخلاف المذهبي ، وقد كان ذلك طبيعياً أمام دولة جديدة ، أحدث قيامها قضية جديدة .

فنحن نذكر أن جماع الحجاج الشيعية : الوراثة ، والنص ، وأهلية العلويين للخلافة ، وقد كان ذلك كله في جانبهم أيام الأمويين ، أما وقد انتقل الملك إلى بيت هاشمي فقد أصبح العلويون أمام حجاج أخرى جديدة : أيهما أحق بسلطان الرسول — صلى الله عليه وسلم — وإرثه ؟ وأيهما الذي

(١) مؤرَّب : موفر كامل .

(٢) قَدَح بالزند واقتدح : أراد الإبراء به ، وأنقب النار أوقدها .

(٣) رَأَمَت الناقة ولدها : عطفت عليه ولزمته ، والظئر : العاطفة على غير ولدها ، وأشبل عليه . عطف وأعان ، يقول : إن هؤلاء الأنصار قبلوا الدعوة وناخفوا عنها . وقد نظم الكهيت القبائل العربية كما ترى .

نص عليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأدلى له بالأمر بعده : أعلى أم العباس ؟ ؟

هذا هو الميدان الجديد الذى تسابق فيه الأدب الحزبى فى هذه الفترة : فالنفس الزكية — محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب — يقول المنصور : « . . . فإن الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا علياً كان الوصى ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء ؟ .

» ثم قد علمت انه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا ، وحالنا وشرف آبائنا ، لسنا من أبناء اللعناء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء . وليس يمت أحد من بنى هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل .

ثم أخذ يوازن له بين بيت العباس وبيت أبى طالب — جاهلية وإسلاما — فيهدم المنصور هذه الحجج العلوية ، ويريههم أن العباسيين أحق بهذا الأمر منهم : « لأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لحق بالرفيق الأعلى ولا عاصب له غير العباس ، فكان وارثه من عمومته ، واختُصِرَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأمر بالصلاة غير على ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ، وقتل عثمان وهوله منهم ، وقتله طاحه والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وأغلق دونه بابه . ثم بايع معاوية بعده . حتى إذا آلت إليه حكم فاجتمع الحكماء على خلعه ؛ ثم كان الحسن فباعها لمعاوية بخرق ودرّاهم ، فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه . وأخذتم منه . . .

ولستم أبناء الرسول لأن الله أبى ذلك حيث يقول : (ما كان محمد أباً أحد

من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين) . . . ولكنكم بنو بنته ،
وإنها لقراءة قريبة ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تؤم ، فكيف
تورث الإمامة من قبلها ؟ . . . فلم يبق شرف ولا فضل إلا والعباس وارثه . . .
فان الخلافة في ولده ، وميراث النبي له » .

وهكذا استطاع هذان الرجلان — النفس الزكية والمنصور — أن يضع كل
منهما أسس الحجاج لأتباعه ، فانطلق « مروان بن أبي حفصة » يقول في
مدحه للرشيدي :

« على » أبوكم كان أفضل منكم

أباه ذوو الشورى ، وكانوا ذوي فضل

وساء رسول الله إذ ساء بنته بخطبته بنت العيين أبي جهل^(١)

(١) فاطمة الزهراء البتول بنت النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة بنت خويلد
رضي الله عنها ، ولدت سنة إحدى وأربعين من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وتزوجها على رضي الله عنه بعد وقعة « بدر » في السنة الثانية من الهجرة ، وولدت
له « حسناً » و « حسيناً » و « محسنأ » و « زينب » و « أم كلثوم » و « رقية »
ثمات رقية ولم تبلغ ، ومات محسن صغيراً . ولم يتزوج على رضي الله عنه عليها حتى
ماتت ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم عصب إلا منها ، وتوفيت لثلاث خلون من
رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بستة أشهر ،
وهي ابنة تسع وعشرين سنة .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها لأنها التي بقيت له من ولده ومات في حياتها
ولهذا كان يقول : « فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .

ولما خطب « على » جويرية بنت أبي جهل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله
عليه وسلم قال النبي : « فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني » وفي رواية « ويؤذني
ما آذاها » . . . وهذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم تحريم إيذائه بكل حال وعلى أي
وجه ، وإن تولد الإيذاء مما أصله مباح ، القسطلاني شرح البخاري ج ٦ ص ١٢١ ،
وبذلك يبين لك ما يزيد الباسيون على « على » رضي الله عنه .

فَدَمَّ رَسُولُ اللَّهِ صِهْرَ أَبِيكُمْ
 عَلَى مُنْبَرٍ ، بِالنُّطْقِ ذِي الصَّادِحِ الْفَصْلِ
 وَحَكَمَ فِيهَا حَاكِمِينَ أُبُوكُمْ
 هَا خَلْعَاهُ خَلَعَ ذِي النَّعْلِ لِلنَّعْلِ
 وَقَدْ بَاعَهَا مِنْ بَعْدِهِ الْحَسَنُ ابْنَهُ فَقَدْ أَبْطَلَتْ دَعَاكُمْ رِثَةَ الْحَبْلِ
 وَخَلِيَّتُمُوهَا وَهِيَ فِي غَيْرِ أَهْلِهَا
 وَطَالِبَتُمُوهَا حَيْثُ صَارَتْ إِلَى أَهْلِهَا^(١)

بعد أن قال للمهدي :

يَا ابْنَ الذِّي وَرَثَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا دُونَ الْأَقَارِبِ مِنْ ذَوِي الْأَرْحَامِ
 الْوَحْيُ بَيْنَ بَنِي الْبَنَاتِ وَيَدُنْكُمْ قَطَعَ الْخِصَامَ فَلَاتَ حِينَ خِصَامِ
 مَا لِلنِّسَاءِ مَعَ الرِّجَالِ فَرِيضَةٌ نَزَلَتْ بِذَلِكَ سُورَةُ الْأَنْعَامِ^(٢)

(١) ابن أبي الحديد ج ٥ ص ٥٣ . ومروان بن أبي حفصة : شاعر السياسة
 العباسية : بلغت جائزته مائة ألف درهم على كل فصيحة يقولها فيهم : ترجم له في الأغاني
 ج ٢ ص ٣٦ وابن خلكان ج ٢ ص ٨٩ والشعر والشعراء ص ٤٨١ وخزانة الأدب
 ج ١ ص ٤٤٧ ، والفهرست ص ١٦٠ .

(٢) لعله يشير إلى قول الله تعالى في سورة الأنعام «وإذا قال إبراهيم لأبيه آزر
 حيث أطلق القرآن على العم أبا على رأى من يرى ذلك وهو إطلاق شائع - وقد
 أخذ مروان أبياته هذه من قول مولى تمام بن عباس بن عبد المطلب يخاطب عبد الله
 ابن رافع - مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد قال للعسن أنا مولاك -
 فقال تمام .

جعدت بني العباس حق أبيهم فما كنت في الدعوى كريم العوالب
 متى كان أبناء البنات كوارث يجوز ويدعى والدا في المناسبات
 انظر الكامل والشعر والشعراء .

خـلوا الطريق لعشر عاداتهم ^١ حَطْمُ الْمَنَاجِبِ كُلِّ يَوْمٍ زحام
إِزْوَاجًا بِمَا قَسَمَ إِلَهُ لَكُمْ بِهِ وَدَعَوْا وَرَاثَةَ كُلِّ أَصِيد حَام
أَنَّى يَكُونُ - وليس ذاكَ بكَائِن -

لبنى البناتِ وراثَةُ الأعمام ١١٩
أَلْفَى سِهَامَهُمُ الْكِتَابُ فَاوَلُوا أَنْ يَشْرَعُوا فِيهَا بِغَيْرِ سِهَامٍ
ظَفَرَتْ بَنُو سَأَى الْحَجِيجِ بِحَقِّهِمْ ،
وَعُرِّرْتُمْ بَنُوهُمْ الْأَحَدَ - الْأَمَ -

فيجيبه الشاعر العلوى « جعفر بن عفران الطائى » بقوله :

لَمْ لَا يَكُونُ - وَإِنْ ذَاكَ لَكَائِنٌ -

لبنى البناتِ وراثَةُ الأعمام ؟ ؟
للبنتِ نصفَ كاملٍ من ماله والعُمُ متروكٌ بغيرِ سِهَامٍ
ما للطلاق وللثراث وإِنَّمَا صَلَّى الطَّلِيقُ مَخَافَةَ الصَّمَامِ ؟ !^(١)

ثم يقول « دِعبِل بن على الخزاعى » فى تائيدته الرائعة :

هُمُ أَهْلُ مِيرَاثِ النَّبِيِّ إِذَا اعْتَزَلُوا ،
وَهُمْ خَيْرُ قَادَاتٍ ، وَخَيْرُ حُمَاةٍ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَاسِدٌ ، وَمَكْذَبٌ ،
وَمُضْطَفِنٌ ، ذُو إِحْنَةٍ وَتَرَاتِ

ولم ينس الأدب الشيعي في هذه الفترة أن يتحدث عن الفواجع العلوية ، وفي مقدمتها فاجعة « كربلاء » .

يقول دعبيل :

قبورٌ بكوفان ، وأخرى بطيبة ،
وأخرى بفتح ، نالها صلوات
وقبرٌ ببغداد لنفس زكية ^(١) تضمَّنْها الرحمنُ في العُرُفاتِ
فأما المصِيماتُ التي لستُ بالغاً مبالغها مِنِّي بكنهه صِفات
إلى الحشرِ ، حتى يبعث الله قائداً
يفرِّجُ منها الهمَّ والكُرُبات
نفوسٌ لدى النهرينِ من أرض كربلاء

معرسهم فيها بشطَّ فرات
تقسمهم ريب الزمان كما ترى لهم عفرة مغمشية الحجرات
إلى أن يقول :

فآل رسول الله نحفُ جُسومهم وآل زياد حَقْلُ القَصَراتِ ^(١)
بناتُ زياد في القصور مَصُونَة وآلُ رسول الله في القلوات
إذا وتَّروا مدُّوا إلى أهل وترهم أكفَّا عن الأوتار مُتَقَبَضَاتِ ^(٢)

(١) حفل القصرات : القصرات أصول الأعناق ، وحفل جمع حافل أى للمتلئ

(٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٩٥ ، وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٢ .
(١٢ - أدب الشيعة ١)

ولدعبل من هذا النوع كثير ، ولكنه ضاع ولم يبق إلا القليل النادر ،
ولو وصلنا كله لوزننا أدباً قوياً جريئاً ، يمثل نفس دعبل وقوتها ، وجراتها
فالشاعر الذي يقول في الرشيد :

وليس حي من الأحياء نعلمه من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء في دمائهم كما تشارك أسرار على جزر
قتل وأسرى ، وتحريق ، ومنهبة فعل الغزاة بأرض الروم والخزر
أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر
أربع بطوس على القبر الزكى إذا

ما كنت تربع من طوس على وطر

قبران في طوس : خير الناس كلهم

وقبر شرهم ، هذا من العير !^(١)

ما ينفع الرجس من قبر الزكى ولا

على الزكى بعرب الرجس من ضرر

هيات كل امرئ رهن بما كسبت

له يدها نخذ ما شئت أو فذر^(٢)

نقول : فالشاعر الذى يقول هذا فى الرشيد - وهو يعلم ما سيلقى من أبناء
الرشيد - لابد أن يكون قد وصل إلى قمة التصوف فى الحب الشيعى ، والإخلاص
فى رأى ، والفناء فى العقيدة . . . وكذلك كان دعبل .

(١) يريد : قبر الرشيد وقبر على الرضا - صاحب المأمون - .

(٢) الأغاني ج ١٨ ص ٥٧ ، تاريخ ابن عساكر ج ٦ ص ٣٣ ، وانظر زهر
الآداب ج ١ ص ١٠١ وترجمة دعبل فى الأغاني وابن خلكان والشعر والشعراء
والفهرست ، ونور الأبصار فى مناقب آل النبی المختار ص ١٤١ .

ولابد لنا من أن نذكر هذه القصيدة التي أغضبت الرشيد، حتى أرسل في قتل صاحبها ، فوجده الرسول قد مات ، فأمر الخليفة بنش قبره ، وإحراق جثته ، فما زال الفضل بن الربيع يلطف له حتى عفا عنه .

ذاك هو منصور النمرى ، الشاعر العلوى : حيث يقول :

شامٍ من الناسِ راتعٌ هاملٍ	يعللونَ النفوسَ بالباطلِ
تقتلُ ذريةَ النبيِّ ، ويرَ	جونَ جنانِ الخلودِ للقاتلِ
ويُلكَ يا قاتلَ الحسينِ لقد	نُوتَ بحملِ ينوءُ بالحاملِ
أىَّ حياءِ حبوتَ أحمدَ في	حُفرتِه من حرارةِ الثاكلِ
بأىَّ وجهٍ تلقى النبيَّ وقد	دخلتَ في قتلهِ مع الدّاخلِ
هلم فاطلبِ غداً شفاعته	أولا فردَ حوضه مع الناهلِ
ما الشكُّ عندي في حالِ قاتله	لكنّني أشكُّ في الخاذلِ
نفسى فداه الحسينَ حينَ غدا	إلى المنايا عدو لا قافلِ
ذلكَ يومٌ أنهى بشفرتِه	على سنامِ الإسلامِ والكاھلِ

حتى متى أنتِ تعجّبينَ ألا تنزلُ بالقومِ نِقْمَةُ العاجلِ
لا ينجلُ اللهُ إنْ سَجَلتَ وما ربكَ عما يُريدُ بالفافلِ

ثم يقول:

وعاذلى أننى أحبُّ بنى (م) أحمدَ ، فالتزب في فم العاذلِ
قد ذقتُ ما دينكم عليه فما وصلتُ من دينكم إلى طائلِ
دينكم جفوةُ النبيِّ وما جافى لآلِ النبيِّ كالواصلِ

أَلَا مَصَالِيَتَ يَفْضُبُونَ هَلَا بَسْلَةَ الْبَيْضِ وَالْقَنَّا الذَّابِلِ^(١)
وهكذا كان أدب العلويين في كل زمان ومكان ، أدب عاطفة وحب ،
ووجدان وسياسة .

آداب الأحزاب الأخرى :

ولقد كان بجانب هذا الأدب الشيعى أدب حزبى آخر ، يقوم بالدعاية لأصحابه ،
والاحتجاج لآرائهم فى سياسة الناس - شأن الصحافة الحزبية - فأدب أموى :
يقوم على مدح الخليفة القائم ، وإبراز سطوته ، وتبرير سياسته ؛ وأدب خارجى :
يصور الحياة الخارجية ، والفكرة الخارجية ، والعقلىة الخارجية ؛ وأدب زيرى :
يدعو إلى زعامة قریش فى بيت الزير ، ويطالب بـرجوع السيادة إلى مكة . . .
هذا فى العصر الأموى . . . وكذلك كان الأدب السياسى فى العصر العباسى
متباين الأفكار والرغبات ، تباين أصحابه فى أفكارهم وآرائهم .
الأدب الخارجى :

ولقد استطعنا أن نصور الحياة السياسية ، والعقلىة لهذه الأحزاب ، فرأينا
- مثلا - أن الخوارج كانوا عرباً ، قد تحكمت فيهم الطبيعة البدوية ، فاصطبغ
مذهبهم بالصبغة البدوية فى محاسنها ومساوئها ، وكانت ثقافتهم ثقافة عربية ، فجاء
أدبهم صورة لهذه الحياة العربية فى صحرائها الملتهبة ، وتربيتها التزمته ، فهو فى
جملته : وصف للمعارك ، وطلب للنزال ، وتكشيف للأعداء ، ومدح للعقيدة
الخارجية ، وما توصل إليه من حياة ناعمة ، وجنة عرضها السموات والأرض
أعدت للمتقين .

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٢٦ ، وانظر الأغانى ج ١٢ ص ٢١ ، وأمالى
الشريف للرتضى ج ٤ ص ١٨٦ وانظر زهر الآداب ج ٣ ص ٦٦٩ . تحقيق أستاذنا
الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد .

يقول قطري بن الفجاءة - أحد خلفاء الأزارقة ، وشعراهم وخطبائهم :

إِلَى كَمْ تَغَازِنِي السُّيُوفُ وَلَا أَرَى مُغَازَتَهَا تَدْعُو إِلَى حِمَامِيَا
أَقَارِعُ عَنْ دَارِ الْخُلُودِ وَلَا أَرَى بَقَاءَ عَلَى حَالٍ لِمَنْ لَيْسَ بَاقِيَا
وَلَوْ قَرَّبَ الْمَوْتَ الْقِرَاعُ لَقَدْ أَنَى لِمَوْتِي أَنْ يَدْنُو لَطُولِ قِرَاعِيَا
أُعَادِي جِلَادَ الْمُعَمَّيْنِ كَأَنِّي عَلَى الْعَسَلِ الْمَازِيَّ أَصْبَحَ غَادِيَا
وَأَدْعُو الْكِمَاةَ لِلنِّزَالِ إِذَا الْقَنَاءُ تَحَطَّمْ فِيمَا بَيْنَنَا مِنْ طَعَانِيَا
وَأَسْتُ أَرَى نَفْسًا تَمُوتُ وَإِنْ دَنْتُ

من الموت حتى يبيعث الله داعياً^(١)

فلا تكاد تسمع إلا صليصة السيوف ، واشتجار الرماح ، وقراع الأبطال ،
وغدو على الموت كأنه « على العسل الماذي يصبح غاديا » .

وتلك ميزة الأدب الخارجي ، فهو أدب حرب ، واستماتة في العقيدة ، فليس
أدباً حزيناً باكياً ، كما هو الشأن في أدب الشيعة في جملته . . وليس أدب المدح
الكاذب ، والخنوع للخلفاء ، طلباً للعطاء كما هو الشأن في أدب الأمويين ، ولكنه
أدب نفوس بدوية ، تقاتل عن عقيدتها ، وتقن في سبيل إرادتها ، تغضب ،
ولكن لا لشخص ، بل لفكرة ، وتثور ، ولكن لا لبيت بل لعقيدة ، ترى
ذلك واضحاً فيما خلفه قطري بن الفجاءة ، وعمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم ،

(١) أمالي الشريف المرتضى ج ٣ ص ٩٠ ولقطري ترجمة في وفيات الأعيان
ج ١ ص ٥٤٥ ومعجم البلدان ج ١ ص ٢٨٩ ودائرة المعارف ، والأعلام . ثم هو
أبو ثمامة : جعونة بن مازن بن زيد - مناة المازني القيمي الخارجي ، ولد بفوان
ونسب إلى قطر موضع قريب من عمان . أحد شعراء الخوارج وقرسانهم تولى
إمارة الأزارقة ، وحارب المهلب بن أبي صفرة وكاد يقضي على الدولة الأموية .

وغيرهم من شعراء الخوارج . . . كما تلمس ذلك في خطب أبي حمزة الخارجي ،
وشبيب بن يزيد الشيباني ، والمستورد بن علفة ، وكثير غيرهم من أمراء الخوارج ،
وخطبائهم ، والمقدمين فيهم .

الأدب الزيرى :

فإذا أنت أردت أن تعرف الأثر الزيرى في الأدب العربى فأنت واجده فى
شعر عبيد الله بن قيس الرقيات - شاعر الزيريين - ثم فى خطب عبد الله بن الزير ،
ومصعب أخيه .

وتقوم عناصره على أن قریشاً ، ثم مضر ، أولى بهذا الأمر من غيرها ،
فرسول الله - صلى الله عليه وسلم - منها ، وأحق البلاد مكة ، مولد الرسول
- صلى الله عليه وسلم - ثم الدعوة لبیت الزير ، وابنه عبد الله أمثل أبناء الستة
الذين اختارهم عمر - رضى الله عنه - وحصر فيهم خلافة المسلمين يقول عبيد الله
ابن قيس الرقيات^(١) ، فيحرق على اختلاف قريش وتقاتلهم :

حَبِذَا الْعَيْشُ حِينَ قَوَى جَمِيعٌ لَمْ يُفَرِّقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْعَمَ الْقَبَائِلُ فِي مُلْكِكَ قَرِيشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمُسْكِي فَنَاءَ قَرِيشٍ بِيَدِ اللَّهِ عُمَرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قَرِيشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لِحَى بَقَاءُ

ثم يأخذ فى غره متنقلا فى بيوتات قريش عامة ، إلى أن يقول فى مصعب :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءُ
يَتَّقَى اللَّهَ فِي الْأُمُورِ ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ هُمُ الْإِتْقَاءُ

(١) ترجم له أبو الفرج فى أغانيه ج ٤ ص ٩٥٤ .

أما الخليفة عبد الله بن الزبير فيمدحه بقوله :

أَنْتَ ابْنُ مُعْتَلِجِ الْبِطَاحِ كَدَّيْهَا فَكُدَّائِهَا
أَوْفَى قَرِيْشٍ بِالْمَلَا فِي حُكْمِهَا وَقَضَائِهَا
وَلَأَنْتَ أَعْلَمُهَا بِهَا وَأَصَحُّهَا مِنْ دَائِهَا
وَأَتَمُّهَا نَسَبًا إِذَا نُسِبَتْ إِلَى آبَائِهَا
إِنَّ الْبِلَادَ سِوَى بِلَادِكَ ضَاقَ عَرْضُ فِضَائِهَا
فَاجْمَعْ بَنِيَّ إِلَى بَنِيكَ ، فَأَنْتَ خَيْرُ رِعَائِهَا
نُشْهِدُكَ مِنْهَا مَشْهُدًا ضَمَكَا عَلَى أَعْدَائِهَا
نَحْنُ الْفَوَارِسُ مِنْ قَرِيْشٍ يَوْمَ جِدِّ لِقَائِهَا

وسوف يتجلى لنا في « أثر التشيع في الأدب العربي » الصلة الوثيقة بين هذه الآداب ، والخصومة السياسية العنيفة بين أحزابها المختلفة ، مما كان للأدب منه غناء ونفع .

الفصل الخامس

أدباء الشيعة

آن لنا أن نتحدث عن أدباء الشيعة ، وأن نتعرف اللبنة التي وضعها كل منهم في هذا البناء العتيق .

وقد مضى القرن الثاني الهجري وأمرأه البيان الحزبي خطيب ، أو شاعر ، فلم تكن الكتابة في هذا النوع من الأدب قد استقلت فناً خاصاً ، له رسومه وله رجاله ، وإنما هي مشافهة مكتوبة ، أو قل خطابة مكتوبة ، فلا يزال زعيمها خطيب أو شاعر .

فسبيلنا الآن أن نتحدث عن هذين الفنين — الخطابة والشعر — ثم نتناول جمهرة من أعلامهما .

الخطابة والخطباء

بنو هاشم — شيعتهم — صعصعة بن صوحان — سليمان بن صرد —
اختار بن أبي عبيد الثقفي .

الخطابة :

ليس في عصور اللغة — على ما سجله التاريخ الأدبي من آثار — عصر زها بالخطابة ، وحفل بالخطباء كهذا العصر الذي نؤرخه . . . فقد كانت الفتن الناشئة والحروب القائمة ، والمصيبات المضطربة ، والتنازع في سبيل السيادة والحكم ،

مظهراً من أقوى مظاهر الخطابة ، وأفعلمها في النفوس . . . فأصبحت أساس الدعوة ، ولسان الفتنة . ومثيراً يعصف بالجموع إلى القتال والثورة . إلى جانب أغراضها الدينية من : وعظ ، وقصص ، وتفقيه ، وإرشاد . . . تستمد في كل ذلك عقولاً هذبها الإسلام ، ونفوساً صقلها القرآن ، فإذا أسلوبها أسلوبه . وإذا حججها من حججه ، وإذا هي تنشر على الناس أدباً لا عهد للعرب بمثله ، ولم يكن للعالم سبيل إليه . . . أدب القرآن ذو النهج الواضح ، والحجج الدامغة ، والنسق المفصل ، واللفظ المصقول

وطبعي أن يظهر في الخطابة ما جرى على الدولة من عوامل الانقسام والفرقة ، وأن تصور أخلاق مرتجليها ، لاعتمادهم عليها في الدين والسياسة ، فإذا خطابة أموية تعتمد على القوة وحدها ، والعنف وحدة ، فلا تلم بآيات القرآن وأحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا لمأماً ، ترى الدين لا يقبل منها - وقد قامت على سيوف مشهورة ، ورماح مشرعة - فتأجأ إلى السياسة تستمدها أسلوبها ، وطرائق القول فيها ، بينما يخاطب خصومهم من علويين وزيريين وخوارج ، فتسبق آيات القرآن وأقوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ألسنتهم ، وتبتدر ألفاظها إلى ألفاظهم .

والخطابة كالشعر ، لحتتها البيان ، وسداها البلاغة ، ولكن صاحبها أشد حاجة من الشاعر إلى قوة العارضة ، وحضور البديهة ، وملكة الارتجال ، وللعرب من ذلك كله القدم الثابتة ، والقدح الملقى ، وقد أمدتهم الحوادث بمعين فياض يطلق الألسنة ، ويثير النفوس .

من أجل ذلك بلغت الخطابة في هذا العصر غاية كمالها ، وأصبح الأمر في يد رجالها ، فورثنا ميراثاً موفوراً من القول ، واستمعنا إلى حفل حافل

من الخطباء . . . كان أوتقهم عقداً وأهداهم قصداً ، وأبعدهم مدى ،
وأكثرهم توفيقاً خطباء الشيعة ؛ لصدور كلامهم عن طبع موات ، وعاطفة
مستعرة . . .

بنو هاشم :

فمن هؤلاء « بنو هاشم » ، مهبط الوحى ، وشعبة الهدى ، وأئمة البيان . . .
يقول الحصرى فيهم :

« ولهم كلام يعرض فى حلى البيان ، وينقش فى فص الزمان ، ويحفظ على وجه
الدهر ، ويفضح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر ، ولم لا يطؤون ذبول
البلاغة ، ويمجرون فضول البراعة ، وأبوهم الرسول ، وأمههم البتول ، وكلهم قدغذى
بدر الحكم ، وربى فى حجر العلم :

ما منهم إلا مُردى بالحجا أو مُبشر بالأخوذية مؤدم^(١)

نمته العرائن من هاشم إلى النسب الأصرح الأوضح
إلى نبتة فرعها فى السماء ومغرسها فى ذرى الأبطح^(٢)

ويقول مسلم بن بلال العبدى : « أولئك قوم بنور الخلافة يشرقون ، وبلسان
النبوة ينطقون »^(٣).

(١) الحكم بالفهم : الحكمة ، والأخوذية : الحذق والخفة وفى المثل « رجل مبشر
مؤدم » : حاذق مجرب جمع لبن الأدمة وخشونة البشرة زهر الآداب ج ١ ص ٦٢
(٢) العرائن الأوائل ، والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .
(٣) زهر الآداب ج ١ ص ٥٣ وانظر العقد ج ٣ ص ٢٧٩ .

وسئل سعيد بن المسيب : من أبلغ الناس ؟ فقال : رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال السائل : إنما أعنى من دونه ؟ فقال : معاوية وابنه . وسعيد وابنه ، وإن ابن الزبير لحسن الكلام ، ولكن ليس على كلامه ملح ، فقال له رجل : فأين أنت من علي وابنه ، وعباس وابنه ؟ فقال : إنما عنيت من تقاربت أشكالهم وتدانأت أحوالهم ، وكانوا كسهم الجعبة ، وبنو هاشم أعلام الأنعام ، وحكام الإسلام»^(١) .

وكان لمعاوية بن أبي سفيان عين بالمدينة ، فكتب إليه : إن الحسين بن علي أعتق جارية له وتزوجها . فكتب معاوية إلى الحسين : «من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي ، أما بعد : فإنه بلغني أنك تزوجت جاريته ، وتركت أكفائك من قریش ، ممن تستحسنه للولد ، وتمجد به في الصهر ، فلا لنفسك نظرت ، ولا لولدك انتقيت » .

فكتب إليه الحسين : «أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وتعميرك إياي بأني تزوجت مولاتي ، وتركت أكفائي من قریش ، فليس فوق رسول الله منتهى شرف ، ولا غاية في نسب ، وإنما كافت ملك يميني ، خرجت عن يدي بأمر التمسست فيه ثواب الله تعالى ، ثم أرجعتها على سنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وقد رفع الله بالإسلام الخبيصة ، ووضع عنا به النقيصة ، فلا لوم على امرئ مسلم إلا في أمر مائهم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية » .

قالوا : فقرأ معاوية الكتاب ، ونبذه إلى يزيد ، فقرأه ، ثم قال : لشد ما نخر عليك الحسين ، فقال معاوية : لا ، ولكنها السنة بنى هاشم الحداد ، التي تفلق الصخر ، وتغرف من البحر»^(٢) .

(١) زهر الأداب ج ١ ص ٥٣ فينو هاشم في نظر سعيد ملحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم في البلاغة فهم جميعا أعلام البيان وهو إنما يسأل عن دون ذلك .
(٢) زهر الأداب ج ١ ص ٥٩ .

الحسين بن علي :

والحسين هذا يقف بكر بلاء ، فيحتج لنفسه ، فيقول — بعد حمد الله والثناء عليه — : « أيها الناس ، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . . . ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غير ، وقد أتنى كتبكم ، وقدمت على رسلكم ببيعتهم أنكم لا تساموني ، ولا تخذلوني . فإن تمتم على بيعتهم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نفسي مع أنفسكم ، وأهلي مع أهليكم ، فلکم في أسوة . . . وإن لم تفعلوا ، ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتي من أعناقكم ، فلعمرى ما هي لكم بنكر ، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم ، والمغرور من اغتر بكم ، فظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (١) .

عبد الله بن عباس :

وكان « عبد الله بن عباس » عيبة العلم ، وكلماني قومه ، يقول عنه الجاحظ : « ومن الخطباء الذين لا يضاھون ، ولا يجارون عبد الله بن عباس ، قالوا : خطبنا بمكة - وعثمان رضي الله عنه محاصر (٢) - خطبة لو شهدتها الترك والدليم لأسلمتا .

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢١ .

(٢) لما حاصر عثمان - رضي الله عنه - يوم الدار ولي عبد الله بن عباس

وذكره حسان بن ثابت فقال :

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرَكْ مَقَالًا لِقَائِلِ بُمْلَقَاتٍ لَا تَرَى بَيْنَهَا فَضْلًا
كَفَى وَشَفَى مَا فِي النُّفُوسِ وَلَمْ يَدَعْ لَدَى إِرْبَةٍ فِي الْقَوْلِ جِدًّا وَلَا هَزْلًا
سَمَوْتَ إِلَى الْعُلْيَا بِغَيْرِ مَشَقَّةٍ فَتَلَّ ذُرَاهَا لَا دَرِيًّا وَلَا وَغْلًا^(١)
ويقول فيه عليّ : « لقد كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق .. وما كان

يعلم الغيب ، ولكنه الذكاء الحاد ، والقراسة الصادقة » .

وقال الحسن البصري : كان عبد الله بن عباس أول ما عرف بالبصرة ، صعد المنبر ، فقرأ البقرة وآل عمران ففسرهما حرفاً حرفاً .. وكان والله مثجاً يسيل غرباً^(٢) وكان يسمى البحر وحبر قريش .

وكان عمر يقول - كلما رآه - : غص غواص .. ونظر إليه يتكلم ، فقال : شنشنة أعرفها من أخزم .. أراد أني أعرف فيك مشابهة من أبيك في رأيه وعقله ، ويقال : إنه لم يكن لقرشي مثل رأى العباس^(٣) ويقول ابن أبي مليكة : ما رأيت مثل ابن العباس ، إذا رأيته رأيت أصح الناس ، وإذا تكلم فأعرب الناس ، وإذا أفق فأكف الناس ، ما رأيت أكثر صواباً ، ولا أخضر جواباً من ابن عباس ..

الحسن بن علي :

وكذلك كان الحسن بن علي : علماً ، وسماحة ، وأدباً ، ونجدة .. خطب الناس - وقد تولى الخلافة - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « نحن حزب الله المفلحون ، وعتره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الأقربون ، وأهل

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٥ ، والعقد ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) اللئج : الخطيب المفوه . والغرب : الراوية والدلو .

(٣) العقد ج ٢ ص ١١٠ ، وانظر مجمع الأمثال للميداني في المثل ، وقد اخترنا؛ له في الموازنات الأدبية .

بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يخطئنا تأويله بل نتيقن حقايقه ، فأطيعونا فإطاعتنا مقروضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ، (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول) (ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ، وأحذركم الإصغاء لهتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : (لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ؛ وقال : إني بريء منكم ، إني أرى مالا ترون) ، فتلقون للرماح أزرأ ، وللسيوف جزراً ، وللعمد حظاً ، وللسهام غرضاً ، ثم لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً » ^(١) .

وبفجؤه معاوية ، فيناشده أن يخطب الناس ليظهر عيه ؛ وقد كان بالحسن رثة - فقال : الحمد لله الذي توحد في ملكه ، وتفرد في ربوبيته ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه من يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وحقن دماء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء إن شكرتم أو كفرتم ، أيها الناس : إن رب على كان أعلم بعلي حين قبضه إليه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا بمثله ، ولم تجدوا مثل سابقته ، فهيها هيهات ! . . . طالما قلبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخواتها ، جرعكم رنقاً ، وسقاكم علقاً ، وأذل رقابكم ، وأشرقكم بريقكم فلستم بملومين على بغضه . . . وإيم الله لا ترى أمة محمد خفصاً ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنة ، لن تصدروا عنها حتى تهلكوا ،

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٤٢ ، والأزر : بفتح فسكون الظهر : أي تركبكم الرماح ، وتعلوكم ، وجزرا : قطعاً .

لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوا انكم إلى شياطينكم ، فعند الله أحتسب ما مضى ، وما ينتظر من سوء دعتكم ، وحيف حكمكم . ثم قال : يا أهل الكوفة ، لقد فارقكم بالأمس سهم من مرأى الله ، صائب على أعداء الله ، نكال على فجار قريش ، لم يزل آخذاً بجناجرها ، جاثماً على أنفاسها ، ليس بالملولة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة في حرب أعداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاء فأجابه ، وقاده فاتبعه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته . . ثم نزل ، قالوا : فقال معاوية أخطأ مجل أو كاد ، وأصاب مثبتت أو كاد ، ماذا أردت من خطبة الحسن !! ؟^(١) .

وخطب معاوية الناس بالكوفة - حين دخلها - فقال : من على والحسن ؟ فقام الحسين يرد عليه ، فأخذ الحسن بيده فأجلسه ثم قام ؛ فقال : أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن ، وأبى على ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجدك عتبة بن ربيعة ، وجدتي خديجة ، وجدتك قتيلة ، فلعن الله أهلنا ذكراً ، وألأمننا حسباً ، وشرنا قديماً وحديثاً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً ، فقال طوائف من أهل المسجد : آمين^(٢) .

وهكذا كان الحسن - سيد شباب أهل الجنة - أبصر الناس بالحجة ، وأعرفهم بمواضع الفرصة .

نجيباً حين يُدعى "إف" أبا الفتي نجب

فلا عجب ، وهو ابن على ، وأشبه الناس برسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(١) ماء رنق : كعدل وكتف وجبل : كدر ، والعلق الدم - ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ١٠ ، وفيه وفي مروج الذهب جمهرة كبيرة من خطب الحسن .
(٢) . مقال الطالبيين ص ١٥ وشرح النهج

أن يجري الجواد على عرقه ، وتلوح مخايل الليث في شبله ، ويكون النجيب فرعاً لأصله . . . وكذلك كان الحسن .

نعم وكذلك كان بنو هاشم جميعاً في حضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، وإخام الخصم .

عقيل بن أبي طالب :

قدم عقيل بن أبي طالب على أمير المؤمنين على بالكوفة ، يسأله قضاء دينه ، فقال له : اصبر حتى يخرج عطائي فأدفعه إليك ، فلم يعجبه ذلك ، وخرج مغاضباً إلى معاوية ؛ فأكرمه ونعمه ، وقضى حوائجه ودينه ، ثم أراد أن يستخدمه استخداماً سياسياً فيما بينه وبين علي ، فقال لأصحابه ، هذا أبو يزيد ، لولا أنه علم أني خير له من أخيه ، لما أقام عندنا وتركه ، فقال عقيل : أخي خير لي في ديني ، وأنت خير لي في دنياي ^(١) .

نقول : والكلمة في حينها قصيدة هجاء .

وقال له يوماً : إن علياً قد قطعك ووصلتك ، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر ، فقال : أفعل ، فأصعد ؛ ثم قال بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب ، فالعنوه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ثم نزل ؛ فقال له معاوية إنك لم تبين - أبا يزيد - من لعنت بيني وبينه ، فقال : والله لازدت حرفاً ، ولا نقصت آخر ، والكلام إلى نية المتكلم ^(٢) .

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) كان عقيل قد كلف بصره ، وله بعد لسانه ونسبه وأدبه وجوابه : كما يقول

الجاحظ - البيان والتبيين ، والعقد ج ٢ ص ٣٤٨ .

وقال معاوية: يا أهل الشام ، هل سمعتم قول الله - تبارك وتعالى - في كتابه :
(تبت يدا أبي لهب وتب) ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن أبا لهب عمه ،
فقال عقيل : هل سمعتم قول الله عز وجل : (وامراته حمالة الحطب) ؟
قالوا : نعم ، قال : فإنها عمته ... يا معاوية ، إذا دخلت النار فاعدل
ذات اليسار ، فإنك ستجد عى أبا لهب مفترشا عمتك حمالة الحطب ،
فانظر أيهما خير^(١).

ودخل - وقد كف بصره - على معاوية ، فأجلسه على سريرته ، ثم قال :
أنتم - معشر بنى هاشم - تصابون في أبصاركم ، فقال عقيل : وأنتم - معشر بنى أمية -
تصابون في بصائرکم .

وشبيه بهذا جوابه لمعاوية ، وقد قال له : ما أبين الشبق في رجالكم يا بنى
هاشم ، فقال : لكنه في نسائكم أبين يا بنى أمية .

وقال له رجل : إنك لخائن ، حيث تركت أخاك وترغب في معاوية ، فقال
عقيل : أخون منى - والله - من سفك دمه بين أخى وابن عمتي أن يكون أحدهما
أميرا . . .

ولعقيل من هذا النوع كثير ، عنى بروايته الجاحظ ، وابن عبد ربه ، وكله
يحمل إصابة المعنى ، وإيجاز اللفظ ، وهو من غير شك دليل على لدده في الخصومة ،
وبصره بالمنازعة ، وشدة قرعه بالحجة ، وحضور البديهة .

محمد بن على بن الحسين :

وسأل أعرابي محمد بن على بن الحسين - رضى الله عنهم - : هل رأيت الله حين

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٨ ، والعقد ج ٢ ص ٣٤٨ .

عبدته ؟ . فقال : لم أكن لأعبد من لم أره !! فقال : فكيف رأيته ؟ . فقال :
لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ، ورأته القلوب بحقائق الإيمان ، لا يدرك بالحواس ،
ولا يشبه بالناس ، معروف بالآيات ، منعوت بالعلامات ، لا يجور في القضايات ،
ذلك الله الذي لا إله إلا هو . . .

فقال الأعرابي : الله أعلم حيث يجعل رسالته^(١) .

زيد بن علي بن الحسين :

وكانت ملوك بني أمية تكتب إلى صاحب العراق أن يمنع أهل الكوفة من
حضور « زيد بن علي » فإن له لساناً أقطع من خبة السيف ، وأحد من شبا الأسنه ،
وأبلغ من السحر والكهانة ، ومن كل نفث في عقد^(٢) .

ويصفه هشام بن عبد الملك ، فيقول في كتابه إلى يوسف بن عمر النخعي ، واليه
بالعراق :

« . . . وقد قدم « زيد بن علي » على أمير المؤمنين في خصومة عمر بن الوليد
ففصل أمير المؤمنين بينهما ، ورأى رجلاً جدلاً لساناً ، خليقاً بتمويه الكلام
وصوغه ، واجترار الرجال بحلاوة لسانه ، وبكثرة مخارجه في حججه ، وما يدلى
به عند لد الخصام ، من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الفلج ، فإنه إن
أعاره القوم أسماعهم ، فحشاها من لين لفظه ، وحلاوة منطقته ، مع ما يدلى به من
القراية برسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجدهم ميلاً إليه ، غير ممتدة قلوبهم ، ولا
ساكنة أحلامهم »^(٣) .

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٨٥ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٦ .

(٣) الطبري ج ٨ ص ٢٦٦ .

وكان بين زيد بن علي وجعفر بن حسن بن حسن السبط منازعة في وصية ، فكانا إذا تنازعا اثنال الناس عليهما ليسمعا محاورتهما ، فيحفظ الرجل على صاحبه اللفظ من كلام جعفر ، ويحفظ الآخر اللفظ من كلام زيد ؛ فإذا انفصلا ، وتفرق الناس ، كتبوا ما سمعوا ، ثم يتملونه تلم الواجب من الفرض . والنادر من الشعر ؛ والسائر من المثل ؛ وكانا أعجوبة دهرهما ؛ وأحدوة عمرهما ^(١) .

عبد الله بن حسن :

وأوصى عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب - رضى الله عنهم - ابنه فقال :

« أى بنى ؛ إني مؤد إليك حق الله في تأديبك ؛ فأدِّ إلى حق الله في الاستماع منى . . . أى بنى : كف الأذى ؛ وارفض البذاء ؛ واستمن على الكلام بطول الفسك في المواطن التي تدعوك فيها نفسك ؛ فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ؛ ولا ينفع فيها الصواب ؛ واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ؛ كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشاً ؛ لأنه يريدك بمشورته .

واعلم - يا بنى - أن رأيك إذا احتججت إليه وجدته ناعماً ؛ ووجدت هواك يقظان ؛ فأياك أن تستبد برأيك ؛ فإنه حينئذ هواك ؛ ولا تزل فملاً إلا وأنت على يقين أن عاقبته لا ترديك ؛ وأن نتيجته لا تجنى عليك » ^(٢) .

محمد الباقر :

وفي الأمالي : دخل أبو جعفر - محمد الباقر - على عمر بن عبد الميز - رضى الله عنهم - فقال له عمر : أوصنى يا أبا جعفر ؛ فقال :

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢١٧ . وزهر الآداب ج ١ ص ١١٨ .

(٢) زهر الآداب ج ١ ص ١٢٠ . والبيان والتبيين ج ١ ص ٢١٦ .

« أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً . . وأوسطهم أخا . . وكبيرهم
أباً . . فارحم ولدك ، وصل أخاك ، وبرّ أباك . . . وإذا صنعت
معروفاً فربه »^(١) .

هؤلاء بنو هاشم . . . نصاعة بيان ، ومضاء حجة ، وسماحة أدب ،
وأناقة لهجة :

شَرَفٌ تَنْقَلُ كَابِرَاعِن كَابِرٍ كَالْزُمَحْ أَنْبُوبَا عَلَى أَنْبُوبِ

قد وهبوا لساناً طلقاً ، وقولاً عذبا ، فأثرت عندهم الخطب الرنانة ، والأجوبة
المسكتة التي تجمع بين إصابة المعنى ، وسحر البيان . . .

وقد عقد ابن عبد ربه في العقد فصلاً ممتعاً حقاً ذكر فيه طائفة من أجوبة
الهاشميين ، وهو مظهر من مظاهر الأدب الشيعي « ونموذج حسن لما أنتجه النزاع
بين الأمويين والهاشميين من أدب باهر ، ونتاج ساحر .

وفي زهر الآداب ، والبيان والتبيين ، والأمل ، والكامل ، وكتب التاريخ ؛
زهرات من آدابهم ، هي بحق فنة سحر ، أو أثر إلهام ورسالة وحى . .
نعم هؤلاء بنو هاشم :

نورُ النبوة والسياسة فيهمُ مُتَوَقِّدٌ فِي الشَّيْبِ وَالْأَطْفَالِ

جمعوا من كرم الأرومة والأصل ، إمرة البيان والعلم ، ليس فيهم - إن عدت -
إلا خطيب مفوه ، أو شاعر مفلح . أو عالم ثبت .

وكذلك كان شيعتهم ؛ سحراً ، وبلاغة ، وأدباً ، وعلماً ...

فمن هؤلاء بنو صوحان : صعصعة ، وزيد ، وعبد الله ، وشيخان ... لسن
الشيعة ، وأئمة البيان ، وسادة عبد القيس .

صعصعة بن صوحان :

وبصعصعة يضرب المثل في امتلاك ناصية القول ، وحدة الذهن ،
وسرعة الخاطر .

يصفه ابن عباس بأنه باقر علم العرب ، وسأله عن السؤدد ؛ فأحسن ؛ فقال
له : أحسنت والله يا بن صوحان ، إنك لسليل أقوام كرام ، خطباء فصحاء ، ماورثت
هذا عن كلاله .

ووفد على معاوية برسالة أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، فقال لأذنه :
استأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبي طالب - وبالباب أردفة من بني أمية -
فأخذته الأيدي والنمال لقوله ، وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله !!؟ .
وكرثت الجلبة واللفظ ، فأنصل ذلك بمعاوية ، فوجه بمن يكشف عنه ، « ثم أذن
لهم فدخلوا ، فقال : من هذا الرجل ؟ قالوا : رجل من العرب يقال له صعصعة بن
صوحان معه كتاب من علي ؛ فقال : والله لقد بلغني أمره ، هذا أحد سهام علي ،
وخطباء العرب ، ولقد كنت إلى لقائه شيقاً ، إئذن له يا غلام ؛ فدخل عليه ؛
فقال : السلام عليك يا بن أبي سفيان . هذا كتاب أمير المؤمنين ، فقال معاوية :
أما إنه لو كانت الرسل تقتل في جاهلية أو إسلام لقتلتك ، ثم اعترضه ليستخرج
قريحته ، فقال : ممن الرجل ؟ قال : من نزار ، قال : وما كان نزار ؟ قال : كان إذا
غزا نكس ، وإذا لقي افترس ، وإذا انصرف احترس ، قال : فمن أي أولاده
أنت ؟ قال : من ربيعة قال : وما كان ربيعة ؟ قال : كان يطيل النجاد ، ويعول

العباد ، ويضرب ببقاع الأرض العماد ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من جديلة ، قال : وما كان جديلة قال : كان فى الحرب سيفاً قاطعاً ، وفى المكرمات غيثاً نافعاً ، وفى اللقاء لهباً ساطعاً ، قال : فمن أى أولاده أنت ؟ قال : من عبد القيس ، قال : وما كان عبد القيس ؟ قال : كان حضرياً خصيباً أبيض ، وهاباً اضيفه ما يجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء قال : ويحك يا بن صوحان ! ! فما تركت لهذا الحى من قريش مجداً ولا نحرأ ، قال : بلى والله يا بن أبى سفيان ، تركت لهم ما لا يصلح إلا بهم ، ولهم تركت الأبيض والأحمر ، والأصفر والأشقر ، والسرير والمنبر ، والملك إلى الحشر ، وأنى لا يكون ذلك كذلك ، وهم آمناء الله فى الأرض - ونجومه فى السماء ! ! - فظن معاوية أركلامه يشمله ، فقال : صدقت يا بن صوحان ، إن ذلك لكذلك فعرف صمصمة ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد ، بعدتم عن أنف الرعى ، وعلوتم عن عذب الماء ، قال : فلم ذلك ويلك يا بن صوحان ! ! ؟ قال : الويل لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم . فأخرجوه ، فقال صمصمة : الصديق ينبي عنك لا الوعيد^(١) ، ومن أراد المشاجرة قبل المحاورة^(٢) ! ! فقال معاوية : لشيء ما سوده قومه ، ووددت والله أنى من صلبه ، ثم التفت إلى بنى أمية ، وقال : هكذا فلتسكن الرجال^(٣) .

وسأل معاوية عقيل بن أبى طالب : ميز لى أصحاب على ، وابدأ بآل صوحان ، فإنهم مخاربى الكلام ، فقال عقيل : أما صمصمة فعظيم الشأن ، غضب اللسان ، قائد فرسان ، قاتل أقران ، يرتق ما فتق ، ويفتق ما رتق ، قليل النظر . . .

(١) يقول : ينبغى أن يدل عليك الفعل لا القول (مجمع الأمثال) .

(٢) فى اللؤلؤ : إن أردت المحاجزة فقبل للمناجزة .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٦٠ .

وأما زيد وعبد الله فإنهما نهران جاريان يصب فيهما الخلدجان ويغاث بهما البلدان ،
رجلا جدا لا لعب معه ، وبنو صوحان كما قال الشاعر :

إذا نزل العدو فإن عندي أسوداً تخلس الأسد النفوساً^(١)

ويقول المسعودي : حبس معاوية صعصعة بن صوحان ، وعبد الله بن الكواء
اليشكري ، ورجالا من أصحاب علي ، مع رجال من قریش ، فدخل عليهم معاوية
يوماً ، فقال : نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أى الخلفاء رأيتموني ؟ فقال
ابن الكواء . لولا أنك عزمت علينا ما قلنا لأنك جبار عنيد ، لا تراقب الله في
قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما علمنا - واسع الدنيا ، ضيق الآخرة ،
قريب الثرى ، بعيد المرعى ، تجعل الظلمات نوراً والنور ظلمات ، فقال معاوية :
إن الله أكرم هذا الأمر بأهل الشام ، الذابين عن بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم
يكونوا كأمثال أهل العراق ، المنتهكين لحارم الله ، والمحلين ما حرم الله ، والمحرمين
ما أحل الله ، فقال عبد الله بن الكواء : يابن أبى سفيان ، إن لكل كلام جواباً ،
ونحن نخاف جبروتك ، فإن كنت تطلق ألسنتنا ذيننا عن أهل العراق بألسنة
حداد ، لا يأخذها في الله لومة لائم ، وإلا فإننا صابرون حتى يحكم الله ، ويضعنا على
على فرجة ، قال : والله لا يطلق لك لسان .

ثم تكلم صعصعة ، فقال : تكلمت يابن أبى سفيان فأبلغت ، ولم تقصر عما
أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أنى يكون الخليفة من ملك الناس قهراً ،
ودانهم كبراً ، واستولى بأسباب الباطل كذباً ومكراً . أما والله مالك في يوم
بدر مضرب ولا مرعى ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : لا حلى ولا سبرى ،
ولقد كنت أنت وأبولك في العير والتفهر بمن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وإنما أنت طليق ابن طليق ، أطلقكما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنى
تصلح الخلافة لطليق !!؟

فقال معاوية : لولا أنى أرجع إلى قول أبى طالب :

قَابَلْتُ جَهْلَهُمْ حِلْمًا وَمَغْفِرَةً وَالْعَفْوَ عَنْ قُدْرَةِ ضَرْبِ مِنَ الْكَرَمِ
لَقَتَلْتَكُمْ^(١)

سليمان بن صرد :

ومن خطباء الشيعة الصحابي الجليل ، والفارس المعلم ، والخطيب المفوه ،
والشيعة الذى قتل مدافعاً عن عقيدته : « سليمان بن صرد بن الجون الخزاعى » ، سيد
أهل العراق ورأسهم .

سماه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سليمان ، وكان اسمه فى الجاهلية يسارا ،
فلما قامت الفتنة شهد مع على مشاهدته ، مقدماً فى الحرب ، سباقاً إلى المبارزة ، ثم
وقف من صلح الحسن موقف المنكر له ، المعلن لفضبه أن يلى الأمر معاوية .

قالوا : لما تمت البيعة لمعاوية بالعراق أتى سليمان بن صرد ، فدخل على الحسن
فقال : السلام عليك يا مذل المؤمنين ؛ فقال الحسن : وعليك السلام ، اجلس لله
أبوك ، فجلس سليمان ، ثم قال : « أما بعد فإن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ،
ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم
ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية
فى العهد ولا حظاً من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت وأعطاك ما أعطاك

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٦١ ، وفى الجزء الأول من صبح الأعشى . والبيان
والتبيين كثير من أخباره .

بينك وبينه من العهد والميثاق كنت كتبت عليه بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل المشرق والمغرب: أن هذا الأمر لك من بعده؛ كان الأمر علينا أيسر، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله، ثم قال -وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت : « إني كنت شرطت لقوم شروطاً ووعدتهم عدات ، ومنيتهم أماناً ؛ إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هناك تحت قدمي » . . والله ما عني بذلك إلا نقض ما بينك وبينه ، فأعد الحرب جذعة ، وأذن لي أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عامله معها ، وأظهر فيها خلعه ، وانبد إليه على سواء ؛ إن الله لا يهدي كيد الخائنين^(١) ثم سكت . . . فتم كلم الناس بمثل مقالته . تخفف الحسن - رضى الله عنه - بحمله ، وسداد رأيه حديثهم ، وأبان لهم ما في الصلح من جمع الألفة ، وإصلاح لذات البين .

وقد ظل ابن سرد بالكوفة مقيماً على ولائه لأهل البيت إلى أن كانت حادثة الحسين ، فأصابه ما أصاب الكوفيين من تنازل ، حتى إذا حلت الفسكة بسيد الشهداء ، وضحي بنو حرب بالدين في كربلاء ، حالته هذه الصدمة فأحس - كما أحس غيره - بالخطيئة ، فجمع الشيعة بمنزله ، يتذاكرون أمر هذا السبط الكريم ، ويندمون على ما فرط منهم من خذلانه ، ويدبرون الأمر للأخذ بثأره .

وتكلم خطباؤهم : المسيب بن نجبة النزارى ، وسعد بن نفيل الأسدى ، وعبد الله بن وال التميمى ، ورفاعة بن شداد البجلي ، وغير هؤلاء ممن حلوا لواء الأدب الشيعى . وكان لهم في تكوينه - وبخاصة أدب كربلاء - أكبر الفضل .

بدأ المسيب بن نجبة ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ، ثم قال :

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢٠ . وكلمة معاوية من خطبته في النخيلة بالكوفة (مقاتل الطالبيين) .

أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتعرض لأنواع الفتن ، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا من يقول له غداً : (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) ؟ فإن أمير المؤمنين قال : العمر الذي أعذر الله فيه ابن آدم ستون سنة ، وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مفرمين بتزكية أنفسنا ، وتقريظ شيعتنا . حتى بلا الله أختيارنا ، فوجدنا كاذبين في كل موطن من موطن ابن بنت نبينا - صلى الله عليه وسلم - وقد بلغتنا قبل ذلك كتبه ، وقدمت علينا رساله ، وأعذر إلينا يسألنا نصره عوداً وبداء ، وعلانية وسراً ، فبخلنا عنه بأنفسنا ، حتى قتل إلى جانبنا ، لا نحن نصرناه بأيدينا ، ولا جادلنا عنه بألسنتنا ، ولا قويتناه بأموالنا ، ولا طلبنا له النصر إلى عشائرننا . فما عذرنا إلى ربنا ، وعند لقاء نبينا - صلى الله عليه وسلم ؟ - وقد قتل فينا ولده ، وحبيبه ، وذريته ونسله ، لا والله لا عذر دون أن تقتلوا قتاله ، والموالين عليه ، أو تقتلوا في طلب ذلك ، فعمى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك ، وما أنا بعد لقاءه لعقوبته بأمن . . .

أيها القوم : ولوا عليكم وجلا منكم ، فإنه لا بد لكم من أمير تفزعون إليه ، وراية تحفون بها . . . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم « (١) » .

فاجتمع رأيهم على سليمان بن صرد ، شيخ الشيعة ، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم - الحمود في بأسه ودينه ، والموثوق بحزمه ورأيه ، وسموه أمير المؤمنين ، فخطبهم سليمان خطبته الرائعة التي ذكرنا قبل .

تولى سليمان أمر التوايين ، فأخذ يدبر الأمور ، ويتنهر الفرس ، حتى إذا استهل شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين شخص في وجوه أصحابه لمحاربة ابن زياد ، فعسكر بالنخلة ثلاثاً ، يبعث ثقاته إلى من تخلف عنه ، يذكرهم الله وعهودهم .

وكانت هذه الثلاث مجالا واسعا للسن الشيعة وقادتها، يعرضون فيها بزهم، ويدبرون أمرهم، تحت إمرة سيدهم سليمان بن صرد، خطبهم أولا فوضع لهم سياسته، وما خرجوا من أجله، فقال:

« أيها الناس، من كان إنما أخرجته إرادة وجه الله، وثواب الآخرة، فذلك منا ونحن منه، فرحمة الله عليه حيا وميتا، ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها فوالله ما نأثي فيثا نستفيثه ولا غنيمة نغنمها، ما خلا رضوان الله رب العالمين. وما معنا من ذهب ولا فضة، ولا خز ولا حرير، وما هو إلا سيوفنا على هواتقنا، ورماحنا في أكفنا، وزاد قدر البلغة إلى لقاء عدونا، فمن كان غير هذا ينوى فلا يصحبنا ».

فلما أجمعوا على المسير، وملأ أيديه من صحابته، فلم يبق إلا من أخرجته إرادة الله، قام سليمان فربط على قلوبهم، وقوى عزائمهم بقوله:

« أما بعد: أيها الناس، فإن الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطالبون، وإن للدنيا تجاراً، وللآخرة تجاراً، فأما تاجر الآخرة فساع إليها منتصب بتطلابها، لا يشتري بها ثمنا. لا يرى إلا قائما وقاعداً، وراكعاً وساجداً. لا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة. وأما تاجر الدنيا فمكب عليها راتع فيها، لا يبتغي بها بدلاً ففليسكم، يرحمكم الله، في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيراً على كل حال. وتقربوا إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه حتى تلقوا هذا العدو، والحل القاسط، فتجاهدوه، فإنسكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم ثواباً من الجهاد والصلاة؛ فإن الجهاد سنام العمل جعلنا الله وإياكم من العباد الصالحين، المجاهدين والصابرين على اللاؤاء. وإنا مدجلون

الليلة من منزلنا هذا - إن شاء الله - فأدجلوا»^(١).

أدجلوا عشية الجمعة لخمس مضي من ربيع الآخر ؛ ونزلوا « بعين الوردة » وسط الجزيرة . وأقبل أهل الشام . حتى إذا صاروا على مسيرة يوم ليلة قال عبد الله بن غزية : فقام فينا سليمان فحمد الله فأطال ؛ وأثنى عليه فأطنب ؛ ثم قال :

« أما بعد : فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل وأطراف النهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله معذورين ، فقد جاءوكم ، يل جثثهم وهم أتم في دارهم وخيرهم ، فإذا التيممهم فاصدقوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا يولينهم امرؤ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة . لا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم ، إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه ، أو يكون من قتل إخواننا بالطف - رحمة الله عليهم - فإن هذه سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة » .

والتقى الجمعان ، واستحضر القتال ، فتغلب الجيش الشامي .

وأضحى الخزاعي الرئيس مجدلاً كأن لم يقاتل مرة ويحارب

بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة . . وقتل معه رموس أصحابه^(٢) .

وعاد فلول التوابين إلى السكوفة ؛ فدخلوا دعوة المختار ، فتسلم وصحابه الكيسانية

(١) الطبري ج ٧ ص ٦٩ ، وانظر أخبار ابن سرد في الطبقات ، وتاريخ بغداد جزء أول .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٤٧ ومروج الذهب ج ٢ ص ١٠٢ .

إمارة البيان الشيعي ؛ فكان أثر المختار في توجيه الأدب الشيعي لا يقل عن أثره في السياسة والعقائد الشيعية .

المختار بن أبي عبيد الشقفي

وَرِثَ المختار طموحه ونجدته عن بيت عريق في الجند والسؤدد^(١) . فشبَّ كبير النفس . نواقاً إلى الرياسة والإمارة . فحقق له التشيع آماله ، وبلغ به غايته ، وسجل في صحف الزعامة ذكره .

كان المختار سياسياً ماهراً وكذلك كان خطيباً من خطباء الشيعة المبرزين ؛ خطيباً ساحراً قوى التأثير ، دارساً لأحاسيس الناس ونفسياتهم ، فاستخدم كل ذلك في أغراضه .

جاء الكوفة والناس عظمهم مع ابن سرد . تتملكهم نوبة من الندم والحزن ؛ لما أصاب بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكان عليه أن يتخذ أوتار قيثارته من هذا الجو الديني الحزين ، وهذه العواطف الثائرة ، والأحاسيس الملتهبة .

فكَّر المختار وفكَّر . كيف يصرف الناس عن ابن سرد شيخ العشيرة وإمام الجمع ؟ ؟

(١) كان أبوه أمير الجيش الذي انتدب لفتح العراق في عهد عمر - الطبري ج ٢ ص ٦٠ وابن الأثير ج ١ ص ١٨١ - كما كان عمه سعد واليا على المدائن من قبل علي والحسن رضي الله عنهما - الطبري ج ٢ ص ٩٢ وابن الأثير ج ٢ ص ١٧٥ - وجده عروة بن مسعود عظيم الطوائف الذي نزل القرآن في حقه « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » . هذا وعظيم مكة الوليد بن المغيرة .

وكيف يجمع هذا الجمع الخاشد حوله فيكون بهم دولته ؟ ؟
فانظر كيف هداه التفكير ؛ لتدرك إلى أى مدى وهبَ « المختار »
خلق الزعيم !!!...

يسود الكوفة اليوم رغبة القضاء على هذه الفئة الفاشمة من بنى أمية ؛ ليعود الأمر إلى بيت على . وأمثلة هؤلاء وأحقهم ابن الحنفية — محمد بن على — ساعد أبيه رضى الله عنه الأيمن ؛ وصاحب لوائه فى حروبه . فماذا عليه لو دعا لهذا الشبل الكريم ؟ . . . بل ماذا عليه لو زعم أن ابن الحنفية بعثه إلى الكوفة ؛ وأمره بأن يدعو الناس إلى بيعته ، والأخذ بشار الحسين رضى الله عنه ؛ ومحاربة أعداء الله ورسوله . . . أليس سير الناس تحت راية إمام معين لهم من أهل البيت أدى للإجابة ، وأنفع للدعوة ، وأجمع لشتات الأمة ؟ ؟ . . .

هذا هو الطريق الذى رسمه المختار لنفسه ، وسلكه لدعوته ، فما إن وصل إلى الكوفة فى رمضان سنة أربع وستين حتى اتصل بالشيمة ليلا ، فأعلنهم أن المهدي بن الوصى — محمد بن على — بعثنى إليكم أمينا ووزيرا ، منتجبا وأميرا ، وأمرنى بقتل المحملين ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضمفاء فكونوا أول خلق الله إجابة .

ثم ما زال كذلك مجدداً فى دعوته إليهم ، وصرفهم عن ابن سرد ، زاعماً أنه إنما يعمل على مثال مُثَلِّ له ، وأمر قد حددت رسومهُ ، فيه قتل الأعداء ونصر ، الأولياء ، وشفاء الصدور .

« وأما سليمان فليس بذلك الرجل الذى تلقى إليه الأمور ليصرفها . . . إنما هو غشمة من الغشم ، وحفش بال ، ليس له بصير بالحروب ، ولا تجربة للأمور ، يريد أن يخرجكم ، فيقتل نفسه ، وبقتلكم . . . فاسمعوا قولى

وأطيعوا أمرى ، ثم أبشروا وتباشروا ، فإنى لكم بكل ما تأملون خير زعيم»^(١) .

وكان هذه الدعوة قد أثرت في نفوس الشيعة . فتسابقوا إليه . وهى من غير شك دعوة متزنة ، قد حددت غايتها ، ورسمت طرقها . . . الأخذ بشار الحسين ، وقتل الخليلين ، والدعوة إلى رجل معين ، له في نفوس المسلمين مكانة ، فلا غرو أن صادفت نجاحاً باهراً ، فكثرت أتباع المختار ، وتقوى جانبه .

حتى إذا خرج ابن سرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصارى أمير الكوفة من قبل ابن الزبير ، أن يثب المختار عليه ، فزجه في السجن ، فكان يقول :

« أما ورب البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه والفقار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار » ، لأقتلن كل جبار ، بكل لدن خطار ، ومهند بتار ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغيار ، ولا بعزل أشرار . . . حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأيت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بشار النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى »^(٢) .

وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر - زوج أخته صفية - فشفع له ، فحلى الأمير سبيله في وقت كان ابن زياد قضى على حملة ابن سرد ، وقتل ساداتها ، فعاد فلول التوايين إلى الكوفة ، يعملون تحت راية المختار ، فكثرت أنصاره ، وزادته

(١) الطبرى ج ٧ ص ٦٤ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ ولقد كان المختار أعلم بنفسيات الكوفة من ابن سرد فوعدهم ومناهم .

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٦٥ .

قوة عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة ، وتولية عبد الله بن مطيع العدوى ، وكان رجلاً مسالماً .

فإننا أنت أردت أن تعرف اللبنة التي وضعها المختار وشيعته الكيسانية في البيان الأدبي للشيعة ، وجدها في هذه العقائد السيئة من مهديّة وتناسخ ووصاية وبداء . .

فقد أذاعها المختار بين الناس ، والتزمها في خطبه وكتبه وأحاديثه ، ونفث فيها من روحه الساحر ، إلى جانب ما قدر له من التوفيق في القضاء على قتلة الحسين ، حتى صارت لسان الخطباء والشعراء والعامة ، وأساس الدعوة الشيعية في الكوفة ؛ والبصرة ، والجزيرة ، والموصل .

وقد رأينا أثر ذلك في حديثنا عن العقائد ، وكيف أثرت في الأدب العربي . فلنسر الآن مع المختار حين يعلن دعوته ، فتشيع وتنسج ، حتى يرى نفسه في قوة تمكنه من الوثوب بالكوفة لطرد عبد الله بن مطيع والاستيلاء عليها . . . فيدعو هذا الأمر جماعة من الشيعة إلى التفكير في شأن « المختار » ؛ ودعوته الجديدة . . .

أخفاً أمره « ابن الحنفية » ، وأمره أن يأخذ البيعة له ، وأن يحارب أعداءه ، أم هو التقوّل والاختلاق ؟

فذهب وفدهم إليه . فأخبروه خبر المختار وما جاء به . وبراها « ابن الحنفية » فرصة للأخذ بشار الحسين — رضى الله عنهما — وهى أمنية الهاشميين جميعاً فيقول :

« وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لو ددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه » .

فكانت هذه الكلمة تقويضاً صريحاً للمختار في نظر هؤلاء ، استخدمه المختار لمصلحة الدعوة ، فجمع الشيعة وخطبهم قائلاً :

« يا معشر الشيعة ، إن فراً منكم أحبوا أن يعلوا مصداق ما جئت به ، فرحلوا إلى الإمام المهدي والنجيب المرتضى ، فسألوه عما قدمت به عليكم ، فنبأهم بأني وزيره وظهيره ، ورسوله وخليله ، وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلين والطلب بدماء أهل بيتكم المصطفين » ^(١)

وقام رئيس الوفد « عبد الرحمن بن شريح » فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا معشر الشيعة ، إنا كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة ، ولجميع إخواننا عامة ، قدمنا على المهدي بن علي فسألناه عن حربنا هذه ، وعما دعانا إليه المختار منها ، فأمرنا بمظاهرتة ومؤازرتة ، وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيبة أنفسنا ، منشحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشك ، والغل والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتالنا عدونا . . . فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .

وتتابع بقية الوفد ، فتكلموا بنحو كلامه . قال ابن جرير : فاستجمعت له الشيعة ، وحدثت عليه ^(٢) .

قالوا : ورغب الشيعة إلى المختار أن يضم إليهم إبراهيم بن الأشتر « فإنه فتى

(١) الطبري ج ٧ ص ٩٧ جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ١٠٢ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٩٧ .

رئيس ، وابن رجل شيعي شريف ، له عشيرة ذات عز وعدد . فأذن لهم فذهبوا إليه ، فأجابهم إلى الطلب بدم الحسين على أن يتولى الأمر ، فقالوا : أنت لذلك أهل ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل . . . هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدي ، وهو المأمور بالقتال ، وقد أمرنا بطاعته ، فسكت إبراهيم . . . وأخبروا المختار بذلك ، فمكث ثلاثة ، ثم سار إليه في بضعة عشر رجلا ، فيهم الشعبي ، وأبوه شرحبيل ، فلما جلسوا ، حمد المختار الله وصلى على نبيه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، وسيغني الله المهدي محمداً وأوليائه عنك . . » ثم دفع إليه الكتاب ، فقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنني قد بعثت اليكم بوزيري وأميني ونجيبتي الذي ارتضيته لنفسه ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنني وأجبت دعوتي ، وساعدت وزيري ، كانت لك عندي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أعنة الخليل ، وكل جيش غاد ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام ، على الوفاء بذلك عهد الله . . . فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيله أبداً ، والسلام عليك » (١) .

فقال ابراهيم : قد كتب إلى ابن الحنفية ، وكتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلى إلا باسمه واسم أبيه . . فقال المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان . . . وشهدت صحابته بصدق الكتاب — إلا الشعبي .

فبايع ابراهيم ودخل في طاعة المختار ، فعز به جانبه ، وتقوت دعوته ، وعلى يديه طرد عامل ابن الزبير من الكوفة ، وأباد قتلة الحسين ، وهزم الجيش الشامي على نهر « الخازر » ، وقتل عبيد الله بن زياد ، وكثيرا من أشراف الشام . .

نعم . . وعلى يديه خضعت لدعوته الكوفة ، والبصرة ، والجزيرة ، والموصل ، والمدائن ، وارتعدت منه فرائص الأمويين بالشام ، والزبيرين بالحجاز . .

فأنت ترى إذاً كيف صبغ « المختار » الجو الشيعي كله بهذه العقائد ، فتمثلها الأدب ، ورددها الخطباء والشعراء والعامة ، وهي — من غير شك — قوة خارقة ، تلك التي تبدل عقائد الناس وأفكارهم في سرعة البرق ، وهي دليل على جدارة المختار بالزعامة .

ولا شك أن الكتاب من أدب « المختار » وإنشائه ، فما بعث ابن الحنفية إلى ابراهيم ، ولا ادعى يوماً ما الخلافة على الناس ، بل بايع يزيد بن معاوية ثم عبد الملك بن مروان . والتاريخ يحدثنا أن ابن الحنفية أنكر هذه الدعاوى الكاذبة عليه من مهدية ووصاية وإحاطة بالعلوم ^(١) .

(١) راجع طبقات ابن سعد .

والآن أنقل إليك جمهرة من الخطب التي نسبت إلى المختار^(١) ، لترى إلى أى حد رسم خطط دعوته الكيسانية .

خطب الناس — وقد استولى على الكوفة — فقال :

« الحمد لله الذى وعد وليه النصر ، وعدوه الخسر ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعداً مفعولاً ، وقضاء مقضياً ، وقد خاب من افترى . .

أيها الناس : إنه رفعت لنا راية ، ومدت لنا غاية ، فقبل لنا فى الراية أن ارفعوها ، ولا تضعوها ، وفى الغاية أن اجروا إليها ولا تعدوها ، فسمعنا دعوة الداعى ، ومقالة الواعى ، فكم من ناع وناعية ، لقتلى فى الواعية^(٢) ، وبعدا لمن طغى ، وأدبر وعصى ، وكذب وتولى .

ألا فادخلوا — أيها الناس — فبايعوا بيعة هدى ، فلا والذى جعل السماء سقفاً مكفوفاً ، والأرض فجاً سبلاً ، ما بايعتم بعد بيعة على بن أبى طالب وآل على بيعة أهدى منها^(٣) . »

ثم نزل ، فأقبل الناس يبايعونه على « كتاب الله ، وسنة نبيه ، والطلب بدماء

(١) اعتقد أن خصوم المختار قد شوهوا تراثه ، فكذبوا عليه كثيراً ، ومبلغ الظن أن المختار الأديب هو المختار فى عروبه وطموحه السياسى ، على أننا قد اخترنا من آثاره أقربها إلى الروح الأدبى .

(٢) الواعية : الصراخ على الليت ونعيه (ولا فعل له) والمعنى كم من ناع وناعية لأناس قتلوا بسبب صراخهم على الحسين وآله ، فالمختار بهذه الكلمة يستشير الكوفيين على هؤلاء الذين لم يكفهم ما اقترفوا من قتل الحسين وشيعته حتى قتلوا من نعام .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٠٨ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٩٥ .

أهل البيت ، وجهاد الحليين ، والدفع عن الضعفاء ، وقتال من قاتله ، وسلم من سألته ، والوفاء ببيعته ، لا يقيلمهم ولا يستقيلمهم » .

ثم وثب بمن معه فأباد قتلة « الحسين » رضى الله عنه ، وبعث برأس عمر بن سعد بن أبي وقاص — أمير الجيش الأموى فى كربلاء — وبرأس ابنه محمد إلى ابن الحنفية .

ولما حبس عبد الله بن الزبير بنى هاشم فى سجن عارم بمكة ، لامناعهم عن بيعته ، وهم بإحراقهم . كتب « ابن الحنفية » إلى المختار ، فجمع المختار الشيعة ، وقرأ عليهم الكتاب ، ثم قال :

« هذا كتاب مهديكم . وصریح أهل نبيكم ، وقد تركوا محظورا عليهم ، كما يحظر على الغنم ، فيمتطرون القتل والتحریق بالنار . فى آناء الليل وتارات النهار ، ولست أبا إسحاق ان لم أنصرهم نصرًا مؤزرا . وأن أسرى اليهم الخيل فى إثر الخيل ، كالسيل فى إثر السيل ، حتى يحل بابن السكاهلية الويل » ^(١) .

ثم أرسل أبا عبد الله الجدلى فى جيش كثيف فخلصهم .

وللمختار شعر كثير ضاع مع ترائه الأدبى ؛ وقد حفظ لنا المربزبانى نموذجًا منه هو :

تَسَرَّ بَلْتُ من همدان دِرْعاً حصينة

ترد العـوالى بالأنوف الرّواغم

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٣٦ ، وابن الأثير ج ٤ ص ١٠٦ . وابن السكاهلية هو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد . والسكاهلية أم خويلد جدّه الأعلى . واسمها زهرة بنت عمرة من بنى كاهل بن أسد بن خزيمه . فلقب بها ابن الزبير كما نيز بأبى خبيب - وكان عقيما (ابن أبى الحديد ج ٢٠ ص ٤٩٥ وجمع الأمثال ج ١ ص ٧٥) .

هم نصرُوا آلَ الرسولِ مُحَمَّدٍ ﷺ وقد أَجَحَفَتْ بالناسِ إحدى العِظَامِ
وفوا حينَ أعطواهم — دمَ لنبيهم — وكفوا عن الإسلامِ سيفَ المِظَالِ
هم أَطَفَتُوا — إذ جاهدوا — نارَ فتنَةٍ
وهم تابعوا من هاشمٍ خيرَ قائمٍ

وله :

قد علمت بيضاء حسناء الطلل
واضحة الخدين ، عجزاء الكفل
أنى غداة الروع مقـدام بطل^(١)

وكان آخر ما سمعناه من المختار خطبته - وقد سار مصعب بن الزبير لحربه -
فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الدين وأعوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشيعة
الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الذين بغوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين ،
فاستغفروهم عليكم ؛ ليدحض الحق ، وينتفش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله
لو تهلكون ما عبد الله في الأرض إلا بالفقرى على الله ، واللعن لأهل بيت نبيه ...
انتدبوا مع أحمر بن شميطة ، فإنكم لو لقيتموهم لقتلتموهم ، إن شاء الله . قتل عاد
وإرم »^(٢).

ولكن شاء الله أن يأفل نجم « المختار » وتطوى صحيفته ، بعد إمرة دامت
سنة عشر شهراً . قضاهما كلها في الدفاع عن الهاشميين ، والأخذ بثأرهم .

(١) معجم الشعراء ص ٤٠٨ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ٦٧ .

المختار والتاريخ :

وبعد ، فهل كان المختار صادقا حقاً في تشيعه ، وهل كان يؤمن بعدالة القضية الشيعية ، فهو يدافع عن عقيدة ، ويفنى في سبيل الواجب ، وي بذل نفسه طائعا لله في نصره آل البيت ؛ أو إنها المطامع الدنيوية ، وطموحه إلى الملك ، ورغبته في الإمارة ، ثم اتخذ التشيع سبيلا إلى تحقيق ذلك ؟ ؟

رأى — وهو رجل له مكانته وبيته — أن ابن الزبير قد وثب بالحجاز ، ونجدة ابن عويمر باليمامة ، ومروان بن الحكم بالشام ، وليس هو بأقل من هؤلاء بيتا وطموحا وعشيرة ، فطمع في الخلافة ، وتستتر بالدعوة لابن الحنفية ، ثم استحل في سبيل ذلك ما نشر من عقائد .

أما المؤرخون فيكادون يجمعون على أنه رجل سىء الأخبار ، فاسد العقيدة ، متهم في دينه ، لا يوقف له على مذهب .

يقول ابن عبد ربه :

« ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة — عبيد الله بن زياد — وعمر بن سعد ، جعل يتبع قتلة الحسين بن علي ، ومن خذله ، فقتلهم أجمعين ، فلما أفناهم دانت له العراق . . . ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته ، أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة : بلغني أنكم تكذبونني ، وتكذبون رسلي ، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ، ولست بخير من كثير منهم »^(١) .

(١) العقد ج ٣ ص ١٥١ ، والبدء والتاريخ ج ٦ ص ٦٢ . وعيون الأخبار .

وفي بعض الروايات « ولست بخير منهم » .

وفيه : « أخذ سراقه بن مرداس البارقي^(١) أسيراً يوم (جبانة السبع) وكان المختار فيها مع عرب الكوفة وقعة منكرة - فقدم في الأسرى إلى المختار ، فقال سراقه :

أُمننَ علىَّ اليوم يا خير مَعَدٍ وخير من أبى وصلى وسجد

فعفا عنه المختار ، وخلي سبيله . ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأتى به المختار أسيراً ، فقال له ألم أعف عنك وأمنن عليك ؟ أما والله لأقتلك ، قال : لا والله لا تفعل ، قال : ولم ؟ قال : لأن أبى أخبرنى أنك تفتح الشام حتى تهدم مدينة دمشق حجراً حجراً ، وأنا معك . ثم أنشد :

ألا أبلغ أيا إسحاق أنا حملنا حملةً كانت علينا
خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً وكان خروجنا بطراً وحِيناً
نراهم في مصفهم قليلاً وهم مثل الدبى لما التقينا
[برزنا إذ رأيناهم فلما رأينا القوم قد برزوا إلينا
لقينا منهم ضرباً طاحفاً وطعناً صائباً حتى اثلينا

نصرت على عدوك كل يوم بكل كتيبة تنعى حسيناً
كنصر محمد في يوم بدر ويوم الشعب إذ لاقى حنيناً^(٢)
فأسجح إن قدرت فلو قدرنا لجرنا في الحكومة واعتدينا
تقبل توبة منى فإني سأشكر إن جعلت النقد دينا

نحلى سبيله . .

(١) انظر المؤلف والمختلف ص ١٣٤ .

(٢) ما بين الأقواس عن الطبرى ج ٧ ص ١٢٣ وديوان سراقه .

ثم خرج اسحاق بن الأشعث ومعه سرقة ، فأخذ أسيرا وأتى به إلى المختار ، فقال الحمد لله الذى أمكننى منك يا عدو الله ، فقال سرقة : أما والله ما هؤلاء الذين أخذونى ، فأين هم . . . لا أراهم ؟ ! ! إنا لما التقينا رأينا قوماً عليهم ثياب بيض ، وتحتهم خيل بلق ، تطير بين السماء والأرض ، فقال المختار : خلوا سبيله ليخبر الناس ^(١) .

ويقول ابن الأثير : « فصعد فأخبر بذلك ، ثم نزل ، فخلا به المختار ، فقال له : إني قد علمت أنك لم تر شيئاً ، وإنما أردت — ما قد عرفت — أنى لا أقتلك ، فاذهب عنى حيث شئت ، لا تفسد على أصحابى . فخرج إلى البصرة ، فنزل عند مصعب ؛ وأنشأ يقول :

ألا أبلغ أبا اسحاق أنى رأيت البلق دُهما مُصَمَّات
أرى عيـنـى ما لم ترأياه كلانا عالم بالترهات
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا على قتالكم حتى المات ^(٢)
وفى رواية الأغاني : « فقال المختار : أما إن الرجل قد شاهد للملائكة ، فخلوا سبيله ، فهرب فأنشأ الأبيات » ^(٣) .

وفى الإصابة : « عن السدى عن رقاعة الغساني قال : دخلت على المختار فالتقى إلى وسادة ، وقال : لولا أن أخى جبريل قام عن هذه — وأشار إلى أخرى — لألقيتها لك » ^(٤) .

(١) العقد ج ١ ص ٢٤٣ - وعندى أن المختار أعقل من هذا .
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٠ . والطبرى ج ٧ ص ١٢٢ شواهد الشافية ج ٤ ص ٣٢٢ والمحاسن والأضداد للجاحظ .
(٣) الطبرى ج ٩ ص ١٣ .
(٤) الإصابة ج ٦ ص ١٩٩ .

ويقول المبرد : « كان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجياً ، ثم صار رافضياً في ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضرباً من السجاعة لأمر تكون ، ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل . فمن ذلك قوله ذات يوم : « لتزلنَّ من السماء ، نار دهاء ، فلتحرقن دار أسماء » . فذكر ذلك لأسماء بن خارجة الفزارى - شيخ الكوفة وسيدهم - فقال : أوقد سجع أبو إسحاق ؟ هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة . وقال في بعض سجعه : « أما والذي شرع الأديان ، وجنب الأوثان ، وكره العصيان ، لأقتلنَّ أزد عمان ، وجل قيس عيلان ، وتما أولياء الشيطان ، حاشا النجيب ظبيان » ، فكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل في عمر المختار أتقلب آمناً ^(١) .

* * *

قالوا : وادعى أن الملائكة تنزل لنصرته . . فكان يدفع إلى خاصته حماماً بيضاً ضخماً ، ويأمرهم : « إن كان الأمر له أمسكوها ، وإن دارت الدائرة على جيشه أرسلوها » ، فكان الناس إذا رأوها تصيحوا : الملائكة ! فينهزم العدو .

فعل ذلك يوم طرد عامل ابن الزبير عن الكوفة ، وبالجيش الذى وجهه لمحاربة عبيد الله بن زياد ، ثم خطبهم : « إن استقمتم فببصر الله ، وإن حصتم حبيصة فإنى أجد فى محكم السكتاب ، وفى اليقين والصواب أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتى فى صورة الحمام دون السحاب » ^(٢) .

(١) رغبة الآمل من كتاب الكامل ج ٧ ص ٢٠٤ .

(٢) رغبة الآمل ج ٧ ص ٢٩٧ .

وأخرج للناس كرسيًا ، فزعم أنه كرسي علي ، يقوم لشيعته مقام التابوت في
 بني إسرائيل ، فكبرت السبئية ووسدته شبام ، وشاكر ، ونهد ووضعوا عليه
 الحرير . . . وفي هذا يقول أعشى همدان :

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ سَكَبِيَّةٌ وَإِنِّي بَكُمْ يَا شُرْطَةَ الشَّرْكِ عَارِفٌ
 فَأَقْسَمُ مَا كُرْسِيَكُمْ بِسَكَبِيَّةٍ وَإِن كَانَ قَدْ لَقِيتَ عَلَيْهِ الْفَائِفُ
 وَأَنْ لَيْسَ كَالْتَابُوتِ فِينَا وَإِنْ سَعَتْ شَبَامُ حَوَالِيهِ ، وَنَهْدٌ وَخَارِفُ
 وَإِنِّي أَمْرٌ أَحْبَبْتُ آلَ مُحَمَّدٍ وَتَابَعْتُ وَحْيَا ضَمْنَتَهُ الصَّحَافُ
 وَبَايَعْتُ عَبْدَ اللَّهِ لَمَّا تَتَابَعْتُ عَلَيْهِ قَرِيشُ شُمَطُهَا وَالْعَصَافُ

ويقول شاعر بني أمية - المتوكل الليثي :

أَبْلَغُ أَبَا إِسْحَاقَ أَنِّي جُنْتُهُ أَنِّي بِكُرْسِيِّكُمْ كَافِرُ
 تَنَزَّوْا شَبَامَ حَوْلَ أَعْيَادِهِ وَتَحْمِلُ الْوَحْيَ لَهُ شَاكِرُ
 مَحْمَرَةَ أَعْيُنِهِمْ حَوْلَهُ كَأَنَّ الْخَامِضَ الْخَازِرُ^(١)

ويقول الشهرستاني : ومن مذهب الختار أنه يجوز البداء على الله تعالى ، لأنه
 كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من
 قبل الإمام - ابن الحنفية - فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء ، وحدث حادث ،
 فإن وافق كونه قوله جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق يقول : قد بدا
 لربكم . . وقد تبرأ منه ابن الحنفية حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس ، بأنه ليس
 من دعائه ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعها ، ومن التأويلات الفاسدة ،

(١) الخازر : رواية ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٩ . ولعلها الخاثر . وانظر الطبري

والخاريق ؛ الموهبة فمن مخاريقه ، أنه كان عنده كرسى قديم . . ثم ذكر حديث الكرسى ودعوى نزول الملائكة^(١) .

وأنت واجد حديث هذا الكرسى فى الطبرى ، وابن الأثير ، والكامل والفرق بين الفرق .

ويقول أبو الفداء : وانتقم الله للحسين بالختار ، وإن لم تكن نية الختار جميلة^(٢) .

الختار وبنو هاشم :

هذا هو الختار فى نظر المؤرخين : رجل فاسد الدين ، فاسد العقيدة ، يتخذ التشيع ستاراً لنبل مآربه ، وهو الكذاب فى الحديث الذى روته أسماء بنت أبى بكر - وأم عبد الله بن الزبير - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « يكون فى ثقيف كذاب ومبير » فشهدت أسماء أن الكذاب هو الختار .

ولكن الختار فى نظر الهاشميين رجل أدى واجبه ، ونصر بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسيفه ولسانه ، وحى عشيرته من الأمويين والزبيريين والخواارج .

فى ابن الأثير : قال ابن الزبير لعبد الله بن عباس : ألم يبلغك قتل الكذاب قال : ومن الكذاب ؟ قال : ابن أبى عبيد ؛ قال : بلغنى قتل الختار ، قال : كأنك نكرت تسميته كذاباً ، ومتوجع له ! ؟ قال : ذلك رجل قتل قتلنا ، وطلب ثأرنا ، وشفى غليل صدورنا ، وليس جزاؤه منا الشتم والسماتة^(٣) .

(١) الشهرستانى ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) ج ٤ ص ١١٧ . (٣) ابن الأثير ج ٤ ص ١٧٧ .

وابن عباس في هذا يمثل الهاشميين جميعاً ، فقد كان المختار بحق ردأهم القوى ، وحصنهم الحصين ، يأخذ ثأرهم ، ويحميهم من عدوهم ، ويمدحهم بالهدايا والأموال... وكانت هداياه تأتي ابن عمر ، وابن الحنفية ، وابن عباس ، فيقبلونها . وفي اعتقادي أنه لو صح الحديث عند ابن عباس لما أنكر تسميته كذاباً ، وفي اعتقادي كذلك أنه لو صحت هذه الأخبار عن المختار لما توجع ابن عباس عليه ، وابن عباس هو من هو ديناً وعلماً ومعرفةً بحقوق الله ، وهل كان هؤلاء - وهم من سادة الصحابة - يقبلون هدية رجل كذاب منافق يدعى النبوة والوحي ، ويفسد عقائد الناس ، وإيمانهم بمخاريقه ؟

رأينا في المختار :

نقول : وجل ما روى عن المختار مصدره الشعبي ، وقد أحيطت صلاتهما بشبهات ترد أخباره ، على رغم دفاع ابن حجر عن الشعبي وتوثيقه لإياه . على أنه سواء صحت هذه الروايات أم لم تصح ، وسواء أكان المختار كاذباً في تشيعه ، فاسد النية ، أم كان ذلك من وحي السياسة ، وأكاذيب الأعداء - شأن القول على الزعماء والقادة ، والعمل على تشويه سمعتهم ، والجد في ذلك حتى تمتثلها صحف التاريخ - فلا يستطيع أحد أن ينسكرك حسن بلائه في تشيعه ، وانتصاره لآل البيت وحماتهم ، وأنه قضى حياته متهماً بجهنم ، فلا في سبيل ذلك من ولادة الكوفة أشد أنواع الإعنات والقهر .

في داره أوى مسلم بن عقيل رسول الحسين إلى الكوفة ، وغمره بعطفه ونصائحه^(١) ، وفي سبيلهم ذهب عينه من ضرب ابن زياد^(٢) وعرف سجن

(١) الطبري ج ٧ ص ٥٨ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٧١ ، وتاريخ ابن عساكر ج ٥ ص ٢٤٧ .

الكوفة مراراً ، فلم يطلقه إلا شفاعة صهره ، عبد الله بن عمر .

ولقد مات المختار ، لحفظ له التاريخ ما حفظ من مساويء ، ولكنه حفظ بجانب ذلك - مع شهادة ابن عباس - شهادتين . . أما إحداهما فقول الحجاج وقد حدث عنه : لله دره ! أى رجل ديناً ، ومسعر حرب ، ومقارع أعداء كان ! ؟^(١) .

واستعرض مصعب زوجات المختار - بعد قتله - وأمرهن أن يتبرأن منه ، ويشهدن عليه بالكذب ، ففعلن إلا أم ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاري ، وعمرة بنت النعمان بن بشير ، فقالتا : كيف نتبرأ من رجل يقول ربى الله ! ؟ كان صائماً نهاره ، قائماً ليله ، قد بذل دمه لله ورسوله فى طلب قتلة ابن بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأهله وشيعته ، فأمكنه الله منهم ، حتى شفى النفوس . . . فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله : أن عمرة تزعم أنه نبى ، فأمره بقتل من تأبى البراءة منه ، فقالت أم ثابت : لو دعوتنى إلى الكفر مع السيف لكفرت . . . أشهد أن المختار كافر . . وأبت ابنة النعمان فقتلت ليلاً بين الكوفة والحيرة . . ضربها شرطى ثلاث ضربات بالسيف :

وفى هذا يقول عمر بن أبى ربيعة :

إن من أعجب المعائب عندى قَتْلُ بِيضَاءِ حُرَّةٍ عَطْبُولٍ
قَتَلَتْ بَاطِلًا عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ إِنَّ اللَّهَ دَرَهَا مِنْ قَتِيلٍ
كَتَبَ الْقَتْلَ وَالْقَتَالَ عَلَيْنَا وَعَلَى الْفَانِيَّاتِ جَرَّ الذُّيُولِ^(٢)

وموقف مصعب هذا هو مفتاح الكذب على المختار ، وتشويه سمعته . استمع

(١) الطبرى ج ٧ ص ٩٠ ، وابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٩٠ ، والطبرى ج ٧ ص ١٥٨ . والأخبار الطوال ص ٣٥٠ ، وفيها شعر لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت .

إلى ابن حجر يقول : وكان المختار معدوداً في أهل الفضل والخير إلى أن فارق ابن الزبير^(١) .

وفي الطبري - عند الحديث عن الكرسي : « حدثنا موسى بن عامر ، أنه إنما كان يضع ذلك لهم عبد الله بن نوف ، ويقول : المختار أمرني بذلك ويتبرأ المختار منه^(٢) » .

فلم يكن المختار إلا رجلاً أبلى في سبيل قضيته أحسن البلاء ، وكان أثره في الزبيريين والأمويين كبيراً جداً ، فعملوا على محاربته بهذه الأكاذيب ، وكم فعل بنو أمية في سبيل تشويه سمعة الحسن بن علي . . . ولعل التحقيق العلمي يكشف لنا هذا الغطاء الكثيف فيجولو المختار في حقيقته . . . إماله ، وإماله عليه .

والذي يهمننا أن نقول : لقد كان الحزب الكيساني مجازاً انتقل عليه الأدب الشيعي من طور إلى طور ، فأصبح أدب العقائد والفلسفة والتسرب في شرايين الدعوة الشيعية .

وقد عاصر المختار جبهة من الشعراء الشيعيين ، أمثال : كَثِير عزة ، وأبي الطفيل عامر بن وائلة الكندي .

(١) الإصابة ج ٧ ص ١٩٩ .

(٢) الطبري ج ٧ ص ١٤١ .

الشعر والشعراء

أطوار الشعر العربي - شعراء الشيعة - ترجمة الكمييت بن زيد
الأسدي - والسيد الحميري .

الشعر في الجاهلية :

الشعر قديم في حياة المجتمع الإنساني ، بل هو أقدم الآثار الوجدانية ، وأصدق
مظهر للأدب في كل أمة .

والعرب من أشعر الساميين فطرة ، وأبلغهم على قول الشعر قدرة ، لاتساع
لقتهم للقول ، وملاءمة يثبتهم للخيال ، فهم بين مناظر البادية ، واتساع الصحراء ،
في فضاء يملأ الذهن والنفس خيالا ، وجلالا ، وروعة ، فأكسبتهم هذه الحياة
نفوساً شاعرة ، وطبعاً ثائرة ، وأعصاباً ملتبهة ، يهيجها الرضا ، ويطيش بها
الغضب ، وتثيرها الرغبة ، ويهزها الطرب ، وهذه كلها من أقوى فواعل الشعر
ودواعيه . . . فما كان للناس مجباً أن ملك الشعر مشاعر العرب في جاهليتهم ،
وكان له السلطان الأقوى على نفوسهم ، والاثـر الفعـال في حياتهم ، والمقام الأعلى
في كلامهم ، وكان الشعراء هم حكام البادية ، ومفخرة القبائل .

الشعر في الاسلام :

وانتقل الشعر الى الإسلام مع العرب ، فكان أكبر الظن - وقد أفسح
الجال لخيالهم ، وهذب أفكارهم وحياتهم - أن يبلغوا في وضحه أبعد الغايات
في نسج الشعر ونهجه . . . ولكنهم سمعوا قولاً من قول الله ، أثار مشاعرهم
أكثر مما أثارها الشعر ، وملك خواطرهم أكثر مما ملكها الشعر ، وأخذهم
بأدب لا يحيا في ظلاله الشعر . . جماعه الإسلام والوئام والوحدة وطهارة النفس ،
فانحط شأن الشعر وتمطلت آلاته . وانصرف العرب عنه الى حفظ القرآن ورواية

الحديث ، وجهاد الشرك ، والدعوة إلى الدين الجديد عن طريق الخطابة ؛ فكانت المظهر القوي للأدب في هذا العصر .

يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلته عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد ، وغزو فارس والروم ، ولهت عن الشعر وروايته »^(١) .

فلم يبق منه إلا أنارة قليلة وصلت بين عصرين عظيمين من عصوره ها : العصر الجاهلي ، والعصر الأموي .

الشعر في العصر الأموي :

ففي العصر الأموي بدأ الشعر حياة جديدة ، استعاد فيها دولته ، واسترد صولته ، إذ ذهبت بهتة الشعراء وتكشفت روعتهم ، وانشعب المسلمون حول الخلافة فرقا وأحزابا ، وتفرقت كلمتهم ، وعاد القوم إلى حياة آبائهم يعبدون جاهليتها ، ويحيون تراثها ويورثون ما خلد من عداوتها وأيامها ، ويضرمون جذوة العصبية ، حتى أصبح في كل بلد فريقان : عدنانى وقحطانى ، وربعى ومضرى . وافترق كل إلى شيع وأحزاب . واستباح القوم فى إثارة هذه الروح كل محرجة ، وبدلوا كل رغبة ، فإذا هذه العصبية — التى حرم الإسلام الاعتضاد بها ، والدعوة إليها — قوام سياستهم ، ودستور حياتهم ، وتتابعت الأحداث والفتن ، فذبح أبناء الرسول — صلى الله عليه وسلم — على بطحاء كربلاء ، وطوقت هذه السلالة الكريمة وأشياعهم بالقتل والنشريد ، وأحرقت الكعبة ، وأبيحت مدينة الرسول — صلى الله عليه وسلم — للجيش

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ١٠ .

الشامى ، وغدت الجزيرة العربية مسرحاً للأهواء والجدل ، ومجالاً للتخريب والحروب . فإذا أضفنا إلى ذلك ملكة قوية ، وحرية واسعة ، وحصافة أفادها الإسلام ، وقدرة على الجدل والخصام ، أدركنا إلى أى حد كان هذا العصر بدء معركة كلامية ، كان للشعر فيها السهم الربيع فى نهضة العرب الأدبية والسياسية والاجتماعية .

أثر الشعر فى الحركات الحزبية :

وإنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر قوى فى الحركات السياسية ، ومن أقدر من الشعراء على تمويه رأى ، واستثارة العاطفة ، واستنهاض الهمم ، وحفز العزائم ؟ !

لذلك تسابقت الأحزاب العربية إلى الشعراء يجزلون مثنوئتهم ويحملونهم على مناهضة من سواهم ، ودعوة الناس إلى نصرتهم ، وشرح قضيتهم ، والاحتجاج لآرائهم ، فعل ذلك الأمويون — أصحاب الحول والطول — بمن ناوأم من هاشميين ، وزبيريين ، وخوارج ؛ فنصرهم جل الشعراء رغياً ورهباً ، وقابلهم هؤلاء الخصوم بمثل ذلك ، فتحزب لهم فريق ، ثم كان العباسيون والعلويون ، فوقفوا هذا الموقف من الشعر ورجاله ، فاستحرت وقائعه ، ودارت رحاه ، وتكاملت فنونه ، وبخاصة الشعر السياسى ، وما يتطلبه من جدل وثقافة .

الشعر السياسى :

وما نزع بتميئتنا « الشعر السياسى » أن الشعراء قد وقفوا على مذهب جديد — جديد فى القصد والغاية — فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوقة

فى عهد الجاهليين ، مشروعة أيام النبوة ، إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة ، استوحىها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب فى رأى ، ومنازعة الزعماء فى الخلافة ، جاءت على النهج القديم ، فى صور مختلفة بين مدح وهجاء ، واقتراح لسياسة ، أو بيان لمذهب .

إسهام العرب فى هذه الخصومة :

وإذا علمنا أن العرب جميعاً قد أسهموا فى هذه الخصومة ، وأن أكثرهم يقول الشعر ، خصوصاً فى هذه الفتن المتأججة ، والحياة المكفجرة ، وأن الشعر أصبح صناعة يقوم عليها بعض الناس ، وأن الدولة القائمة ، والأحزاب السياسية ، قد اتخذته من عدد حروبها ؛ أدركنا وفرة الشعر ، وكثرة الشعراء ، حتى نبغ فى هذه الفترة التى نؤرخها زهاء مائة شاعر ، ضاق مضطربهم فى السعى ، فأتسع متقلبهم فى الخيال ، وغلت أيديهم عن العمل ، فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وألسنتهم بالقول .

منهج الشعر السياسى :

وشعرهم - وإن سار على منهج الجاهلية فى أوزانه وأغراضه ، وأخيلته وأسلوبه - أسمى خيالا ، وأقرب منالا ، وأوثق مبنى ، وأغزر معنى من شعر المتقدمين ، لتأثرهم بالدين والحضارة ، والنظم السياسية .

الشعر الشيعى :

هذا ، ولقد كان من حظ هذا الحزب الشيعى أن آمن بفكرته جمهرة من فحول الشعراء ، وقفوا عليه حياتهم وجهدهم ، فكان لشعرهم جمال الإخلاص ، وروعة الخيال ، وقوة الحقيقة .

شعراء الشيعة :

فمن هؤلاء : الفضل بن عباس بن عتبة ، شاعر الهاشميين ، وأبو الأسود
الدؤلى ، والنجاشى : قيس بن عمرو ، وأبو الطفيل : عامر بن وائلة الكندى ،
وابن أبى جمعة : كثير عزة ، والكميت بن زيد الأسدى ، والسيد الحميرى ،
ودعبل بن على الخزاعى .. وكثير غيرهم .

ونترجم الآن لشاعرين من شعراء هذا الحزب ، نستشف من خلال
ذلك صور مذاهبهما ، ومقدار بلائهما فى قضيتهما .. أما أحدهما فشاعر
الإمامية الكميت بن زيد الأسدى ... وأما الآخر فشاعر الكيسانية
السيد الحميرى .

الكيميت بن زيد الأسدي

(٦٠ — ١٢٦ هـ)

نشأته - مصادر إلهامه - أقوال النقاد فيه - ديباجة الكيميت - ما أخذ عليه للفضل الضبي - الجاحظ - رأينا في نقده - ابن قتيبة - رأينا في ذلك - رأينا في الكيميت - مميزات شعر الكيميت - خصائص شعره - الكيميت الراوية - دعا الشعراء إلى ترك الأطلال - أغراضه الشعرية - الشعر القبلي - تشبيع الكيميت - إخلاصه لعقيدته - ممة التصوف في حبه - الكيميت في نظر الجماهير الشيعية - أدب الحجاج لعقيدته : النص والوراثه - الهاشميون منحوا صفات الرعامة - بنو أمية والخلافة - المبائء الشيعية في شعره - محنة الكيميت - الكيميت في مجلس هشام بن عبد الملك - مدائح الكيميت - المدائح الأموية وأثرها في الجور الشيعي - أخلاق الكيميت وإخوانياته - حكمه - ضياع شعره - قتله .

نشأته :

لم تستطع المصادر الأدبية - التي بين أيدينا - أن تكون لنا صورة واضحة للحياة الخاصة التي درج الكيميت في خلالها ، وتأثرت مواهبه منذ صباه بآثارها ، حتى صيرته أهلاً لإنضاج هذه الثمرات الأدبية ، وصعدت به إلى مراتب الفحول .

ولعل أول ما لفت النظر إليه ما رواه ابن قتيبة ، قال : « وقف الكيميت على الفرزدق - وهو صبي - والفرزدق ينشد ، فقال له : يا غلام ، يسرك أني أبوك ؟ قال : أما أبي فلا أريد به بدلاً ، ولكن يسرنى أن تكون أُمي ، فحصر الفرزدق ، وقال : ما مر بي مثلها قط » ^(١) .

فهذه الحادثة التي تحمل ذكاء الكميت ، ونضج عقله ، كفيلة بأن تجعل له شهرة بين الناس .

وشيء آخر يجب أن نذكره في نشأة الكميت ، وهو أنه قد مارس التعليم بمسجد الكوفة . . . ومثل هذه الحياة التعليمية تكسب صاحبها ثقافة فقهية ظهر أثرها في حجاجه الشيعي ، كما هيأ له القدر جدتين أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية ، وتخبرانه بأخبار الناس ، فإذا ما شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه . . .

قالوا : فمن هنا كان علمه^(١) .

وبعض الرواة يأبى إلا أن يجعل الكميت من الأعاجيب ، فهو قد نبغ دفعة واحدة ، فكان أول شعر قاله قصيدته :

طربتُ ، وما شوقاً إلى البيض أطربُ

ولا لعباً مني ، وذو الشيب يلعب^(٢)

والنقد الأدبي يرى أن هذه القصيدة نتيجة التجربة الممتدة ، والحياة الأدبية الطويلة ، هي صرخة شاعر فحل طال منه الصيال ، ولا يمكن أن تكون بداية شعرية . . . فالكميت — من غير شك — نشأ كسائر الشعراء بدأ ، ثم تسامى إلى منازل الشعر الرفيع .

مصادر إلهامه :

ولقد تجمعت للكميت أسباب قول الشعر ، فهو^(٣) عربي صميم من بني أسد بن

(١) الشعر والشعراء ص ١٣٩ . (٢) البيان التبيين ج ١ ص ١٧٥ .

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٥ .

خزيمية ، ثم من مضر بن نزار ، وولد سنة ستين من الهجرة - أيام قتل الحسين - ونشأ في الكوفة منبر الشعر والخطابة ، ومدرسة اللغات والثقافة ، ومثار العصبية والتعزب ، ومدرج الفتن ومثابها ، بعد تطوافها في البلاد وتجوالمها ، وثقف ثقافة جاهلية بما سمع من جدتيه ، وحفظ من أشعار الفحول ، وإسلامية بما درس من قرآن وحديث . . واستظل بعصر أموى يعتز بالعربية ويتعصب لتراث آبائه وأجداده ، ويحيى ما اندثر من عصبية قديمة ألماتها الإسلام ، بل لقد كان للعصبية في عصره قوة لم تعرف بمثل شدتها وتشعب اتجاهها في غيره .

كانت عصبية بين العدنانية والقحطانية ، ثم بين فرعى العدنانية من مضر وربيعة ، ثم تغلغلت فكانت بين الأُم والأقطار والمدن ، وسمعنا : فرزدقيون ، وجريرون ، كما سمعنا : زيريون ، وشيعة ، وأمويون ، وخوارج . . كل يتعصب لرأيه ، ويحالد في سبيله

والعصبية - كما تعلم - تتطلب من الشاعر علماً بمفاخر القبائل ومثالبها ، وأيام العرب ولغاتها . . وكل ذلك قد اجتمع للكثير ، مع رأى حر ، وشكيمة قوية ، ونفس حساسة ، وبيان ناصع . . فإذا هو شاعر ، خطيب ، راوية للشعر ، نقاد للكلام ، عالم بلغات العرب ، نسابة لهم ، يعرف بيوتهم ومفاخرهم ومثالبهم ، من صحح نسبه صح ، ومن طعن فيه وهى ، وإذا هو فوق ذلك زاجر للطير ، ومهتد بالنجوم ، وجدلى محتج لرأيه وعقيدته ، دافع الحجة في الدفاع عنها .

ولم يكن ذلك بدعاً من الكمية وقد تجلّت أمام ناظريه أسبابه ، واكتملت فواعله ، ولكن البدع أن يبذ في كل ذلك ، حتى يغلب حمادا في الرواية

والغريب^(١) ، ويكون مفخرة بني أسد في الشعر والخطابة والجلد ، ولسان الشيعة المدافع عنهم ، المحتج لأبيهم ، وأن يعنى على النساين من قبله ، حتى شهد له بكل ذلك فحل من فحول عصره .

أقوال النقاد فيه :

في خزانة الأدب : « في الكميت خصال لم تكن في شاعر ، كان خطيب بني أسد ، وفقه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان جدلياً ، وهو أول من ناظر في التشيع مجاهراً بذلك ، وله في أهل البيت القصائد المشهورة ، وهي أجود شعره »^(٢) .

وقال أبو عكرمة الضبي : « لولا شعر الكميت لما كان للفن ترجمان ولا للبيان لسان »

وحدث عن أبيه قال : أدركت الناس بالكوفة يقولون :

من لم يرو * طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب * فليس بهاشمي
ومن لم يرو * ذكر القلب ألفه المهجورا * فليس بأموي
ومن لم يرو * هلا عرفت منازلا بالأبرق * فليس بمهلب
ومن لم يرو * طربت وهاجك الشوق الحثيث * فليس بثقفي^(٣)

نقول : وكلها للكميت . . . ومعنى هذا أن الشاعر قد استبد بعواطف هذه الجماهير ؛ فشغلها بحفظ شعره ، وترك لكل قبيلة مفخرة تنشدها ، وترويها لأبنائها .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١١٧ .

(٢) ج ١ ص ٩٩ .

(٣) شرح شواهد اللغني ص ١٣ - ١٤ .

وقدم الفرزدق الكوفة ؛ فأنشده الكميت بأثيته :

* طربت ، وما شوقاً إلى البيض أطرب *

فقال الفرزدق : قد طربت إلى شيء ما طرب إليه أحد قبلك ، فأما نحن فما نطرب - ولا طرب من كان قبلنا - إلا إلى ما تركت الطرب إليه .

وفي رواية : يا بن أخي ، أذع ثم أذع ، فأنت - والله - أشعر من مضى ، وأشعر من بقي^(١) .

ولشهادة الشعراء قيمة ، فهم أعرف بعيون الكلام ، وأبصر بالمآزق التي يتعرض لها الشعراء ، فإنما يعرف الشعر من تمرس بنظمه ، ودفع إلى مآزقه . . . وهي إذا كانت من الفرزدق أخذت طابعاً خاصاً ، فقد كان حسب الشاعر في ذلك العصر أن يشهد له مثل الفرزدق . . . وسوف لا يضرها تشيع أبي فراس إذا علمنا من هو كبيراً وحقداً على المجيدين .

وينقل ياقوت عن ابن عبدة النسابة : « ما عرف النسابة أنساب العرب على حقيقتها ، حتى قال الكميت الزاريات ، فأظهر بها علماً كثيراً : ولقد نظرت في شعره فما رأيت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها ، قال أبو عبد الله السكوتي : فلما سمعت هذا جمعت شعره ، فكان عوني على التصنيف لأيام العرب »^(٢) .

وبعده الجاحظ من الشعراء الخطباء^(٣) ، ويقول : « ما فتح للشيعية باب الحجاج في الشعر إلا الكميت »^(٤) .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٤ . (٢) معجم الأدباء ج ١ ص ٤١٠ .

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٥١ ، ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٤) شرح شواهد المغنى ص ١٤ .

والجاحظ من أعلم الناس بتطورات الحركة العلمية في الأحزاب السياسية .

والكميت عند أبي الفرج « شاعر مقدم ، عالم بلغات العرب ، خبير بأيامها ، من شعراء مضر وألسنتها ، والمتعصبين على القحطانيين المقارعين المقارين لشعرائهم ، العلماء بالثالب والأيام المفاخرين بها »^(١) . . . ويعتبره من نقاد الشعر ، فينقل رأيه في أمية بن أبي الصلت^(٢) .

وسئل معاذ الهراء : « من أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين : امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص . ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجـرير ، والأخطل . . . فقليل له : يا أبا محمد ، ما رأيـناك ذكرت الكميت ! ؟ فقال : ذلك أشعر الأولين والآخرين »^(٣) .

وفي هذا الحكم مبالغة . . ولكنه دليل التقدم .

وعنى ابن الأعرابي بمدارسة شعره ، ولفت المتأدين إليه^(٤) . . . وكان ابن الأعرابي لا يشغل نفسه إلا بالشعراء الفحول ، الذين يعرفون الأنساب واللغة ، والذين يصطنعون الأساليب الجاهلية ، لأنهم أئمة البيان في رأيه ، وكذلك كان الكميت .

واحتج بشعره النحويون ، واللغويون . . وملاأت شاعريته حياة الأدباء ، فأصبح في عصره - وبعد عصره - مضرب المثل .

فيقول البديع الهمداني في رسالة الذهب والأدب : واحتيج في البيت

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٠٠ .

(٢) الأغاني ج ٤ ص ١٠٠ .

(٣) خزائن الأدب ج ١ ص ١٠٠ والأغاني ج ١٥ ص ١٢١ .

(٤) معجم الأدباء ج ١ ص ١٣٢ .

إلى شيء من الزيت ، فأنشدت ألفاومائتي بيت ، من شعر الكميث ، فلم يغن « (١) .

فالبديع يشهد أن أدب الكميث في الرعيل الأول إذا تسابقت الآداب .

ديباجة الكميث :

لقد كان للكميث ديباجة صارت عنواناً عليه ، يعرفه بها الرواة ، وإن لم يقرن اسمه بالشعر ، ودلالة الأسلوب على صاحبه مظهر من مظاهر قوة الشخصية ، وعلامة الذبوع والاستقلال .

يقول صاحب الأغاني : « كان هشام بن عبد الملك قد اتهم خالد بن عبد الله القسري (٢) ، وكان يقال له : إنه يريد خلعه ، فوجد بيباب هشام يوماً رقعة فيها شعر ، فدخل بها ، فقرئت عليه ، وهي :

تألق بَرَقَ عندنا . وتقابلت	أثافِ بقدر الحرب أخشى اقتبالها
فدونك قِدرُ الحرب وهي مقرّة	لكفيك ، واجعل دون قِدرِ جفأها
ولن تلمتهى أو يبلغ الأمرَ دَه	فَنَلَمْها بِرِسلِ قبل ألا تنالها
فَتَجَشَّمْ منها ما جَشَمْتَ من التّي	بسوراء هَرَّتْ نحو حَالِكِ حالها
تلاف أمورَ الناس قبل تفاقم	بعقده حزم لا تخاف انحلالها

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) خالد بن عبد الله القسري : أحد أجواد العرب ، وسادة اليمن ، ولي العراق لهشام بن عبد الملك خمسة عشر عاماً - (١٠٥ - ١٢٠) - كان فيها موثلاً الشعراء والناس ، ثم تقم عليه هشام فزله . وولاهها يوسف بن عمر الثقفي ، وأطلق يده في خالد ، فافتن في تعذيبه حتى قتله في خلافة الوليد بن يزيد فكان لقتله دوى في الأدب والسياسة والدولة الأموية (الكامل للمبرد والمعارف لابن قتيبة ، وتاريخ ابن عساكر).

فما أبرم الأقوام يوماً لحيلة من الأمر إلا قلدوك احتياها
وقد تخبر الحرب العوان يسرها وإن لم تبج من لا يريد سؤاها^(١)

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة ، فجمعوا ، فأمر بالأبيات
فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ؟ فأجمعوا من ساعته
أنه كلام الكميث بن زيد الأسدي ، فقال هشام : نعم ، هذا الكميث ينفذني
بخالد بن عبد الله^(٢) .

ومعنى ذلك أنه كان لشعر الكميث طابع لا يشبهه معه غيره ، وهذا الطابع
هو دليل الاستقلال ، وآية الملكة المستغنية عن الاحتذاء والتقليد .

وإجماع الرواة من ساعته دليل آخر على تخليق هذا الفن في سماء وحده
لا يتسامى إليه غيره من أهل عصره .

والشعراء في كل عصر يتدانى ملكاتهم وتتقارب قواهم ، وتلتقي في مشرب
واحد مأخذهم ، فحسب أحدهم زعامة أن يستقل بأسلوبه حتى يعرف به ،
وينسب إليه ، وتلك منزلة بلغها الكميث ، فاستحق هذه الشهادات الجمعة على
جودة الصناعة و حسن السبك .

مأخذ النقاد عليه :

يبد أن الكميث - ككل شاعر - لم يخل من نقاد أسفوا به ، وآخرين
عدوا عليه سقطا في اللفظ أو الأسلوب .

(١) يقال : اقتبلت الأمر إذا استأنفته . والامتنافى : جمع إثنية وهي الحجر
يوضع عليه القدر ، والجمال : خرفة ينزل بها القدر . والرسل : الرفق والثؤدة ،
وسوراء : موضع ، والعوان : الحرب التي قوتل فيها مرة (الأغاني ج ١٥ ص ١١٥)
(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١١٩ .

المفضل الضبي :

فالمفضل الضبي لا يحتاج به ، ويسلكه مع كثير ، وذى الرمة والطرماس^(١) .

وبشار لم يعتبره شاعراً ، حتى إذا قيل له : وكيف وهو الذى يقول :

أنصف امرئ من نصف حَيٍّ يس

بنى ؟ لعمري لقد لاقيتُ خطباً من الخطب

هنيئاً لكلبٍ أنْ كلباً يسبنى

وأنتى لم أردد جواباً على كلب

بهت بشار ، واستتر بهجر القول^(٢) .

الجاحظ :

ويقول الجاحظ : « ومن غرائب الحق المذهب الذى ذهب إليه الكميت بن

زيد فى مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول :

فاعتَبَ الشوق فى فؤادى والشمر إلى من إليه مُعْتَبٌ

إلى السراج المنير أحمد لا يعدنى رغبة ، ولا رهب

وقيل : أفرطت ، بل قصدتُ ولو عنفى القائلون ، أو ثلبوا

إليك يا خنجر من تضمنت الأَرْض ، وإن عاب قولى المُعِيب

لجَ بتفضيلك اللسان ، ولو أكثر فيك الضجاج والهجُب

فمن رأى شاعراً مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - فاعترض عليه

(١) شرح شواهد المغنى ص ١٤ .

(٢) الأغاني ج ٣ ص ٢٢٥ .

واحد من جميع أصناف الناس ، حتى يزعم أن ناساً يعيبونه ، ويشلبونه ،
ويعنفونه ؟؟؟

ولقد مدح النبي - صلى الله عليه وسلم - فما زاد على قوله :
فبورك قبر أنت فيه ، وبورك به ، وله أهل بذلك يثرب
لقد غيىوا برا ، وحرماً ، ونائلاً عشية واره الصفيح المنصب
وهذا شعر يصلح في عامة الناس»^(١) .

وعن الجاحظ أخذ ابن رشيق نقده . ثم قال : وقال من احتج له : لم يرد
النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنما أراد علياً - رضي الله عنه - فوري عنه
بذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - خوفاً من بني أمية^(٢) .

وهذا القول رأى الشريف المرتضى في أماليه^(٣) .

رأينا في هذا النقد :

ونحن نرى أن الكميت كان أعلم بأخلاق عصره من هؤلاء ، وأمس
بسياسته . . . كان يشعر أنه يحيا وسط دولة ترى أن هذا اللون من مدح
الرسول - صلى الله عليه وسلم - تزكية للهاشميين ، ولقت للذهن إلى حق هؤلاء
في الخلافة .

وإذا كانت السياسة قد أباحت لابن الزبير - على مكانته الدينية وبيته من
الإسلام - أن يسقط ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - من خطبه حتى إذا ليم على

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٧٢ . والصفيح : حجارة عراض رقاق .

(٢) العمدة ج ٢ ص ١٥٢ ، ص ١٦٣ .

(٣) ج ٣ ص ١٦٦ .

ذلك قال : والله ما يمنعني من ذكره علانية أنى لا أذكره سرا ، وأصلى عليه ،
ولكنى رأيت هذا الحى من بنى هاشم إذا سمعوا ذكره اشرأبت أعناقهم ،
وأبغض الأشياء إلى ما يسرهم — وفى رواية : إن له أهيل سوء^(١) .

نقول : إذا كانت السياسة قد أباحت لابن الزبير هذا فما بالك ببني أمية
فى عصر الكميت وقد تغيرت الأخلاق ، وفسد الناس ؟ ؟ ؟

فالكميت يحدثنا عن عصر يحيا فيه ، ويصطفى بسياسته ، ويحس أن مدحه
للرسول — صلى الله عليه وسلم — يعرضه للعيب والتلب والعنف .

والجاحظ يحكم فى الرجل نظرة دينية ، ويتناسى أن السياسة قد بدأت فى هذا
العصر تستقل عن الدين ، فبغضت هذا اللون من المديح ، لا لأنه مدح
للرسول — صلى الله عليه وسلم — بل لأنه ضرب من التمرد والشغب والخروج
على السلطان ، به تشرئب أعناق الهاشميين ، ويلفت الناس إليهم . . هذا إلى
أن الجاحظ عثمانى ؛ فلا غرو أن اهتم بنفى هذه التهمة عن بنى أمية ، واحتشد
لذلك ، فعد مذهب الكميت حقا ، بل من غرائب الحق .

ورثاء الكميت للنبي — صلى الله عليه وسلم — هو المذهب المهودى فى عصره ،
وقد رثاه حسان بن ثابت فما زاد على أن قال :

لقد غَيَّبُوا حِلْمًا ، وَعِلْمًا ، وَرَحْمَةً عَشِيَّةَ عُلُوهِ الثَّرَى ، لَا يَوْسَدُ

ومنه أخذ الكميت فكان بيته أسس بالخيال الشعرى ، وأقرب إلى أساليب
المدح العربى ، إذ جمع له البر ، والحزم ، والجود . . وتلك صفات الزعامة العربية

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٥٧ وابن أبى الحديد ج ٢٠ ص ٤٨٩ .

والإسلامية .. فالكميت عربى فى مديحه ، أما حسان فقد غلب عليه الدين فكانت عنايته بالحلم والعلم والرحمة .. هذا ، ولا يوسد فى بيت حسن جىء بها للقافية ، بل الشطر كله ضعيف ، فأين واره الصفيح من علوه الثرى !!! ؟ وكل ذلك زيادات تجعل شاعرنا يستبد بالمعنى الشعرى فينسب إليه .

ابن قتيبة :

وكان ابن قتيبة أشد نقداً للكميت ، فهو يراه شديد التكلف للشعر كثير السركة ، فإذا قال امرؤ القيس بن عابس الكندى^(١) :

قف بالديار وقوف عابس وتأن إنك غير آيس
ماذا عليك من الوقوف فبهامد الطللين دارس
درجت عليها الرأحا ت الفاديات من الروامس

أخذ الكميت هذه القصيدة — إلا القليل — ولم يغير إلا القافية ، فقال :

قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقوف فبهامد الطللين دائر
درجت عليها الرأحا ت الفاديات من الأعاصر^(٢)

رأينا فى نقد ابن قتيبة :

وفى ظنى أن ابن قتيبة قد أسرف فى حكمه على الشاعر ، فإكان الكميت متكلفاً ، ولا كثير السركة ، ولكنه شاعر امتلأ ذهنه بالحفوظ من شعر

(١) امرؤ القيس بن عابس: شاعر مخضرم له حجة (معجم الشعراء ص ٩ ومعاهد التنصيص ج ١ ص ١٧٣) .

(٢) الشعر والشعراء ص ١٢٩ .

السابقين فتأثر بذلك فتأججه ، ومثل هذا كثير في التاريخ الأدبي ، ثم لا يعده النقد الأدبي سرقة .. وما كان للكيميت الشاعر المكثّر الجيد أن يعيبه ارتجال شعر خفيف الوزن مثل :

قف بالديار وقوف زائر وتأنّ إنك غير صاغر

حتى يلجأ إلى سرقتها ، ثم يعرضها في مجلس هشام بن عبد الملك - أو مسلمة أخيه - وينسبها لنفسه ، على مسمع من رواة الأدب . على أنه إذا صحح للكيميت أن يسرق بيتاً أو بيتين ، فما كان له أن يسرق قصيدة بتمامها ، فلا يكون له فيها إلا القافية وقليل من الأبيات ، كما يقول ابن قتيبة .

وهو عند المجاج قروى ينسقط الغريب ويستعمله ، فلا يقع به في مكانه ، ومن ثم كان الأصمى وأبو عبيدة يعيبان شعره .

وقد يكون في هذا بعض الحق ، وعذر الكيميت أن ثقافته اللغوية أتت إليه بالمدارسة والوصف ، وبذلك اعتذر لذى الرمة^(١) ، واجتهد أن يجرى شعره بجرى التلميح .

على أن تسعة أعشار شعر الكيميت — أو يزيد — قد ذهب مع الزمن ، والعشر الباقي لا أثر فيه لغريب قد وضع في غير موضعه .

رأينا في الكيميت :

على أنا لا نرى الكمال المطلق للكيميت ، ولكننا نؤمن بأنه شاعر كوفي محل ، وراويّة للشعر نقاد ، قد درس لغات العرب وأيامها ، ووقف على مفاخر

(١) الأغاني ج ١ ص ١٢٥ .

القبائل ومثالبها ، وأنسابها ، فبان أثر ذلك في شعره ، وعدا نتاج الجاهليين على نتاجه ، ومكنته هذه الثقافات من أن يضيف إلى التراث الأدبي ثروة لم يضفها شاعر قبله ، مثل فيها نشاطه الفكري ، وحرية الرأي وسمو الإنتاج ، وشارك بها في كل ما يدور حوله البحث ، ويحدثم الجدل ، وشغل الناس ، فبرز مجالس الولاة ، وعروش الخلفاء ، فرقاً حيناً ، وطرباً حيناً آخر .

ثم هو شاعر مطبوع طويل النفس حتى ليم على الإطالة ، فقال : أنا على القصار أقدر^(١) . . معنى بتجويد شعره ، قيل له : إنك قلت في بني هاشم فأحسننت ، وقلت في بني أمية أفضل ، فأجاب : إني إذا قلت أحببت أن أحسن^(٢) . . فهو مخلص لفنه ، مالك له ، معنى بتجويده وإن خالف هواه . . فجاء شعره صورة لهذا الطبع المستقل ، والملكة الصانع . . قد اجتمعت له أسباب السكال فكل ، واستحق برصانة لفظه ، ونخامة أسلوبه ، وطول نفسه ، وبعد إشارته ؛ هذه الشهادات من شيوخ الأدب ونقدته .

مميزات شعر الكميت :

أهم ما يمتاز به شعر الكميت جزالة اللفظ ، ونخامة العبارة ، وإلفه لأساليب الجاهلية وتشبيهاتها ، كتألق البرق ، وقدر الحرب ، وتقابل الأثافي في أبيات هشام السابقة ، وكقوله في بائيته يذم بني أمية :

(١) البيان والبيان ج ١ ص ٩٥١ .

(٢) الأغاني ج ١٤ ص ٢٨ . ومثله في هذا الشريف الرضي حيث يقول :

أهذب في مدح اللثام خواطري فأصدق في حسن المعاني وأكذب
وما الممدح إلا للنبي وآله يرام ، وبعض القول ما يتجنب

إذا اتضعونا كارهين لبيعة أناخوا لأخرى ، والأزمة تجذب^(١)
ردافا علينا لم يسيئوا رعيـة وهـمهم أن يمتروها ، فيحلبوا^(٢)
أقاربنا الأدنون منكم لـعـلة وساسدنا منهم ضباع وأذؤب^(٣)
لنا قائد منهم عنيف ، وسائق يُقحمنا تلك الجرائيم مُتعب^(٤)

ويمتاز كذلك بكثرة الغريب ، كثرة تغنى قارئه ، فهو أبدا في حاجة ملحة
إلى معجمات اللغة ينشرها بين يديه ، كما رأيت في أبياته السابقة ، وكما ترى
في قوله يمدح أبان بن الوليد بن عبد الملك :

رَجَوِكَ ، ولم يَبْلُغِ العَمْرَ سـتـتـكَ عَشْرًا وَلَا نَبَتْ فَيْكَ إِنْ تَارَا^(٥)
لَأَدْنَى خَسَا أَوْ زَكَا مِنْ سَنِيكَ إِلَى أَرْبَعٍ فَبَقَوْنَ أَنْتَظَارَا^(٦)
وَلَمْ يَسْتَرِيثُوكَ حَتَّى رَمَيْتَ فَوْقَ الرِّجَالِ خَصَالَا عُشَارَا^(٧)

(١) الاتضاع : أن تخفض رأس البعير لتضع قدمك على عنقه لتركبه ، ويريد
الكهيت ، الإذلال على البيعة .

(٢) ساس للماشية : رعاها ، ومرى الناقة يمررها : مسح ضرعها لتدر .

(٣) العلة بالفتح . الضرة .

(٤) قحم الرجل في الأمر واقنعم . دخل فيه من غير روية . والجراثومة الأصل ،
والمراد الأمور العظام . أى أنهم يحملون الناس على البيعة لهم من غير روية .

(٥) الأبيات في خزانة الأدب ج ١ ص ٨٢ : يقول : تبينوا فيك السؤدد ولم
تبلغ السنة العاشرة . فرجوا أن تكون سيدا أميرا مطاعا . وانتار : أصله انتغار قلبت
الثناء ثم أدغمت . ويقال للصبي إذا فبت أسنانه انتارت ، فالكهيت يقول : انتارت
ولم تنبت أسنانك أى بلغت مبلغ الرجال وأنت صبي .

(٦) الحسا : الفرد . والزكا : الزوج . يقول : رجون أن تكون سيدا ولم تبلغ
سنة أو سنتين .

(٧) الريث : البطء ، وعشارا : معدول عن عشر والمراد : نشأت نشأة الرجال =

وقد كان من أثر ذلك أن بدا شعره مرقعاً ، فبينما هو يأتيك بالأبيات الأنيقة الواضحة ، إذا به يغلبه طبعه ، فيرمى قارئه بالأبيات الغريبة الغامضة الفجة ، فيشوه شعره ، ويسىء إلى استوائه وتناسبه .

استمع إليه يخاطب بنى أمية ، فيقول :

فيا ساسةً هاتُوا لنا من حديثكم
ففيكم — لعمري — ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم
على الحق تقضى بالكتاب ونعدل ؟
فكيف ، ومن أنى ، وإذا نحن خلفه
فريقان شتى ، تسمنون ، ونهزل ! ؟
أصلح دينانا جميعاً ، وديننا —
— على ما به — ضاع السَّوامُ المؤبَّلُ (١)
برينا كبير القدح أو هن مَتْنُه
من القوم لاشار ، ولا مَتْنيل (٢)

= فأسرعت في بلوغ الغاية التي يطلبها طلاب المعالي بل زدت عليهم بشر خصال ، ومعنى لم يستريشوك : لم يجدوك بطيئاً في طلب المعالي . وانظر الخصائص لابن جني ودرة الغواص للحريرى .

(١) المؤبَّل : المهمل . والمراد : ضاع ديننا مثل ضياع السوام المهمة .

(٢) القدح : السهم ، وللتن مابين الريش إلى الوسط ، لاشار : لارائض أو مصالح والتنبيل : صاحب النبيل وحامله .

ولاية سِلَقْد ألف^١ كأنه
من الرهق المخلوط بالنوك أنول^(١)
كان كتاب الله يعنى بأمره
وبالنهى منه الكودنى المر كل^(٢)

ويقول فى بنى هاشم :

أناس^٣ بهم عزت قريش فأصبحت
وفيهم خباء المكرمات المطنب^(٣)
مُصَفُون فى الأحساب تحضون نجهم
هم الخض منا والصريح المهذب^٤
خِضْمُون أشراف لها - مِيمُ سادة
مطاعيم^٥ أيسار^٥ إذا الناس أجدبوا^(٤)
إذا ما المراضيع^٥ الخماص^٥ تَأَوَّهَتْ^٥
من البرد ، إذ مثلاًن : سعد ، وعقرب^(٥)

-
- (١) السلقد : الأحمق والذئب ، ويقال رجل ألف : عي ثقيل بطيء . الرهق :
السفه . والأنول : المجنون .
(٢) الكودنى الفرس الهجين يشبه به البليد ، والمركل : المضروب بالرجل ،
كناية عن الذلة والمهانة
(٣) المطنب : المشدود .
(٤) الخضم : السيد المحول ، والمطاء ، خاص بالرجل والجمع خضمون .
واللهوم . الكثير الحير .
(٥) الخماص الجامعة ، وسعد وعقرب : نجمان شتويان .

وَحَارَدَتِ النَّسَكْدُ الْجَلَادُ وَلَمْ يَكُنْ لَعُقْبَةٍ قَدَرِ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبٌ^(١)
وَبَاتَ وَلِيدُ الْحَيِّ طَيَّانَ سَاغِبًا وَكَاعِبِهِمْ ذَاتَ الْعُفَاوَةِ أَسْفَبٌ^(٢)

فإذا أخذ السكيت في وصف ناقته رأيت الشاعر الجاهلي المغرب الذي يدل
بمحصوله اللغوى ، وكثرة حفظه للغريب .

والسكيت شاعر يميل إلى الاستقصاء فيما يتناول من معان وأغراض ،
يقول في مدح خالد بن عبد الله القسري ، فلا تجد استقصاء أبلغ لخلال الكرم
من قوله :

لَوْ قِيلَ لِلْجُودِ : مَنْ حَالِيكَ مَا إِنْ كَانَ إِلَّا إِلَيْكَ يَنْتَسِبُ
أَنْتَ أَخُوهُ ، وَأَنْتَ صُورَتُهُ وَالرَّأْسُ مِنْهُ ، وَغَيْرُكَ الذَّنْبُ
أَحْرَزْتَ فَضْلَ النَّضَالِ فِي مَهْلٍ فَكُلْ يَوْمَ بِكَفِكَ الْقَصَبُ
لَوْ أَنَّ كَعْبًا وَحَاتِمًا نُشِرَا كَانَا جَمِيعًا مِنْ بَعْضِ مَا تَهَبُ
لَا تُخَافُ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ ، وَلَا أَنْتَ عَنِ الْمُتَعَفِّينَ تَحْتَجِبُ
مَا دُونَكَ الْيَوْمَ مِنْ نَوَالٍ وَلَا خَلْقِكَ لِلرَّاغِبِينَ مُنْقَلَبُ

وترى هذه الخصيصة واضحة أتم وضوح وأكمله في أدب الحجاج لقضية
الشيعة ، وإنه ليدهشك استقصاء السكيت لأسباب الخلافة استقصاء لم يترك
لمن بعده فضل قول ، ويدهشك بوجه خاص حينما يأخذ في وصف الهاشميين
بنبل الخلال ، أو التردى بالأمويين إلى مصاف الفجرة الطغام ، وذلك كله أثر
من آثار ثقافته وحياته التعليمية .

(١) حاردت الإبل : انقطع لبنها أو قل ، والنسكد : الغزيرت اللبن ، وكذلك
الجلاد ، والعقبة ، شيء من المرق يردده مستعير القدر فيها .

(٢) طيان ساغب : جائع شديد الجوع - والعفاوة : زبد القدر يخص به من يكرم -

الكميت الراوية وأثر ذلك في شعره :

والكميت شاعر راوية قد امتلأ ذهنه بأشعار السابقين ، فظهر أثر ذلك في شعره ، حتى عده بعض النقاد سرقة ، وما هو بالسرقه ، ولكنه امتلاء بالحفوظ ، يقول في مخلص بن يزيد بن المهلب بن أبي صفرة^(١) :

ما إن أرى كأبيك أدركَ شأوه أحداً ، ومثلك طالباً لم يُلحق^(٢)
يتجاذبان له ، فضيلة سنه وتلوت بعد مصلماً لم تسبق
إن تنزعا وله فضيلة سنه فبمثل شأو أبيك لم يتعلّق^(٣)
ولئن لحقت به على ما قد مضى من بُمد غايته فأحج وأخلق

والكميت قد نظر في هذا إلى قول الخنساء تمدح أباه وأخاه ، وقد تسابعا :

جاري أباه فأقبلا وهما يتماوران ملاءة الحضر
حتى إذا نزت القلوبُ وقد لُزّت هناك العذر بالعدر
وعلا هتاف الناس أيهما قال المحيبُ هناك لا أدرى
برزت صحيفة وجه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السنِّ والكبر
وهما ، وقد برزا ، كأنهما صقران قد حطّا إلى وكر

أو هما قد نظرا إلى قول زهير يشبه ناقته بحمار يعدو خلف أتانته في وعث من الرمل :

(١) أمالي الشريف المرتضى ج ١ ص ٦٨ .

(٢) الشأو : الغاية والأمد والسبق .

(٣) نزع إلى أبيه : ذهب إليه في الشبه ، ونازعه جاذبه في الخصومة .

فشج بها الأمايز فعي تهوى هوى الدلو أسلمها الرشاء^(١)
فليس إحاقه كإحاق ألف ولا كنجاتها منه نجاه
يقدمه إذا احتفلت عليه تمام السنّ منه والذكاء^(٢)

ويقول الكميّ :

ولا أكوى الصحاح براتعات بهن العر قبلى ما كويننا^(٣)
وهو من قول النابغة :

فحملتني ذنب امرئ وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع
وقال الكميّ في بانيته :

كأن حصى المعزاء بين فرُوجها نوى الرّضخ يلقى المصعد المتصوّب^(٤)
وهو من قول الممزق العبدى^(٥) :

كأن حصى المعزاء بين فرُوجها يوارى نوى رَضَاخَةٍ لم تُدَقِّقْ

(١) الأمايز : جمع أمعوز . وهى الرّيب من الظباء ، أو جماعة الأوعال .
(٢) فى رواية يفضله والضمير فى يقدمه عائد على الحمار ، وفى عليه عائد على الوعث
[الرمل تغيب فيه قوائم الدابة] ويريد بتمام السن : بلوغه السن الذى تستتم فيه
قوته ، وبالدكاء حدة القلب وسرعة الفطنة من ذكايدكو .
(٣) رعت الماشية : أكلت ما شاءت ، والمع : ذاء . يتطايّر منه وبر الإبل -
ديوان المعاني .

(٤) أرض معزاء : بها حصى صغار . والمعز محرّكة : الصلابة والفروج :
القوائم ، والرضخ : الدق . شبه الكميّ تراعى الحصى بين قوائم ناقته بالنوى عند دقه
يتطايّر فيلقى بعضه بعضا دون انتظام ، والمراد أنها لسرعتها يتطايّر الحصى بين فروجها .
(٥) شاس بن نهار الميذى شاعر جاهلى ، وهو القائل .
=

وفيه يقول امرؤ القيس :

كَانَ الْحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامَهَا ۖ إِذَا تَجَلَّاهُ رَجُلَهَا حَذَفُ أَعْسَرَا
ويقول الكميت :

تَجْرَى أَصَاغِرُهُمْ مَجْرَى أَكْبَرِهِمْ وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبْتُ الشَّجَرُ
وقد أخذ هذا من قول الربيع بن أبي الحقيق اليهودي :

تَرْجُو الْغَلَامَ ، وَقَدْ أَعْيَاكَ وَالِدُهُ وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبْتُ الْعُودُ^(١)
دعاء الشعراء إلى ترك الأطلال :

وللكميت لفظة بلاغية نحب أن نسجلها في خصائصه الشعرية ، فقد كان
أول من دعا الشعراء إلى أن يصرفوا وجوههم عن الأطلال والدمن إلى ما هو
أهم من الأطلال والدمن ، فيقول :

أَأَبْكَاكَ بِالْعَرْفِ الْمَنْزِلُ وَمَا أَنْتَ وَالطَّلُ الْمَحُولُ ؟
وَمَا أَنْتَ وَيْلَكَ وَرَسْمَ الدِّيَارِ وَسَتَوَكَّ قَدْ كَرَبْتَ تَكْمُلُ ! ؟^(٢)
ويقول :

فَدَعُ ذِكْرَ مَنْ لَسْتَ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا هُوَ مِنْ شَأْنِكَ الْمَنْصِبِ
وَهَاتِ الثَّنَاءَ لِأَهْلِ الثَّنَاءِ بِأَصُوبِ قَوْلِكَ فَالْأَصُوبِ

فَإِنْ كُنْتَ مَا كُولا فَكُنْ خَيْرَ كُلِّ وَإِلَّا فَأَدْرِكُنِي وَلَمَّا أَمَزَقِ
وبه سمى الممزق : القاموس . والشعر والشعراء .

(١) أُمَالِي الشَّرِيفِ الْمُرْتَضَى ج ٣ ص ٢٨ .

(٢) خَزَانَةُ الْأَدَبِ ج ٢ ص ٣٨١ . والعرف كعنق : ماء لبني سعد أو جبل .
والمحول : الدارس ، وستوك استشهد بها النعويون على أن العدد الذي في آخره النون
يضاف إلى صاحبه أكثر من إضافته إلى المميز : يريد وقد قارب سنك أن يبلغ الستين .

وقد كرر هذا في هاشمياته ، وجدّ في الدعوة إليه ، ثم جاء أبو نواس
فاتهب هذا الجديد . . . والفرق بين الرجلين هو الفرق بين الخلقين ، صرف
صاحبنا حينئذ إلى بني هاشم — رهط النبي وآله — وصرفه أبو نواس إلى
ابنة الكرم ، ومجالس الشراب .

وقد كان هذا الجديد ذا أثر أخاذ لنفوس الشعراء في عصره ، في الأغاني :
قدم الفرزدق الكوفة ، فأثاه الكميت ، فقال : يا أبا فراس إنك شيخ مضر
وشاعرها ، وأنا ابن أخيك الكميت بن زيد ، فقال له : صدقت ، أنت
ابن أخي ، فما حاجتك ؟ قال : نفث على لساني ، فقلت شعراً فأحببت أن أعرضه
عليك ، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته ، وإن كان قبيحاً أمرتني بستره ،
وكنت أول من ستره على ، فقال الفرزدق : أما عقلك فحسن ، وإني لأرجو
أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدني ، فأنشده :

* طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب *

فقال الفرزدق : فقيم تطرب يا بن أخي !

فقال :

* ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب *

فقال الفرزدق : بلى يا بن أخي ، فالعب فإنك في أوان اللعب .

فقال :

ولم يلهنى دار ولا رسم منزل

ولم يطربنى بنان مخضب

فقال : وما يطربك يا بن أخي !

فقال :

ولا أنا ممن يزجر الطير همه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمرّ سليم القرن أم مر أعضب
فقال : أجل لا تطير .

فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والتقى وخير بني حواء ، والخير يطلب
فقال : ومن هؤلاء ويحك !! ؟

فقال :

إلى نفر البيض الذين بحبهم إلى الله فيما نالني أتقرب
فقال : أرحني ويحك ، من هؤلاء !! ؟
فقال :

بني هاشم رهط النبي فإني بهم ، ولهم أرضى مراراً وأغضب
فقال الفرزدق : يا بن أخي ، أذع ، ثم أذع ؛ فأنت — والله — أشعر من
مضى ، وأشعر من بقي ^(١) .

فشاعرنا في هذه المقدمة — فوق أنه لفت الفرزدق إلى غرض أسمى مما يطرب
إليه الشعراء حتى نال منه هذه الشهادة — شاعر فنان ماهر ، يعرف كيف يملك
النفوس في قبضته . . . ألتست تراه قد لعب بمقدمته لعباً جعل الفرزدق يحار

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٥ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٥٣ وأمالى الشريف

المرتضى ج ١ ص ٤٧ .

ويدهش ، ويلتفت إليه جملة ، ويسأله المرة بعد المرة أن يطفىء غلته ، ويقضى
لبانته ، فيضع يده على هؤلاء الذين يطرب إليهم هذا الطرب ؟

أغراض شعره :

خلف الكميت خمسة آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً^(١) ، يتقسمها
أمران مهمان : التشيع ، والشعر القبلي ، ثم يأتي بعد ذلك مدائمه للخلفاء
والولاة وإخوانياته .

وقد منح الكميت ذكاء فطرياً هياً له أسلحة فنه . . . عرف أن الهجاء
يتطلب علماً خاصاً . . . يتطلب تفوقاً في الأنساب ، ومعرفة بأيام العرب ، ومثالب
القبائل — إذ لا شيء أخطر في الخصومات من معرفة قديم المثالب حين تضطرم
نار السباب — فدارس العلماء والأعراب ، وأصغى إلى جدتيه تحدثانه بأخبار
الجاهلية ، فإذا هو أعلم الناس بالعرب وأيامها ، حتى إذا خاض لجة الهجاء القبلي
كان له فيه السهم الربيع ، والقدم الثابتة ، وغدا شعره تنوراً للعصبيات ،
ووقوداً للثورات القبلية في حياته وبعد مماته .

يقول صاحب الأغاني : « ولم تزل عصبية للعذنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن
متصلة ، والناقضة بينه وبينهم شائعة في حياته وبعد مماته ، حتى ناقض دعبل
الخزاعي وابن أبي عيينة قصيدته المذهبة ، فأجابهما أبو الزلفاء البصري ، مولى
بنى هاشم عنها^(٢) » .

وكان ذلك بعد وفاة الكميت بنحو قرن .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٣٠ . وخزانة الأدب ج ١ ص ٩٩ .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ .

ويعده السعوى سبباً فى سقوط الدولة الأموية ونقل الأمر إلى بنى هاشم^(١).
ومن هنا يقول الأستاذ الكبير أحمد أمين : « وقتل ، فقتلت بعده الدولة
الأموية بقليل »^(٢).

الشعر القبلى :

وكان سبب انغماسه فى هذه الفتن أن حكيم بن عياش السكلى كان ولعاً بهجاء
مضر — وبنى هاشم خاصة — لعصبية القحطانية ، ثم الأموية ، فكان شعراء
مضر تهجوه ، وهو يجيبهم ، والكميت لا يدخل فى شئ من ذلك ، ويقول :
هو — والله — أشعر منكم ، قالوا : فأجب الرجل ، فقال : إن خالد بن عبد الله
القسرى محسن إلى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، فأنشده ما يقول فى بنات عمه ،
وبنات خاله ، حتى حى لعشيرته ، فقال مذهبه :

ألا حيث عنا يا مدينا وهل أحد نقول مسلمينا

تناول فيها اليمين ، فلم يترك حيا من أحيائهم إلا هجأهم ، وعدد مثالبهم ،
فكانت قصيدته سبباً لثورة جارفة بين اليمين ونزار ، كما كانت سبباً لتحزب
العشائر العربية^(٣).

وقد بلغ الكميت بمذهبه ثلاثمائة بيت — كما يقولون^(٤) — ولعلنا لم نسمع
بشاعر قبل الكميت بلغ بالقصيد إلى هذا الحد ، والذي عالج الشعر العربى يعلم

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ .

(٢) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٠٦ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٥ ، والأغاني ج ١٥ ص ١٢٠ ، وخزانة الأدب

ج ١ ص ١٠٠ .

(٤) المصدر السابق .

أن القصيدة لا تصل إلى هذا حتى تكون قد استبدت بعقل الشاعر وخياله وهواه ، فوحدة الوزن والقافية في الشعر العربي تفرض طبع الذهن على غرار واحد ، وتدور بالشاعر حول نغمات موسيقية متماثلة الأوضاع . . فلا بد أن يكون الكميّ قد وهب أساس التجويد في فنه ، واستعد لإنضاج الصور الشعرية ، أتم استعداد وأكمله .

اللزاريات :

وفي اللزاريات تجلّى ذكاء الكميّ ، وسعة حيلانه ، فقد رأى أن حكيم ابن عياش منقطع إلى بني أمية ، متعصب لهم ، فانظر ماذا صنع لإفحام خصمه والقضاء عليه . . . هجا الكلبى ، فافتخر ببني أمية ، وأظهر أن هجاءه إياه للعصبية التي بين عدنان وقحطان ، وبنو أمية من هؤلاء الذين يجلون العصبية ، ويحولونها اسمى مكان من نفوسهم وسياستهم ، فكان حتماً من الحتم أن يفحم الكلبى ، وقد أخذ الكميّ عليه سبل القول ، وطريق الإجابة .

قال المستهل بن الكميّ : قلت لأبى : يا أبى إنك هجوت الكلبى فقلت :

ألا يا سلم من ترَبِ أفى أسماء من ترَبِ ! ؟

وغزت عليه فيها ، ففخرت ببني أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألا فخرت بعلى ، وبني هاشم الذين تتولاهاهم ؟ فقال : يا بني أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بني أمية ، وهم أعداء على - عليه السلام - فلو ذكرت علياً لترك ذكرى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ، ولا أجد له ناصراً من بني أمية ، ففخرت عليه ببني أمية ، وقلت : إن نقضها على قتلوه ، وإن أمسك الكلبى عن ذكرهم قتلته غما وغلبته ، فكان كما قال ، أمسك عن جوابه ،

فغلب عليه ، وأفحم الكلبي^(١) ، فهذه الحيلة استطاع الكميت أن يحظى بالفوز على خصمه .. وهو مكر حسن في باب المناقضات الشعرية .

ولقد كان الكميت يلجأ إلى هذه الحيل الصناعية ليقى بها نفسه وبني هاشم ، فهو يمدح ولاية الدولة لأن ييدهم الدنيا والسلطان ، وليغضبوا النظر عن شيعه ، ويمدح هشاماً وأمراء البيت الأموى ، ويرثى معاوية بن هشام حين أحس بالخطر على حياته ، يستعمل في كل ذلك التقية الشيعية ، التى يقول بها الشيعة ، ويدين بها الكميت ، فيقول :

نَضَحْتُ أديم الود بينى وبينهم	بَاصِرَةً الأرحام لو يَتَبَلَّلُ
فما زادها إلا يَبُوسًا ، وما أرى	لهم رحماً - والحمد لله - يُوصِلُ
ويضحى أناة ، وَالتَّقِيَّاتِ منهم	أَدَا حَى عَلَى الداءِ المريبِ وَأَدْمُلُ
وإنى على أنى أَرَى فى تَقِيَّةٍ	أَخَالطُ أَقْوَامًا لِقَوْمٍ لِمَزِيلِ
وإنى على إغضاء عيني لمطرق	وصبرى على الأقداءِ وهى تَجَلُّلُ
وإن قيلَ لم أخفِلْ ، ولست مُبَالِيًا	لِحَقْمِ ضَبًّا ، أبالى وَأَخْفِلُ

والتاريخ لم يحفظ لنا من هذه المذبة ، ولا من شعره القبل إلا أبياتاً قليلة ، لا تكفى للحكم عليها .

فمن مذهبه يشير إلى استيلاء الحبشة على اليمن ، ويزعم أن لها نسلا فيها :

لنا قمر السماء وكلّ نجم	تشير إليه أبدى المهتدنا
وجدت الله إذ سمى نزارا	وأسكنهم بمكة قَاطِنِينَا
لنا جمل المكارم خالصاتٍ	وللناس القفا ولنا الجبينَا

وما ضربت هجاناً من نزار فَوَالِخ من فحول الأعجمينا^(١)
وما حملوا الحميرَ على عتاق مطهرة فَيُلَغَوُا مُيَغَلِينَا
وما ولدت بناءَ بني نزار حلائلَ أسودين وأحمرينا^(٢)

ومنها هذه الأبيات التي كانت سبباً في غضب خالد القسري عليه ، وتدبير قتله ، كما سيأتي .

تشيع الكميت :

وإذا نحن انتقلنا إلى الجانب الشيعي من شعر الكميت وجدنا ناحية مشرقة من القول ، وفقاً قد استبد بطبع الشاعر وهواه ، فنفت على لسانه السحر الساحر ، والجمال الباهر ، والنمط العالي الرفيع .

والذي يدرس الكميت يرى أن الشاعر قد عاش للشيعية ، وفي الشيعية ، وقضى دهره يهتف بحب آل البيت ، ويتغنى بمدائحهم ، ويشرح قضيتهم ، ويتعرض للأذى في سبيلهم .

وإذا صدق ما نقله المسعودي في مروج الذهب من أنه وفد على عبد الله ابن حسن بالمدينة ، فقال له عبد الله بن معاوية^(٣) : « إني رأيت أن تقول شيئاً تغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث ، فيخرج من بين أصابعها بعض ما يجب » . فابتدأ الكميت مذهبه التي ذكر فيها مناقب قومهم من مضر ، وربيعة

(١) الفوالخ : الفحول الهائجة ، ورواية الخزاعة هوائج وهي الفحول تشبه الضراب ، والمفرد هائج .

(٢) خزاعة الأدب ج ١ ص ٩٩ ، ومروج الذهب ج ٢ ص ١٥٨ .

(٣) ابن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .

وإياد ، وأثمار — أبناء نزار بن معد — وأنهم أفضل من قحطان ، فأغضب بها بين اليمانية والنزارية ، ونمى القول ، وافتخرت نزار على اليمين ، وافتخرت اليمين على نزار ، وأدلى كل فريق بما له من مناقب ، وتحزب الناس ، وثارَت العصبيَّة في البدو والحضر ، فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي ، وتعصبه لقومه من نزار على اليمين ، وانحرف اليمين عنه إلى الدعوة العباسية ، وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم^(١).

نقول : إذا صح هذا كان الكميّة قد أفنى حياته كلها في التشيع ، وكان هذا النوع فثماً آخر من الأدب الشيوعي السياسي ، حيّك للنيل من الدولة القائمة ، وتأليب الناس عليها ، وإحداث الفتن في وجهها . وقد مر بك أنه كان يفتخر فيها ببني أمية ليفضح الكلابي ، ويبقى أعراض بني هاشم ، وأنه مدح الولاة ليفضوا النظر عن تشيعه .

ويقول ورد بن زيد — أخو الكميّة — : أرسلني الكميّة إلى أبي جعفر — محمد بن علي بن حسين — فقلت له : إن الكميّة أرسلني إليك ، وقد صنع بنفسه ما صنع ، فتأذن له أن يمدح بني أمية ؟ . . قال : نعم ، هو في حل ، فليقل ما شاء^(٢).

وفي هذا جمال الإخلاص لعقيدته ، فهو حتى في هذه الحنة الحبيطة لم يسلك سبيل الإخلاص إلا بعد أن أذن له .

وذهب الكميّة فنال عفو هشام بن عبد الملك — بحيلة سنذكرها بعد — فانظر أدب الكميّة ؟ ! . . وفد على أبي جعفر ، فقال له : يا كميّة ! أنت القائل :

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) الأعاني ج ١٥ ص ١٢٦ .

فألان صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر

قال : نعم قد قلت ، ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ، فقال أبو جعفر : أما إذ قلت ذلك فالتقية تحمل^(١) .

وهذا الجواب غاية في أدب النفس ، فالشاعر لا ينكر أنه مدح بنى أمية ، بل يعترف أنه لم يرد به إلا الدنيا ، أما الآخرة فسيبيلها مدح آل البيت . . . وهو يقول هذا بسمع من بنى أمية ، ويبدعهم مفاتيح الخزان ، ومقاليد السجون ، ولكن التشيع الذى ضم عليه جوانحه يغلبه ، فلا يملك أن تفلت من لسانه كلمة هى صميم الأدب الشيعى .

مولد الكهيت :

ولد الكهيت سنة ستين من الهجرة — أيام قتل الحسين — فشهد الأحران العلوية ، وعاش فى الكوفة ، مهد الشيعة ويثتهم ، ومسرح التمثيل بهؤلاء الأطهار من سلالة الرسول — صلى الله عليه وسلم — وشيعتهم ، فرأى يعينه ، وسمع بأذنه مظاهر العدوان الظاهر ، والتجنى الممقوت ، وهذا — وأقل منه — يحمل النفوس الأبية على استشعار الرحمة لهؤلاء ، والعطف على قضيتهم . فإذا تشيع الكهيت فبما اجتمعت أمامه من أسباب هذا التشيع .

ولقد كان تشيع الكهيت أقوى ما عرف من عواطف الشعراء لذلك العهد ، فهو فى حبه وصدق هتافه يمثل الروحانية أصدق تمثيل ، فقد فنى فى عقيدته فناء تحت الدنيا فى سبيله أو كادت ، وتغنى بحب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وآله ، فى أيام كان هذا النوع من الأدب يعرض الشاعر لغضب بنى أمية ، أصحاب

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٧ .

الحول والطول ، وما كان بنو أمية بكافرين ، ولكن السياسة — كما قلنا — ترى في ذلك تزكية للهاشميين ولفناً للذهن إلى حق هؤلاء المقتصب .

إخلاص الكهيت لعقيدته :

ولقد عرف الكهيت أن هذا النوع من الأدب أقوى سلاح وأمضه على الدولة القائمة ، وهو لا يملك في الدفاع عن قضيته إلا سلاح القول ، فاصطبر على الأذى في تشيعه ، وكانت هاشمياته أصدق ما تكون تمثيلاً لحياته وعواطفه ، وأتم ما تكون تبياناً لقضيته وآرائه .

استمع إليه يصور حياته مع الناس ، وإذا بهم له ، فيقول :

ألم ترني من حب آل محمد أروح وأغدو خائفاً أترقب
كأنني جان محدث ، وكأنني بهم ألقى من خشية العار أجرب
على أي جرم ، أم بأية سيرة ؟ أعنف في تقيظهم وأؤنب

ولكنه مع هذه الحياة بمضى في تشيعه في جرأة صادقة ، معلناً تارة ، ومسرراً أخرى ، مستقتلاً في حبه ، كما قال هشام بن عبد الملك حين أنشده قوله :

فيهم صرت للبعيد ابن عم واتهمت القريب أي اتهم
وتناولت من تناول بالغيبة أعراضهم وقل اكتتامي
ورأيت الشريف في أعين الناس وضعيفاً وقل منه احتشامي
معلنًا للمعلنين ، مسرراً للمسررين ، غير دحض المقام
مبدئياً صفحتي على المرقب المعلم ، بالله عزتي واعتصامي
ما أبالي إذا حفظت أبا القا سم فيهم ملامة اللوام
ما أبالي ، وإن أبالي فيهم أبداً رغم ساخطين رغم

فيهم شيعتي وقسمي من الأمة ، حسبي من سائر الأقسام

فهو يحب هؤلاء عن يقين وصدق ، وتفكير عميق ، ويحتج له احتجاجاً قوياً ،
 يحبهم لأنهم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعترته ، والبقية الباقية من هذا
 القبس الإلهي ، وللرسول صلى الله عليه وسلم على الناس فضل أى فضل ، وقد
 سألنا القرآن الكريم أن نوده في قرباه ، قال تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً
 إلا المودة في القربى) ، ولا قرابة أقرب من هؤلاء ...

وفي هذا يقول :

أجرك عندي من الأودِّ لقر باك سجيات نفسي الوُظْبُ
 في عقدة من هواك محكمة ظواهر منها العناجُ والكرب^(١)
 واصله آخرأ بأولها ——— تنخلوا صفوها ، وما خشبوا^(٢)

ويقول :

وجدنا لكم في آل حاميم آية تأولها منا تقى ومعه ——— رب
 وفي غيرها آيا ، وآيا تتابعت

لكم نصب فيها لذى الشك منصب^(٣)

غيب هؤلاء المصطفين الأخيار حب للرسول — صلى الله عليه وسلم —
 ومرضاة لله تعالى ، فالدين جهم ، والقربة توليهم ، والسعيد من قابل الله وقد
 ربط أسبابه بأسبابهم .

(١) العناج جبل يشد في أسفل الدلو العظيمة . ثم يشد بالخشبة التي تعرض على
 الدلو ، والكرب : الحبل الذي يشد في الخشبة وهو الذي يلي الماء فلا يعفن الحبل الكبير
 (٢) تنخلوا : تخيروا ، وخشبوا : خلطوا .

(٣) النصب : العلم . والنصف : المرجع : يقول : في القرآن آيات كثيرة في فضل
 آل الرسول صلى الله عليه وسلم .

إِنْ أُمْتُ لَا أُمْتُ وَنَفْسِي نَفْسًا نَ مِنَ الشُّكِّ فِي عَمِي أَوْ تَعَامِي
عَادِلًا غَيْرَهُمْ مِنَ النَّاسِ طَرَا بِهِمْ ، لَا هَامَ بِي ، لَا هَامَ (١)
لَمْ أَبْعَ دِينِي الْمَسَاوِمَ بِالْوَكْسِ وَلَا مُغْلِيًا مِنَ السُّوَامِ
أَخْلَصَ اللَّهُ لِي هَوَايَ ، فَمَا أَغْرَقَ نَزْعًا ، وَلَا تَطْيِشَ سَهَامِ
وَهَلَّتْ نَفْسِي الطُّرُوبَ إِلَيْهِمْ وَلَهَا ، حَالٌ دُونَ طَعْمِ الطَّعَامِ
فَهُوَ يَشْتَغِلُ بِحَبْهِمَ عَنْ مَلَاذِ الدُّنْيَا وَسَعَادَتِهَا ، وَيَتْلَهَى بِهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ
كَمَا يَشْتَغِلُ بِحَبْهِمَ عَمَّا شَغَلَ الشُّعْرَاءَ قَبْلَهُ — وَيَشْغَلُهُمْ — مِنَ الْعَبُودَةِ وَاللَّهْوِ ،
وَبُكَاءِ الدِّيَارِ وَالدَّمَنِ فَيَقُولُ :

طَرَبْتُ ، وَمَا شَوْقًا إِلَى الْبَيْضِ أَطْرَبُ
وَلَا لَعِبًا مِنِّي ، وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ
وَلَمْ يَلْهِنِي دَارٌ ، وَلَا رَسْمُ مَنْزِلٍ وَلَمْ يَتَطَرَّبْنِي بَنَانُ مَخْضَبِ
وَلَا أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرُ هُمَ أَصَاحُ غُرَابٍ أَمْ تَعْرِضُ ثَعْلَبِ
وَلَا السَّانِحَاتِ الْبَارِحَاتِ عَشِيَّةً أَمْرًا سَلِيمَ الْقَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْضَبِ
وَلَكِنْ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالتَّقَى وَخَيْرُ بَنِي حَوَاءَ ، وَالْخَيْرُ يَطْلُبُ
إِلَى النَّفَرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ بِحَبْهِمَ إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَالَنِي أَتَقَرَّبُ
بَنِي هَاشِمٍ رَهْطَ النَّبِيِّ فَإِنِّي بِهِمْ ، وَلَهُمْ أَرْضِي مَرَارًا وَأَغْضَبُ

وَقَدْ يَبْلُغُ حَبِيبُ الشَّيْءِ ، وَاجْتِلَالُكَ لَهُ أَنْ تَلْزِمَ النَّاسَ إِلْزَامًا يَهْوَاكَ وَعَقِيدَتَكَ
بَلَهُ إِتْرَارَكَ عَلَى هَذَا الْهَوَى وَتِلْكَ الْعَقِيدَةِ ، وَكَمْ صَبَّ الشُّعْرَاءُ عَلَى الْعَاذِلِينَ قَوَارِعَ
التَّسْفِيَةِ وَاللُّومِ .

(١) هَامَ : كَقَطَامٍ قَصَدَ بِهِ الْحِكَايَةَ ، وَالْمَعْنَى لَا أَهْمَ بِذَلِكَ وَلَا أَفْعَلُ .

وكذلك كان الكمية . . . يحب هؤلاء ويحمل الناس على حبهم ، ويعجب
كيف لا يشاركونه هواه ، ويفرق في العجب والتفريع واللوم لمن يعنفه في حبه ،
ويسيبه في إخلاصه فيقول :

يشيرون بالأيدى إلى ، وقولهم ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتني بحبكم وطائفة قالوا : مسيء ، ومذنب^(١)
فما ساءني تكفير هاتيك منهم ولا عيب هاتيك التي هي أعيب
يعيبونني من حبهم وضلالهم على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
وهو يتعدى السخر إلى الإشفاق على العائنين عليه ، من يوم شديد عَصَبَصَب .
فيقول :

فقل للذي في ظل عمياء جونة
تري الجور عدلا ، أين ، لا أين تذهب^(٢)
بأي كتاب ، أم بأية سنة تري حبهم عاراً على ، وتحسب ؟
أأسلم ما تأتي به من خـدعة وبغض لهم - لا جبر - بل هو أشجب^(٣)
ستقرع منها سن خريان نادم إذا اليوم ضم النا كثرين العصبص^(٤)

(١) الطائفة الأولى : الحوارج ، والثانية : بنو أمية .

(٢) العمياء : تأنيث الأعمى ، ويريد بها الجهالة واللجاجة في الباطل ، والجونة
هنا : السوداء وللراء الفتنة .

(٣) يقال : جبر أفل . ولا جبر لا أفل ، وهو بمعنى اليقين ، وأشجب : أهلك
وأعطب . يقول : هل بغضتهم وعداوتهم أسلم من حبهم لا والله إن عداوتهم أشجب
وأسوأ .

(٤) قرع السن : كناية عن الندم ، والمصصب : الشديد ، وقد وقعت الكلمة
في موقعها الذي لا يغنى فيه غيرها .

هذا هو حب الكميت لآل بيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - حب الله ،
وفى الله ، وقربة يتقرب بها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حب يراه الدين
والعدل ، فمن فكص عن حبهم فقد فكص على عقبيه ، وخسر آخرته ، وإن لم
يخسر ديناه ، ونعوذ بالله من خسران الآخرة . . . وكذلك كان حب الشيعة لهذا
البيت الكريم ، حباً تضمنه الأحشاء ، واللحم ، والدم .

سمة التصوف في شعره :

لم يطلب الكميت الدنيا بحبه ، ولو طلبها لذهب إلى أهلها ، إلى من بيدهم
مفاتيح الخزان - كما قلنا - ولوجد مضطرباً واسعاً في قصور دمشق :

دخل على أبي جعفر - محمد بن علي بن الحسين - فأنشده ، فأعطاه ألف دينار
وكسوة ، فقال الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هي
في أيديهم ، ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما المال فلا حاجة لي به ، وأما الثياب
التي أصابت أجسادكم فأني أقبلها . لبركتها^(١) .

وكان أعز شيء إليه أن يعود من عندهم مزوداً بدعوة صالحة ، وكأى ما كان
يفوز بها من هؤلاء الأطهار . . حدث محمد بن سهل - صاحب الكميت - قال :
دخلت مع الكميت على أبي عبد الله ، جعفر بن محمد - عليهما السلام - أيام
التشريق بمنى ، فقال : جعلت فداك ، ألا أنشدك ؟ فقال : يا كميت إنها أيام
عظام ، فقال : إنها فيكم ، فقال : هات - وبعث إلى بعض أهله - فأنشده
لاميته :

ألا هل عم في رأيه متأملٌ وهل مُدبر بعد الإساءة مُقبلٌ

فكثرت البكاء حوله . . حتى إذا قال :

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم فيا آخراً أسدى له النغى أول

رفع أبو عبد الله يديه ، وقال : اللهم اغفر للسكيت ما قدم ، وما آخر
وما أسر ، وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى^(١) . . فكانت هذه الدعوات أحب
إليه من الدنيا وزهرتها .

وقد روى المسعودى فى مروج الذهب ، وأبو الفرج فى أغانيه مواقف كثيرة
من هذه الروحانية الصادقة تمثل السكيت فى حبه وتشييعه ، حتى اشتهر بشاعر
أهل البيت .

يقول صاعد - مولى السكيت - دخلنا على فاطمة بنت الحسين ، فقالت : هذا
شاعرنا - أهل البيت - وجاءت بقدرح فيه سويق ، فحركته بيدها ودفعته إليه
فشربه ، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركباً ، فحملت عيناه ، ثم قال : لا والله
لا أقبلها ، إني لم أحبكم للدنيا^(٢) .

لقد كان هذا اللقب - شاعر أهل البيت - من أحب الألقاب إليه ،
وألصقها بقلبه . كان همه أن ينسب إلى هذه السلالة الطاهرة ، فأعطاهم من
هواه الصفو ، ومن شعره المخزون والمتنخل ، وحمل فى سبيلهم أحقاد الأقارب
والأبعد

وكذلك يكون صاحب العقيدة ، يأبى الضيم ، ويمقت الظلم ، ويستعذب
العذاب ، ويستصغر العظام ، ويستخف بالأهوال فى سبيل عقيدته .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٣ . وانظر مروج الذهب ج ٢ ص ١٥٤ .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٣ .

الكيمت عند الجماهير الشيعية :

والأدب إذا صدر عن هذه العواطف المشبوبة كان قوياً مشتعلاً ، ودخل على القلوب فتبوا منها مكاناً صدقاً ، فما ظنك بأدب يتغنى بمدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويهتف بهذه السلالة الطاهرة ؟

لا شك يكسب صاحبه هالة من القداسة والحب ، ويضفي عليه ثوباً فضفاضاً من جلال الدين ووقاره . . . وكذلك كان أدب الكيمت عند الجماهير يتألق فيضيء جوانب النفس ، ويبعث فيها القوة والحياة ، فامتلات قلوبهم إجلالاً له ، وتقديراً لصدق عقيدته ، حتى خصومه من الشعراء كانوا يعادونه في هيبة وحذر .

ورأينا كتب الأدب تحدثنا عن كثير من الرؤى . رؤيا الناس للنبي - صلى الله عليه وسلم - يدعوه له ، ويثني عليه ، ويذب عنه .

في الأغاني : « عن نصر بن مزاحم المنقري أنه رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - في النوم ، وبين يديه رجل ينشد :

* من لقلب متيم مستهام *

قال : فسألت عنه ، فقيل لي : هذا الكيمت بن زيد الأسدي ، قال : فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : جزاك الله خيراً ، وأثنى عليه .

وعن إبراهيم بن سعد الأسدي ؛ قال سمعت أبي يقول : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في النوم ، فقال : من أي الناس أنت ؟ قلت : من العرب ؟ قال : أعلم ، فمن أي العرب ؟ قلت : من بني أسد ، قال : أسد بن خزيمه ؟ قلت : نعم قال . أهلاً لي أنت ؟ قلت : نعم . قال : أتعرف الكيمت بن زيد ؟ قلت :

يا رسول الله ، عى ومن قبيلتى ، قال : أتحفظ من شعره شيئاً ؟ قلت : نعم ، قال : فأنشدنى :

* طربت وما شوقا إلى البيض أطرب *

قال : فأنشدته حتى بلغت قوله :

فقالى إلا آل أحمد شيعة ۞ ومالى إلا مذهب الحق مذهب

فقال لى : إذا أصبحت ، فاقراً عليه السلام ، وقل له : قد غفر الله لك بهذه القصيدة .

وهذا الكميت نفسه يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو له ولقومه ، فكانت بنو أسد تقول : فى كل بيت منا بركة من دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والكميت فى ساعة العنزة ، وحين أظلم عليه سجن خالد بن عبد الله القسرى يتلمس سبل النجاة ، ولا سبب أعظم من سبب الكميت ، ومن أعظم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يلتجئ إليه الكميت ؟ .

ولا بد أنه فكر وفكر حتى تراءى له الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى نومه فسأله : مم خوفك ؟ ؛ فقال : يا رسول الله من بنى أمية ، وأنشده :

ألم ترى من حب آل محمد أرواح وأغدو خائفاً أترقب ؟

فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - : اظهر فإن الله قد أمّنك فى الدنيا والآخرة .

نقول : وقد اتصلت هذه الرؤى بعد موته . فدعبل بن على الخزاعى الميمى الشيعى ينقض مذهبته . ويرد على هجائه لليمنيين ، فيرى النبى - صلى الله عليه وسلم - فيقول له : مالك وللكميت بن زيد ؟ قال : فقلت : يا رسول الله ما بينى وبينه إلا كما بين الشعراء ، فقال : لا تفعل . . أليس هو القائل :

فلا زلت فيهم حيث يتهمونني

ولا زلت في أشياعكم أتقلب ؟

فإن الله قد غفر له بهذا البيت ، قال : فأنتهيت عن الكميت^(١) بعدها .
ورؤيا دعبل تحمل في طياتها نظر الشعراء إلى الكميت .

وعلماء الأحلام يرون أن حياة النوم امتداد لحياة اليقظة ، فالإنسان يرى في نومه ما يهيمه ويشغل به ذهنه في يقظته .

فعلی ضوء هذا نستطيع أن نفسر تلك الرؤى بأنها صورة لما يعتقد الناس في الكميت من أنه بقرينه وفنائه في نصرة آل الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد صارت روحه قريبة الاتصال بروح الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

أدب الحجاج لعقيدته :

وبعد : فقد استمعنا إلى الجاحظ يقول : ما فتح للشيعة باب الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب
يقولون : لم يورث ، ولولا ترائه إذا أشركت فيه بكيلى وأرحب
والجاحظ - كما قلنا - من أعلم الناس بتطورات الحركة العقلية في الأحزاب الإسلامية . فما المدى الذى وصل إليه الكميت من أدب الاحتجاج للشيعة والدفاع عن نظريتهم في الحكم ؟ . . وإلى أى حد استطاع أن ييسط هذه القضية الشيعية ، ويسجل أصولها ؟

عرفنا أن الخلافة - وهى السيادة العامة للمسلمين - هى أساس المسائل

(١) الأغاني ج ١٨ ص ٢٩ . وانظر الجزء / ١٥ ص ١٢٤ كذلك .

التي دار حولها الجدل بين الشيعة وغيرهم . وانقسمت من أجلها كلمة الأمة ، وعرفنا أن الشيعة يرون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد نص على خلافة عليّ - رضي الله عنه - باسمه أو وصفه ، ثم عهد على بالخلافة للحسن ، والحسين . وهكذا كل إمام كان يتولى الحكم بالنص عن قبله ، فأبو بكر وعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة من صاحبها ، والخلفاء الأمويون معتدون جائرون ، والواجب على الشيعة ردّ الحق إلى أهله ، والعمل سراً وجهراً على أن يتولى العلويون سياسة الناس .

هذه خلاصة موجزة لقضية الشيعة ، فإذا كان موقف الكميت من هذه القضية ؟

نظر ، فرأى أن الخلافة حق لآل البيت ، يرثونه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لإرثهم لسائر حقوقه ؛ فهم ، فضلاً عن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد نص على خلافتهم ، أحق بسلطان الرسول .

ونظر نظرة ثانية ، فرأى أن الخلافة سيادة عامة للمسلمين ، سيادة دينية وسيادة دنيوية ، وكل واحدة من هاتين السیادتين تتطلب من صاحبها صفات خاصة ، فالسيادة الدينية لا يستحقها إلا رجل جامع للفضائل الدينية ، من علم بأحكام الله ، ووقفه في دين الله ، وزهد وتقوى ، ورعاية لأحكام الشريعة . والسيادة الدنيوية تتطلب العدل ، واجتناب الهوى ، وحسن المعاملة ، والسير في سياسة الناس سيراً يحقق سعادتهم ورشدهم .

ونظر نظرة ثالثة إلى الرئاسة العربية ، وشروط شيخ القبيلة من العزة ، والمنعة ، وشرف النجار ، والشجاعة ، والكرم . وكل ذلك قد اجتمع لعليّ وأبنائه .

هذه هي نظرات الكميت في قضية الخلافة : حق وميراث لعليّ ، ثم أبنائه من فاطمة ، ونص من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على خلافتهم

وشروط يجب تحقيقها فيمن يريد سيادة الناس ، وزعامتهم . وعلى ضوء هذه النظرات بنى أدب الاحتجاج لقضيته ، فلا يكاد يعدل عنها ، أو يزيد عليها ، بل يرددها في هاشمياته ، في أساليب شتى ، وفنون مختلفة ، يستخدم في كل ذلك علمه ، وطريقة تعليمه ، ومعرفته الواسعة بالأخبار والأنساب ، ثم ذكاءه وحيلته ، وحسن مداخلته للأمور .

والآن نسير مع الكميت في هاشمياته - مرة أخرى - لا لتلصق اللقنات الخلقية - كما فعلنا قبل - بل لنرى كيف سجل هذه النظرات السياسية .

عقيدة النص :

الكميت شاعر إمامي ، فهو يعتقد أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - نص على خلافة علي بالاسم ، وأمر الصحابة أن يبايعوه ، وعقد له البيعة يوم غدیر « خم » بقوله : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » حتى قال عمر : « طوبى لك يا علي ، أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » ، ولكن سرعان ما خالف الصحابة أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فجاروا ، واستبدوا ، وغصبوا الحق من صاحبه .

كل هذا يسجله الكميت في قصيدته :

نفى عَنْ عَيْنِكَ الْأَرْقُ الْمُجُوعَا وَهَمْ يَمْتَرِي مِنْهَا الدُّمُوعَا
لِفَقْدَانِ الْخَضَارِمِ^(١) مِنْ قَرِيشٍ وَخَيْرِ الشَّافِعِينَ مَعًا شَفِيعَا
لَدَى الرَّحْمَنِ يَصْـدَعُ بِالْمَثَانِي وَكَانَ لَهُ أَبُو حَسَنِ قَرِيعَا^(٢)

(١) الخضارم : جمع خضرم ، وهو الجواد المعطاء . والسيد الجول .

(٢) قريعا : مختارا للثني - صلى الله عليه وسلم - .

حطوطا في مسرته ، ومولى إلى مَرَضَاة خالقه سريعا^(١)

وأصفاهُ النبي على اختصار
ويوم الدوح - دوح غدِير خُم -
ولكن الرجال تبايـسـوها
فلم أبلغ بهم لعناً ولكن
فصار بذاك أقربهم لعـدل
أضاعوا أمرَ قائدهم ، فضلوا
تناسوا حقـه وبغوا عليه
بما أعيأ الرَفُوض له المذيعا
أَبَانَ له الولاية لو أطيعا
فلم أر مثلها خطراً مبيعا
أساء بذاك أولهم صنيعا
إلى جورٍ ، وأحفظهم مُضيعا
وأَقْوَمَهم لدى الحِـدْثان ريعا^(٢)
بلا تِرَرةٍ ، وكان لهم قريبا^(٣)

وهذا الأسلوب ، وإن أوصل الكمية إلى غرضه ، في غاية الخبث والالتواء ، ولكنها عقيدة الشيعة المتأصلة في نفوسهم ، والكمية واحد منهم .
وفي الآيات :

إِنَّ الرِّسُولَ - رَسُولَ اللَّهِ - قَالَ لَنَا :

إِنَّ الْإِمَامَ عَلَى غَيْرِ مَا هُجِرَا

في موقف أوقف الله الرسول به

لم يعطه قبـل—له من غيره بشرا

يعلم الكمية عن رأى الإمامية في النص ، وأنه كان بالاسم .

وهو يؤمن بدعوى الاستخلاف إيماناً يفوق كل إيمان ، فيقول في تهكم وسخر :

(١) المولى : ابن العم ، وحطوطا في مسرته : منصرفا عن ملاذ الدنيا وزخارفها .

(٢) حِـدْثان الدهر : ثوابه . وريعا : طريفاً .

(٣) قريبا : مقارعا ونظيرا .

وتستخلفُ الأمواتُ غيرَكَ كلَّهم وَنُعْتَبُ ، لو كُنَّا عَلَى الْحَقِّ نُعْتَبُ
وقد استمر الكميّة على ضوء هذه العقيدة يلقب عليّاً بالوصي ، والحسن
بوصي الوصي . . ولعلنا نلاحظ أن نظرية الوصاية كانت أوسع مدى في شعر
الكميّة منها في شعر « كثير عزة » الشاعر الكيساني ، فالكميّة قد استطاع
أن يفصل قصة غدير خم ، ومبايعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لعلي ، ثم موقف
الصحابّة من هذه الحادثة كما ترى ، ولكن كثيراً لم يزد على أن لقب عليّاً
بالوصي ، وابن الحنفية كذلك ، ثم لم نسمع له في بيعة الغدير ذكراً - ولعله ضاع -
ثم كان السيد الحميري ، فتناول قصة الغدير بنفسه الشعرى الطويل .

الكميّة ودعوى الوراثة :

والفاطميون كما يستحقون الخلافة بالنص يستحقونها كذلك بالميراث ، فهم
وراث النبي - صلى الله عليه وسلم - يرثونه في سلطانه كما يرثونه في ماله ، وليس
بصحيح ما يزعمه هؤلاء من أن النبي لا يورث ، فالنبي عبد الله ورسوله يورث
كما يورث سائر الخلق ، وليس من المعقول أن تحرم ذرية النبي - صلى الله
عليه وسلم - من حق يتمتع به سائر الناس .

فالقوم إذ منعونا « فدكاً^(١) » مخطئون . . ذلك ما يقوله الكميّة في :

(١) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة . صالح أهلها رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - على نصف مالهم وثمارها ؛ فكانت فينا لرسول صلى الله
عليه وسلم - يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى أرادت
فاطمة - رضي الله عنها - أن تستولي عليها وأبي أبو بكر - رضي الله عنه - لحديث
« نحن معاشر الأنبياء لانورث » . . فغاضبته فاطمة حتى ماتت واستمرت فدك في يد
الخلفاء الراشدين ينفذون فيها سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى أن كان معاوية
فأقطعها مروان بن الحكم فوهبها لبنيه ، حتى كان عمر بن عبد العزيز فأعادها إلى
سيرة الخلفاء الراشدين . أو ردها إلى أبناء فاطمة . ثم أخذت منهم بعده إلى أن ردها
المؤمنون لهم .

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا
وَلَا أَقُولُ - وَإِنْ لَمْ يُعْطِيا فِدْكَا بِنْتُ النَّبِيِّ وَلَا مِيرَاثَهُ - كَفَرَا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا يَأْتِيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِذْرِ إِذَا اعْتَذَرَا

وليس لهم من عذر إلا ما رواه أبو بكر - رضى الله عنه - من حديث
« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ولئن سلمنا صحته فالرواية
« صدقة » بالنصب على الحالية ، لا بالرفع على الإخبار ، وفدك لم تترك حالة
كونها صدقة حتى نحرم من ميراثها ، بل مات النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي
ملك له ، يتصرف فيها ، فهي ملك لأولاده كسائر ما ترك .

والخلافة حق من هذه الحقوق ، تورث كما يورث مال الرسول - صلى الله
عليه وسلم - ويخلفه فيها أبناؤه كما يخلفونه في ماله ، وإلا كانت شائعة في قبائل
العرب بل في سائر المسلمين ، ولما كان هناك معنى لحصرها في قريش ، ولبطل
احتجاجكم على الأنصار ، بل كانت الأنصار أحق لحسن بلائهم ، وصدق
نصرتهم . . . هذه المعاني صاغها السكيت في :

يقولون : لم يُورث ، ولولا ترائه

إِذَا شَرَكْتَ فِيهِ بِكَيْلٌ وَأَرْحَبُ

وَعَلَّكَ ، وَلَخَمٌ ، وَالسَّكُونُ ، وَحَيْرٌ

وَكِنْدَةٌ ، وَالْحَيَّانُ : بَكْرٌ ، وَتَغْلِبُ

وَلَا تَمُوتُ مِنْهَا يُجَابِرُ وَكَانَ لَعَبْدِ الْقَيْسِ عَضُو مُوَرَّرَبُ

وَلَا تَمُوتُ مِنْ خَنْدِفٍ فِي سَوَاهِمِ وَلَا اقْتَدَحَتْ قَيْسَ بِهَا ثُمَّ انْقَبَبُوا

وَلَا كَانَتْ الْأَنْصَارُ فِيهَا أَدَلَّةُ وَلَا غُيْبًا عَنْهَا ، إِذِ النَّاسُ غَيْبُ

هُمْ شَهِدُوا بَدْرًا ، وَخَيْرٌ بَعْدَهَا وَيَوْمَ حَنْينَ ، وَالْدماءُ تَصْبُبُ

وَهُمْ رَأَوْهَا غَيْرَ ظَنُّرٍ ، وَأَسْبَلُوا عَلَيْهَا بِأَطْرَافِ الْقَنَا ، وَتَحَدَّبُوا

فإذا ثبت أن ليس هؤلاء حق في الخلافة ، وفلجتم على الأنصار برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وحديث : « الأئمة من قريش » ، فأحق الناس هم خاصة قريش ، وسادتهم بنو هاشم آل الرسول — صلى الله عليه وسلم — وعترته وأحق هؤلاء على ، ثم أبناؤه من فاطمة بنت الرسول — صلى الله عليه وسلم — ووارثته ، وذلك ما أراده الكميت بقوله :

فإن هي لم تصلح لحي سواهم فإن ذوى القربى أحق وأقرب

وبهذا استطاع الكميت أن يصوغ نظرية الوراثة صياغة شعرية ، انتفع فيها بشيئين : علمه الواسع بالأنساب والأخبار ، ودراسته لأدب الحجاج الذى خلقه على ابن أبى طالب . . . ثم كان له حسن التصوير ، وجمال الصياغة ، والانتقال بالحجاج إلى الأساليب الشعرية .

وأنت ترى أن الكميت قد فتح هذا الباب للشعراء الشيعة بعده ، بيد أنه لم يترك لقائل منهم شيئاً ، ولعل ذلك هو الذى جعل الشعراء -- بعد الكميت -- يمسون نظرية الوراثة مساً خفيفاً ، حين لم يجدوا شيئاً يقولونه . . . حتى السيد الحميرى الشاعر القصصى الطويل النفس لم يستطع ، فيما وصلنا من أدبه ، أن يعمل فيها خياله .

والحق أن هذا المعنى لم يكن له إلا الكميت الشاعر العالم بالنساب ، ولو تناوله غيره لقلت حيلته ، وقصر فيه باعه .

لا بد أن تقوم الدولة على أسس من الدين :

والكميت يرى أن تقوم الدولة الإسلامية على «أسس من الدين . . على النزاهة المطلقة ، والعدل الشامل . . وهذا المثل الأعلى فى سياسة الناس لا ينهض به إلا من اجتمعت له صفاته . . ديناً ، وسياسة ، ومجداً ، وشجاعة ، وكرماً (١٨ — أدب الشيعة)

وعلمًا . . . وتلك خلال لم تجتمع إلا في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسرة الصادق الحديث أبي القا سم ، فرع القدامس القدام^(١)

فهم الأقربون من كل خير وهم الأبعدون من كل ذام
بسطوا أيدي النوال وكفوا أيدي البغي عنهم والممرام
أخذوا القصد فاستقاموا عليه حين مالت زوامل الآنام^(٢)

فضلوا الناس في الحديث حديثًا وقديمًا ، في أول القدام
لا مهادير في القدي مكائير ، ولا مصمتين بالإفهام
سادة ، ذادة عن الخرد البيض إذا اليوم صار كالأيام^(٣)
ومغاير عندهن مغاويره مساعير ، ليلة الإلجام^(٤)
لا معازيل في الحروب ثنائيل ، ولا رائمين بوايهتضام^(٥)
وهم الآخذون من ثقة الأمور بتقوَاهم عرى لا انفصام
والمصيبون والحجيبون للدعوة ، والحرزون خصل الترامى^(٦)

(١) القدامس : الملك الضخم ، والقديم ، والقدام : المتقدم والسيد .

(٢) الزوامل : الإبل التي تحمل عليها الحولة ، وفي البيت تشبيه الآنام بالزوامل .

(٣) ذادة حماة عن الأهل والخرد : جمع خريدة وهى المرأة الحسنة ، إذا اليوم :

صار يوم حرب .

(٤) مغاير : جمع مغيار الشديد الفيرة ، ومغاوير : جمع مغوار الكثير الغارات

ومساعير : جمع مسعار ، ومسعر وهو موقد نار الحرب ، وليلة الإلجام : ليلة الحرب .

(٥) البو : ولد الناقة . وجلد الحمار يحشى ثم يقرب من أم الفصيل فتدر عليه .

والاهتضام : الظلم .

(٦) الخصل : إصابة القرطاس . ويكنى بذلك عن سداد الرعى .

وَمَحِلَّوْنَ ، محرمون ، مُقَرَّرُوْ ن حُلل قراره وحرام
وهكذا أخذ الكميت يلح في وصف الهاشميين بكرم الخلال ، ويصفهم بهذه
الأخلاق العربية التي يتحلى بها أهل الفضل .

والحق أن الكميت — كما قال الفرزدق — وجد أجراً وجصاً فبنى^(١) ، فقد
كان الهاشميون كذلك . . . كانوا أقرب الناس إلى لطف الشائل ، وجميل
الخلاص . . .

إِنْ نَزَلُوا فَالْفَيْوْثُ بَاكِرَةٌ وَالْأَسَدُ - أَسَدُ الْعَرِينِ - إِنْ رَكَبُوا
لَا هُمْ مَقَارِيحُ عُنْدَ نَوْبَتِهِمْ وَلَا مُجَازِيعُ إِنْ هُمُ نَكَبُوا
هَيْنُونَ لَيِّنُونَ فِي بَيُوتِهِمْ سِنَخُ التَّقَى وَالْفَضَائِلُ الذُّجُبُ^(٢)
وَالطَّيِّبُونَ ، الْمَبْرَأُونَ مِنَ الْآفَةِ ، وَالْمُنَجَّبُونَ ، وَالذُّجُبُ
وَالسَّالِمُونَ ، الْمُطَهَّرُونَ مِنَ الْعَيْبِ ، وَرَأْسُ الرَّهْءُوسِ لَا الذَّنْبِ

خلائق الأشراف :

فالكميت كان يصف ما يرى في هؤلاء من نبل وكرم ، فكتمته هذه الصفات
من أن يبلغ بمدائحهم غاية ما بلغه المديح العربي ، وأمدته بمدد زاخر من المعاني
السامية ، فنثرها في هاشمياته .

فمدح أسرة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أصل من أصول هذه القصائد
العلوية ، لأنه أصل من أصول استحقاقهم في الخلافة . . . وهو في مدحه هؤلاء
يرينا فهمه لخلائق الأشراف ، استمع لهذه العلوية ، وسوف يعجبك وزنها المرقص
ونهجها العربي الصريح :

(١) قيل للفرزدق : أحسن الكميت في مدح هؤلاء الهاشميين . فقال كلمته
(البيان والتبيين ج ٣ ص ١٧٢) .
(٢) هينون جمع هين : ولينون : جمع لين ، والسنخ . الأصل .

طربتُ ، وهل بك من مطرب ؟ ولم تتصـاب ، ولم تلعب
صباية شوق تهيجُ الحليمَ ولا عار فيها على الأسيب
وما أنت إلا رُسومُ الديار ولو كنَّ كالحِـلِّ المذهب^(١)
ولا ظعن الحى إذ أدجـت بواكر كالإجل والرَّبْرَب^(٢)
ولست تصبُّ إلى الظاعنين إذا ما خـليـك لم يصـيب

فدع ذكرَ من لست من شأنه ولا هو من شأنك أنـصب
وهات الثناء لأهل الثناء بأصوب قولك فالأصـوب
بنى هاشم ، فهم الأكرمون بنو الباذخ الأفضـل الأطيب
وليام فاتخذ أوليـا من دون ذوى النسب الأقرب
وفى حُبِّهم فاتهم عاذلاً نهـاك ، وفى حَبْلهم فاحطـب^(٣)

أرى لهم الفضل فى السابقات ولم آمن ، ولم أحـسـب^(٤)
مساميح بيض ، كرام الجدود مـراجيح فى الرهـج الأصـهب^(٥)

-
- (١) الخلال : جمع خلة : جلدة يغشى بها جفن السيف ، والمذهب المعوه بالذهب .
(٢) الظعن : جمع طعينة : المرأة فى الهودج ، أو الهودج ، والإجل : القطيع من
القر . والررب : القطيع من الظباء .
(٣) حطب فى حبلهم : نصرهم .
(٤) أحسب : أظن .
(٥) المساح : السكرى من السباحة . والمراجيح من الناس : العلماء : والرهج :
الحرب والشغب ، والأصهب : المقبر .

مَوَاهِبُ لِلنَّفْسِ الْمُسْتَرَادِ لَأَمْثَالِهِ ، حِينَ لَا مُوَهَّبٌ^(١)
أَكْرَمُ غَرَّةَ حَسَانُ الْوَجْهِهِ مَطَاعِيمُ لِلطَّارِقِ الْأَجْنَبِ

وَرَدَتْ مِيَاهَهُمْ صَادِيًا بِحَائِمَةٍ ، وَزِدَ مُسْتَعَذِبٌ^(٢)
فَمَا حَلَّاتْنِي عِصَى السَّقَاةِ وَلَا قِيلَ : يَا أَبْعِدْ وَلَا يَا أَغْرِبْ^(٣)
وَلَكِنْ بِجَأْجَأَةِ الْأَكْرَمِينَ بِحِطِّي فِي الْأَكْرَمِ الْأَطِيبِ
لَنْ تَطَالَ شَرْبِي بِالْأَجْنَاتِ لَقَدْ طَابَ عَنْهُمْ مَشْرَبِي

أَنَاسٌ إِذَا وَرَدَتْ بِحَرَمِ صَوَادِي الْفَرَائِبِ لَمْ تَغْرِبْ
وَلَيْسَ التَّفَحُّشُ مِنْ شَأْنِهِمْ وَلَا طَيْرَةُ الْفَضْبِ الْمَغْضَبِ
وَلَا الطَّمَنُ فِي أَعْيُنِ الْمُقْبِلِينَ وَلَا فِي قَفَا الْمَدِيرِ الْمَذْنَبِ
نَجْمُ الْأُمُورِ إِذَا ادْلَمَسَتْ بِظُلْمَاءِ دِيحُورِهَا الْغَيْبِ
وَأَهْلُ الْقَدِيمِ ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ إِذَا عَقِدَتْ حَبْوَةَ الْحَتَبِ

وَشَجَوُ لِنَفْسِي لَمْ أَنْسَهُ بِمَعْتَرِكِ الْطِفِّ فَلِمَجْنَبِي^(٤)

(١) النفس : ما يتنافس فيه ويرغب ، والمستراد : المطلوب ، ولا موهب : لا واهب

(٢) الحائمة : العطشانة . وهي الصادية .

(٣) حلاء عن الماء . طرده ومنعه ، وأبعد وأغرب كلتان للزجر .

(٤) رواية الهاشميات : فالحجتي ، وما ألبتناه رواية اللسان . « والحجب » موضع

كَانَ خُدُودُهُمُ الْوَاضِحَاتِ — تَبَيَّنَ الْجَسَدُ إِلَى الْمَسْحَبِ
صَفَائِحُ بَيَضَ جِلْتِهَا الْقَيُومِ — نَمَّا تَخْتَضِرُ مِنْ يَثْرَبِ

أَوْمَلْ عَدْلًا عَسَى أَنْ أَنَا لَ مَا يَنْ شَرْقَ إِلَى مَغْرَبِ
رَفَعَتْ لَهُمْ نَاطِرَتِي خَائِفٍ عَلَى الْحَقِّ يَقْدَعُ مُسْتَرْهَبِ
هَؤُلَاءِ بَنُو هَاشِمٍ فِي نَظَرِ السَّكْمِيَّةِ ، قَدْ اجْتَمَعَتْ لَهُمْ أَسْبَابُ الْخِلَافَةِ :
النَّصْ ، وَالْمِيرَاثُ ، وَأَخْلَاقُ الزَّعَامَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَالدُّنْيَوِيَّةِ ، وَالْعَرَبِيَّةِ . فَمَنْ أَوَّلَى
بِالْخِلَافَةِ مِنْهُمْ ؟ !

بَنُو أُمِيَّةٍ وَالْخِلَافَةُ :

أَبْنُو أُمِيَّةٍ ؟ ! وَأَنْتِ أَيْضًا تَوَجَّهْتَ إِلَى الْخِلَافَةِ بِنَظَرِكَ ، فَدَرَسْتَ أَسْبَابَهَا ،
وَجَدْتَ أَنَّ لَا بَعْدَ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ بَنِي أُمِيَّةٍ وَبَيْنَ هَذَا الْأَمْرِ . فَقَدْ أَخْطَأَهُمُ النَّصْ : إِذَا
نَصَّ سَوَّلَ اللَّهُ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — عَنْ عَلِيٍّ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — ، كَمَا
أَخْطَأَهُمُ الْمِيرَاثُ ، فَأَيْنَ بَنُو أُمِيَّةٍ مِنْ مِيرَاثِ ابْنِ أَمْنَةَ ، كَمَا يَقُولُ السَّكْمِيَّةُ ؟ هُمْ
بَعِيدُونَ كُلَّ الْبَعْدِ مِنْ جَذْمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَوْ كَانُوا وَرَثَةَ النَّبِيِّ
لَفَرَضَ لَهُمْ مِنْ سَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى ، كَمَا فَرَضَ لِبَنِي عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَكَمْ تَمْنَى الْأُمَوِيُّونَ
ذَلِكَ ، وَأَلْحَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ فَأَبَى عَلَيْهِمْ ^(١) . . . فَمَنْ السَّفَهَاءُ
الْبَيْنُ أَنْ يَقُولُوا :

. وَرَثَتُهَا أَبَانَا وَأَمْنَانَا وَمَا وَرَثَتُهُمْ ذَاكَ أَمْ وَلَا أَب !!

(١) النزاع والتخاصم ص ٢٤ ، وانظر البخارى فى كتاب فرض الخمس ،
« وخير » وكتب الحديث الأخرى .

يرون لهم حقاً على الناس واجباً ، سفاهاً ، وحق الهاشميين أوجب
وأخرى أن صفات الزعامة الدينية والسياسية لم تجتمع في واحد من بني أمية ،
فشتان بين أخلاقهم وأخلاق الساسة المصلحين ، لأنهم في سياستهم :

يروضون دين الحق صعباً مخزماً	بأفواههم ، والرائض الدين أصعب
إذا شرعوا يوماً على الغي فتنة	طريقهم فيها عن الحق أنكب ^(١)
رضوا بخلاف المهتدين وفيهم	مخبة أخرى تصان وتُحجب
وإن زوّجوا أمرين جوراً ، وبدعة	أناخوا لأخرى ذات ودقين تحطب ^(٢)
ألحّوا ، ولجّوا في بعادٍ وبغضة	فقد نشبوا في حيل غي وأنشبا ^(٣)
تفرقت الدنيا بهم ، وتعرضت	لهم بالنطاف الآجنت فأشربوا ^(٤)
حنانيك رب الناس من أن يُغرّ بي	كما غرّهم شرب الحياة للنصب
إذا قيل : هذا الحق ، لا ميل دونه	فأنقضهم في الحى صرعى ولغب ^(٥)
وإن عرضت دون الضلالة حومة	أخاضوا إليها طائعين وأوثبوا

(١) الحرم من الإبل : الصعب يذلل للركوب ، والأنكب : المائل .
(٢) الودق : المطر ، وذات الودقين . الداهية ، كأنها ذات وجهين . ومن ذلك
قول طي رضى الله عنه :

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ، ما برؤ ولا ظفروا
فإن هلكت فرهن ذق لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر
قال المازني : لم يصح أنه تكلم بشيء من الشعر غير هذين ، وصوبه الزحشرى
رحمه الله تعالى « القاموس في . ودق » .

(٣) نشبوا : علقوا . وأنشبا غيرهم جمعوه معهم في جبل الضلال .
(٤) النطاف : جمع نطفة ، وهو قليل ماء يبقى في دلو أو قربة .
(٥) انقراض : جمع نقض ، وهو المهزول من السير - ناقة أو جملا - وحسرى
جمع حسير . البعير المعنى من السير .

وقد درسوا القرآن ، وافتلجوا به فكلهم راضٍ به متعزب
فمن أين ، أو أنى ، وكيف ضلّاهم هدى ، والهوى شقى بهم متشعب

نعم ، من أين لهؤلاء أن يسوسوا الناس ، وقد خاضوا ما حرم الله خوضا ،
واتهمكوا حرّمت الله انتهاكا ، يفعلون ذلك عن علم بأنه ضلال وإثم ،
ولا خسران أشد من عصيان عن علم .

وعلى هذا النمط أخذ شاعرنا يتحدث عن بنى أمية ، فيسلبهم أخلاق
الرياسة واحدة بعد أخرى ، وينحدر بهم إلى مصاف الطغاة الكفرة ، ويوازن
بينهم وبين بنى هاشم .

فبنو هاشم :

ساسة لا كمن يرتعى النّاس سواء^(١) ورعية الأنعام
لا كعبد المليك ، أو كوليّد أو سليمان بمـد أو كهشام
رأيه فيهم كراى ذوى اللـة في الثّأبـات جنح الظلام^(٢)
جز ذى الصوف ، وانتقاء لذي الخـة نـقا ودعـدا بالبهام^(٣)
من يمت لا يمت فقيد أو من يحـسى فلاذو إل ، ولاذو ذمام^(٤)

وأدب الموازنة — كما علمت — أدب عريق فى التشيع ، بل فى الأدب الحزبى

(١) اللّـة : الكثير من الضأن . وثأبـت الغنم ثوابا : صاحت .

(٢) ذى الخـة : يريد السمينة ، والنعق : الصياح ، والدعـدة : زجر البهائم ، فهم
يعاملون الرعية معاملة صاحب الضأن . همه فيها ما ينفعه . جز الصوف . وذبح السمينة .

(٣) الإل العهد ، والذمام : الذمة والحق ، يقول : من مات منهم لا يفقد ،
ومن عاش فلا عهد له ولا ذمة .

عامه ، والكميت فيه تلميذ على بن أبي طالب وصحابته ، وقد علم السكيت أثره فجعله عنصراً من عناصر الهاشميات .

هذا قوله في ميميته . فاستمع إليه في البائية يقول — بعد أن ذكر حقوق الهاشميين وتمجيد القرآن لهم — :

بجائكم غصباً تجوز أمورهم	فلم أر غصباً مثله حين يفصب
بحقكم أمست قریش تقودها	وبالفد منها والرديفين تركب ^(١)
إذا اتضعونا كارهين لبيعة	أناخوا لأخرى ، والأزيمة تجذب
ردافاً علينا لم يُسيموا رعِيّة	وههم أن يمتروها ، فيحلبوا
لينتجوها فتنة بعد فتنة	فيفصلوا أفلأها ثم يركبوا ^(٢)
أقاربنا الأدنون منكم لعلّة	وساسقنا منهم ضبايع وأذؤب
لنا قائد منهم غنيف ، وسائق	يقحمنا تلك الجرائيم مُتعب

لامية السكيت :

أما اللامية ، فصرخة عنيفة في وجه الظلم والظالمين ، وتبغيض جرى لأعمال بني أمية ، وتكشيف شائن لسياستهم ، واستبدادهم . . . هي دعوة إلى الثورة العارمة على بني أمية . . . ثورة تقتلع جذور دولتهم ، وتعفى على آثامهم ليعود الحق إلى نصابه ، أهل الرأفة والرحمة بالناس :

... . . . فيدفاً مقرر ، ويشبع مرم

(١) الفد : الفرد ، والرديفان : الأثنان أحدهما يردف الآخر .

(٢) في اللسان . وقد قال السكيت بيتاً فيه لفظ ليس بالمستفيض في كلام العرب وهو قوله ، لينتجوها فتنة . . . والمعروف لينتجوها . يقال : نتج القوم . إذا ولدت إليهم . ونتجت الناقة أنتجها ، إذا وليت نتاجها ، فأنا ناتج وهي متوجة .

وينفذ في راضٍ مقـرر بحكمه
وفي ساخطٍ مِنّا الكتابُ المعطل

وللثورة أسلحة أخرى غير الحجاج المنطقي ، وتقرير الأدلة ، فالثورة لا ينفع فيها العقل والمنطق ، إنما وقودها العاطفة المتأججة ، وإثارة الضغائن ، ومن أمثال العرب « حرك لها حوارها تمن »^(١) .

وقد علم الكميّ ذلك ، فاتخذ أسلحته من تلك الفواجع الهاشمية ، يخاطب العاطفة ، ويحرك الشعور ، في أدب حزين بالك ، يستدر الدموع . . ثم نثرها في هاشمياته ، في أفانين شتى ، مستقصيا قتلى هذا البيت الكريم ، من لدن جاء الإسلام إلى يوم الكميّ .

وأحب أن تستمع لشيء من هذه اللامية ، فسوف يعجبك من غير شك ، هذا المطلع كما أعجبنى ، وسوف ترى في هذا الاستفهام التهمكي قوة بلاغية ، قوة تصل بالكميّ إلى غرضه ، إلى بعث الحمية ، وإحياء ما عفا من نوازي الضغائن والحفاظ والحقوق ، يقول الكميّ^(٢) :

(١) الحوار ، ولد الناقة ، والكلمة من أمثال عمرو بن العاص ، قالها لما وية حين استشاره في أمر طي .

(٢) يرى صاحب الأغاني أن هذه القصيدة قيلت في رثاء زيد بن علي بن الحسين وأن خالد بن عبد الله القسري بعث بها إلى هشام حينما غضب على الكميّ (ص ١٥٤) ومعنى ذلك أنها قيلت بعد سنة ١٢٢ هـ وفيها قتل زيد بن علي . . وهذا خطأ ، فزيد بن علي قتل وطي الكوفة « يوسف بن عمر الثقفي » وقد تولاها سنة ١٢٠ هـ بعد خالد . . وأخرى أن القصيدة لم تذكر زيدا ولا مصرعه ، فلو صح أنها قيلت فيه لخلت عن أهم أغراضها ، وهو خلل شعري لا يقع فيه الكميّ . . على أن زيد ابن علي حين هم بالخروج كتب إلى الكميّ أخرج معنا يا أعيمش ، ألسن القائل :
ما أبالي إذا حفظت أبا القاسم فيكم ملامة الاوام ! =

ألا هل عم في رأيه متأمل ؟ وهل مُدبر بعد الإساءة مقبل ؟
وهل أمة مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النقمة المتزمل ؟
فقال طال هذا النوم ، واستخرج الكرى

مساويهم ، لو كان ذا الميل يعدل

وعظمت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التي نتنخل

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل

رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل

ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة مما نخاف ومعقل

أرانا على حب الحياة وطولها يُجدُّ بنا في كل يوم ونهزل

نعالج مرزقا من العيش فانياً له حارك لا يحمل العبء أجزل^(١)

فتلك أمور الناس أضحت كأنها أمور مضيع آثر النوم بهل^(٢)

فياساسة هاتوا لنا من حديثكم فقيمكم - لعمري - ذو أفانين مقول

أهل كتاب نحن فيه وأتم

على الحق نقضى بالكتاب ونعدل

فكيف ، ومن أنى ، وإذ نحن خلفة

فريقان شتى تسمنون ، ونهزل

= فكتب إليه :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة تظل بها العقبان حولى تجل

والبيت من اللامية هذه ففى إذا قد قلت فى حياة زيد ومهما يكن فلا بد أنها

قلت بعد سنة ١١٣ هـ فقد ذكر فيها « محمد الباقر » المتوفى سنة ١١٣ هـ .

(١) المرق : الضيق ، والحارك : الكاهل من البعير يكون عليه الجل .

(٢) بهل جمع باهل ، والباهل : الناقة المهمل .

ولا ظلم أظلم من أن تهزل الرعية ، وتسمن الحكام ، لذلك استمر السكيت
يوضح هذا المعنى ، فيبرز آصار الظلم ، فيقول :

برينا كبرى القُدح أوهن مثنه من القوم لا شار ولا متذبل
ولاية سلفد ألف كأنه من الرهق الخلو ط بالنوك أتوك
كان كتاب الله يعنى بأمره وبالنهى منه السكودنى المكل
ألم يتدبر أية فتدله على ترك ما يأتى أم القلب مقفل ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم فحتام حتام العناء المطوّل ! ؟
رضوا بفعل السوء من أمر دينهم فقد أيتموا طوراً عداء وأثكلوا^(١)
ثم أخذ يضرب لهم الأمثال ، ويخوفهم هوة الردى ، وقبح العاقبة ، ويشبههم
بالرهبان يبتدعون للناس :

..... ما لم يحى به كتاب ولا وحى من الله منزل
وتلك معان قرآنية لم يكن يعرفها الذهن العربى قبل القرآن .

وبيت السكيت :

تحل دماء المسلمين لدمهم ويحرم طلع النخلة المتهدل
لا تقنى عجائبه . . فالظالمون فى جميع العصور كذلك . . وهو معنى
لا يزال منتهباً بين الأدياء .

وفى اللامية يتناول حادثة « كربلاء » فيقفك أمام جيش لب ، تختلط فيه
صلصلة السيوف بهمة الخيل وتهليل الحاربيين حيث يقول :

ومن عجب لم أقضه أن خيلهم لأجوافها تحت المعجاجة أزمّل

(١) انظر ص ٢٤٤ من هذه السكتاب .

هما هم بالمستلثمين عوابس كحدثان يوم الدجن تلو وتسفل
يحملن عن ماء الفرات وظله حسينا، ولم يشهر عليهن مُنْصُل

موقف الكميت من صياغة المعاني الشيعية :

وكل هذه المعاني قد سبق بها الكميت ورددتها خطباء الشيعة ، خاصة التوابين .
كما قلنا - ولكن الشاعر استطاع بريشته ، وجمال تصويره الشعري أن يعرض
عليك صورة دامية لهذه المعركة الأثيمة ، وأن يخلع عليها ألوان فنه ، حتى حسبتها
له ، وله خاصة ، وكذلك يكون الشاعر الفنان .

ويمضي الكميت في قصيدته يغلى غليان القدر ، ويزار زئير العاصفة ويتهدد ،
ويتوعد ، ويكشف بنى أمية الجزاء فيقول :

فإن يجمع الله القلوب ونلقهم لنا عارض من غير مزن مكمل^(١)
نكيل لهم بالصاع من ذاك أصوعا ويأتيهم بالسَّجَل من ذاك أسجل
ويدعو الناس :

إلى مفرع لن ينجى الناس من عى ولا فتنة إلا إليه التحول
إلى الهاشميين البهاليل إنهم خائفنا الرجى ملاذ وموئل
وفيهم نجوم الناس ، والمهتدى بهم إذا الليل أمسى ، وهو بالناس أليل

* * *

فإنهم الناس فيما ينوبهم غيوث حيا ينفي به الحل نمجل

(١) العارض . السحاب المعترض في الأفق ، والجبال من السحاب . والزن .
السحاب أو أبيضه ، ومكمل فيه برق . أو كشاف مخيم . والمراد عارض ليس من نوع
السحاب المطر ولكنه جيش كشاف كالسحاب .

ولأنهم للناس فيما ينوبهم أ كف ندى تجدى عليهم وتفضل
ولأنهم للناس فيما ينوبهم عُرا ثقة حيث استقلوا وحلّوا
ولأنهم للناس فيما ينوبهم مصاييح تهدي من ضلال ومنزل
لأهل العمى فيهم شفاء من العمى مع النصيح ، لو أن النصيحة تقبل

والكميت كان لا بد له من هذه الموازنة بعدما قدم من تكشيف لسياسة
بنى أمية ، ليضع البيتين ، « الهاشمي والأموي » ، كفتى ميزان أمام أعين الناس .
زهو الكميت :

ولقد أحس الكميت بما في هذه القصيدة ، بل بما في هاشمياته عامة ، من قوة
وخطر ، وأدرك قيمتها في نصره الشيعة ، فإذا إعجابه بها يخرجها إلى الفخر والزهو ،
وإذا هو يحدثنا بأفصح بيان عن اطمئنانه لقوته الشعرية ، فيضع نفسه مع زهير
وامرئ القيس ، والخطيئة ، في أيام كان فيها أولئك الشعراء قادة الشعر وأئمة
البيان ، فيقول :

فدوفكموها آل أحد إنها مقلّة لم يأت منها المقلّل
مهذبة غراء في غيب قوها غداة غد تفسير ما قال تجمل
أنتكم على هول الجنان ولم تطع لنا ناهياً ممن يئن ويرحل^(١)
وما ضرها أن كان في الثّرب ثاوياً
زهير ، وأودى ذو القروح وجرول

هذه هي هاشميات الكميت . أو نقول : هذا هو الكميت نفسه ، فقد

(١) الهول : الخافة من الأمر لا يدري ما هجم عليه منه . والجنان . القلب ؛ يريد :
أنه يقول هذه الهاشميات في خوف ووجل .

اتخذ الشاعر هذه القصائد سجلاً لخالدها لعقيدته ، وثبتاً صادقاً للقضية الشيعية . على أن الكهيت لم يشغلنا طويلاً بنفسه ، يحدثنا عنها ، ولا يفنه ، يفخر به . وإنما فنى في التفكير العقلى في مصير الأمة الإسلامية ، وساق ذلك بمنطق الشاعر الجاهلى الفحل ، الذى هذب الإسلام عقله ونوازع نفسه . . فهو جاهلى فى بيانه وأسلوبه ، إسلامى فى أغراضه وخياله وتفكيره .

الهاشميات :

نقول : والهاشميات ست قصائد ، بلغ مجموعها ثلاثة وستين وأربعائة بيت .

الأولى « حسب الطبع » :

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

والثانية :

طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً منى ، وذو الشيب يلعب

والثالثة :

أنى ، ومن أين آيك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب

والرابعة :

ألا هل عم فى رأيه متأمل ؟ وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

والخامسة :

طربت ، وهل بك من مطرب ولم تنصاب ، ولم تلمب ؟

والسادسة :

نفى عن عيفك الأرق الهجوعا وم يمتري منها الدموعا
غير قطع أخرى صغيرة .

وقد أودعها الشاعر عقائده الشيعة - كما قلنا - فحدثنا عن عقيدة الإمامية في
النص على عليٍّ بالاسم ، وعن نظرية الوراثة ، واستجماع الهاشميين لأخلاق الزعامة .

وقد رأينا كيف كان الشاعر يعبر عن هذه العقائد ، ويحتج لها احتجاجاً
ينبثق عن عاطفة صادقة ، وشعور قوى ، وإحساس مرهف ، فتظاهر على الهاشميات
عقل وعاطفة ، كما اجتمع لها ثقافة عربية واسعة ، وقدرة شعرية رائعة ...
فاستحقت ما نالت من شهادات وخلود .

وقد طبعت الهاشميات وشرحت عدة شروح - وهي لا تزال في حاجة إلى
جهد - وعنى بها المستشرقون قبل أن يعنى بها رجال الأدب العربي ، فنقلوها إلى
لغاتهم ، وكتبوا عنها المقدمات الإضافية .

محنة السكيت :

وبعد ففي النزاريات والهاشميات صاغ السكيت جل شعره ، فاحتج في الأولى
لخدمه وعشيرته ، واحتج في الثانية لرأيه وعقيدته ، واستخدم في كل ذلك علمه
الواسع ، وعقله النافذ ، وأدبه الغزير ، وإحاطته الشاملة بأشعار العرب وأخبارها ،
وأيامها ولغاتها ، بجانب ثقافته الإسلامية ، ودراسته لدين الله .

وبالنزاريات والهاشميات امتحن السكيت محنة تقبعت أثره حتى قفلته ، بعد أن
بعد أن فتعت للناس باب الشك في عقيدته الشيعة .

فقد لجج الهجاء بين شعراء مضر واليمن ، واشتد كلب حكيم بن عياش الكلبي
على مضر ، والهاشميين خاصة ... كل ذلك والسكيت ينظر إلى الفريقين
نظراً هادئاً نظر الناقد البصير ، لا تطنى عليه عصبية أن يقول قوله الحق ، فكان
إذا اجتمع مع شعراء مصر يقول : هو والله أشعر منكم ، فيقولون : أجب الرجل ،

فيأبى لإحسان خالد بن عبد الله القسرى وإلى العراق من قبل هشام بن عبد الملك ، وكان خالد يميناً شديداً البر بالكميت والشيعة جميعاً .

ولكن المضربين لا يزالون ينشدونه شعر الكلبي حتى حى الكميت لبنات عمه وبنات خاله ، فتصدى للدفاع عنهم في مذهبه - كما قلنا - قالوا : فلما قال الكميت مذهبه ، وبلغ خالد أخبرها ، قال : لا أبالي ما لم يحرق لعشيرتي ذكر ، فأنشدوه حتى غضب لنفسه وقومه . فقال : فعلها !؟ والله لأقتلنه . ثم اشترى جارية - أو ثلاثين جارية - تخيرهن نهاية في الحسن والكمال والأدب ، ورواهن الهاشميات . ثم دسهن مع نخاس إلى هشام ، فاشتراهن فلما أنس بهن واستنشدن أنشدنه الهاشميات ، فقال : ويلكن ، من قاتل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدي ، قال : وفي أي البلاد هو ؟ قلن : بالعراق ثم بالكوفة ، فكتب إلى خالد : ابعث إلى برأس الكميت بن زيد ، فقبض عليه خالد وسجنه ، حتى ينفذ فيه أمر هشام ، وفي الغد قرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين ، واعتذر إليهم في قتله ، وكان بين الكميت وبين « أبان بن الوليد البجلي » - عامل واسط - صداقة . فأنذر الكميت بما دبر له ، وأمره : أن ابعث إلى حبي - زوج الكميت . وكانت تشيع - فأقمها مكانك ، ثم تنقب نقابها ، والبس ثيابها ، واخرج ، فإني أرجو ألا يؤبه لك ، ففعل الكميت ثم اختفى ، حتى خف طلب الأمير ، فخرج إلى هشام ، فاستجار بمسلة بن عبد الملك ، ثم بمسلة بن هشام ، فأجاره ، وبلغ أمير المؤمنين ، فقال : أتجبر على أمير المؤمنين بغير إذن !؟ فقال : كلا ، ولكنني انتظرت سكون غضبه ، قال : أحضرني الساعة . فإنه لا جوار لك . فقال مسلة للكميت : يا أبا المستهل ، إن أمير المؤمنين أمرني بإحضارك ، قال : أتسلمني يا أبا شاكر ؟ قال : كلا ولكنني أحتال لك . . « إن معاوية بن هشام مات قريباً ، وقد جزع عليه جزعاً شديداً ، فإذا كان من الليل فاضرب رواقك على قبره ، وأنا أبعث إليك بنيه يكونون معك في الرواق ، فإذا عابك

(١٩ - أدب الشيعة)

تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ، ويقولوا : هذا استجار بقبر أبينا ، ونحن أحق من أجاره

الكميت في مجلس هشام بن عبد الملك :

وأصبح هشام - على عادته - متطاعماً من قصره إلى القبر ، فقال ، من هذا ؟ فقالوا : لعله مستجير بالقبر ، فقال يجار من كان إلا الكميت ، فإنه لا جوار له ، قيل : فإنه الكميت ، قال : يحضر أعنف إحضار . فربط الصبيان ثيابهم بثيابه ، فلما رآهم هشام اغرورقت عيناه ، واستعظم ، وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا ، وقد مات ، ومات حظه من الدنيا ، فاجعله هبة له ولنا ، ولا تفضحنا فيمينا استجار به ، فبكى هشام حتى انتحب ، ثم أقبل على الكميت ، فقال : يا كميت أنت القائل :

وإلا تقولوا غيرها تعرفوا نواصيها تردى بنا وهي شذب

فقال : لا والله ، ولا أتان من أتى الحجاز وحشية . . . ثم حمد الله ، وصلى على نبيه ، ثم قال : أما بعد ، فاني كنت أتدهدى في غمرة . وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطلها ، واستنفرتني وهلمها ، فتجريت في الضلالة ، وتسكمت في الجهالة ، مهرعاً عن الحق ، حائداً عن القصد ، أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائد ، مبصر الهدى ، ورافض العماية ، فاغسل عني يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم :

كم قال قائلكم : لما لك ، عند عثرته لعائر
وغفرتم لذوى الذنوب من الأكابر والأصاغر
أبني أمية إنكم أهل الوسائل والأوامر
تقتى بكل ملّة وعشيرتي دون العشائر
أنتم معادن للخلافة كابر من بعد كابر

بالتسمة المتتابة بين خلافاً وبخير عاشر

وإلى القيامة لا ترا ل شافع منكم وواتر

إغضاء أمير المؤمنين ، وسماحته ، وصباحته ، ومناط المنتجمين ، من لا تحل
حبوته لإساءة المذنبين ، فضلاً عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين .

فقال هشام : وبيك يا كميث ، ومن زين لك الغواية ، ودلاك في العاية ؟ .

قال : الذي أخرج أبانا من الجنة ، وأنساه العهد ، فلم يجد له عزماً .

فقال : إيه ، أنت القاتل :

فيا موقدا ناراً لغيرك ضوءها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

فقال : بل أنا القاتل :

إلى آل بيت أبي مالك مناخ هو الأرحب الأسهل

نمت بأرحامنا الداخلا ت من حيث لا ينكر المدخل

وجدنا قريشاً ، قريش البطاح على ما بنى الأول الأول

بهم صلح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق مارعبلوا^(١)

فقال هشام ، فأنت القاتل :

لا كعبد للمليك أو كوليده أو سليمان بعد أو كهشام

من يمت لا يمت ققيداً ومن يمي فلا ذوال ولا ذو ذمام

ووبيك يا كميث ! ! . . . جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة ! .

فقال : بل أنا القاتل - يا أمير المؤمنين :

(١) حاص الثوب : خاطه ، ورعبله مزقه .

فالآن صرت إلى أمية — والامور إلى المصائر
والآن صرت بها المصير ب لمهتد بالأمس حائر
يا بن العقائل للعقا — تل ، والجماجة الأخائر^(١)
من عبد شمس ، والأكا — بر من أمية ، فالأكا بر
إن الخلافة والإلا — ف برغم ذى حسد وواعر^(٢)
دلفا من الشرف القلي — د إليك بالرغد الموفر
فللت معتلج البطا — ح . وحل غيرك بالظواهر^(٣)

فقال له : أنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجميعا
بمضى السياسة هاشمي — يكون حيا لأمته ربيعا

فقال : لا تترب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولي الكاذب .
قال : بماذا ؟ قال : بقولي الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقبا ، ووجها نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ر ، فأمسى له رقبيا نظيرا^(٤)

(١) الجمعاج : السيد الكريم ، والعقيلة : المخدرة .

(٢) الإلاف : العهد ، والواغر : الحاقد .

(٣) اعتلجت الأرض : طال نبتها ، والأبطح : مسيل الماء .

(٤) عائشة أم هشام بن عبد الملك ، وهى بنت اسماعيل بن هشام الخزومي (العقد

الفريد ج ٣ ص ١٥٧) وعائشة أم عبد الملك بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص

(الطبري ، وابن الأثير ، وتاريخ الإسلام السياسي) .

وكساه أبو الخلائف مروا ن سنى المسكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ، ولكن وجدتها له معاناً ودورا

وكان هشام متكثاً ، فاستوى جالساً ؛ وقال : هكذا فليكن الشعر . . .
لقد رضيت عنك يا كميث ، فقبل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد
في تشريفي ، ولا تجعل لخالد على إمارة ، قال : قد فعلت ، وكتب له بذلك ،
وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية ، وكتب إلى خالد أن يخلى
سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً ، وثلاثين ثوباً ، ففعل .

ثم استأذن الكميث في رثاء معاوية ، فأذن له ، فأنشده :
سأبكيك للدين وللدنيا وللدن ، إننى رأيت يد المعروف بعدك شلت
فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام ، وصلت
ثم رحل مزوداً بعطايا هشام وبنى أمية .

هذه رواية أبي الفرج في شأن الكميث وهشام ، ولعلك ممى في أن هذا
الموقف يعتبر اختباراً مرأً لشاعرية الكميث ، وقدرته على الارتجال وحسن
التخلص ، ومبلغ الظن أن الكميث قد أعد لهذا الموقف عدته .

فأبياته . . . إلى آل بيت أبي مالك . . .

و . . . أورثته الحصان أم هشام . . .

فيها قوة تفوق أدب المرتجل حتى عدها النقاد من جيد شعره .

ولقد ضاعت خطبة الكميث كما ضاعت قصيدته :

. . . قف بالديار وقوف زائر . . .

حتى لم يحفظ منهما الرواة إلا ما ذكرنا .. وقد سئل الكميت فقال : ما أحفظ منها شيئاً ، إنما هو كلام ارتجلمته .

على أن صاحب العقد قد استطاع أن ينقل إلينا رواية لهذه الخطبة ، وأنا أقلها لأنها تمثل الكميت خطيباً ، ولأن المصادر العربية لم تستطع أن تحفظ لهذا الرجل موقفاً آخر من مواقفه الخطابية ، مع أنه شاعر خطيب في نظر الرواة والمؤرخين ، وما كان للجاحظ أن يعده من الخطباء الشعراء إلا وقد قرأ له فيما قرأ مواقف خطابية أهلتة لهذا الحكم .

يقول صاحب العقد :

« كان الكميت بن زيد يمدح بنى هاشم ويعرض ببني أمية ، فطلبه هشام ، فهرب منه عشرين سنة ، لا يستقر به القرار من خوف هشام ، وكان مسامة بن عبد الملك له على هشام حاجة في كل يوم يقضيها له ولا يرده فيها ، فلما خرج مسامة إلى بعض صيوده ، أتى الناس يسامون عليه ، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى فقال : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قف بالديار وقوف زائر وتأن إنك غير صاغر

حتى انتهى إلى قوله :

يا مسلم بن أبي الوليد لميت إن شئت ناشر
علقت حبالي من حبالك ، ذمة الجار الجاور
فالآن صرت إلى أمية ، والأمور إلى المصاير
والآن كنت به المصيب كمعتد بالأمس حائر

فقال مسامة : سبحان الله ! من هذا الهندكي الجملح^(١) الذي أقبل من أخريات

(١) الهندكي : الرجل من أهل الهند ، والجملح : الشيخ الكبير .

الناس ، فبدأ بالسلام ، ثم أما بعد ، ثم الشعر ؟ ! . . . قيل له : هذا الكُميت ابن زيد ، فأعجب به لفصاحته وبلاغته .

فسأله مسلمة عن خبره ، وما كان فيه من طول غيبته ، فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه ، فضمن له مسلمة أمانه ، وتوجه به حتى أدخله على هشام ، وهشام لا يعرفه ، فقال الكُميت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . . الحمد لله . . فقال هشام : نعم الحمد لله ، ما هذا ؟

قال الكُميت : مبتدئ الحمد ومبتدعه ، الذى خص بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، وجعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكره ، وكلام أهل جنته ، أحده حمد من علم يقيناً ، وأبصر مستبيناً ، وأشهد له بما شهد به لنفسه ، قائماً بالقسط ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده العربى ، ورسوله الأُمى ، أرسله والناس فى هبوات^(١) حيرة ، ومدهمات ظلمة ، عند استمرار أبهة الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأُمته ، وجاهد فى سبيله ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين — صلى الله عليه وسلم — .

ثم إني — يا أمير المؤمنين — تهت فى حيرة ، وحرث فى سكرة ، ادلأ^(٢) بى خطرها ، وأهاب بى داعيها ، وأجابنى غاويها ، فاقطوطيتُ^(٣) إلى الضلالة ، وتسكمت فى الظلمة والجهالة ، حائداً عن الحق ، قائلاً بنفـير

(١) هبوات : جمع هبوة وهى الغبرة . والهباء : الغبار ، أو يشبه الدخان ، يريد أرسله الله تعالى والناس فى حيرة قد عميت ، سالكها ، وقد وردت فى بعض النسخ « هفوات » .

(٢) ادلأ بى خطرها : وقع وألم .

(٣) اقطوطى : قارب فى مشيه مع نشاط .

صدق . . . فهذا مقام العائذ بك ، ومنطقُ الثائب ، ومبصرُ الهدى ،
بعد طول العمى . . . ثم — يا أمير المؤمنين — كم من عاثر أقلتُم عثرته ، ومجتَرم
عفوتُم عن جرمه !!

فقال له هشام — وأيقن أنه السكيت — : ويحك !! من سن لك الغواية،
وأهاب بك في العاية ؟!

قال : الذي أخرج أبي آدم من الجنة ، فنتى ولم يجد له عزماً ، وأمير المؤمنين
كريح رحمة أثارت سحاباً متفرقاً ، فلفقت بعضه إلى بمض حتى التحم ، فاستحکم
هدر رعد ، وتلاؤ برقه ، فنزل الأرض فرويت ، واخضلت ، واخضرت ،
وأسقيت ، فروى ظمآنُها ، وامتلاً عطشانُها ، فكذلك نعدك أنت يا أمير المؤمنين
أضياء الله بك الظلمة الداجية بعد العُموس^(١) فيها ، وحقق بك دماء قوم أشعر
خوفك قلوبهم ، فهم يبيكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك ، وقد علموا أنك
الحرب وابن الحرب ، إذا احمرت الحدق ، وعضت المغافر بالهام .

عز بأسك ، واستربط جأشك ، مسعار هتان ، وكاف بصير بالأعداء ، مغرى
الخليل بالسكرار ، مستغن برأيه عن رأى ذوى الأبواب ، برأى أريب ، وحلم
مصيب . . . فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وتمم عليه النماء ، ودفع به
الأعداء .

فرضى عنه هشام وأمر له بجائزة^(٢) .

وهكذا استطاع ابن عبد ربه أن ينقل إلينا نصاً كاملاً لخطبة السكيت ،
وقد أغفل سند هذه الخطبة ، فلم يبق أمامنا إلا مقنها ننظر فيه ، ثم نحكم على

(١) العُموس : الشدة والتعسف .

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ٢٥٠ .

ضوئه بصدق الرواية أو كذبها ، وليس في متن الخطبة ما نستكثره على الكميت ، ذلك الشاعر الفحل ، والرواية الذي امتلأ بأساليب الجاهلية وألفاظها ، بل الكلمة في ذاتها بالنسبة للكميت ، وثقافته وتناجه الأدبي من الأدب الخفيف ، فيها روح الارتجال وعجلته .

على أن رواية ابن عبد ربه لم تخرج في روحها ، وكثير من أساليبها عن رواية الأغاني . . من أجل ذلك تطمئن نفوسنا إلى تصديق صاحب العقد .

مدحه مسلمة بن عبد الملك :

والقصيدة : * قف بالديار وقوف زائر *

يرويه ابن عبد ربه في مسلمة بن عبد الملك ، وقد يقويها هذه الأبيات التي رواها الجاحظ في باب الخصرة . قال : وقال الكميت :

ونزور مسلمة المذهب (م) بالـؤيدة السرائر
بالمذهبات المعجبات لفهم منا وشاعر
أهل التجارب والخاصة فل ، والمقاول ، والخاصر
فهم كذلك في الجا لس ، والخاصل ، والمشار^(١)

ومهما يكن من شيء فقد نال الشاعر عفو هشام بن عبد الملك ، وعاد مزوداً بشيئين : صلات أموية جمّة ، وأمان من سطوة الأمير اليميني ، خالد بن عبد الله القسري ، ذلك الأمان الذي استخدمه في النكابة بالأمهر ، والسخر من عشيرته ، وإفساد ما بينه وبين الخليفة .

المدائح الأموية :

واتصلت أسباب الكمية بقصر الخلافة ، فكان يفد على هشام ، ثم الوليد ابن يزيد بن عبد الملك يمدحهما ، ويأخذ جوائزهما ، وينال من أمراء البيت الأموي - خاصة مسلمة بن عبد الملك - كثيراً من العطف والتقدير لشاعريته ، ولقد قدر للأدب أن يستفيد من هذه الصلة الأموية ، بما خلفه الكمية من أدب المديح لهؤلاء ، استمع إليه يقول في مسلمة بن الملك :

فما غاب عن حلم ، ولا شهد الخفا ولا استعذب العوراء يوماً ، فقالها
يدوم على خير الخلال ، ويتقى تصرمها من شيمة ، وانتقالها
وتفضل أيمان الرجال شماله كما فضلت يميني يديه شمالها
وما أجم المعروف من طول كره وأمرأ بأفعال الندى ، وافتعالها
ويبتذل النفس المصونة نفسه إذا مارأى حقاً عليه ابتذالها
بلوناك في أهل الندى ففضلتهم وباعك في الأبواع قدماً فطالها
فأنت الندى فيما ينوبك والسدى إذا الخود عدت عقبة القدر مالها

وعلى هذا النمط العربي المشرق كانت مدائح الكمية ، فهي من آيات الإبداع في المدائح العربية . . . يقول في محمد بن يزيد بن المهلب :

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته عن ذاك في أشغال
قعدت بهم هاتهم ، وسمت به هم الملوك ، وسورة الأبطال
فكأنما عاش المهلب بينهم بأغر قاس مثاله بمثال
في كفه قصبات كل مقلد يوم الرهان ، وقوت كل نصال^(١)

(١) المقلد من الخيل : السابق ، وقوت كل نصال : يريد حفظ كل نصال
(الأغاني ج ١٥ ص ١٢٨) .

ولعلك تذكر مديحة لخالد بن عبد الله القسرى وغيره ، ولقد سئل الكميث عن مصدر هذا الإحسان ، فجعله خاصة من خواص نفسه حيث قال : إني إذا قلت أحببت أن أحسن .

على أنه إن صح أن الشعر دليل على وجدان الشاعر ، فسبق من شواهد شعره أن شعره في الهاشميات أقوى من شعره في بنى أمية . . . فليست أشعاره في الأمويين إلا قصائد مديح لها نظائرها في اللغة العربية ، أما قصائده في بنى هاشم فأعز من أن يكون لها مثيل ، فالهاشميات - من غير شك - أروع قصائده أسلوباً ، وأقواها عاطفة ، وأسمائها معاني وأغراضاً ، قد تجلى فيها سحر البيان وقوة الإيمان .

أثر المدائح الأموية في الجو الشيعي :

ولقد كان لهذا الاتصال الأموي أثره في الجماهير الشيعية ، فاستخدمه كثير من خصوم الكميث في الطعن في عقيدته ، ولا طعن على الرجل ، فإنها محنة ، وهو مؤمن بالتقية والمداراة حفاظاً على حياته .

دخل المستهل بن الكميث على أبي مسلم الخراساني - صاحب الدعوة العباسية - فقال له أبو مسلم : أبوك الذي كفر بعد إسلامه ؟ ! فقال المستهل : وكيف وهو الذي يقول :

بخاتمكم غضباً تجوز أموركم فلم أر غضباً مثله حين يفضب؟

قال : فاطرق أبو مسلم مستحيماً^(١) .

والمستهل - في هذا الجواب - عرف كيف يفحم الرجل . . . فليس

موقف العباسيين من العلويين بأقل من موقف الأمويين من العلويين .
ودخل المستهل على عبد الصمد بن علي ، فقال له : من أنت ؟ فأخبره ، فقال :
لا حياك الله ، ولا حيا أباك . . . أليس هو القائل :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر ؟

قال . فأطرقت مستحيماً مما قال ، وعرفت البيت . . . فقال : ارفع رأسك
يا بني ، فلئن كان هذا فلقد قال :

بجائكم غصباً تجوز أموركم فلم أر غصباً مثله حين يغصب

فسلى عنى بعض الشيء ما كان بي ، وحادثني ساعة ثم قال : ما يعجبك من
النساء ؟ ! قلت :

بيضاء تسحب من قيام فرعها جثلا يزينه سواد أسحم
فكانها فيه نهار مشرق وكأنه ليل عليها مظلم^(١)

فقال : يا بني ، هذه لا تصاب إلا في الفردوس ، وأمر له بجائزة .

وقد عرفت اعتذار الكميت عن هذه الصلة الأموية ، وأنه شاعر شيعي يدين
بالتقية ، ويحتج لها ، فلا عليه أن يمدح هؤلاء ما دام قد أحس بالخطر يتهدد حياته
وما دام قد أغلق قلبه على حب الهاشميين . . .

ولا بد لنا أن نذكر استئذان الرجل في مديح هؤلاء ، واعترافه بأنه مدحهم

(١) هذه الأبيات نسبها أبو علي القالي ، والشريف المرتضى ، والحصري ، وأبو
تمام ، وابن قتيبة في عيون الأخبار لبكر بن النطاح المتوفى سنة ٢٤٠ .

ونسبت في معجم البلدان إلى الحسين بن مطير ، وهو شاعر أموي أدرك الدولة
العباسية . . . كما نسبت للمستهل بن الكميت نفسه في الأغاني ، ونسبها آخرون لأبي
حية النخري .

للدنيا ، ليضمن لنفسه حياة مستقرة ، ينفقها في خدمة القضية الشيعية ، وإذاعة
محامد العلويين .

أخلاق الكهيت وإخوانياته :

وبعد ، فقد كان الكهيت مر العداوة ، وكذلك كان عذب المودة . . .
كانت حياته موزعة بين طائفة من الميول والأهواء ، فهو من الوجهة النفسية
رجل يعرف حقوق الإخوان ، فيصطفى من يصطفى على أساس من التفكير
العقل لا الوجداني ، فلا يحكم عصبية ولا أهواءه إلا حيث يجب أن تحكم هذه
العصبية ، وتلك الأهواء .

الكهيت الصديق :

فقد ذكروا أنه كان صديقاً « للطَّرمَّاح بن حكيم » بينهما خلطة ، ومودة ،
وصفاء ، لم يكن بين اثنين على تفاوتهما في المذهب والعصبية . . . فالطَّرمَّاح
خارجي ، صفرى ، قحطاني ، يتعصب للقحطانيين ، وينتصر لأهل الشام على
أهل العراق . . . والكهيت — كما علمنا — شيعي ، عدناني ، يتعصب لمضر ،
وينتصر لأهل الكوفة .

وقد سئل الكهيت : فيم اتفقتما هذا الاتفاق مع اختلاف سائر الأهواء فقال :
اتفقنا على بغض العامة^(١) .

ومعنى هذا أن قرابة العقل قد جمعت بين الرجلين ، وفي المثل اللاتيني : « كل
الشعراء أرسقراطيون »^(٢) .

(١) الأغاني ج ١٤ ص ١١٣ . والشعر والشعراء ، والبيان والتبيين ج ١ ص ٤٧

(٢) تاريخ الأدب العربي للأستاذ الزيات .

وفى عيون الأخبار لابن قتيبة أبيات تمثل مذهب الكميت فى الإخاء ومعاشرة
من يصطفىهم لمودته ، يقول فيها :

فما أنا بالنفكس الدنى ولا الذى إذا صد عنه ذو المودة يقرب
ولكنه إن دام دمت ، وإن يكن له مذهب عنى ، فلى عنه مذهب
ألا إن خير الود ود تطوعت به النفس لا ود آتى وهو متعب
فهو يعاشر من يصطفى على أساس قوى من عزة النفس ، وجيل الوداد ،
عشرة لا تفحش فيها ولا ضرار ، فإذا أحس من صديقه ملالة الدنو كان معه
كما يقول :

وقد يخذل المولى دعائى ، ويحتدى أذاتى ، وإن يعدل به الضيم أغضب
فأنس من بعض الصديق ملالة الدنو ، فأستبقهم بالتجنب^(١)
الكميت الوفى :

وهو وفى لمن يعرفه وفاء لا يعدله وفاء ، يعرف كيف يشكر من أحسن إليه ،
كان بين الكميت وبين أبان بن الوليد البجلي ما بين الشاعر والأمير . يمدحه
فيعزل عطاءه ، حتى توطدت بينهما علائق الود والحب ، وحتى كان لهذا أثره
عند محنة الكميت — كما قلنا — ، ثم تعرضت حياة أبان لما كانت تتعرض له
حياة الولاة عادة من تبدل ونكبات ، فعزل عن واسط ، وسجن ، وأطلقت يد
الوالى الجديد « الحكم بن الصلت الثقفى » فيه ، وأقل الكميت يمدح الحكم بن
هشام بقصيدته :

* طربت ، وهاجك الشوق الحثيث *

فلما فرغ منها ، دعا الحكم بخازنه ليعطيه الجائزة . . . ثم دعا أبان بن الوليد

(١) عيون الأخبار (باب شرار الإخوان) .

فأدخل عليه مكبلاً بالحديد ، فطالبه بما عليه من الأموال . . . قالوا : فالتفت الكميت فرآه ، فدمعت عيناه ، ثم أقبل على الحكم فقال : اجعل جائزتي لأبان ، وكان « حوشب بن يزيد الشيباني » في المجلس ، فساءه أن يشفع الكميت لأبان فقال : أصلح الله الأمير ، أتشفع جمار بنى أسد في عيد بجيلة ؟ فقال الكميت : لئن قلت ذاك ، فوالله ما فررنا عن آبائنا حتى قتلوا ، ولا نكفنا حلائل آبائنا بعد أن ماتوا . .

يشير الكميت إلى ما اتهم به حوشب من فراره عن أبيه في بعض الحروب حتى قتل ، ونجا حوشب^(١) فعيده بعض الشعراء بقوله :

نجى حشاشته ، وأسلم شيخه لما رأى وقع الأسنة حوشب^(٢)

وقد علم قوم « أبان » أثر مدائح الكميت في تسجيل مفاخرهم ، فاتصلت أعطياتهم له ، ثم لأبنائه من بعده :

في الأغاني : « التقت « ريا » بنت الكميت ، و « فاطمة » بنت أبان ابن الوليد ، بمكة وهما حاجتان ، فتساءلتا حتى تعارفتا ، فدفعت بنت أبان إلى بنت الكميت خلخالى ذهب كانا عليها ، فقالت بنت الكميت : جزاكم الله خيراً يا آل أبان ، فما تتركون بركم بنا قديماً ولا حديثاً ، فقالت بنت أيان : بل أتم جزاكم الله خيراً ، فإننا أعطيناكم ما يببى ويفنى ، وأعطيناهمونا من الجدد والشرف ما يبقى أبداً ، ولا يببى ، يتناشده الناس في المحافل ، فيحيى ميت الذكر ، ويرفع بقية العقب^(٣) .

(١) اقرأ هذه الحادثة في الكامل للمبرد « ج ٨ ص ٤٤ من رغبة الأمل »

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١٢٩ .

(٣) الأغاني ج ١٥ ص ١٣٠ .

حكمة الكميت :

وقد كان من شأن هذه الحياة التي عاشها الكميت أن تخلق من صاحبها رجلاً مجرباً ، قد مارس الدهر ، وحلب أشطره ، مسدد النظر ، صادق الفراسة ، فلاغرو أن رأينا للكميت لفتات مشرقة من الأدب الحكيم ، تصور عقل الكميت وقد أنضجته الحوادث وجدت في ثقافته الأيام .

استمع إليه يقول في ملحمة التي عاتب فيها قريشاً ، فإذا أنت أمام حكمة قد انتزعت من الحياة انتزاعاً ، فهي نتيجة التجربة الممتدة :

ألا لا أرى الأيام يقضى عجيبها لطول ، ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا غير الأيام يعرف بعضها ببعض من الأقوام إلا ليديها
ولم أر قول المرء إلا كنبله به ، وله ، محرومها ، ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وأجهل جهل القوم ما في عدوهم وأقبح أخلاق الرجال غريبها
ولم أر باب الشر سهلاً لأهله ولا طرق المعروف وعثاً كثيبها
وأكثر مآتى المرء من مطمئة

وأكثر أسباب الرجال ضروبها
ولم أجد العبدان أقذاء أعين ،
ولكنما أقذاؤها ما ينوبها

وهكذا يمضى الكميت بن زيد . . . وبمثل هذا الأسلوب ، يتحدث عن قريش ، ومعاملتها له مع إحسانه إليها ، فيبلغ ما أراد ، في أدب العاتب المتزن .

ضياح شعره :

والكميت شعر كثير عدت عليه الأيام ، فلم تحفظ لنا إلا هاشمياته وبعض مقطعات أخرى قليلة لا يبلغ مجموعها خمسمائة بيت من أكثر من خمسة آلاف كما قلنا .

كما حفظ لنا ابن قتيبة في ديوانه الكبير أبياتاً متفرقة قد تبلغ الألف استدلل بها على ما تناوله من موضوعات الوصف المختلفة تدل على وفرة شعر الكميت ، وغزارة علمه باللغة والأدب .

فزارياته التي عارض بها الكلبي وشعراء الين ، ومدحه للخلفاء والولاة وإخوانياته ، ولا بد أنها كثيرة جداً كثرة تجاربه وما لاقاه ، كل ذلك ضاع ، مع ما ضاع من تراث الأدب العربي .

وقد ذكر السيوطي^(١) ، فيما قرأ من دواوين الأدب ، شرح السبع العاليات للكميت ، وعبثاً حاولنا الحصول عليها أو الوقوف على موضوعها ، ولعلمها الزاريات ولعلمها غيرها ، ولمل الزمن يجود بإظهارها للناس ، وكشف الستار عنها .

والذي لا شك فيه أن لو وصلنا أدب الكميت كله لرأينا ديواناً ضخماً يسجل أنساب العرب وأيامها ، ومفاخر القبائل ومثالبها ، بجانب ما تناوله الكميت من أغراض خلقية سامية . . . ديواناً ينفع المؤرخ والأديب معاً .

قتل الكميت :

ولقد صدق الكميت حيث يقول :

ولم أر قول المرء إلا كنبله به ، وله محرومها ، ومصيبها

(١) شرح شواهد المغني ص ٢ .

فقد كان للكميت من قوله محرومه ومصيبه ، فاتته حياته بسبب من أسباب
شعره المضرى ، وما أثاره من حفاظ اليمينين .

غضب هشام بن عبد الملك على خالد بن عبد الله القسرى ، فعزله عن العراق ،
وولى يوسف بن عمر الثقفى ، وأطلق يده فى خالد وشيعته .

واتصلت حياة الكميت بهذا الوالى الجديد ، يمدحه ، يأخذ عطاءه ، تقية
شيعية ، وحيلة صناعية ، وحياة دنيوية فبينما هو بين يديه ينشده :

خرجت لهم تمشى البراح ، ولم تكن كمن حصنه فيه الرتاج المضبب
وما خالد يستطعم الماء فاعراً بعدك ، والداعى إلى الموت ينعبُ

يعرض بخالد حين خرجت عليه الجعفرية ، وهو يخطب الناس على المنبر
فدهش ، فقال : أطعمونى ماء .

قالوا : وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فثارت عصبيتهم لزعيمهم
القسرى ، ورأوها فرصة تخلصهم من لسان هذا الشاعر فوضعوا ذباب سيوفهم
فى بطن الكميت ، وهم يقولون :

تمدح الأمير قبل أن تستأذن ! ؟ . . فلم يزل ينزف منه الدم حتى مات
وهو يقول : اللهم آل محمد . . اللهم آل محمد .

وهكذا عاش الشاعر شيعياً . ومات شيعياً كذلك .

وكانت وفاته سنة ست وعشرين ومائة هجرية .

رحم الله الكميت وأكرم مثواه .

السيد الحميري

أبو هاشم إسماعيل بن محمد بن يزيد بن مفرغ الحميري ١٠٥ - ١٧٣ هـ

دراسة السيد — لماذا ندرس السيد — تشيعه — السيد شاعر الأساطير
الشيعية — منزلة السيد عند الشيعة — العقائد الشيعية في شعره —
السيد في البلاط العباسي — شاعريته — أغراض شعره : الغزل ، الهجاء ،
الثناء — طرف من أخباره — خصائصه الشعرية — أقوال العلماء فيه — نسبه
— يثنته — أثرها — موته .

دراسة السيد :

نحتاج في دراستنا للسيد كما احتاط أبو الفرج الأصفهاني في رواية ما روى من
من أخباره وأشعاره ، ولو استطعنا لأعرضنا عن ذلك إعرضاً ، وساعدنا الزمن
على قبر تراثه ، والتفنية على ما روى من علوياته .

وما رأيك في رجل لم يدع نقيصة من النقائص ، ولا مائمة من المائمتين ،
ولا لوناً من ألوان العيب والتسفيه إلا رمى به خيرة المسلمين وسلفهم الصالح
لا يستثنى من هؤلاء جميعاً إلا أئمة العلويين وشيعتهم . . فأما أبو بكر ، وعمر
وعثمان ، وغيرهم من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مهاجرين وأنصاراً
ثم من بعدهم من المسلمين فلم يسلموا من لسانه ، ولم يأمنوا من طعنه في
إسراف وقبح ؟

أليس مثل هذا جديراً بأن تطوى صحيفته ، وينسخ من سجلات الأدب

ذكره ؟!

أما الرواة فقد رأوا فيه ذلك ، فأعرضوا عن تقييد شعره على إكبارهم
لهويته ، وتقديرهم لطوازه الشعرى ، فذهب شعره مع الزمن ، وتحاماه العلماء

والأدباء ، ثم ما كانوا ينشدونه إلا على استحياء وخفية . . . يقول أبو الفرج :
كان السيد شاعراً متقدماً مطبوعاً ، يقال : إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية
والإسلام ، ثلاثة : بشار ، وأبو العتاهية ، والسيد ، فإنه لا يعلم أن أحداً قدر على
تحصيل شعر أحد منهم أجمع ، وإنما مات ذكره ، وهجر الناس شعره ؛ لما كان يفرط
فيه من سب أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأزواجه في شعره ، ويستعمله
من قذفهم والطنن عليهم ، فتحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك ، وهجره
الناس مخوفاً وتوقياً . وله طراز من الشعر ومذهب قلما يلحق فيه أو يقاربه ،
ولا يعرف له من الشعر كثير ، وليس يخلو من مدح بنى هاشم أو ذم غيرهم ، ممن
هو عنده ضد لهم ^(١) .

وحدث التوزي قال : رأى الأصبغى جزءاً فيه من شعر السيد فقال : لمن
هذا ؟ فسترته عنه لعلى بما عنده فيه ، فأقسم على أن أخبره فأخبرته ، فقال : أنشدني
قصيدة منه ، فأنشدته قصيدة ، ثم أخرى ، وهو يستزيدني ، ثم قال : قبحه الله ،
ما أسسك لطريق الفحول ! ؟ لولا مذهبه ، ولولا ما في شعره ، ما قدمت عليه
أحداً من طبقته ^(٢) .

ويقول عمر بن شبة : أقبت أبا عبيدة - معمر بن المثنى - يوماً ، وعنده رجل
من بنى هاشم يقرأ عليه كتاباً ، فلما رأيته أطبقه ؛ فقال أبو عبيدة : إن أبا زيد
ليس ممن يحتشم منه ، فاقراً ، فأخذ الكتاب ، وجعل يقرؤه فإذا هو شعر السيد ،
فجعل أبو عبيدة ، يعجب منه ، ويستحسنه ^(٣) .

وهكذا ، أعرض الرواة عن إذاعة شعر السيد ، بل حثوا على الإعراض عنه ،

(١) الأغاني جزء ٧ ص ٢٢٩ .

(٢) المصدر ص ٢٣٢ .

(٣) المصدر ص ٢٣٢ ، ص ٢٣٦ .

فكان الطوسي يقول : إذا رأيت في شعر السيد « دع ذا » فدعه ؛ فإنه لا يأتي بعده إلا سب السلف ، أو بلية من بلاياه ^(١) .

من أجل هذا لم يبق من شعره إلا هذه لأبيات التي ذكرها أبو الفرج تنقيداً لشرطه ^(٢) .

لماذا ندرس السيد ؟

وكم كنا نحب أن نعامله بمثل هذه المعاملة التي عامله بها الرواة ، إجلالاً للسلف الصالح . ومقتاً لهذا اللون من الأدب ، وفي اعتقادي أنه لن يخسر الأدب كثيراً إذا طهر من هذا الإسفاف - لولا أن رسالتنا في « النشيم » في هذا الأدب الشيعي . الذي يمثل العقيدة الشيعية ويسجلها ، ويصور طائفة من الناس كان لها شأن كبير في الحياة الإسلامية ، سياسة ، وأدباً ، وعقيدة ، وللسيد في هذه الحياة شأن وله في علوياته مكانة ، تدفعنا مرغمين إلى دراسته ، فقد كان من هذه الألسن السياسية التي هي مرآة لقلوب أصحابها ، والتي تمثل الإيمان الشيعي ، والصدق في العقيدة ، والتي تعلن رأيها الكيساني في غير موارد ولا استحياء ، بل هي تعطيك هذا الرأي صريحاً حراً ، وتحتج له في حرارة وعنف ، لا تخشى سطوة أمير ، ولا سيف خليفة ، ولا تضن بالنفس على الموت في سبيل عقيدتها ، ولعل شيعة العلويين لم يظفروا - بعد السكيت - في حياتهم السياسية بشاعر مثله ، وقف عليهم حياته وجهده ، وكاد يقف عليهم ثناء ومدحه ، مخلصاً في ذلك كله إخلاصاً لا يشبهه إخلاص .

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٣٧ .

(٢) حيث يقول « ولكننا شرطنا أن نأني بأخبار من نذكره من الشعراء ، فلم

نجد بدا من ذكر أسلم ما وجدناه له » ج ٧ ص ٢٣٠ .

في الأغاني : عن الحسن بن علي الدؤلي ، كنا جلوساً عند أبي عمرو بن
الملاء فتذكرنا السيد ، فجاء ، فجلس ، وخضنا في ذكر الزرع والنخل ساعة ،
فنهض ، فقلنا : يا أبا هاشم : مم القيام؟ فقال :

إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَطِيلَ بِمَجْلَسٍ لَا ذَكَرَ فِيهِ لِفَضْلِ آلِ مُحَمَّدٍ
لَا ذَكَرَ فِيهِ لِأَحْمَدٍ وَوَصِيهِ وَبَنِيهِ ، ذَلِكَ مَجْلَسٌ نَظِفٌ رَدِي
إِنَّ الَّذِي يَنْسَاهُمْ فِي مَجْلَسٍ حَتَّى يُفَارِقَهُ لَغَيْرُ مُسَدِّدٍ^(١)

وهكذا كان السيد شاعراً ينفق حياته في التشيع ، حتى كاد يحيا فيه وله ،
ويخص آل محمد بحجة في القلب قد طويت عليها الأضلع ، وهو يجاهر بهذا الحب ،
ويدعو إليه ، حتى في قصور الخلفاء العباسيين وولاتهم .

يقول الحسن بن علي بن المغيرة^(٢) : حدثني أبي ؛ قال : كنت مع السيد علي
باب عقبة بن سلم ومعنا ابن سليمان بن علي — عم المنصور — ننظره وقد أسرج
له ليركب ، إذ قال ابن سليمان — يعرض بالسيد — أشعر الناس — والله —
الذي يقول :

مُحَمَّدٌ خَيْرُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدِيمٍ وَصَاحِبَاهُ ، وَعُمَانُ بْنُ عَفَانَا

فوثب السيد ؛ وقال : أشعر — والله — منه الذي يقول :

سَائِلُ قَرِيشًا إِذَا مَا كُنْتَ ذَا عَمِي مَنْ كَانَ أَثْبَتَهَا فِي الدِّينِ أَوْ قَادَا

مَنْ كَانَ أَعْلَمَهَا عِلْمًا ، وَأَحْلَمَهَا حِلْمًا ، وَأَصْدَقَهَا قَوْلًا وَمِعَادَا

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٧ .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٦ وهي طويلة تناول فيها أبا بكر وعمر ، وكثيراً من
الصحابية الذين تحلفوا عن بيعة علي كسعد بن أبي وقاص ، وأسامة بن زيد وعبد الله
بن عمر (مروج الذهب ج ٢ ص ٤٨) وعقبة بن سلم بن نافع ولي إمرة البصرة لأبي
جعفر المنصور .

إِنْ يَصْدُقُوكَ فَلَنْ يَعدُوا أَبَا حَسَنٍ إِنْ أَنْتَ لَمْ تَلَقِ لِلْأَبْرَارِ حُسَّادًا
 ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْهَاشِمِيِّ يَقُولُ : يَا فَتَى ، نَعَمْ الْخَلْفَ أَنْتَ لَشَرَفِ سُلُفِكَ !!
 أَرَأَيْكَ تَهْدِمُ شَرَفَكَ ، وَتَتَلَبَّ سُلُفَكَ ۖ وَتَسْعَى بِالْعَدَاوَةِ عَلَى أَهْلِكَ ، وَتَفْضُلُ مِنْ
 مَنْ لَيْسَ أَصْلُكَ مِنْ أَصْلِهِ ، عَلَى مَنْ فَضْلُكَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَسَأَخْبِرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ
 بِذَا حَتَّى يَضَعَكَ ، فَوُثِبَ الْفَتَى خَجَلًا ، وَلَمْ يَنْتَظِرْ عَقِبَةَ بَنِ سَلَمٍ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ
 صَاحِبُ خَبْرِهِ بِمَا جَرَى ، فَخَرَجَتْ الْجَائِزَةُ لِلْسَيِّدِ .

فَشَاعَرَ نَا لَمْ يَنْسَ عَقِيدَتَهُ فِي جَامِلٍ ، وَيفْتَخِرُ بِالْعَبَّاسِ مِثْلًا - فَعَلَ شَعْرَاءُ السِّيَاسَةِ
 الْعَبَّاسِيِّينَ - وَلَكِنَّهُ أَعْلَنَ عَقِيدَتَهُ ، ثُمَّ جَبَّهَا صَاحِبِهِ ، وَهُوَ مِنْ بَيْتِ الْخِلَافَةِ ،
 بَلْ ابْنُ عَمِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَاحْتِجَ لِهَذَا التَّفْضِيلِ بِمَا يَرْضَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهِيَ
 حِيلَةٌ حَسَنَةٌ .

وَدَخَلَ أَبُو الْخَلَالِ الْعَتَكِي - شَيْخَ الْعَشِيرَةِ ، وَكَبِيرَهَا - عَلَى عَقِبَةِ بَنِ سَلَمٍ
 وَالسَّيِّدِ عِنْدَهُ ، وَقَدْ أَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ : أَتَمَطَّى هَذِهِ الْعَطَايَا رِجْلًا
 مَا يَفْتَرُ عَنْ سَبِّ أَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ ؟ فَقَالَ لَهُ عَقِبَةُ : مَا عَلِمْتُ ذَلِكَ ، وَلَا أُعْطِيْتَهُ
 إِلَّا عَلَى الْعَشِيرَةِ وَالْمَوْدَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَا يَوْجِبُهُ حَقُّهُ وَجَوَارُهُ ، مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ
 مَوَالَاةِ قَوْمٍ يُلْزِمُنَا حَقَّهُمْ وَرِعَايَتَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو الْخَلَالِ : فَرِهَ - إِنْ كَانَ صَادِقًا -
 أَنْ يَمْدَحَ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٍ حَتَّى نَعْرِفَ بَرَاءَتَهُ مِمَّا يَنْسَبُ إِلَيْهِ مِنَ الرِّفْضِ ، فَقَالَ : قَدْ
 سَمِعْتُكَ ، فَإِنْ شَاءَ فَعَلَ ، فَقَالَ السَّيِّدُ :

إِذَا أَنَا لَمْ أَحْفَظْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ	وَلَا عَهْدَهُ يَوْمَ الْغَدِيرِ الْمَوْكَدَا
فَإِنِّي كُنْتُ بِشَرِّ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى	تَنْصَرُّ مِنْ بَعْدِ التَّقَى ، وَتَهْوَدَا
وَمَالِي وَتَيْمٍ ، أَوْ عَدِي ، وَإِنَّمَا	أُولُو نَعْمَتِي فِي اللَّهِ مِنْ آلِ أَحْمَدَا
تَقِيْمُ صَلَاتِي بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ	وَلَيْسَتْ صَلَاتِي بَعْدَ أَنْ أَتَشْهَدَا

بكاملة إن لم أصـل عليهم
وأذع لهم رباً كريماً مجداً
بذلت لهم ودّي ، ونضحي ، ونضرتي
مدى الدهر ما سميت - يا صاح - سيداً
وإن امرأ يلجى على صدق ودّهم
أحق ، وأولى فيهم أن يُفنداً
فإن شئت فاختر عاجل الغمّ ضلة
وإلا فأمسك كي تصان وتحمداً

ثم نهض مضطرباً . فقال أبو الخلال : أعذني من شره - أعاذك الله من
السوء - أيها الأمير . قال : قد فعلت ، على ألا تعرض له بعدها^(١) .

فالسيد يذكر يوم الغدير . . . وهو اليوم الذي تروى فيه الشيعة أن
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد عهد فيه لعلي بن أبي طالب ،
وأوصى له بالخلافة تنفيذاً لقوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك
من ربك . . . » الآية .

والسيد يعلم أنه يذكر هذا عند عقبة بن سلم ، أمير البصرة لأبي جعفر
المنصور ، وأنه بهذا يهدم القضية العباسية ، وينقض تلك النظريات والحجج التي
أسسها المنصور ليحتج بها على استحقاقهم للخلافة .

ولكنها عقيدة الشيعة التي فنى فيها السيد ، وتعبد بها ، وجعلها لب حياته ،
وجوهرها ، وغايتها .

السيد شاعر الأساطير الشيعية :

ثم هو مسرف في هذا الحب ، ينسى فيه عقله ، فكل خير - في نظره -
يمكن أن ينسب إلى العلويين قبله العقل أو لم يقبله ، وكل شر - في نظره -
يمكن أن ينسب إلى خصوم العلويين رضيهم العقل أو لم يرضه وكان
يكفى أن يسمع رجلاً من القصاص ، ورواة الأساطير ، يروى كرامة من
الكرامات لعلى وأبنائه حتى ينظم فيها قصيدة طويلة ، يتخذها وسيلة إلى ذم
السلف ، والنعي عليهم ، بل كان يسعى بنفسه إلى هذا اللون من الأساطير
فيسجلها في شعره ، حتى صح لنا أن نسميه شاعر الأساطير الشيعية ، بجانب
تسميته شاعر العقائد الكيسانية .

يقول المدائني : « كان السيد يأتي الأعمش فيكتب عنه فضائل على - رضى
الله عنه - ويقول في تلك المعاني شعراً ، نفجر ذات يوم من عند بعض أمراء
الكوفة ، وقد حمله على فرس ، وخلع عليه ، فوقف بالكناسة ، ثم قال :
يا معشر الكوفيين ، من جاءني منكم بفضيلة لعلى بن أبى طالب لم أقل فيها
شعراً أعطيته فرسى هذا وما على ، فجعلوا يحدثونه ، وينشدهم ، حتى أتاه رجل
منهم ، وقال : إن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله تعالى عنه - عزم
على الركوب ، فلبس ثيابه ، وأراد لبس الخف ، فلبس أحد خفيه ، ثم أهوى
إلى الآخر ليأخذه ، فانقض عقاب من السماء ، فخلق به ، ثم ألقاه ، فسقط
منه أسود ، وانساب فدخل جحراً ، فلبس على - رضى الله تعالى عنه - الخف . . .
قال : ولم يكن قال في ذلك شيئاً ، ففكر هنيئة ، ثم قال :

أَلَا يَا قَوْمَ لِلْمَعْجَبِ الْمُجَابِ خُفَّ أَبَى الْحُسَيْنِ وَلِلْحُبَابِ
أَتَى خَفَاً لَهُ ، وَانْسَابَ فِيهِ لِيَنْهَشَ رَجُلُهُ مِنْهُ بِنَابِ
نَفَرَ مِنْ السَّمَاءِ لَهُ عُقَابٌ مِنْ الْعِقْبَانِ أَوْ شَبَّهِ الْعُقَابِ

فطار به ، فخلق ، ثم أهوى به للأرض من دون السحاب
إلى جحر له ، فانساب فيه بريد القعر ، لم يرتج بياض
كريه الوجه ، أسود ، ذو بصيص حديد الناب ، أزرق ، ذو لعاب
ودفع عن أبي حسن على نقيع سمّاه بـ — انسكاب
ثم حرك فرسه ، ومضى ، وجعل تشبهاً بعد ذلك :

صوت إلى سليمى والرباب وما لأخي المشيب وللتصايب ؟^(١)



وعن حاتم بن قبيصة ، قال : سمع السيد محدثاً يحدث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان ساجداً ، فركب الحسن والحسين على ظهره ، فقال عمر : « نعم المطى مطيكا ! » فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « ونعم الراكبان هما » ، فانصرف السيد من فوره ، فقال :

أتى حسناً والحسين النبي وقد جمّسا حجرة يلعبان^(٢)
فقدّاهما ، ثم حَيَّاهما وكان لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه فنعّم المطيعة ، والراكبان
وليّـدان أمهما برّة حصان مظهرّة للحصان
وشيّخهما ابن أبي طالب فنعم الوليدان والوالدان
خليلي لا تُرجيا واءلما بأن الهدى غير ما تزعمان
وإن عى الشك بعد اليقين وضعف البصيرة بعد العيان
ضلال ، فلا تلججا فيهما فبئست - لعمر كما - الخصلتان

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٥٧ .

(٢) الحجرة : الناحية .

أَيُّرَجَى عَلَى إِمَامِ الْهَدَى وَعُثْمَانُ ! مَا أَعْنَدَ الْمَرْجِيَانُ ^(١)
وَيَرْجَى ابْنُ حَرْبٍ وَأَشْيَاعُهُ وَهَوَجُ الْخَوَارِجِ بِالْهَرَوَانِ
يَكُونُ إِمَامَهُمْ فِي الْمَعَادِ خَبِيثُ الْهُوَى مُؤْمِنُ الشَّيْصِبَانِ ^(٢)

وهكذا يمضي السيد يتلقف من القصاص ، ورواة الأساطير الشيعية ما يخلعونه من كرامات وأخبار على « علي » وأبنائه ، فينظم فيها شعراً ، حتى كان أحد ثلاثة لم ييذهم شاعر جاهلي ولا إسلامي في كثرة الشعر ، وحتى أربت قصائده الهاشميات على ألفين وثلاثمائة قصيدة .

يقول الموصلي : حدثني عمي ، قال : جمعت للسيد في بني هاشم ألفين وثلاثمائة قصيدة ، فخلت أن قد استوعبت شعره ، حتى جلس إليَّ يوماً رجل ذو أطار رثة فسمعتني أنشد شيئاً من شعره ، فأنشدني له ثلاث قصائد لم تكن عندي ، فقلت في نفسي : لو كان هذا يعلم كل ما عندي كله ، ثم أنشدني بعد ما ليس عندي لكان عجيباً ، فكيف وهو لا يعلم ، وإنما أنشدني ما حضر ؟ ! وعرفت أن شعره ليس مما يدرك ، ولا يمكن جمعه كله ^(٣) .

منزلة السيد عند الشيعة :

وقد عرف الشيعة له إخلاصه في حبه ، وفنائه في عقيدته ، فأنزله من نفوسهم أسمي المنازل . . . ووضعوا له الوسائد بمسجد « الكوفة » يجلس عليها ،

(١) الإرجاء : التأخير ، وقد تكرر هذا اللفظ في شعر السيد ، وللمراد به هنا ترك الحكم بين علي ومن ذكره .

(٢) الشيصبان : من أسماء الشيطان ، والقطعة في الأغاني ج ٧ ص ٢٥٩ .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٣٦ .

وينشدهم شعره^(١) . . . وأدرك الطالبون خطره الحزبي ، وبلاءه الشيعي ، وحسن تصويره لمصارع قتلاهم ، ففتحوا صدورهم له ، وغمروه بعطفهم ، وبرهم ، وعطاياهم .

وأدرك السيد هذه المنزلة الشعرية فاعتمد عليها في غفران ما يقترب من ذنوب وآثام ، واتخذ حظه من اللهو والخر والاستماع — شأن شعواء عصره ، وإن لم يسرف لإسرافهم — وأطمعه العلويون في شفاعتهم يوم القيامة ، فكانوا يقولون — كلما ذكر السيد — : وأى ذنب يعظم على الله أن يغفره لرجل من آل البيت فهو لن تزل له قدم إلا ثبتت له أخرى^(٢) .

وحدث جعفر ، عن أبيه محمد ، عن جده علي بن الحسين : « أن محبي آل محمد لا يموتون إلا تائبين » ، وقد تاب السيد ، وكتب إليه بذلك^(٣) .

وطبعي أن تنظر الجماهير إلى السيد نظرات مختلفة ، نظرة البغض والمقت لمذهبه في سب السلف ، ونظرة الخوف والإجلال لمكانته من أبناء فاطمة — رضى الله عنها — ودفاعه عنهم ، وإذاعته محامدهم — وأنت تعلم ما لهؤلاء السادة من مكانة في قلوب الناس — فوجد في الجو الشيعي من رآه ينشد الرسول — صلى الله عليه وسلم — مدائح .

يقول زيد بن موسى بن جعفر : رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

(١) المقدم ج ٣ ص ١١٣ .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٥٢ .

(٣) هذه رواية الأغاني ج ٧ ص ٢٧٧ . واعتقد أن جعفر الصادق أجل من هذا ، اللهم إلا أن تكون كلمات سياسية .

وقدماه رجل جالس عليه ثياب بيض ، فنظرت إليه فلم أعرفه ، إذ التفت رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — فقال : يا سيد ، أنشدني قولك :

* لأم عمرو باللوا مربع *

فأنشده إياها ، ما غادر منها بيتاً واحداً ، خففتها عنه في النوم ، وفي رواية :
أنه لما وصل إلى قوله :

قالوا له : لو شئت أعلمتنا إلى من الغاية والمفزع ؟

قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — : حسبك ، ثم نفض يده ، وقال : قد
— والله — أعلمتهم ^(١) .

قوله الشعر ببركة الرسول :

والسيد يحدثنا : أنه لم يقل الشعر إلا ببركة رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
وإشارته . . . رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في النوم ، وكأنه في
حديقة سبخة ، فيها نخل طوال ، وإلى جانبها أرض كأنها الكافور ليس فيها شيء
فقال : أتدرى لمن هذا النخل ؟ قلت : لا ، يا رسول الله ، قال : لامرئ القيس
ابن حجر ، فأقلعها ، واغرسها في هذه الأرض ، ففعلت ، وأتيت ابن سيرين
فقصصت رؤيائي عليه ، فقال : أتقول الشعر ؟ قلت : لا ، قال : أما إنك ستقول
شعراً مثل شعر امرئ القيس ، إلا أنك تقوله في قوم بررة أطهار ؛ قال : فما
انصرفت إلا وأنا أقول الشعر ^(٢) .

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٧ ، واظوفوات الوفيات ص ٢٠ ، وقد نقلناها لك

هذه الرسالة من قبل .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٣٧ .

نقول : ولكن ابن سيرين مات سنة عشر ومائة^(١) ، والسيد في الخامسة من عمره . . . فن غير المعقول أن يتلاقيا في مثل هذا الموقف ، ولكنه أبو الفرج ورواياته !

ومهما يكن ، فكل هذه الأحلام أثر من آثار التفكير العميق في قضية هؤلاء الطالبين .

العقائد الشيعية في شعر السيد :

وقد كان السيد شاعر العقائد الكيسانية ، من رجعة ، ووصاية ، ومهدية ، وتناسخ . . . بصورها في أفانين شتى ، وألوان متفاوتة ، ويستخدم فيها نفسه الشعرى الطويل ، وطبعه الروائي ، وأسلوبه السهل الرائع ، وقد رأينا — في أوائل هذا البحث — كيف صور عقد البيعة لعلی في غدير « خم » . فاستمع الآن قصيدة أخرى ، فهي أثر من آثار هذه الأساطير الشيعية ، وهي في الوقت نفسه تمثل السيد وعقيدته الكيسانية التي مات عليها^(٢) ، كما تمثل إخلاصه لتشيعة . وفناءه في عقيدته ، وأنه إنما يتولى هؤلاء العلويين عن قلب صادق ، وعاطفة مشبوبة .

يقول ابن الساهر ، راويته :

« . . . وآخر عهدی به قبل موته بثلاث ، وقد سمع رجلا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم — أنه قال لعلی عليه السلام : إنه سيولد لك بعدی ولد ،

(١) المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ .

(٢) زعم بعض الرواة أن السيد رجع عن مذهب الكيسانية إلى القول بإمامة جعفر الصادق . وقال في ذلك قصيدة ، وقد أغنانا ابن الساهر — راويته — عن الرد على هذا الزعم : الأغاني ج ٧ ص ٢٣١ .

وقد نخلته اسمي وكنيتي ، فقال في ذلك آخر قصيدة قالها :

أشأقتك المنارل بعد هند وتربها ، وذات الدلّ دعد ؟
 منازلُ أفقرت منهنّ محتُ معالمُنّ ، من سبَل ورعد^(١)
 وريح حرّ جفّ تستنّ فيها نساقي الترب تلحم ما قُسدّي^(٢)

* * *

ألم يبلغك والأنباء تنمى مقال محمد فيما يؤدى
 إلى ذى علمه الهادى على وخولة خادم في البيت تردى^(٣)
 ألم تر أن خولة سوف تأتي بواري الزند صافي الخيم نجد
 يفوز بكنيتي واسمى لأنى نخلتماه ، والمهدى بعدى
 [يعقبُ عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد]^(٤)
 سنين وأشهرأ ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسدَى
 مقيم بين آرام وعين وحفان تروح خلال ريد
 تراعيها السباع وإيس منها ملاقيهن مفترساً بحدّ
 أمّن به الردى فرتعن طوراً بلا خوف لدى مرعى وورّد

* * *

حلفتُ ربّ مكة والمصلّى وبيت طاهر الأركان فرد
 يطوف به الحجاج ، وكل عام يحلّ لديه وفد بعد وفد

(١) محت : عفت . والسبل : المطر .

(٢) ريج حر جف : بارد . وتستن : تعدو فيها إقبالا وإدبارا .

(٣) ردّى : تلعب .

(٤) قد يعكر هذا على رواية ابن خلدون في مذهب السيد ولعله مقحم .

لقد كان ابن خولة غير شك صفاء ولايتي وخصوص ودي
فما أحمدُ أحبُّ إلى فيما أُسرُّ وما أبوحُ به وأبدي
سوى ذي الوحي أحمد أو على ولا أزكي وأطيب منه عندي

* * *

ومن ذا يابن خولة إذ رمته بأسهمها المنية حين وعدى
يُدَبِّبُ عنكم ، ويسدُّ مما تلم من حصونكم كسدِّي ؟ !

* * *

ومالى أن أمر به ، ولكن أوئمل أن يؤخر يوم فقدى
فأدرك دولة لك لست فيها بجبار ، فتوصف بالتعددي
على قوم بغوا فيكم علينا لتعدى منكم يا خيري معدى^(١)
لتعل بنا عليهم حيث كانوا بغور من تهامة ، أو بنجد
إذا ما سرت من بلد حلال إلى من بالمدينة من معدٍ
وماذا غرم والخير فيهم بأشوس أعصل الأناب وزد^(٢)
وأنت لمن بغى وعدا وأزكى عليك الحرب واسترداك مرد^(٣)

فهذه القصيدة الطويلة النفس ، الصادقة للهجة ، تصور عقيدة السيد في المهدي
ورجفته ، وكيف يقيم الإمام بين آرام وأسد وحفان ، قد آمن بعض من بعض
ببركة هذا المغيب في قبره .

(١) أعدى فلانا : نصره ، وأعانه ، « ومنكم » صفة لموصوف محذوف ، أى
لتنصر فريقا منكم .

(٢) الشوس : النظر بمؤخر العين ، وأعصل الانياب معوجها .

(٣) الأغاني ج ٧ ص ٢٣٥ .

والسيد في غيبة الإمام ابن الحنفية - كما ذكره ابن خلدون - مذهب يخالف مذهب كثير ، فكثير عزة يعتقد أن ابن الحنفية حتى مع أربعين من صحابته ، يقيمون بجبل رضوى ، فهو لا يذوق الموت حتى يقود الخليل يقدمها اللواء ... بينما يعتقد السيد موت إمامه ، فرجعت حياته مرة أخرى قبل البعث ، مثله في ذلك مثل أصحاب الكهف قبل العثور عليهم ، وقتيل بنى إسرائيل ، وعزير عليه السلام وقد رأينا أعيانه في ذلك ، بل سمعنا رثاءه لأخيه ، وإيمانه بحياته قبل البعث ، وأنه سيلقاه حيا ، سامعا ، مبصرا على خير حال .

وقد يقوى هذا الرأي في السيد ما رواه البغدادى له :

ولكن كل من في الأرض فان هذا حكم الذى خلق الإماما^(١)

فابن الحنفية عند السيد ، سيبعث ليتولى الأمر ، ويعيد الأمر لبنى علي ، ويملاء الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، وينتقم لهذه الدماء العلوية البريئة ، التى سفكتها السياسة ، وهو المهدي المنتظر ، الذى تحدث عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ونحله اسمه وكنيته .

وهكذا يحدثنا السيد عن المهدي والرجمة ، كما يحدثنا عن الوصاية لملى في أسلوب قصصى رائع ، وتصوير لم يألفه الأدب الشيعي في عهد الكميت .

السيد في بلاط العباسيين :

والسيد شاعر كيسانى - كما قلنا - يتولى محمد بن الحنفية ، والحزب الكيسانى بعد قتل المختار أصبح حزبا ضعيفا مسالما - حزب عقائد - فهو لا يرى الخروج على السلطان ، ولا يعمل على قلب الدولة القائمة ، بل يعيش في كنفها ، مستظلا

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٠ .

بأعطياتها ، منتظراً بفارغ الصبر رجوع المهدي من جبل رضوى ليتولى الأمر ،
ويحقق الأمانى .

على ضوء هذه السياسة اتصل كثير عزة بالأمويين يمدحهم ويأخذ جوائزهم ،
فينتفع بهم فى معاشه ، كما ينتفع بالهاشميين فى دينه .

وعلى ضوء هذه السياسة - أيضاً - اتصل السيد بالعباسيين يمدحهم ، ويأخذ
جوائزهم ، وينتفع بهم فى دنياه ، وللآخرة العلوون .

وعاملتهما الدولة القائمة بسياسة القصر مع كل شيعى مفوه لا خطر منه ، تغض
عن تشيعه ، وتغمره بغطاها ، وتكتفى منه بإذاعة الحمد وجميل الثناء .

مدحه الخلفاء :

فلم يكن السيد فى مدحه للخلفاء العباسيين منافقاً سياسياً^(١) كما كان أبان بن
عبد الحميد ، ولا عتسلاً بالتقية كما فعل الكميت بن زيد مع الأمويين ، فالكيسانية
لا ترى التقية ، ولكن ترى المسألة حتى يخرج الإمام . . . وكذلك كان كثير
وكذلك كان كل شاعر كيسانى اتصل بقصر الخلافة .

ومهما يكن فقد اتصل السيد بخلفاء العباسيين وولاتهم ، فعاش فى خفض ودعة
مقرباً مقبول الشفاعة ، ونفعه كثيراً تشيع بعض الولاة سراً .

ثم لم يكن السيد بذلك الرجل الذى ينسى عقيدته ورأيه ، حتى فى قصور الخلفاء
فهو يجاهر بعقيدته ، ويردد رغباته الشيعية فى شعره .

جلس المهدي - وهو ولى عهد - يعطى قريشاً صلوات لهم ، فبدأ يبنى هاشم ثم

(١) يتهم الدكتور طه حسين فى كتابه « حديث الأربعاء » كثيراً والسيد الحميرى
بالنفاق السياسى ونحن لانرى ذلك .

بسائر قریش ، فجاء السيد ، فرفع إلى الربيع رقعة مختومة ، وسأله أن يوصلها
للأمير ، ففعل ، فإذا فيها :

قل لابن عباس سمي محمد : لا تعطين بني عدى درهما
إحرم بني تيم بن مرة إنهم شر البرية آخراً ومُقدِّماً^(١)
إن تمطهم لا يشكروا لك نعمة ويكافئوك بأن تدم وتشتما
وإن ائتمنتهم ، أو استعملتهم خانوك ، واتخذوا خراجك مغنا
ولئن منعتهم لقد بدعوك بالنعم إذ ملكوا ، وكانوا أظلماً
منعوا تراث محمد أعمامه وابنيه ، وابنته عديلة مريمَا
وتأمروا من غير أن يستخلفوا وكفى بما فعلوا هنالك مأثماً
لم يشكروا لمحمد إنعامه أفيشكرون لغيره إن أنما ١٩
والله من عليهم بمحمد وهداهم ، وكسا الجنوب ، وأطما
ثم انبروا لوصيه ووليه بالمنكرات ، فجرعوه العلما

يقول أبو الفرج : وهي طويلة ، حذف باقيها لقبج ما فيها . . . قال : فرمى
بها إلى عبید الله — كاتبه — ثم قال : اقطع العطاء ، فقطعه ، وانصرف
الناس . . . ودخل السيد إليه ، فلما رآه ضحك ، وقال : قد قبلنا نصيحتك
يا إسماعيل ، ولم يعطهم شيئاً^(٢).

وهكذا كان السيد لا ينسى عقائده الشيعة ، ولا يخشى أن يقول للمهدي :

ثم انبروا لوصية ووليه بالمنكرات ، فجرعوه العلما
في وقت كان هم السياسة فيه أن ينسى الناس الوصاية لعلی ، بل أن يكفروا
بها كفراناً ، ويحجدها جحوداً .

(١) بنو عدی بن كعب : رهط عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - وبنو تيم
ابن مرة رهط أبي بكر الصديق - رضی الله عنه - .

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها .

ولا تنس أنه يقول هذا في خلافة المنصور - صاحب النفس الزكية - وقد علمنا كيف كان اهتمام المنصور بنظرية الخلافة .

ولعلنا على ذكر من موقف السيد مع أبي الخلال في مجلس عقبة بن سلم - عامل المنصور على البصرة - وكيف افتخر يعلى في رده على ابن عم المنصور ، وأمام جمع حاشد من صنائع الخلافة .

هذا ، وقد اتصت أسباب السيد بجمهرة من الخلفاء العباسيين ، إذ مات في خلافة الرشيد . فاستمع هؤلاء إلى مدائحهم ، وخطبوه بأنفسهم ، وقبلوا شفاعته ، حتى في خاصة أمورهم .

في الأغاني : لما استقام الأمر لبني العباس ، قام السيد إلى أبي العباس السفاح ، حين نزل عن المنبر ، فقال :

دونكوها يا بني هاشم	فجددوا من عهدا الدارسا
دونكوها لاعلا كعب من	كان عليكم ملكها نافسا
دونكوها فالبسوا تاجها	لا تعدموا منكم له لابساً
لو خير المنبر فرسانه	ما اختار إلا منكم فارساً
قد ساسها قبلكم ساسة	لم يتركوا رطباً ولا يابساً
ولست من أن تملكوها إلى	مهبط عيسى فيكم آيساً

فسر أبو العباس لذلك ، وقال له : أحسنت يا إسماعيل ، سألني حاجتك قال :
تولى سليمان بن حبيب الأهواز ، ففعل^(١) .

والبيت الأخير لا يطعن في عقيدة السيد ، فهو يطمئن إلى أن الخلافة ستكون في بني هاشم حين يتسلمها عيسى بن مريم - عليه السلام - بعد نزوله من السماء ، وعيسى سيتسلمها من المهدي المنتظر ، وهو ابن الحنفية عند السيد ، وهو هاشمي ، لذلك كان حريصاً أن يكون خطابه للهاشميين عامة .

وعلى هذا يجب أن نفهم مدحه للمدى يوم بايع لابنيه عيسى وهارون ، حيث يقول :

ما بال مجرى دمعك الساجم أم من هوى أنت له ساهر
أمن قذى بات بها لازم آليت لا أمدح ذا نائل
صباية من قلبك المائم أولتهم عندي يد المصطفى
من معشر غير بنى هاشم فإنها بيضاء محمود
ذى الفضل والمنّ أبى القاسم جزاؤها حفظ أبى جعفر
جزاؤها الشكر على العالم وطاعة المهدي ، ثم ابنه
خليفة الرحمن ، والقائم وللرشيد الرابع المرتضى
موسى على ذى الإربة الحازم ملكهم خمسون معدودة
مفترض من حقه اللازم ليس علينا ، ما بقوا ، غيرهم
برغم أنف الحاسد الراغم حتى يردوها إلى هابط
في هذه الأمة من حاكم أغراضه الشعرية :

والسيد — من غير شك — شاعر مطبوع ، متصرف في فنون القول ، له غزل رقيق ، وهجاء مقنع ، ومدح رائع ، ونثر بالغ ، وله جد وهزل ؛ وهو في كل ذلك شاعر فنان ، دقيق الحس ، رقيق الشعور ، مالك لفنه . . . قد شهد له بذلك كل من تعرض للقول فيه ، حتى لقد قدمه بعضهم على جرير^(٢) .

الغزل :

ولملك لا ترى غزلا جمع إلى صدق العاطفة ، ورقة الحضارة ، وإجادة الوصف وقوة التأثير ، من قول السيد :

(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٣٩ .

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٥٥ .

ما جرتْ خَطَرَةٌ عَلَى الْقَلْبِ مِنِّي فَيْكَ إِلَّا اسْتَعْرْتُ عَنْ أَصْحَابِي
 من دموع تجري ، فإن كنتُ وحدي خَالِيًا أَسْعَدْتُ دُمُوعِي انْتِجَابِي
 إن حيَّ إِيَّاكَ قَدْ سَلَّ جَسْمِي ورماني بالشيب قبل الشباب
 لو منحتُ اللقاء شقي بك صبا هائم القلب ، قد ثوى في التراب

ولهذه الأبيات فضل كبير على السيد ، أو على الأدب العربي — إن كان ذكر السيد ينفع الأدب العربي ! ! — فقد اتخذت مكانها من حلق المغنين ، وأندية الطرب ، فاضطر أبو الفرج أن يتحدثنا عن صاحبها ، على تخرجه من مذهبه . . . فلو لا هذه القطعة لضاع شعره ، واندثرت أخباره ، كما اندثرت أخبار كثير من الشعراء ، فليس للسيد ديوان شعر ، وليس له مصدر آخر يعتمد عليه الباحث الأديب في دراسته إلا الأغاني ، ثم أبيات قليلة ، مبعثرة هنا وهناك ، لا تمسكنا من الحسك على السيد حكما عن بصيرة وعلم .

وبين يدي قطعة من غزل السيد سلك فيها مسلك الشعراء قبله ، من وصف الديار ، وتعفية الرياح لها ، ثم التحدث بعد عن غرضه الشيعي ، وأنا أكتفي بهذه القطعة ، التي يتحدثنا عنها غانم الوراق ، فيقول :

خرجت إلى بادية البصرة فصرت إلى عمرو بن تميم ، فأثبنتني بعضهم ، فقال : هذا الشيخ - والله - راوية ، فجلسوا إلي ، وأنسوا بي ، وأنشدتهم ، وبدأت بشعر ذي الرمة ؛ فعرفوه ، وبشعر جرير والفرزدق ؛ فعرفوها ، ثم أنشدتهم للسيد :

أُتَعَرَفُ رَسْمًا بِالسَّوِينِ قَدْ دَثِرَ عَفَقَتُهُ أَهَاضِيبُ السَّحَابِ وَالْمَطَرِ
 وَجَرَّتْ بِهِ الْأَذْيَالُ رِيحَانُ خَلْقَةٍ صبا ودبورٌ بالعشيات وَالْبُكَرِ
 مَنَازِلُ قَدْ كَانَتْ تَكُونُ بِجَوِّهَا هَضِيمُ الْحِشَاءِ رِيَا السَّوَى ، سَحَرَهَا النَّظَرُ
 قَطُوفُ الْخَطَا خِمَاصَةٌ بِخَتَرِيَّةٍ كَأَنَّ حَيَاهَا سَنَا دَارَةَ الْقَمَرِ

رمتني بُعْدَ قَرَبٍ بِهَا النُّوَى فَبَانَتْ وَلَمَّا أَقْضَى مِنْ عِبْدَةِ الْوَطَرِ
 وَلَمَّا رَأَتْني خَشْيَةُ الْبَيْنِ مَوْجِعًا أَوْ كَفَّفَ مِنِّي أَدْمُعًا فَيَضُهَا دَرَرُ
 أَشَارَتْ بِأَطْرَافٍ إِلَى وَدَمِهَا كَنَظْمِ جُمَانِ خَانَةِ السَّلَكِ فَانْتَهَرُ
 وَقَدْ كُنْتُ مِمَّا أَحْدَثَ الْبَيْنَ حَازِرًا فَلَمْ يَغْنِ عَنِّي مَتْنُهُ خَوْفِي وَالْحَذَرُ
 قَالَ : فَعْمَلُوا يَمْرُقُونَ لِإِنْشَادِي وَيَطْرِبُونَ ، وَقَالُوا : لِمَنْ هَذَا ؟ فَأَعْلَمْتَهُمْ ،
 فَقَالُوا : هُوَ وَاللَّهِ أَحَدُ الْمَطْبُوعِينَ ، لَا وَاللَّهِ مَا بَقِيَ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِثْلُهُ ^(١) .

وَنَعْتَقِدُ أَنَّ السَّيِّدَ وَقَدْ انْتَزَمَ هَذَا الْأَسْلُوبَ السَّهْلَ الْمَتَّعَ ، وَتِلْكَ الْأَلْفَافُ
 الْأَنْيَقَةُ الْعَذْبَى ، كَانَ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَنْبَغَ فِي الْغَزْلِ ، وَيَكُونُ فِيهِ أَحَدُ الْمَطْبُوعِينَ ،
 بَلْ كَانَ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ الْمَكْتَرُ ، وَنَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ بَعِينُهُ هُوَ
 الَّذِي جَعَلَ بِشَارًا شَاعِرًا مَكْتَرًا ، كَمَا جَعَلَ أَبَا الْعَتَاهِيَةِ شَاعِرًا مَكْتَرًا .
 الهجاء :

أَمَّا هَجَاؤُهُ فَقَدْ أَقْضَى الْمَضَاجِعَ ، وَمَلَأَ قُلُوبَ السَّادَةِ فَرْقًا ، وَحَادِثَتُهُ مَعَ
 أَبِي الْخَلَّالِ الْعَتَكِيِّ ، وَاسْتَعَاذَتُهُ بِالْأَمِيرِ مِنْ شَرِّهِ ، مِثْلُ مَنْ هَذِهِ الْأَمْثَلَةُ الَّتِي تَرِيكَ
 كَيْفَ كَانَ السَّيِّدُ مَخُوفًا حَيَاتَهُ كُلَّهَا .

فَهُوَ قَاسٍ مَقْدَعٌ يَجِدُ فِي الْهَجَاءِ لَذَةً ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ بِسَبَبٍ مِنْ عَقِيدَتِهِ
 الشَّيْعِيَّةِ ، وَهُوَ يَسْلُكُ فِيهِ مَسْلَكَ التَّنْدُرِ وَالسَّخَرِ ، وَيَخْتَارُ لَهُ الْخَفِيفَ الْمَرْقُصَ
 مِنَ الْأَوْزَانِ غَالِبًا ، لِيَكُونَ أَعْوَنَ عَلَى الْخَفِظِ وَالذَّبُوعِ ، وَفِي الْأَغَانِي كَثِيرٌ
 مِنْ هَذَا الْهَجَاءِ . وَإِنْ شِئْتَ فَاقْرَأْ قِصَّةَ السَّيِّدِ مَعَ قَاضِي الْبَصْرَةِ لِلْمَنْصُورِ : سَوَارِ
 ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَنْبَرِيِّ :

رَوَى صَاحِبُ الْأَغَانِي عَنْ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا
 فِي مَجْلِسِ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ - وَهُوَ بِالْجَسْرِ - وَهُوَ قَاعِدٌ مَعَ جَمَاعَةٍ عَلَى دَجَلَةٍ

(١) الْأَغَانِي ج ٧ ص ٢٣٨ . وَقُطُوفُ الْخَطَا : ضَيْقَتُهُ ، وَالْبِخْرِيَّةُ : الْحَسَنَةُ
 الْمَشِيَّةُ وَالْجِسْمُ ، وَيَمْرُقُونَ : يَغْنُونَ .

البصرة ، وسوار بن عبد الله العنبري - قاضي البصرة - جالس عنده ، والسيد بن محمد بن يديه ينشد :

إن الإله الذي لا شيء يُشبهه أعطاكم الملك للدينيا ولالدين
أعطاكم الله مُلكاً لا زوال له حتى يقاد إليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذاً بِرُمَّتِهِ وصاحب الترك محبوساً على هون
والمنصور يضحك سروراً بما ينشده ، فحانت منه التفاتة ، فرأى وجه سوار
يتربد غيظاً ، ويسود حنقاً ، ويدلك إحدى يدي بالأخرى ويتحرق ، فقال له
المنصور : مالك ! أرايك شيء ؟ قال : نعم ، هذا الرجل يعطيك بلسانه
ما ليس في قلبه ، والله يا أمير المؤمنين ما صدقت ما في نفسه ، وإن الذين يواليهم
لغيركم . فقال المنصور : مهلا ! هذا شاعرنا وولينا ، وما عرفت منه إلا صدق محبة
وإخلاص نية . فقال له السيد : يا أمير المؤمنين ، والله ما تحملت غضكم لأحد ،
وما وجدت أبوى عليه فافتقتن بهما^(١) ، وما زلت مشهوراً بموالاةكم في أيام
عدوكم ، فقال له : صدقت . قال : ولكن هذا وأهله أعداء الله ورسوله قديماً ،
والذين نادوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وراء الحجرات^(٢) ، فنزلت
فيهم آية من القرآن « أ أكثرهم لا يعقلون » . وجرى بينهما خطاب طويل ؛ فقال
السيد قصيدته التي أولها :

قف بنا يا صاح واربع بالغاني الموحشات

(١) كان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكيف يتفق هذا مع قوله . وما
وجدت أبوى عليه فافتقتن بهما ! .

(٢) يعني وفد بني تميم يوم قدموا للدينية لمفاخرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فدخلوا للمسجد ، فوقفوا عند حجرات أمهات المؤمنين ، ثم نادوا بصوت عال جاف :
خرج إلينا يا محمد ، فقد جئنا لنفاخرك فأنزل الله فيهم « إن الذين ينادونك من
وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » والقصة في الأغاني ج ٤ ص ١٤٦ طبع
دار الكتب .

وفيها :

يا أمين الله يا منصور يا خير الولاة
 إن سوار بن عبد الله من شرّ القضاة
 نفث لي جليّ لكُم غير موات
 جده سارق عَنز فَجَرَّةٌ من فِجراتِ^(١)
 لرسول الله والقيا ذفه بالمنكراتِ
 وابن من كان يُمَادِي من وراء الحجرات
 يا هَنَاءَ اخرج إلينا إننا أهل هنات
 مدحنا المدح ومن نر م يصب بالزفوات
 فاكفنيه لا كفاه الله شر الطـارقات

فشكاه سوار إلى أبي جعفر ، فأمره أن يصير إليه معتذراً ، ففعل ، فلم
 يعذر سوار ، فقال :

أتيت دعي بنى العنبر أروم اعتذاراً فلم أعذر
 فقلتُ لنفسي - وعاتبتهَا على اللؤم في فعلها : أقصرى
 أيعتذر الحـرُّ مما أتى إلى رجل من بنى العنبرى ! ؟
 أبوك ابن سارق عَنز النبيّ وأملك بنت أبي جحدر
 ونحن على رغمتك الرافضو ن لأهل الضلالة والمنكر^(٢)

على أن صاحب الأغاني قد روى هذه الخصومة من طريق آخر ، وأن السيد
 تقدم إلى سوار في شهادة ، فردها عليه . فقام مغضباً ، وكتب إليه رقعة فيها :

إن سوار بن عبد الله من شرّ القضاة

(١) عَنز بن ثقب ، جد سوار ، سرق عَنزاً لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم
 وفد مع بني تميم فلقب بسارق عَنزه .
 (٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٠ وما بعدها .

فلما رآها القاضي وثب من مجلسه ، وقصد أبا جعفر بالجسر ، فسبقه
السيد ، وأنشد :

قل الإمام الذى يُنبجى بطاعته يوم القيامة من محبوبَةِ النَّارِ
لا تستعين - جزاك الله صالحة - يا خير من دب فى حكم بسوار
لا تستعن بخيىث الرأى ذى صلف جم العيوب عظيم الكبر جَبَّار
تُضحى الخصوم لديه من تكبره لا يرفعون إليه لخط أبصار
تبهًا ، وكبرًا ، ولولا ما رفعت له من ضبعه كان عين الخائف العارى
ودخل سوار ، فلما رآه المنصور تبسم وقال : أما بلغك خبر إياس بن معاوية
حيث قبل شهادة الفرزدق^(١) ، واستزاد فى الشهود ؟ فما أحوجك للتعريض
للسيد ولسانه ، ثم أمر السيد بمصالحته^(٢) .

وسواء أكانت الخصومة لهذا أم لذلك أم لكليهما ، فقد عرّض سوار
نفسه للسان السيد ، فأتبعه هجاءه ، حتى أمره المنصور فكف ، وحتى ضاق
سوار ، فأراد أن يستعمل حيلته القضائية . فأعد جماعة يشهدون على السيد بسرقة
ليقطعه ، فأنذر السيد بما دبره له القاضي ، فشكاه إلى المنصور ، فعزله عن الحكم
للسيد أو عليه ، فما استطاع أن يتعرض له بسوء حتى إذا مات سوار لم ينبج من
لسان السيد ميتًا كما لم ينبج منه حيًّا^(٣) .

(١) شهد الفرزدق الشاعر عند إياس بن معاوية قاضى البصرة لعمر بن عبد العزيز
فقال إياس : أجزنا شهادة الفرزدق أبى فراس ، وزيدونا شهودا ، فقام الفرزدق
فرحا ، ف قيل له : والله ما أجاز شهادتك . قال : بلى ، قد سمعته يقول : قد قبلنا
شهادة أبى فراس ، قالوا : ألما سمعته يستزيد شاهدا آخرًا ؟ قال : وما يمنعه ألا يقبل
شهادتى وقد قذفت ألف محصنة (الأغانى ج ١٩ ص ٥٠) .

(٢) الأغانى ج ٧ ص ٢٥٤ .

(٣) الأغانى ج ٧ ص ٢٦٠ ، ٢٦٨ .

وفي الأبيات الآتية يهجو السيد أهل البصرة ، وقد خرجوا يستسقون
- والبصرة عثمانية - فخرج فيهم بحر مطرفه ويقول :

اهبط إلى الأرض فخذ جليدا ثم ارمهم يامزن بالجلد
لا تسقمهم من سبل قطرة فإنهم حرب بنى أحد

وهكذا كان السيد يصادق ، ويعادى على ضوء عقيدته . . . يتلاحى رجلا
من بنى عبد الله بن دارم في المفاضلة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم
يحكم أول من يطلع ، فيكون السيد ، فقاما إليه - وهما لا يعرفانه - فقال له
مفضل على : إني وهذا اختلفنا في خير الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
فقلت : على بن أبي طالب ، فقطع السيد كلامه وقال : وأى شيء قال هذا الآخر
ابن الزانية ؟ فضحك من حضر ، ووجم الرجل ولم يجر جواباً .

وركب سفينة إلى الأهواز ، فمراه رجل في تفضيل على ، وباهله على ذلك
فلما كان الليل قام الرجل على حرف السفينة يقضى حاجته ، فدفعه السيد ففرقه ،
فصاح الملاحون : غرق - والله - الرجل ، فقال السيد : دعوه فإنه باهلى^(١) .

واستمع إليه يمثل الخصومة العنيفة التي كانت بين رجال الحديث من أهل
السنة والشيعة ، فالشيعة لا تدين بحديث يرويه سنى ، وأهل السنة لا تظمن
نفوسهم إلى أحاديث الشيعة إلا إذا عاضدتها رواية سنية . وعلى هذه الأسس كان
للشيعة فقه وتشريع ، يخالف الفقه السنى والتشريع السنى .

يسجل لنا السيد هذه الخصومة ، وقد لقي رجلا يختلف إلى ابني قيس - وكانا
يرويان عن الحسن - قال الرجل : فلقيني السيد ، وأنا منصرف من عندهما ،
فقال : أرني ألواحك أكتب فيها شيئا ، وإلا أخذتها فحوت ما فيها ، فأعطيته
ألواحي ، فكتب فيها :

لشربة من سويق عند مسغبة وأكلة من ثريد لحم وارى
أشد مما روى حبا إلى بنو قيس ، وما روى صلت بن دينار^(١)
ما رواه فلان عن فلانهم ذاك الذى كان يدعوهم إلى النار
رثاء السيد :

والرثاء عنصر أصيل فى الأدب الشيعى بل هو شطر الأدب الشيعى ، فقد
علمنا أنه قِباح عاطفتين - عاطفة الحزن وعاطفة الغضب - لذلك كان رثاء أدباء
الشيعية من الأدب العاطفى الرقيق ، وللسيد فى هذا الفن أدب باك حزين يتلمس
مواطن الإحساس ، فيهمز النفوس هزاً عنيفاً ، يقول ، فيرثى الحسين بن على
- رضى الله عنه - :

أمر على جدث الحسيه - ين قتل لأعظمه الزكّيه :
آأعظما لا زلت من وطفاء ساكبة رويّه ؟
وإذا مررت بقبره فاطل به وقف المطية
وابك المطهر للمطهر والمطم - رة النقية
كبكاء معولة أتت يوما لواحدّها المنية

ففى هذه الأبيات جودة ، وفيها عاطفة ، ولهذا الوزن القصير . وتلك القافية ،
أثرهما فى الرثاء والندب ، وتأثيرهما فى النفس الحزينة ، ومثل هذا الشعر ، أوفق
ما يكون للنوح والبكاء ، ومن أجل ذلك ، كان الفاطميون يجلسون لسماعها
من السيد ، وتجلس نساؤهم خلف ستر ثم ييكون ما شاءوا .

وفى هذه الأبيات نقد حسن ، فقد سمعها بعض النقاد ، فقال : ويلي على
الكيسانى ، الفاعل ابن الفاعل !! يقول :

فإذا مررت بقبره فاطل به وقف المِطِيّه ؟

(١) صلت بن دينار الأزدي البصري محدث ، ضعيف الحديث منهم الرواية ،
وكان ينال من الإمام على - رضى الله عنه - الأغاني ج ٧ ص ٢٥١ .

أو لا ينجر ! ، أو لا يقتل نفسه ! فشكته أمه !
وهذا النقد يذكرنا بنقد العبدى لأبيات السيد فى على بن أبى طالب ، يعارض
شاعر الشراة ، قيس بن الأصم الضبى على رواية ياقوت :
إنى أدين بما دان الوصى به يوم الخريبة من قتل الحليين^(١)
وبالذى دان يوم النهر دنت به وشاركت كفه كفى بصفينا
تلك الدماء معاً يارب فى عنقى ومثلها فاسقى آمين آمينا
فقال له العبدى : أخطأت ، لو شاركت كفك كفه كنت مثله ، ولكن
قل : تابعت كفى كفه لتكون تابعاً لا شريكاً ، فكان السيد بعد ذلك يقول :
أنا أشعر الناس إلا العبدى^(٢) .

هذا ، وسوف لا ننسى رثاءه لأخيه ، وأعتقد أن السيد فى قوله :
يا بن أمى فدتك نفسى ومالى كنت ركنى ، ومفرعى ، وجمالى
شاعر يحسن تصوير الفجعة ، على أن مذهب السيد كان جنائية عليه فى كل
فنونه الشعرية ، فذهب رثاؤه حتى لم يبق منه إلا ما رويناه .
أخباره وفكاهاته :

ننتقل سريعاً إلى ذكر طائفة من أخبار السيد وفكاهاته لنستكمل تصوير
الرجل تصويراً واضحاً ، فالناحية الجدية وحدها ليست صالحة للحكم إلا من ناحية
واحدة ، ليست هى كل شىء ، بل قد لا تكون شيئاً بجانب ما يقابلها من هزل
ودعابة يبرز فيها الرجل نفسه على حقيقتها .

(١) الخريبة : موضع بالبصرة كانت به وقعة الجمل ، وما أثبتناه رواية الأغاني
ومعجم البلدان . ومناقب آل أبى طالب — وقد رواها للبرد ، [أنظر رغبة الأمل
من كتاب السكامل ج ٧ ص ١٧٧] يوم النخيلة : ويوم النخيلة كان بين الخوارج
والغيرة بن شعبة والى معاوية ، ولم يكن لعلى به وقعة مع الخوارج .
(٢) الأغاني ج ٧ ص ٢٧٣ طبع دار الكتب .

على أن السيد في هزله هو السيد في جده ، شيعى لم يتخل عن مذهبه ، به
يفتخر ويعتز ، وبه يستشفع ويسترضى .

وقد كان السيد - ككل الشعراء - يأخذ حظه من المجون والروح والتفكه
مع الناس في غير إسراف ، وله من ظرفه ، وخفة روحه ، وتسامح الولاة معه
- لتشييعهم المستور - خير مساعد ، وقد طالما أخذه العسس لشربه الخمر ،
فبطلقه شعره ، ومكاته الشيعة .

قدم الأهواز ، وأبو بجير بن سمالك الأسدى يتولاها ، وكان له صديقاً وكان
يقشيع ، ويُرَوِّى مولاة يزيد بن مذعور شعر السيد لينشده له ، فذهب السيد إلى
بعض إخوانه بالأهواز ، فشرّب معهم ، فلما أمسى انصرف ، فأخذه العسس ،
وسجنوه ، فكتب من غده إلى يزيد بن مذعور .

قف بالديار ، وحيها يامربع	واسأل ، وكيف يجيب من لا يسمع
إن الديار خلت ، وليس بجوّها	إلا الضوايح ، والحمام الوقع ^(١)
ولقد تكون بها أوانس كالدى	جل ، وعزة ، والرباب وبوزع ^(٢)
حور نواعم لا ترى في مثلها	أمثالهن من الصباية أربع
فمرين بعد تألف ، وتجمع	والدهر - صاح - مشتت ما تجمع
فاسلم فإنك قد نزلت بمنزل	عند الأمير تضرفيه ، وتنفع
تؤقى هواك إذا نطقت بحاجة	فيه ، وتشفع عنده ، فيشفع
قل للأمير - إذا ظفرت بخلوة	منه ، ولم يك عنده من يسمع :
هَبْ لِي الَّذِي أَحْبَبْتَهُ فِي أَحَد	وبنيه ، إنك حاصد ما تزرع
يَحْتَصُّ آلُ مُحَمَّدٍ بِمَحَبَّة	في الصدر قد طويت عليها الأضلع

(١) الضوايح : الثعالب وغيرها ، يقال : ضبح الثعلب والأرنب إذا صوت ، ووقع
الطائر : إذا نزل عن طيرانه .

(٢) بوزع علم امرأة . ولاشك أنها من الكلمات التي تذهب بحمال الشعر .

فدخل بها يزيد على أبي بجير ، وهو يقول : قد جنى عليك صاحب عسسك
مالا قوام لك به ، قال ، وما ذاك ؟ فأسمعه شعر السيد ، فغضب أبو بجير ، وأمر
بإطلاقه ، وأبى السيد أن يطلق إلا مع من أخذ معه ، فأطلقوا من أجله . .
ثم أقام الشاعر عند الأمير مدة ، وعاد بالجوائز السنية ، واتصلت بينهما الأواصر
حتى أباح له النبذ^(١) .

وفي الأغاني عن شبان : « مات منا رجل موسر ، وخلف ابناً له ، فورث
ماله وأتلفه بالإسراف ، وأقبل على الفساد واللهو ، وقد تزوج امرأة تسمى
« ليلي » ، واجتمع على السيد — وكان من أطرف الناس — وكان الفتي
لا يصبر عنه ، وأنفق عليه مالا كثيراً ، وكانت « ليلي » تمذله على إسرافه ،
وتقول له : كأنى بك قد افتقرت ، فلم يغن عنك شيئاً ، فهجاها السيد ، وكان
مما قال فيها :

أقول : يا ليت ليلي في يدي حَنَق	من العداوة من أعدى أعادها
يعلو بها فوق رَعْنٍ ، ثم يَحْدَرُها	في هوة ، فَمَدَّهَدَى يومها فيها
أوليتها في غمار البحر ، قد عصفت	فيه الرياح ، فهاجت من أَوَاضِها ^(٢)
أوليتها قرنت يوماً إلى فرسى	قد شد منها إلى هاديه هادها ^(٣)
حتى يرى لحمها من حضره زِيماً	وقد أتى القوم بعد الموت ناعها ^(٤)
فمن بكأها فلا جفت مدامعها	لا أسخن الله إلا عين باكها ^(٥)

والسيد في هذا ظريف ، ظريف في هجائه ، ظريف في تصويره ، يستلب من
قارئه الإعجاب والضحك ، والبيت الأخير فيه طراقة وجدة .

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٦٨ .

(٢) الأواذي : جمع آذى بالتشديد وهي الأمواج .

(٣) الهادي : العنق . (٤) زيماً : قطعاً متفرقة .

(٥) الأغاني ج ٧ ص ٢٧٠ .

ويقول أبو الفرج : وما يحكى عنه أنه اجتمع في طريقه بامرأة تميمية إباحية ، فأعجبها ، وقالت : أريد أن أتزوج بك ، ونحن على ظهر الطريق ، قال : يكون كنكاح أم خارجة^(١) قبل حضور ولى شهود . فاستضحكت وقالت : ننظر في هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ فقال :

إن تسألني بقومى تسألني رجلا في ذروة العز من أحياء ذى يمن
حولى بها ذو كلاع في منازلها وذو رُعَيْنٍ ، وهدانٌ ، وذو يزن^(٢)
والأزد - أزد عمان - الأكرمون إذا
عدت مآثرهم في سالف الزَّمن
بانت كرميتهم عني فدارهم
دارى ، وفي الرَّحْبِ من أوطانهم وطنى
لى منزلان : بلحج منزل وسط منها ، ولى منزل للعز في عدن^(٣)

(١) نكاح أم خارجة : يضرب به المثل في السرعة . فيقال : أسرع من نكاح أم خارجة ، وهى عمرة بنت سعد ، كان يأتيها الخاطب ، فيقول خطب ، فتقول : نكح ، فيقول : أنزل ، فنقول : أنخ ، فينزل بها معرسا ، قال اللبرد : ولدت أم خارجة للعرب في نيف وعشرين حيا من آباء متفرقة ، وكانت تنزوج الرجل على أن يكون أمرها إليها ، فإن رضيته عاجلت له طعاما إذا أصبح [الليداني ج ١ ص ٦٧ ، والكمال للبرد (والقاموس وشرحه في خطب ونكح)] .

(٢) ذو كلاع : رجلان من أذواء اليمن . وأحدهما يزيد بن النعمان الحميرى ، وهو الأكبر ، والأصغر وينسب إلى ذى الكلاع الأكبر قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - وذورعين : أحد ملوك اليمن الأولى وهو من ولد الحارث بن عمر بن حمير بن سبأ ، وهدان بن مالك : أبو القبيلة العربية للنسوية إليه ، وكانت همدان شيعا على ، وذو يزن ملك من ملوك حمير وابنه سيف بن ذى يزن صاحب الحبشة . الأغاني ج ١٦ ص ٧٥ - بولاق - .

(٣) لحج : خلاف باليمن .

ثم الولاء — الذى أرجو النجاة به
من كبة النار — للهادى أبى حسن

قالت : قد عرفناك ، ولا شيء أعجب من هذا ، يمان وتميمية ، ورافضى وإباضية ، فكيف يجتمعان ؟ فقال : بحسن رأيك في تسخو نفسك ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً . قالت : أفليس النزويج إذا علم انكشف معه المستور وظهرت خفيات الأمور ! قال : فأنا أعرض عليك أخرى . قالت : ما هي ؟ قال : « المتعة ^(١) » التى لا يعلم بها أحد . قالت : تلك أخت الزنى . فقال : أعينك بالله أن تكفرى بالقرآن بعد الإيمان . قالت : فكيف ؟ قال : قال الله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة » . فقالت : أستخير الله ، وأقلدك إن كنت صاحب قياس . ففعلت ، فانصرفت معه ، وبات معرساً بها ، وبلغ أهلها من الخوارج أمرها ، فتوعدوها بالقتل ، وقالوا : تزوجت بكافر ! فجحدت ذلك ، ولم يعلموا بالمتعة فكانت مدة تختلف إليه على هذه السبيل من المتعة ، وتواصله حتى افترقا .

وهكذا يفتخر السيد بنسبه النبى ، وعقيدته الشيعية ، ويحدثنا عن ناحية من الفقه الشيعى ، عن زواج المتعة ، وبه افترق الشيعة عن أهل السنة ، ولهم فيه تأليف ^(٢) ، وحديث طويل ليس من سبيلنا استقصاؤه .

(١) أن تزوج امرأة تتمتع بها أياماً ثم تخلى سبيلها — وكانت مباحة أول الإسلام ، ثم حرمت ، وهى جائزة عند الشيعة .
(٢) كتاب المتعة وما جاء فى تحليلها : للجلودى ، وكتاب المتعة وتحليلها والرد على من حرمها : للصفوانى .

خصائصه الشعرية :

فإذا أنت أردت أن تعرف الجمال الفنى فى شعر هذا الرجل - بعد أن استعرضت جمهرة صالحة من شعره فى أغراضه المختلفة ، فأنت واجده فى هذا النمط الرفيع من القول ، وتلك السهولة السيالة ، والقصص الرائع ، والاستقصاء العميق لمعانيه .

فهو شاعر مقدم مطبوع على قول الشعر ، يقوله بلا كلفة ، ويناديه ، فيستجيب لنسائه ، لا يعرف التعقيد فى الأداء ، ولا الغرابة فى اللفظ ، والمعاذلة فى الأسلوب ، وقد كان ذلك أوفق ما يكون لعصره أولاً ، ولشاعر سياسى مثله يدافع عن حزب مضطهد كحزب الشيعة ، فهو لا ينظم شعره لخاصة وحدهم ، وإنما ينظمه للعامة ، للذين يريد أن يتخذ منهم أنصاراً .

وقد سئل السيد : مالك لا تستعمل فى شعرك من الغريب ما تسأل عنه كما يفعل الشعراء ، فقال : لأن أقول شعراً قريباً من القلوب يلذ من يسمعه ، خير من أن أقول شيئاً متعقداً ، تضل فيه الأفهام .

أقوال العلماء فيه :

من أجل ذلك شهد له شيوخ الأدب ، كالأصمعى ، وأبى عبيدة ، واعترف له بشار بالتقدم^(١) ، وشكر للقدر شغله بمذهبه ، وقال فيه أبو الفرج : وله طراز من الشعر ، ومذهب ، قلما يلحق فيه أو يقارب .

ويقول الزبير بن بكار : سمعت عمى يقول : لو أن قصيدة السيد التى يقول فيها :

(١) الأغاني ج ٧ ص ٢٣٧ .

إن يوم التطهير يوم عظيم خُصَّ بالفضل فيه أهل الكساء^(١)
قرئت على منبر ما كان فيها بأس ، ولو أن شعره كله كان مثله لرويناه
وما عبناه .

ويقول العتيبي : ليس في عصرنا هذا أحسن مذهبا في شعره ولا أنقى
ألفاظا من السيد ، ثم قال لبعض من حضر : أنشدنا قصيدته اللامية ، التي أنشدتنا
إياها اليوم ؛ فأنشده :

هل عند مَنْ أَحْبَبْتَ تَنْوِيلَ أَوْ لَا ، فَإِنْ اللُّومُ تَضْلِيلُ؟^(٢)
أُمُ فِي الْحِشَاءِ مِنْكَ جَوِّى بَاطِنٌ لَيْسَ تَدَاوِيهِ إِلَّا بَاطِلٌ؟
عَلَّقْتَ - يَا مَفْرُورَ - خِدَاعَةَ بِالْوَعْدِ مِنْهَا لَكَ تَحْيِيلُ
رَبًّا رَدَّاحَ النَّوْمِ خَصَانَةَ كَأَنَّهَا أَدْمَاءُ عَطْبُولِ^(٣)
يَشْفِيكَ مِنْهَا حِينَ تَخْلُو بِهَا ضَمُّ إِلَى النُّحْرِ وَتَقْبِيلُ
وَذَوْقَ رَيْقِ طَيْبِ طَعْمِهِ كَأَنَّهُ بِالْمَسْكِ مَعْلُولُ
فِي نِسْوَةٍ مِثْلَ الْمَاءِ خُرْدٌ تَضَيِّقُ عَنْهُنَّ الْخِلَاحِيلُ

(١) في الزرقاني على المواهب اللدنية ج ٧ ص ٤ طبع بولاق : أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم جاء ومعه علي وحسن وحسين ، آخذا كل واحد منهما بيده حتى دخل
فأدنى عليا وفاطمة ، وأجلسهما بين يديه ، وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما
على فخذه ثم لف عليهما كساء ، ثم تلا « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل
البيت ويطهركم تطهيرا » وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي » . وانظر روح المعاني
ج ٧ ص ٤٤ .

(٢) رواية الأغاني « أم لا » والصواب ما أئبتهاه [ج ٧ ص ٢٤٧] :

(٣) الرداح : الثقبلة العجيبة ، والجلل المثلث حمل الذي لا ابتعاث له ، ومن هنا
أخذ السيد معناه . . يريد أنها نؤوم قليلة الابتعاث من النوم ، ومن عبارات للروح
للمرأة قديما : نؤوم الضحى .

يقول فيها :

أقسم بالله وآلائه والمرء عما قال مستول
إن عليّ بن أبي طالب على التقي والبر محبوب

فقال العقبى : أحسن والله ما شاء ، هذا والله الشعر الذى يهجم على القلب
بلا حجاب .

ويقول أبو عبيدة : أشعر الحديثين السيد الحميرى ، وبشار .

وفى الأغانى عن لبطة بن الفرزدق : تذاكرنا الشعراء عند أبي ، فقال :
إن هاهنا لرجلين ، لو أخذنا فى معنى الناس لما كنا معهما فى شيء ، فسألناه ،
من هما ؟ فقال : السيد الحميرى ، وعمران بن حطان السدوسى ، ولكن الله
عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول فى مذهبه^(١) .

وهذا خطأ من الأغانى بالنسبة للسيد على الأقل ، فالفرزدق توفى سنة عشر
ومائة من الهجرة ، والسيد غلام فى الخامسة من عمره ، فمن غير المعقول أن
يشهد له ، ولكنه أبو الفرج ، وحرصه على الجمع .

نسبه :

وبعد ، فهذا هو إسماعيل بن محمد بن زيد بن ربيعة بن مفرغ الحميرى الملقب
بالسيد ، والمسكنى بأبى هاشم . . . ورث الشعر عن جده يزيد بن مفرغ ،
وقد كان شاعراً أموياً مقدماً من شعراء الأغانى^(٢) هجا زياداً وآل زياد ،
وعرف سجن عبيد الله بن زياد ، وهو القاتل — لما استلحق معاوية زياداً
ونسبه إلى أبيه — :

(١) الأغانى ج ٧ ص ٢٣١ .

(٢) ج ١٧ ص ٥١ ، ٧٣ طبع بولاق .

ألا أبلغ معاوية بن حرب مُعَلِّفَةً من الرجل اليماني
 أتغضب أن يقال : أبوك عَفَّ وترضى أن يقال : أبوك زانى ؟
 فأشهد أن رِحمك من زيادٍ كَرِحم الفيل من ولد الأتانِ
 وأشهد أنها ولدت زياداً وصخرٌ من سُمَيَّةَ غيرُ داني
 وكان أبو السيد وأمه من الخوارج الإباضية ، فكانا يكرهان الأمويين ،
 كما كانا يكرهان بنى هاشم ، وكانا يشتمان معاوية ، كما كانا يشتمان علياً ،
 ومع هذا كان السيد الحميري شيعة لعلی ، ولم يكن يعرف من أين أتاه التشيع ،
 وقد تربى تحت سقف طالما سب فيه أمير المؤمنين على - كما قال (١) - .
 وقد سئل : من أين جاءه التشيع ؟ فأجاب : غاصت على الرحمة غوصاً ،
 ولما علم أبواه بمذهبه هما بقتله ، فأجاره منهما عقبة بن سلم ، وبوأه منزلاً أقام
 فيه حتى ماتا فورثهما .

بيئة السيد وأثرها :

والسيد عربي يمني لأبيه وأمه ، أبوه من حمير ، وأمه من الأزد ، وأعتقد
 أن لهذه البيئة اليمنية أثراً واضحاً في أخلاق السيد ، فعنها - وعن جده يزيد -
 ورث التشيع كما ورث بغض الأمويين ، ولعل هذه البيئة كانت كفيلة بأن تخرج
 للناس من أمثال السيد كثيراً .

وإذا علمنا أن كثيراً يمني قحطاني ، وهو شاعر كيسانى محقق يفنى في هذه
 العقائد المسرفة في الغرابة ، وأن النجاشي (قيس بن عمرو) الشاعر الشيعي اليمني
 قحطاني كذلك ، وكان شاعراً رقيق الدين مستهتراً ، مسرفاً في الشراب واللهو ،
 رغم معاشرته لجلة الصحابة ، وأن دعبل بن علي الخزاعي يمني قحطاني وهو شاعر
 شيعي إمامي ، قوى عندنا هذا الاعتقاد في البيئة اليمنية .

نشأته :

والرواة لم يحدثونا عن شيء من حياة السيد ونشأته ، فذهبت أخبار صباه مع الزمن ، وقد وصفه أبو جعفر الأعرج : بأنه كان أسمر ، تام القامة ، أشنب ، ذا وفرة ، حسن الألفاظ جميل الخطاب ، إذا تحدث في مجلس قوم أعطى كل رجل نصيبه من حديثه .

ولهذه خلال الخلقية والخلقية أثرها في حياة صاحبها ، وإلف الناس له وبخاصة إذا أخذ حظه من الاستمتاع واللهو ، مع ظرف وخفة روح . . وكذلك كان السيد .

وفاته :

ولد شاعرنا سنة خمس ومائة من الهجرة ، وتوفي في خلافة الرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة - على أصح الروايات - بعد أن مدحه بقصيدتين ، أعطاه عليهما بدرتين ، فقرقهما ، فبلغ ذلك الرشيد ، فقال : أحسب أن أبا هاشم قد تورع عن جوارنا .

فالسيد إذن قد شاهد زوال الدولة الأموية ، وقيام الدولة العباسية ، وهي فترة لها أثرها في حياة الأديب السياسي ، ومدح من خلفائها : السفاح ، والمنصور ، والمهدي ، والمهادي ، والرشيد . فكان أثيراً مقدماً عند هؤلاء الخلفاء وحسبك أنه كان شقيقاً في تولية سليمان بن حبيب « الأهواز » ، وتلك مكانة السادة والأشراف ، وأبى لبعدهمته أن يمدح غير خليفة أو أمير .

وقد عاش السيد ومات على مذهبه الكيساني محبوباً من الشيعة مكرماً عندهم ، يقول بشير بن عمار : حضرت وفاة السيد في الرملة^(١) ببغداد ، فوجه رسولا إلى

(١) كانت بغداد مقسمة إلى أحياء شأن - القاهرة اليوم - كل حي يتعصب ==

صف « الجزارين الكوفيين » يعلمهم بحاله ووفاته ، فغلط الرسول ، فذهب إلى صف « السموسين » فشتموه ولعنوه ، فعلم أنه قد غلط ، فعاد إلى الكوفيين يعلمهم بحاله ووفاته فوافاه سبعون كفنًا ، قال : وحضرناه جميعًا ، وإنه ليمتحنر تحسراً شديداً ، وإن وجهه لأسود كالقار ، وما يتكلم ، إلى أن أفاق إفاقة وفتح عينيه ، فنظر إلى ناحية القبلة ثم قال : يا أمير المؤمنين ، أتفعل هذا بوليك ؟ ! قالها ثلاثاً ، فنجلى - والله - في جبينه عرق بياض ، فما زال يتسع ويلبس وجهه حتى صار كله كالبدر ، وتوفى فأخذنا في جهازه ودفناه في « الجنينة » - ببغداد - وذلك في خلافة الرشيد

وقد أبى - صنع الله له - إلا أن يموت على قبح رأيه في الخلفاء قبل على فكان آخر ما نطق :

برئتُ إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخ-وارج أجمعينا
ومن فعلٍ برئتُ ومن فُعِلٍ غداة دعى أمير المؤمنين^(١)
ثم كأن نفسه كانت حصاة فسقطت .

نقول : وإلى الله نكل جزاء الحق على ما اختار لنفسه

= لفكرة - والرميلة : لعلها معرفة عن الرملة أو الرملية انظر : أحسن التقاسيم ، والأعلاق النفيسة .

(١) يعنى بابن أروى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وأروى بنت كرز بن ربيعة من عبد شمس - أم عثمان - وأما البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم ، وفعل وفعل يريد بهما أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ، وقد رويت هذه الأبيات « لكثير عزة » كذلك وهو شاعر كيسانى .

الفصل السّارِس

أثر التشيع في الأدب العربي

التشيع أدب العقائد - التشيع أدب العاطفة والسياسة - التنازع بين الشيعة وخصومهم - أثره في الأدب العربي .

في الحق أن حركة التشيع أغنت الأدب العربي إلى حد كبير، وأسهم أدباؤه في بناء النهضة الأدبية إسهاماً مشكوراً ، بما أنتجوا من أدب ، وأناروا من خصومة . وقد رأينا كيف كان الأدب الشيعي جزل اللفظ ، محكم النسيج ، رصين العبارة ، صادق الأداء . . . صورة ناطقة لنفسيات قومه ، وعواطفهم ، وسجلا خالداً لحياتهم وعقائدهم ، وتصويراً رائعاً لما أصابهم من محن ، وحل بساحتهم من نكبات .

التشيع أدب العقائد :

وعلمنا مصادر الإلهام لهذا الأدب الكريم ، فهو تناج عاطفتين : عاطفة الحزن ، وعاطفة الغضب . وخلاصة ثقافات مختلفة ، عربية وأعجمية ، مزجها الإسلام روحاً ومعنى ، ونقل أصحابها ذاتاً ووطناً ، وأخضعهم لسلطانته إخضاعاً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد . . .

ثم كان الأدب الشيعي أصدق ما تمثلت فيه هذه الثقافات ، إذ كان الحزب الشيعي - لأسباب سياسية ودينية - أكبر حزب جمع هذه العناصر ، ففني بذلك النتاج الشيعي ، وكان الأدب الناتج عنهم أدباً غزيراً قوياً ، تصدره عاطفة ، وقلب وعقل . . . وتوضح عليه ثقافات العراق المبرقة في الرقي ، المتعددة المشارب ،

فاستفاد الأدب العربي من هذه الناحية ، وغزرت مادته ، كما اتسعت معانيه وتنوعت أغراضه .

ترى ذلك واضحاً في هذه العقائد الشيعية التي شرحناها قبل ، ورأينا أثرها في الأدب ، وأدركنا إلى أى حد كان التشيع مجازاً لنقل هذه العقائد المختلفة إلى الحياة العربية ، والعقلية العربية ، والأدب العربي وتلك من غير شك مساهمة المجهود الأدبي ، لم تسكن لولا التشيع .

التشيع أدب العاطفة والسياسة :

وأخرى من ناحية التأثير أن الموقف الذى وقفته الدولة من الشيعة من شأنه أن يلهب العاطفة ، ويثير الوجدان ، ويخلق فناً جديداً من القول ، ومسرحاً جديداً للخيال وقد تمثل ذلك في الأدب السياسى والعاطفى ، وظهر - أول ما ظهر ، وأقوى ما ظهر - في الأدب الشيعى ، أدب النفس الثائرة ، والعاطفة الصادقة ، والحب المتأجج ، أدب العقيدة - كما قلنا - فبنى الشيعة بذلك ركنا من الحضارة الأدبية باذخاً وشديداً ، وكان لهم أكبر الفضل في النهوض بهذه الناحية العاطفية والسياسية ، في وقت كان الأدب الرسمى فيه تطفئ عليه الرغبات المادية والمعنوية ، وتصرفه عوامل الرجاء والخوف ، وتلهب نفوس أصحابه سَنَيَّاتِ العطايا ، وإنك لتلمس ذلك فيما صور الشيعة من آلام ، وشرحوا من حجب ، وكشفوا عن مظالم ، وأثاروا من أحقاد ، دفاعاً عن عقيدتهم ، وجهاداً في سبيل قضيتهم .

النزاع بين الشيعة وخصومهم :

وناحية ثالثة من نواحي التأثير في الأدب العربى وهو أن النزاع بين الهاشميين والأمويين كون أحزاباً مختلفة ، لم تقف الخصومة بينهما عند ذلك الجانب المظلم - جانب السيف والدم - بل تعدتها إلى الاحتجاج واللسن ، إلى هذا الجانب الأدبي الظريف ، فكان هذا التحزب نعمة على الأدب وميداناً فسيحاً للقول ،

يظهر فيه قوته وجماله ، كما كان هذا التحزب سبيلا من سبل النهضة الأدبية بما حرك من عواطف ، وأثار من أفكار .

وأحب أن نلم بهذه الفاحية فهي أخصب أنواع التأثير في الأدب العربي ، وأخطرها ، بل هي أحوج ما تكون إلى بحث شامل ، يظهر لنا أثر الخلاف السياسي في الأدب لولا ما تتطلبه الرسالة من إجمال . نقول : نتج النزاع على الخلافة أحزاباً سياسية ، ففي العصر الأموي : هاشميون ، وأمويون ، وزيريون ، وخوارج ، وفي العصر العباسي : علويون وعباسيون ، وقد أدركت هذه الأحزاب ما للأدب من وقع في النفوس وتأثير ساحر في العقلية العربية ، فاتخذ كل فريق أداة لنشر دعوته ، وتأليف القلوب حوله ، فكان لكل حزب شعراء وخطباء يقومون بالدعاية له . شأن الصحف اليوم . وابتدأ ذلك من أول يوم اختلفت فيه آراء المسلمين حول الخلافة والخليفة ، لكن نتاجها لم يظهر إلى الوجود أدباً يستحق الخلود إلا بعد قتل عثمان بن عفان - رضي الله عنه - واستقلال الجماعات العريية أحزاباً منتظمة ، فأينما في جانب عليّ - رضي الله عنه - شعراء وخطباء ، وفي جانب معاوية كذلك .

في جانب عليّ : أبو الأسود الدؤلي ، والنجاشي - وقيس بن عمرو - ، وأبو الطفيل - وعامر بن وائلة - ، والفضل بن عباس بن عتبة^(١) ، وغيرهم .

(١) ابن أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم ، شاعر الهاشميين ، ولسانهم ، الممثل لآرائهم في كل طور من أطوار الخلافة ، وهو القائل يخاطب بني أمية :

مهلا بني عمنا مهلا موالينا	لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم	وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهلا بني عمنا عن نحت أثلتنا	سيروا رويدا كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنا لا نحبكم	ولا نلومكم ألا تحبونا
كل له نية في بغض صاحبه	بنعمة الله نقليكم وتقلونا

ترجم له في الأغاني ج ١٥ .

وفي جانب معاوية : كعب بن جعيل^(١) ، ومسكين الدارمي^(٢) ، وأبو العباس الأعمى^(٣) وأضرابهم ، كل ينافح عن صاحبه ، ويحتج لقضيته ، ويساف من أجله فإذا قال الوليد بن عقبة^(٤) بن أبي مميظ - أخو عثمان لأمه - يرثي عثمان ، فيتهم بني هاشم وعلياً ويتوعدهم :

ألا من الليل لا تغور كواكبه

إذا لاح نجم ، لاح نجم يراقبه
بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ولا تنهبوه ؛ لا تحل مناهبه
بني هاشم لا تعجزوا بإقادة سواء علينا قاتلوه ، وسالبه
فقد يجبر العظم الكسير وينبرى لذي الحق يوماً حقه فيطالبه
وإننا وإياكم ، وما كان منكم ،
كصدع الصفا ، لا يربأ الصدع شاعبه
بني هاشم : كيف التماقد بيننا ؟ وعند على سيفه وحرائبه

(١) كعب بن جعيل . من بني تغلب بن وائل ، كان شاعر تغلب ، ثم شاعر الشام كلها أيام معاوية .

(٢) ربيعة بن عامر من تميم ، شاعر شريف من سادات قومه ، ترجم له في الأغاني (ج ٨ ص ٦٨) والشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٣) السائب بن فروخ مولى بني الدليل ، شاعر أموى معدود . مقدم عند بني أمية ، (الأغاني ج ١٥ ص ٢٥٩) .

(٤) الوليد بن عقبة من قتيان قريش وشجعانهم وشجعانهم وأجوادهم ، وكان فاسقاً ماجناً ، ولى الكوفة لعثمان - رضى الله عنه - ، فشرب ، وصلى بالناس الصبح أربع ركعات ، فقرأ فيها :

علق القلب الربابا بعد ما تاب وتابا

ثم شهد عليه ، فخذ . . . وتولى حده على بن أبي طالب .

لعمرك ! لا أنسى ابن أروى وقتله

وہل ينسین الماء — ما عاش — شاربہ

ہم قتلوه کی بكونوا مکافہ کما غدرت يوماً بکسری مرآزبہ

ولمى لجتاح إلیکم بحفل یصم السميع جرسہ وجلائبہ

انتدب له الفضل بن عباس بن عتبة یرد علیہ ، وینافح عن علی وبنی ہاشم

فیقول :

فلا تسألونا بالسلاح فإنه أضيع ، وألقاه لدى الروع صاحبه

سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا

فہم سلبوہ سيفہ ، وحرائبہ

وكان ولی العهد بعد محمد « علی » وفي كل المواطن صاحبه

« علی » ولی الله ، أظهر دينہ وأنت مع الأشقيين فيمن تحاربہ

وقد أنزل الرحمن أنك فاسق فمالك في الإسلام سهم تطالبہ^(۱)

وشبهته كسرى ، وقد كان مثله

شبیہا بکسری ، ہدیہ وعصائبہ^(۲)

(۱) فی الولید نزل قول الله تعالى : (إن جاءکم فاسق بنبأ فتبينوا) وذلك أن رسول الله - صلى الله علیہ وسلم - أرسله مصدقا إلى بنی المصطلق ، فخرجوا للقاءہ فہابہم ، فعاد إلى رسول الله وأخبرہ أنهم ارتدوا عن الإسلام ، فغضب الرسول - صلى الله علیہ وسلم - وأمر بالسلاح فنزلت الآیة (المعارف ص ۱۳۹) والأغانی ج ۵ ص ۱۲۰) وانظر کتب التفاسیر .

(۲) الأغانی ج ۵ ص ۱۲۰ ، والاستیعاب ص ۳۲۳ ، ومجمع الامثال المیدانی ج ۱ ص ۳۰۷ .

وهكذا يمضي الشاعران كل في سبيله ، فالوليد يرثى عثمان ، ويثتم بنى هاشم
ويحرض معاوية على الأخذ بثأر أخيه ، والفضل ينقض قوله ، ويسفه رأيه وينافح
عن صحابته^(١) والأدب العربي ينعم بهذا كله ، فتغزر معانيه ،
ويسمو خياله .

ويجب أن نذكر تلك الكتب المتبادلة بين علي ومعاوية - رضى الله عنهما -
فلها حظ قوى جداً من جمال الأدب ، وللأدب العربي منها حظ قوى من الفنى
والثروة .

وكم كانت هذه الكتب تحتم بشعر الشاعر من هذه الأحزاب وفى
هذا دلالة على تقدير الزعماء للشعر ، وأثره فى العقلية العربية .

فى الكامل : وكتب معاوية - رضى الله عنه - « بسم الله الرحمن الرحيم
من معاوية بن صخر إلى على بن أبى طالب ، أما بعد : فلعمرى ، لو بايعك القوم
الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان . كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى
الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذات عنه الأنصار
فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع
إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين .

ولعمرى ما حُجَّتْكَ عَلَى كَحُجَّتِكَ عَلَى طَلْحَةَ وَالزَّيْبِر ، لأنهما بايعاك ولم
أبايعك ، وما حُجَّتْكَ عَلَى أَهْلِ الشَّامِ كَحُجَّتِكَ عَلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ لِأَنَّ أَهْلَ الْبَصْرَةِ
أَطَاعُوكَ ، وَلَمْ يَطْعَمْكَ أَهْلُ الشَّامِ .

وأما شرفك فى الإسلام ، وقرابتك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وموضعك من قریش ، فلست أدفعه .

(١) العقد ج ٣ ص ١٠٩ ، وابن الاثير ج ٣ ص ١٨٠ ، والطبرى ج ٥ ص ١٥١ ،
والأغانى ج ٧ ص ٢٢ ، وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

ثم كتب إليه في آخر الكتاب بشعر كعب بن جهم وهو :

أرى الشام تذكره ملك العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مُنْقَضًا يرى كل ما كان من ذلك ديننا
إذا ما رمونا رميناهم فقالوا : على إمام لنا
وقالوا : نرى أن تدينوا له فقلنا : ألا ، لا نرى أن نديننا
ومن دون ذلك خرط القتاد وطين وضرب يفض الشونا^(١)
[وكل يسر بما عنده يرى غث ما في يديه سمينا
وما في على لمستعقب مقال سوى ضمه المحدثينا
وإشاره اليوم أهل الذنوب ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سيل عنه هذا شبهة وعى الجواب على السائلينا
فليس براض ولا ساخط ولا في النهاية ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سر ولا بد من بعض ذا أن يكونا^(٢)

فهذه الأبيات من كعب تمثل نظرة الشاميين إلى علي وصحبه في مسألة عثمان ومن أجل ذلك جعلها معاوية جزء رسالته .

فكتب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - جواب هذه الرسالة « بسم الله الرحمن الرحيم : من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن صخر ،

- (١) الشئون : جمع شأن ، وهي موصل قبائل الرأس ، ويفض ، يفرق .
(٢) رغبة الآمل من كتاب الكامل ج ٣ ص ٢١١ ، وما بين القوسين عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١ ص ١٨٥ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٨٥ تركها للبرد محرجا ، ولكن كما يقول أستاذنا المرصفي : إن الهجاء لا يكسف ضوء الشمس ، ولا يخسف نور القمر - أقول ، بل لقد كانوا يأخذون بضبعه إلى السماء .

أما بعد ، فإنه أتاني منك كتاب امرئ ليس له بصريهديه ، ولا قائد يرشده ، دعاه الهوى فأجابه ، وقاده فاتبعه . زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خطيئتي في عثمان ، ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ، ولا يضربهم بالعمى .

وبعد : فما أنت وعثمان !! إنما أنت رجل من بني أمية ، وبنو عثمان أولى بمطالبة دمه . فإن زعمت أنك أقوى على ذلك فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلى . وأما تمييزك بينك وبين طلحة والزبير . وأهل الشام وأهل البصرة فلعمرى ما الأمر هناك إلا سواء . لأنها بيعة شاملة . لا يستثنى فيها الخيار . ولا يستأنف فيها النظر . وأما شرفي في الإسلام وقرابتي من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وموضعي من قریش فلعمرى لو استطعت دفعه لدفعته .

ثم دعا النجاشي - أحد بني الحارث بن كعب - فقال له : إن ابن جعيل شاعر أهل الشام . وأنت شاعر أهل العراق . فأجب الرجل . فقال : يا أمير المؤمنين أسمعني قوله . قال : إذا أسمعك شعر شاعر فقال النجاشي :

دعا يا معاوى ما لن يكونا فقد حقق الله ما تحذرونا
أنا كم على بأهل العراق وأهل الحجاز فما تصنعونا
(على كل جرداء خيفانة وأجرد نهدي يسر العيون^(١))
عليها فراس مخشمية كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطمان خلال العجاج وضرب الفوارس في النقع دينا
هم هزموا الجمع - جمع الزبير وطلحة - والمعشر لنا كئينا

(١) فرس أجرد : قصير الشعر رقيقه ، والخيف محركة - في الفرس وغيره -
زرقة إحدى العينين ، وسواد الأخرى .

وآلوا يميناً على حلقة لنهدى إلى الشام حرباً زُبُونَا
تَشِيبُ النواهد قبل الشيب وتُلْقَى الحواملُ منها الجَنِينَا
فإن تَكَرَّهُوا المَلِكَ - مَلِكَ العِرَاقِ -

فقد رضى القوم ما تَكَرَّهُونَا
فقل للمُضَلَّل من وائل ومن جعل الفث يوماً سَمِينَا
جعلتم علياً وأشـياعه نظير ابن هند؟ أما تستحونَا؟!
إلى أفضل الناس بعد الرسول وصنو الرسول من العالمِينَا
وصهر الرسول ، ومن مثله إذا كان يوم يشيب القرونَا^(١)
فجعلها على ختام رسالته .

يقول ابن أبي الحديد : وأبيات كعب خير من هذه الأبيات ، وأخْبِثْ
مَقْصِداً ، وأدهى ، وأحسن .

نعم هي شعر شاعر كما يقول على .

ومهما يكن . فقد أبلى الشاعران في سبيل مذهبيهما بلاءً حسناً ، وأضافا إلى
التراث الأدبي ثروة ، نستطيع - على ما فيها - أن نعدّها من الأدب الرفيع .

قالوا : لما قامت الحرب بين على ومعاوية بصفين بعث النجاشي إلى معاوية
يقول^(٢) :

يأيها الرجل المبدى عداوته انظر لنفسك أى الأمر تأتمر
فإن نفست على الأقبام مجدهم فابط يديك فإن الخير مبتدر
واعلم بأن علىّ الخير من نمر شم العرّائين لا يعلمهم بشر

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥٢ - وقد ترك المبرد ما بين القوسين تخرجاً .

(٢) ابن أبي الحديد ج ٨ ص ٢٨٢ ، والشعر والشعراء ص ٨٩ .

نعم الفتى هو إلا أن بينكما كما نفاضل ضوء الشمس والقمر
وما إخالك إلا لست منتهيا حتى ينالك من أظفارنا ظفر
وفي الأغاني ، لما استقام معاوية الأمر ، لم يكن شيء أحب إليه من لقاء أبي
الطفيل - عامر بن والملة - فلم يزل يكتبه ، ويلطف له ، حتى أتاه ، فلما قدم عليه
جعل يسأله عن أمر الجاهلية ، ودخل عليه عمرو بن العاص ونفر معه ، فقال لهم
معاوية : أما تعرفون هذا ؟ هذا خليل أبي الحسن ، ثم قال : يا أبا الطفيل : ما بلغ
حبك لعلي ؟ قال : حب أم موسى موسى ، قال : فما بلغ من بكائك عليه ؟ قال :
بكاء العجوز الشكلى ، والشيخ الرقوب ، وإلى الله أشكو التقصير ، قال معاوية :
إن أصحابي هؤلاء لو كانوا سئلوا عنى ما قالوا فى ما قلت فى صاحبك ، قالوا :
إذا والله لا تقول الباطل ، قال معاوية : لا والله ، ولا الحق تقولون ، ثم قال :
هذا الذى يقول :

إلى رجب السبعين تعترفوننى مع السيف فى حواء جم عديدها^(١)
رجوف ، كتن الطود ، فيها معاشر

كغلب السباع ، نمرها ، وأسودها
كهول وشبان وسادات معشر على الخيل فرسان قليل صدودها
كأن شعاع الشمس تحت لوائها إذا طلعت أعشى العيون حديدها
شعارهم سيما النبی ، وراية بها انتقم الرحمن ممن يكيدها
تخطفهم آباءكم عندهم ذكرهم

كخطف ضواری الطیر صيدا تصيدها

(١) رجب اسم للشهر المعروف . ويكنى به عن السنة (مجمع الأمثال ج ١
ص ٤٢٣) وفى رواية إلى رجب الستين ، ولعله أضاف شهرا إلى رجب ، ثم أطلق
عليهما « رجبيا » تغليبا ، أو لعله يريد إلى أن أبلغ هذه السن تجدوننى فتبلا أزال
وقد عمر أبو الطفيل ، فكان آخر من مات من الصحابة [نوفى سنة ١٠٠] .
(٢٣ — أدب الشيعة)

فقال معاوية لجلسائه : أعرفتموه ؟ قالوا : نعم ، هذا أخفش شاعر ، والأم جليس ، فقال معاوية : يا أبا الطفيل ، أتعرفهم ؟ فقال : ما أعرفهم لخير وما أبعدهم من شر .

قال : وقام خزيمة الأسدي فأجابه :

إلى رجب ، أو غرة الشهر بعده تصبحكم حمر المنايا وسودها
ثمانون ألفاً دين عثمان دينهم كتائب فيها جبرئيل يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ، ومن يميت ففي النار سقياه هناك صديدها
وهكذا كانت حادثة عثمان - رضى الله عنه - مدداً فياضاً لأدباء السياسة
تتجادل فيها الطوائف الهاشمية والأموية والخارجية ، حتى كان لأبي الطفيل وأبي
العباس الأعمى فيها مناقضات كثيرة . جعلت أبا العباس يقول :

لعمرك إننى وأبو طفيل لختلفان والله الشهيد

أرى عثمان مهتدياً ، ويأبى متابعى وآبى ما يريد^(١)

ولقد كان للمرأة العربية صوت فى هذا النزاع السياسى - كما قلنا - فعائشة
أم المؤمنين تقود الجيش إلى البصرة ، وتحارب علياً فى وقعة الجمل ، وتخطب الناس
فى شأن على وعثمان وتحتج انظريتها^(٢) ، وطبيعى أن يقف بجانبها شعراء وخطباء ،
وطبيعى أن يبعث هذا علياً وأنصاره على القول دفاعاً عن أنفسهم وذوداً عن
حياضهم . وكل ذلك أثر من آثار الحزب ، ولعلنا على ذكر من هذه الأبيات
الأدبية التى تمثل المرأة الشيعية ، وقد نقلنا طرفاً منها فى فصل سابق ، ومن
من الأدباء لا يعرف نهج البلاغة وما جمع من خطب الإمام على . تصور هذا
الإمام الكريم أوضح تصوير وأتمه ؟ .

(١) الأغاني ج ١٥ ص ٦٠ .

(٢) العقد ج ٣ ص ٩٦ ، وانظر مع هذا كتب التاريخ وابن أبى الحديد فى وقعة الجمل .

فإذا سرنا تبعاً مع هذا النزاع السياسى ، أدهشنا تلك الثروة الكلامية التى كانت نتيجة طبيعية لهذه الحياة المستعرة ، وليس من سبيل إلى نقلها فى هذه العجالة . . . ولكننا نحملك على كتب الأدب والتاريخ . . . فى كل ذلك صفحات مشرفة ، وفحات عطرية من هذا النتاج القيم .

المجالس الأدبية :

على أنه يلفتنا بنوع خاص هذه المجالس الأدبية التى كانت تعقد فى المساجد والأندية ، وقصور الخلفاء والولاة ، فيتبارى فيها أدباء هذه الأحزاب السياسية ورجالها ، وفى هذه المجالس يتجلى الذهن العربى فى أبهى حله الأدبية ، وفى هذه المجالس ترى إلى أى حد حصفت هذه العقول ، فلمكت طرائق البيان الارتجالى .

يقول عثمان بن طلحة : شهدت من ابن عباس - رضى الله عنهما - مشهداً ما سمعته من رجل من قريش . . . كان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير أصغر منه ، فيجلس عليه ابن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أحدث تجاه سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سيرره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المحدث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فعلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق ، فقال : إن ناساً يزعمون أنبيعة أبى بكر كانت غلظة ، وفلته ، ومغالبة ، ألا إن شأن أبى بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، ويزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - أحد أثبت إيماناً ولا أعظم سابقة من أبى بكر ، فمن قال غير هذا فعليه لعنة الله ، فأين هم حين عقد أبو بكر لعمر ، فلم يكن إلا ما قال ؟ ثم ألقى عمر حظهم فى حظوظ ، وجدهم فى جود ،

فقسمت تلك الحظوظ ، فأخر الله سهمهم وأدحض جدهم ، وولى الأمر عليهم من كان أحق به منهم^(١) ، فخرجوا خروج اللصوص على التاجر ، خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غرة فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب^(٢) . فقال ابن عباس : على رسلك أيها القائل في أبي بكر وعمر والخلافة . . . أما والله ما نالا ، ولا نال أحد منها شيئاً إلا وصاحبنا خير مما نالا ، وما أفكرنا تقدم من تقدم لعيب عيبنا عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً ، وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكامتك ، ولكن ما أنت وما لاحظ لك فيه ؟ اقتصر على حظك ، ودع تيمناً لقيم ، وعدياً لعدى ، وأمياً لأمية ، ولو كفى قيمي أو عدوى أو أموى لكلمته وأخبرته خبر حاضر عن حاضر ، لا خبر غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ؟ فإن يكن في أسد بن عبد العزى شيء فهو لك ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ممن أمسيت تظن أنك تصول به علينا ، وما أخلق ثوب صفية^(٣) بعد ، والله المستعان على ما تصفون .

ويقول ابن عبد ربه في العقد : اجتمعت قريش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية ، حقاراً له ، فبلغه عنه بعض

(١) يشير إلى اختيار عمر - رضى الله عنه - أصحاب الشورى الستة . وفيهم علي وعثمان ، وما كان من مبايعة عثمان بالخلافة .

(٢) هذا رأى لعبد الله بن الزبير ، وإذا صح فليس الزبير أبوه بأقل من علي خروجا على عثمان وحظاً من قتله .

(٣) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأم الزبير بن العوام والد عبد الله . . . ولعل ابن عباس يريد أن يذكر ابن الزبير بهذه القرابة .

ما غمه . . فقال معاوية : رحم الله أبا سفيان والعباس ، كان صفيين دون الناس ،
 حفظت الميت في الحى والحي في الميت . . استعملك على - يا ابن عباس - على
 البصرة ، واستعمل عبد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك [تماماً] ^(١) على
 المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هأنكم ما فى أيديكم ، ولم أكشف عما وعت
 غرائركم وقلت : آخذ اليوم وأعطى غداً مثله ، وعلمت أن بدء اللؤم يضر بعاقبة
 الكرم ، ولو شئت لأخذت بمخاقيمكم وقيأتكم ما أكلتم ، لا يزال يبلفنى عنكم
 ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أ كثر من ذنوبنا إليكم : خذلتم عثمان بالمدينة ،
 وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتمونى بصفين ، ولعمري لبنى تيم وعدى ، أعظم
 ذنباً منا إليكم إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وسنوا فيكم هذه السنة ، فحتى
 متى أغضى العيون على القذى ، وأسحب الذبول على الأذى ، وأقول : لعل
 وعسى . . ما تقول يا ابن عباس ؟

فتكلم ابن عباس ، فقال : رحم الله أبانا وأباك ، كانا صفيين متفاوضين ،
 لم يكن لأبى من مال إلا ما فضل لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبى ، ولكن
 من هنا أباك بإخاء أبى ، أ كثر ممن هنا أبى بإخاء أبيك ، نصر أبى أباك
 فى الجاهلية ، وحقن دمه فى الإسلام ^(٢) .

وأما استعمال على إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلاً لهواك
 لا لنفسك ، منهم : ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبُشر بن أرطاة على اليمن
 نغان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرد ، والضحاك بن قيس الفهرى على الكوفة

(١) لما خرج على حرب الجمل أمر على المدينة تمام بن عباس وما بين للمعوفين
 عن طبع الاستقامة .

(٢) يشير إلى ما كان من العباس ، إذ شفع لأبى سفيان عند النبي - صلى الله
 عليه وسلم - يوم فتح مكة ، فشفعه الرسول فيه .

فحصب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذى يبلغك عنا بأعظم من الذى يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لحقها ، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسنها . وأما خذلنا لعثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه . وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه . وأما حربنا إياك بصفتين ، فعلى تركك الحق ، وادعائك الباطل . وأما إغراؤك إيانا بتيق وعدى ، فلو أردناها ما غلبونا عليها . وسكت .

فقال فى ذلك ابن أبى لهب :

كان ابنُ حربٍ عظيمُ القدرِ فى الناس حتى رماه بما فيه ابن عباس
ما زال يهبطه طوراً ويصعده حتى استقاد وما بالحق من باس
لم يترك خُطّةً مما يذلّه إلا كواه بها فى فروة الراس^(١)

ولابن عباس فى هذه المواقف الحزبية تناج وافر من الأدب الجدلى يدافع فيه عن نظرية الهاشميين ، وحقوقهم فى الخلافة ، فتراه مرة مع ابن الزبير ، وأخرى مع بنى أمية ، وطوراً مع الخوارج ، يحتاج هؤلاء وأولئك ، بمقل ثاقب ، وبصر نافذ ، وعلم واسع بالدين والأنساب والأدب .

وكذلك كان الحسن بن على ، وابن الحنفية — محمد بن على — وأنصار بنى هاشم فى حسن الجدال والتحاور ، وفى كل ذلك نفع للأدب ، تغرز به مادته ، ويسمو خياله^(٢) .

(١) العقد ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) انظر فى هذا العقد الفريد ، وشرح النهج لابن أبى الحديد . ومروج الذهب . وأمالى المرتضى والإمامة السياسية ، وإعجاز القرآن .

وهذه قطعة من الأدب الخارجى ، أحب أن أنقلها إليك ، فهى أثر من آثار
هذا الشجار الحزنى ، لتدرك معى ، إلى أى حد ، كان النزاع بين الشيعة
وخصوصهم ، سبيلا قويا من سبل النهضة الأدبية ، وباعثا من بواعث الإشراق
البيانى .

على أنى سأقل منها ما يهمنى فى هذا الفصل ، تاركا ما ذكره الخطيب من
سفه وتكشيف .

عاب أهل المدينة أصحاب أبى حمزة الخارجى ، بخفة أحلامهم ، وحادثة أسنانهم
فاعتلى المنبر ، متوكئا على قوس عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه
— صلى الله عليه وسلم — ثم اقتص الخلفاء واحداً واحداً ، إلى مروان بن محمد
— الخليفة الأموى فى عصره — وكان فى نظره إلى الخلفاء يمثل الفطر الخارجى
إلى سياسة الحكم والحكام ، فلم يسلم من لسانه ، إلا أبو بكر وعمر ، ثم أخذ
يوازن بين هذه الفرق الثلاث : الأمويين ، والشيعة ، والخوارج ، موازنة جريئة .

فبنو أمية « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طغما جهالا ، لا يقومون لله بحق ،
ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فملكوا الأمر
وتسلطوا فيه تسلط ربوية ، بطشهم بطش الجبابة ، يحكمون بالهوى ويقتلون على
الغضب ، يأخذون بالظنة ، ويعطون الحدود بالشفاعات ، ويؤمنون بالخونة ،
ويقصون ذوى الأمانة ، يأخذون الفريضة من غير موضعها ، يضعونها فى غير
أهلها ، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال : (إنما الصدقات للفقراء
والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى
سبيل الله ، وابن السبيل) فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها . . . تلكم
الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ، فالعنوهم لعنهم الله .

وأما إخواننا من الشيعة — وليسرا ياخواننا فى الدين — ولكنى سمعت الله عز

وجل قال : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظر نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب ، قد قلدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم العصبية لحزب لزموه وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيا كان أو رشدًا ، ضلالة أو هدى ، ينتظرون الدول في رجعة الموتى ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه ، ينقمون المعاصي على أهلها ، ويمملون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ، ولا يعرفون المخرج عنها ، جفة في دينهم ، قليلة عقولهم ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة ، وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

فأى هؤلاء الفرق يا أهل المدينة تنتفعون ؟ أم بأى مذهبهم تقتدون ؟ وقد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابي ، قلتم : هم شباب أحداث وأعراب جفأة ، ويحكم يا أهل المدينة ! وهل كان أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المذكورون في الخير إلا شبابا أحداثا ؟ أما — والله — إني لعالم بقتابكم فيما يضركم في معادكم ، ولو لا اشتغالي بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم .

شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضبيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر^(١) ، باعوا أنفسهم غداً بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شفق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض ركبهم ، وأيديهم ،

(١) أنضاء جمع نضو ، وأطلاح جمع طلح ، وكلامهما بمعنى المهزول .

وأنوفهم ، وجباههم ، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب الله ، موفون بعهد الله ، منجزون لوعد الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو قد فوقت ، ورماحهم قد أشرعت ، وسيوفهم قد انتضيت ، وبرقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة ، ولقوا شبا الأسنة وشائك السهام ، وظبابة السيوف بنحورهم ووجوههم وصدورهم ، فمضى الشاب منهم قدماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وغفر جبينه بالثرى ، وانحطت عليه طير السماء ، وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب .

فكم من عين في منقار طير ، طالما يكي بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أبيت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعاً وساجداً ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق ، قد فلق بعمد الحديد .
ثم بكى ، وقال : آه !! آه !! على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان^(١) .

بين المنصور والنفس الزكية :

فإذا كان العصر العباسي ، واستعرت الحياة السياسية بين العلويين والعباسيين ووضح هذا الأثر وضوحاً بيناً ، وكانت الخصومة الشيعية مصدر خير عظيم للأدب العربي .

أليست هذه الكتب الأدبية التي تبودلت بين المنصور والنفس الزكية - محمد ابن عبد الله بن حسن العلوي - أثراً من آثار هذا التحزب ؟

(١) الأغاني ج ٢٠ ص ١٠٥ ، والبيان ولتبيين ج ٢ ص ١٠٠ ، وابن أبي الحديد

ج ٥ ص ٥٨ ، والعقد الفريد ج ٢ ص ٣٩٣ .

أوليس هذا النتاج الجدلى الذى خلفه أبان بن عبد الحميد اللاحق ، ومروان بن أبى حفصة ، والسيد الحميرى ، ومنصور التمرى ، ودعبل بن على الخزاعى ، والعكوك ، ودريك الجن وغيرهم نتيجة أدبية لهذا النزاع الشيعى .

لقد كان للشيعنة أدباء — كما علمنا — وكان أدبهم فى العصر العباسى أعمق أثراً ، وأكثر فتاجاً ، وأحر عاطفة ، وأشد تغلقاً فى الحياة الشيعية ، والقضية الشيعية منه فى العصر الأموى ، إذ كان ظلم العباسيين للعلويين أبلغ فى النفس ، وأوقع على القلب من ظلم الأمويين للعلويين :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
فما بالك بظلم يقول فيه الشاعر الشيعى :

يا ليت جور بنى مروان عاد لنا يا ليت ظلم بنى العباس فى النار ؟

فكان من الحتم أن يظهر أثر هذا فى الأدب الشيعى ، وكان من الحتم كذلك أن يبعث قول الشيعة خصومهم على القول يحفزهم على المناخفة ، وفى كل ذلك غنى للأدب وتوسعة لموضوعاته ، وفى كل ذلك صقل للذهن العربى ، والخيال العربى ؛ للشيعة فيه فضل كبير ، إذ لولا هذا الخلاف السياسى بينهم وبين العباسيين ، ولولا أدباء الشيعة ، وما سلكوا من فنون عاطفية ، لظل الأدب العربى على ما ورثه من أغراض مادية ، ولما رأينا هذا النوع الذى يقال للعاطفة والرأى ، وتصوير الميول .

وأنا أروى لك مثلاً من الكتب المتبادلة بين المنصور والنفس الزكية ، أنقله على طوله ، لأنه — بإجماع شيوخ الأدب — مثل قوى رائع للأدب الرفيع ، والنتاج الجدلى الباهر ، ولأنه فوق ذلك يشرح هذا العداء الشديد ، الذى كان يقسم بنى هاشم ، بل العالم الإسلامى ، قسمين — علويين وعباسيين — ، ولأنه يبين شيئاً آخر — أشرت إليه فيما مضى — وهو النظرية السياسية التى كان

يعتمد عليها العباسيون في إقامة ملكهم ، والعلويون في المطالبة بحقهم ،
ولأنه أساس للأدب السياسي في هذا الصدر ، ومنبع فياض اغترف منه أدباء
الطائفتين جميعاً .

لما بلغ أبا جعفر المنصور ظهور « محمد بن عبد الله » كتب إليه يرغبه ويرهبه
ويخوفه عاقبة الخروج والبغى ، ويبذل له الأمان إن تاب وعاد إلى رأى الجماعة ،
فكتب إليه محمد^(١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله المهدي محمد بن عبد الله إلى عبد الله
ابن محمد :

(طسم . تلك آيات الكتاب المبين . نلقو عيلك من نبيا موسى وفرعون
بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ،
يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ، إنه كان من المفسدين .
ونريد أن ننمّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم
الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون هامان وجنودهما منهم
ما كانوا يحذرون) .

وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت على ، فإن الحق
حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعةتنا ، وحظيتم بفضلنا ،
فإن أبانا « علياً » كان الوصى ، وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده
أحياء ؟ !

ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا ، وشرفنا ، وحالنا ،

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ ، ورغبة الآمل ج ٨ ص ٢٧٩ ، والمقد ج ٧ ص

٢٧٥ ، وصبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٤ .

وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء^(١) ، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل الذى نمت به من القرابة ، والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاطمة^(٢) بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام دونكم . . .

إن الله اختارنا ، واختار لنا . . . فوالدنا من النبيين محمد — صلى الله عليه وسلم — ، ومن السلف أولهم إسلاماً على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلى إلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة ، سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين ، سيدا شباب أهل الجنة . . . وإن هاشمًا ولد علياً^(٣) مرتين ، وإن عبد المطلب ولد

(١) يريد باللعناء بنى سفيان ، فقدروا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رأى أباسفيان راكباً جملاً يقوده معاوية ، ويسوقه يزيد أخوه ، فقال الرسول « لعن الله الجمذ وراكبه ، وقائده ، وسائقه » ويريد بالطرداء ، بنى مروان ، وذلك أن الحكم بن أبى العاص كان يسترق أخبار رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويعيب عليه ، فطرده الرسول ، فاختر الطائف ، وأقام بها ، حتى ولى عثمان — رضى الله عنه — فردّه إلى المدينة ، فكان رده إحدى المآخذ على الخليفة الثالث ، ويريد من الطلقاء ، بنى العباس ، فقد كان العباس مع المشركين فى بدر فأُسِر ، فافتدى نفسه ، وعقيل ابن أبى طالب ، بمال كبير . فذلك حيث يتهمهم محمد بهذا اللقب .

على أن التاريخ يعرف الطليق كذلك لقباً لمن كان فى مكة مشركاً ساعة الفتح ، وساعة أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) ولم يكن العباس من هؤلاء .

(٢) فاطمة بنت عمرو من كعب بن لؤى ، زوج عبد المطلب ، وهى أم عبد الله والد الرسول — صلى الله عليه وسلم — والزيير ، وأبو طالب والد على .

(٣) من قبل أبيه أبى طالب . وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم .

حسناً مرتين^(١) ، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم عليه وسلم - ولدني مرتين : من قبل حسن وحسين ، وإني أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أباً ، لم يعرق فيّ العجم ، ولم تنازع^(٢) فيّ أمهات الأولاد ، فما زال الله يختار لي الآباء والأمهات في الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لي في النار ، فأنا أرفع الناس درجة في الجنة ، وأهونهم عذاباً في النار ، وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة ، وابن خير أهل النار ، ولك الله على - إن دخلت في طاعتي وأجبت دعوتي - أن أؤمنك على نفسك وعلى مالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك في ذلك .

وأنا أولى بالأمر منك ، وأوفى بالعهد ، لأنك أعطيتني من العهد والأمان ما أعطيته رجلاً قبلي ، فأى الأمانات تعطيني ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي ؟ أم أمان أبي مسلم ؟

وبهذا استطاع محمد بن عبد الله أن يعرض نظرية العلويين السياسية والدينية ، وهي أنهم ورثوا الخلافة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - لأن أباهم كان وصي النبي - صلى الله عليه وسلم - ولأن أمهم فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم - ووارثته ، فما كان لأحد غيرهم أن يلي الخلافة وهم أحياء .

ثم انظر كيف افتخر بمكانه من الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الإسلام والجاهلية ، ثم بهذه السكرامة التي اختص بها أبناء فاطمة وعلى ، فهو ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار - يريد أبا طالب الذي مات ولم يسلم ، فيروى أنه أقل الناس عذاباً يوم القيامة ، بما دافع به عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

ثم ختم كتابه بشرح سياسة المنصور ، وموقفه من اليهود التي بذلها

(١) من قبل أبيه على ، وأمه فاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

ابن عبد الله بن عبد المطلب .

(٢) يعرض بالمنصور ، فقد كانت أمه (سلامة) أمة بربرية - .

يزيد بن عمرو بن هبيرة عامل العراق ، ولروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، ثم بالأمان ، الذى بذله لعمه عبد الله بن علي ، ثم لأبى مسلم الخراسانى - مؤسس دولة العباس - فقد نقض المنصور كل هذه اليهود وقتلهم شر قتلة .

ولقد كان وقع هذا الكتاب شديداً فى قصر المنصور ، فانتدب كتابه للرد عليه ، وأبى الخليفة إلا أن يرد عليه بنفسه ، فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله . أما بعد . فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فإذا جل خرك بقرابة النساء ، لتضل به الجفأة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لأن الله جعل العم أباً ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لمن على قدر قرابتهم ، كانت آمنة أقربهم رحماً ، وأعظمهم حقاً ، وأول من يدخل الجنة غداً ، ولكن اختيار الله لخلقه على علمه بما مضى منهم ، واصطفائه لهم .

وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها الإسلام ، لا بنتاً ، ولا أبناء ، ولو أن أحداً رزق الإسلام بالقرابة . رزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل : (إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) ولقد بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام ، وله عمومة أربعة ، فأنزله الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان ، أحدهما أبى ، وأبى اثنان ، أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهم إلا ، ولا ذمة ، ولا ميراثاً .

وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذاباً وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير . ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ،

ولا ينبغي لمؤمن ، يؤمن بالله ، أن يفخر بالنار ، وسترده فتعلم ، وسيعلم الذين ظلموا
أى منقلب يتقلبون .

وأما ما نخرت به من فاطمة أم علي ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة
أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم -
ولدك مرتين ، نخير الأولين والآخرين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم
يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة .

وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً ، وأصرحهم أما وأبا ، وأنه لم تلدك
المعجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك نخرت على بنى هاشم طراً .
فانظر - ويحك ! - أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، ونخرت
على من هو خير منك نفساً وأباً ، وأولاً ، وآخر ، إبراهيم بن رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - وعلى والد ولده ، وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم
إلا بنو أمهات أولاد ، وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
أفضل من علي بن حسين ، وهو لأم ولد . وهو خير من جدك حسن بن حسن ،
وما كان فيكم بعده ، مثل ابنه محمد بن علي ، وجدته أم ولد ، وهو خير منك .

وأما قولك : إنكم بنو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن الله تعالى
يقول في كتابه : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم » ولكنكم بنو ابنته ،
وإنها لقراة قريية ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها
الإمامة ، فكيف تورث بها ؟ ولقد طلب بها أبوك بكل وجه ، فأخرجها تخاصم ،
ومرضها سرّاً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما . ولقد جاءت
السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين . أن الجد أبا الأم ، والنخل ، والنخالة .
لا يورثون . وأما ما نخرت به من علي وسابقتها ؛ فقد حضرت رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - الوفاة . فأمر غيره بالصلاة . ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل

فلم يأخذوه . وكان في الستة فتركوه كلهم . دفعأ له عنها ، ولم يروا له حقاً فيها :
أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان وقتل عثمان . وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ،
وأبى سعد بيعته وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده ، ثم طلبها بكل وجه ،
وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكم
حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على خلعه ، ثم كان حسن فباعها
من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى
غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولاته ، ولا حله ، فإن كان لكم فيها شيء فقد
بعموه ، وأخذتم ثمنه ، ثم خرج حسين بن علي على ابن مرجانة ، فكان الناس
معه عليه حتى قتلوه ، وأنوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بني أمية فقتلوكم ، وصلبوكم
على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن
زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم ، وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء في
الحامل ، كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بشاركم ، وأدركنا
بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسينما سلفكم ، وفضلناه فاتخذت ذلك
علينا حجة ، وظفنت أنا إنما ذكرنا أباك ، المتقدمة له منا على حمزة والعباس
وجعفر .

وليس ذلك كما قلت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلماً منهم ،
مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه
كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة « فاحتجبنا له ، وذكرناهم فضله وعنفناهم
وظلفناهم بما نالوا منه ، ولقد علمت أن مكرمنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ،
وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ، فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه
عمر ، فلم نزل عليها في الجاهلية والإسلام ، ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر
إلى ربه ، ولا يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقام الفيت ، وأبوك

حاضر لم يتوسل به ، ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - غيره ، فكان وارثه من عمومته .

ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده ، فالسقاية سقايته ، وميراث النبي - صلى الله عليه وسلم - له ، والخلافة في ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة إلا والعباس وارثه ومورثه .

وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليه للأزمة التي أصابته ، ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرهاً لمات طالب وعقيل جوعاً ، أو يلحسا جفان عتبة وشيبة^(١) ، ولكنه كان من المطعمين فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفناكم النقطة والمؤونة ، ثم فدى عقيل يوم بدر . . فكيف تفخر علينا ، وقد علناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بئاركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ولم تدرکوا لأنفسكم » والسلام .

وبهذا استطاع المنصور أن يهدم مفاخر ابن عمه في شرف المناظرة ، وبراءة الحجاج ، وأن يقيم على أنقاضها مفاخر العباسيين ، ويبسط قضيتهم في الخلافة ، تلك التي تقوم على أن العم أولى بالوراثة من البنت ، وعلى أن العباس قد ورث النبي - صلى الله عليه وسلم - دون أحد من بنى عبد المطلب ، فأبناؤه يرثونه ، وعلى أن بنى عليّ قد نزلوا عن حقهم في الخلافة حين باعها الحسن من معاوية بخرق ودراهم - كما يقول - ثم أخذ يسرد مفاخره في الجاهلية والإسلام ، ويمير العلويين نكرانهم الجليل ، وكفرهم للنعمة . . . فقد نهض بنو العباس بئارهم ، وطلبوا بدمائهم حتى أدركوا الثأر ومسحوا العار ، وأذلوا بنى أمية ، فلم يروا من أبناء عمهم إلا عقوقاً وجهلاً .

(١) عتبة وشيبة: ابنا ربيعة بن عبد شمس وكانا من المطعمين لقريش يوم بدر .
(٢٤ — أدب الشيعة)

وضع المنصور أسس الحجاج السيامى العباسى :

نعم ، وبهذه الرسائل ، وكثير من خطب المنصور ، استطاع هذا الخليفة العباسى أن يشرح قضية الدولة ، ويحتج لها بالكتاب والسنة ، وبصر الشعراء بسبل الحجاج السياسى العنيف فسبحوا فيها ، وافتنوا فى صياغتها ، فكان للأدب العربى من ذلك كله ثروة خالدة وآيات من البيان مشرقة ، جمعت جودة اللفظ ، وغزارة المعنى ، وصفاء الأسلوب ، وجمال العبارة .

فى الطبرى : لما ظهر محمد ، قال ابن هرمة ^(١) لأبى جعفر :

غلبت على الخلافة من تمنى وَمَنَاهُ الْمُضِلُّ بِهَا الضَّلُولُ
فأهلك نفسه سفهاً وَجُبْنًا ولم يقسم له منها فتيل
ووازره ذووا طمع فكانوا غشاء السيل يجمعه السيول
دعوا إبليس إذ كذبوا وجاروا فلم يصرخهم المغوى الخذل
وكانوا أهل طاعته فوقى وصار وراءه منهم قبيل
وهم لم يقصروا فيها بحق على أثر الْمُضِلِّ ولم يطيلوا
وما للناس احتبوك بها ولكن حباك بذلك الملك الجليل
تراث محمد لكم وكنتم أصول الحق إذ نقي الأصول
وفى نظرية النبوة يقول الشاعر :

ألا لله درّ بنى عليّ ودرّ من مقالتهم كثير

(١) إبراهيم بن على ، نشأ بالمدينة ، وتثقف على الرواة والمتأديين ، ثم قال الشعر فأجاد فى المديح وكان متلافا عاكفا على الشراب واللهو ، وكان علوى الرأى وهو القائل : -

ومهما ألام على حاكم فإننى أحب بنى فاطمه

بنى بنت من جاء بالحكماء والدين والسنن القائمة

ولكن حبه للمال لزمه بقصر الخلافة توفى سنة ١٥٠ .

يُسْـمُونُ النبي أبا ويأبى من الأحزاب سطرٌ بل سطور^(١)
 ويفد مروان بن أبي حفصة ليهنئ الرشيد برمضان سنة إحدى وثمانين
 ومائة ، فيقول :

إذا فقد الناس الغمام تتابعت عليهم بكفّيك الغيوث الماطر
 على ثقبة ألفت إليك أمورها قریش ، كما ألقى عصاه المسافر
 أمور بميراث النبي ولينها فأنت لها بالحزم أطاو وناشر
 إليكم تناهت فاستقرت ، وإنما إلى أهله صارت بهن المصائر
 وأبناء عباس نجوم مضيئة إذا غاب نجم لاح آخر زاهر
 ليهنكم الملك الذي أصبحت بكم أسيرته مختالة والمنابر
 أبوك ولي المصطفى دون هاشم وإن رغمت من حاسدك المناخر^(٢)
 ومروان هذا ، كان من أكبر دعاة العباسيين في عهد المهدي والرشيد ،
 فأجزلأ عطاءه ، ورسم المهدي له عن كل بيت يقوله فيهم ألف درهم . . . دخل
 عليه مع الشعراء ، فلما مثل بين يديه أنشده :

طرفتكَ زائرة فحى خيالها بيضاء تخلط بالجمال دلالتها
 قادت فؤادك فاستبقاد ومثلها قاد القلوب إلى الصبأ فأمالها
 فأنصت الناس حتى بلغ إلى قوله :
 هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم ، أم تحجبون هلالها ؟
 أم تجحدون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي ، فقالها ؟

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٣١٢ والمقد ج ٣ ص ١٦٨ .

(٢) الطبري ج ١١ ص ١١٤ ، وكان مروان من موالى بنى أمية ، ومن هنا
 ورث بغضه للشيعة ، ثم رأى في العداء بين أبناء البيت الهاشمي شفاء لما في صدره
 توفي سنة ١٨١ .

شهدت من الأنفال آخر آية بترائهم ، فأردتم إبطالها^(١)
زحف المهدي من صدر مصلاه ، حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع ثم قال :
كم هي ؟ قالوا : مائة بيت ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فكانت أول مائة ألف
درهم أعطيها شاعر في أيام بني العباس ، كما كان ذلك رسم مروان عند العباسيين ،
حتى مات بسبب قوله في الوراثة :

أنى يكون - وليس ذاك بكائن - لبنى البنات وراثة الأعمام
فقد لزمه صالح بن عطية حتى أنس به ، ثم أصاب منه غرة في يوم مرض فيه
مروان من حمى أصابته ، وخلا البيت عليهما ، فأخذ صالح بحلقه ، حتى مات ،
وخرج ولم يفظن أحد بما فعل^(٢) .

سخاء العباسيين على شعراء السياسة :

على أن هذا البذخ من العباسيين على الشعر السياسى خاصة ، وما ناله
مروان كان سبباً في تطلمع كثير من الشعراء ، إلى هذه الصلات الضخمة ،
والجوائز السنية ، فاندفعوا في هذا النوع من الشعر ، وافتنوا في إثبات حق
بني العباس في وراثة الخلافة دون بني علي ، حتى شعراء الشيعة أنسى بعضهم
المال عقيدته ورأيه ، فهذا أبان^(٣) بن عبد الحميد اللاحق - شاعر البرامكة -

(١) العقد ج ١ ص ١٥٩ ، والأغاني ج ١٠ ص ٨٧ ، ومروان يشير إلى قول
الله تعالى « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

(٢) الأغاني ج ١ ص ٩٠ .

(٣) أبان ابن عبد الحميد بن لاحق ، مولى بني رقاش ، فارسي نشأ بالبصرة ،
ثم ارتحل إلى بغداد ، فاتصل بالبرامكة ، فاتخذوه معلماً لأبنائهم ، ومستشاراً لهم ،
فنظم لهم كثيراً من العلوم ، وتركوا إليه امتحان من يفد عليهم من الشعراء وتقدير
جوائزهم ، فانتالت الخصومة بينه وبين شعراء عصره ، توفي سنة ٢٠٠ (الأغاني
ج ٢٠ ص ٧٣) .

ملكته لبه هذه المائة الألف ، فأراد أن يصيب من أموال الرشيد ، ما أصاب مروان ، قالوا : فعاتب البرامكة في ذلك ، وأنكر عليهم تقصيرهم في الإنهاء به إلى الرشيد . . . ولكن الرشيد له مذهب في الشعر ، هو نفى الإمامة عن آل علي وذمهم ، وأبان شيعة لفارسيته ، فكيف يستحل ذلك ! ؟ فنازعته نفسه ونازعها ، حتى تغلبت المائة الألف ، فقال قصيدته :

نشدت بحق الله من كان مسلماً أعمُّ بما قد قلته العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زُلْفَةً لديه ، أم ابن العم في رتبة النسب ؟
وأيهما أولى به وبعم — مده وَمَنْ ذاك له حق التراث بما وجب ؟
فإن كان عباس أحقَّ بقلكم وكان عليُّ بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هُم يرثونه كما للعم لابن العم في الإرث قد حجب^(١)
وهي طويلة ذهب فيها أبان مذهب الفقهاء ، وأصحاب المناظرة — شأنه في شعره التعليمي — نخلت من كل جمال أدبي ، وجاءت على هذا النمط المفكك لصدورها عن غير عاطفة وعقيدة .

ومع هذا أجازها الرشيد ، فأحسن الجائزة ، لأنه لم يحز الأدب ، وإنما أجاز السياسة ثم اتصل مدحه بالرشيد ، وخص به .
وَمَنْصُورُ النَّمْرِىَّ القائل :

شاء من الناس رائع هامل يعللون النفوس بالباطل^(٢)
منصور هذا رأى منزلة مروان ، فملكته جائزته ، فاتصل بالفضل بن يحيى حتى حظى عنده ، ثم سلك مذهب الرشيد في الشعر ، لينال ما ناله مروان ، ولكنه — لتشيعة — حام ولم يقع ، وأوما ولم يحقق ، فلم يصرح بالهجاء والسب ، كما كان يفعل مروان ، ولكنه قال^(٣) :

(١) الأغاني والأوراق للصولي . (٢) انظرها فيما سلف من هذا الكتاب .
(٣) أمالي الشريف المرتضى ج ٤ ص ١٤٤ ، والأغاني ج ١٢ ص ١٧ - ١٩
العقد ج ٣ ص ١٦٩ .

أمير المؤمنين إليك خضنا غمار الهول من بلد شطير
بمُحْصٍ كالأهـالة خافقاتٍ تلين على السرى وعلى الهجير
حلن إليك أحمـالا ثقالا ومثل الصخر والدر النثير
فقد وقف المـديح بمنتهاه وعايته وصار إلى المصير
إلى مَنْ لا تشير إلى رسول إذا ذكر الندى كف المشير
ثم ذكر يحيى بن عبد الله « أخا النفس الزكية ، فقال :

يُذَلِّلُ مَنْ رَقَابِ بْنِ عَلِيٍّ وَمَنْ ، لَيْسَ بِالْمَنْ الصَّغِيرِ
مَنْذَرَتْ عَلَى ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَحْيَى وَكَانَ مِنَ الْخُتُوفِ عَلَى شَفِيرِ
ثم تخلص إلى قضية الوراثة في حيلة الذكي الحذر ، فقال :

فَإِنْ شَكَرُوا ، فَقَدْ أَنْعَمْتَ فِيهِمْ وَإِلَّا فَالْغَدَامَةُ لِلْكَفُورِ
إِنْ قَالُوا : بَنُو بَنَاتٍ فَحَقَّ وَرَدُوا مَا يَنْسَابُ لِلذَّكُورِ
وما لبني بنات من تراث مع الأعمام في ورق الزبور
ثم خاطب العلويين ، فقال :

بَنِي حَسَنِ ، وَرَهْطُ بَنِي حُسَيْنٍ عَلَيْكُمْ بِالْإِسْدَادِ مِنَ الْأُمُورِ
فَقَدْ ذَقِمْتُمْ قَرَاعَ بَنِي أَبِيكُمْ غَدَاةَ الرُّوعِ بِالْبَيْضِ لِلذَّكُورِ
أَحِينَ شَفُوكُمْ مِنْ كُلِّ وَتَرٍ وَضُمُّوكُمْ إِلَى كَنْفٍ وَثِيرٍ
وَجَادُوكُمْ عَلَى ظُلْمٍ شَدِيدٍ سَقِيمٍ مِنْ نَوَالِهِمُ الْفَزِيرِ
فَمَا كَانَ الْعُقُوقُ لَهُمْ جَزَاءَ بِفَعْلِهِمْ وَأَوْى لِلتَّوُورِ
وَإِنَّكَ حِينَ تُبْلِغُهُمْ أَذَاةً وَإِنْ ظَلَمُوا لِحُزُونِ الضَّمِيرِ

فقال له الرشيد : صدقت ، وأمر له بمجازرة دون جائزة مروان ، وهو يقول :

أنت مرید فی بنی علیّ .

ولك أن تسأل النمرى : في أيهما كان صادقا ؟ في هذه الأبيات ، وقد اتهم

بنی علیّ بالعقوق والجحود ، ونكران الجميل ، أم في قوله :

آل النبي وَمَنْ يُجْهِمُ يَظْأَمْنُونَ خِيفَةَ الْقَتْلِ
أَمِنْ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ وَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ التَّوْحِيدِ فِي أَزَلٍ ؟
ولكنه المال ، الذي يقول فيه أمير الشعراء ، أحمد شوقي : « يا مال
الدنيا أنت ، والحياة حيث كنت » ، وقديماً قيل : « اللهم نفثح الآلهة » .
فمن شاء مال الرشيد ، فليسلك مذهبه ، وليقل كما قال الشاعر :

يا بن الأئمة من بعد النبي ويا :
إن الأوصياء ، أقر الناس أو دفعوا
إن الخلافة كانت إرث والدكم
من دون تيم ، وعفو الله مُتَّبِع
لولا عدى وتيم لم تكن وصلت
إلى أمية تمر بها وترتضع
وما لآل على في إمارتكم
وما لهم أبداً في إرثكم طمع
يأبها الناس لا تعزب حلومكم
ولا تضعكم إلى أكنافها البدع
العم أولى من ابن العم فاستمعوا
قول النصيحة ، إن الحق مستمع

ويطول بنا القول ، لو ذهبنا نذكر هذا النوع من الأدب السياسي ، الذي
خلفته الخصومة الحادة بين الشيعة والعباسيين .

فنجتزئ بهذا القدر ، وهو يكفيننا للدلالة على ما كان للشيعة ، من
أثر كبير في الأدب العربي ، أموية وعباسية ، لنفرغ لدراسة عصر آخر من
عصور هذا الأدب .

والحمد لله على ما أنعم ، وله الشكر بما ألهم ،
وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي
وعلى آله وصحبه وسلم

مصادر البحث

الأدب :

- الأغاني : لأبي الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الأموي الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ طبع بولاق في عشرين جزءا .
- العقد الفريد : لأبي عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٧ طبع المطبعة الأزهرية في أربعة أجزاء .
- البيان والتهيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ طبع المطبعة التجارية في ثلاثة أجزاء .
- شرح نهج البلاغة : لابن أبي الحديد أبي حامد عز الدين بن عبد الحميد المدائني طبع دار المكتب العربية في عشرين جزءا .
- نهج البلاغة : جمعه شاعر الطالبين الشريف الرضي (+ ٤٠٦) من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، شرح الإمام الشيخ محمد عبده . وتحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد - مطبعة الاستقامة .
- ديوان المعاني : لأبي هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سعد من علماء القرن الرابع - مكتبة القدس في جزأين .
- زهر الآداب : لأبي الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني (م ٤٥٣ هـ) المطبعة الرحمانية ثم مطبعة السعادة في أربعة أجزاء - تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : لعبد القادر عمر البغدادى (+ ١٠٩٣) مطبعة العصور بالقاهرة في جزأين .
- الكامل : للمبرد أبي العباس محمد بن يزيد الثمالي الأزدي (+ ٢٨٥) شرح المرحوم الشيخ سيد المرصفي « رغبة الأمل في كتاب الكامل » - طبع النهضة - في ثمانية أجزاء .
- العمدة : لأبي علي الحسن بن رشيق الأزدي القيرواني (+ ٤٥٦) - مطبعة حجازي ثم مطبعة السعادة في جزأين تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .

الشعر والشعراء : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (+ ٢٧٦ هـ)
مطبعة الخانجي .

طبقات الشعراء : لمحمد بن سلام الجمحي (+ ٢٣٢ هـ) .

صبح الأعشى في كتابة الإنشا : لأبي العباس أحمد القلقشندي (+ ٨٢١ هـ) -
طبع دار الكتب في أربعة عشر جزءا .

نهاية الأرب في فنون الأدب : لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (+ ٧٣٢ هـ)
- طبع دار الكتب في عشرة أجزاء .

بلاغات النساء : لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور (+ ٢٨٠ هـ) - مطبعة والده
عباس الأول

الأمالي : لأبي علي إسماعيل بن القاسم البغدادى القالى (+ ٣٥٦ هـ) - طبع دار
الكتب في ثلاثة أجزاء

أمالي الشريف المرتضى : للسيد الشريف أبي القاسم علي بن الطاهر أبي أحمد الحسين
(+ ٤٣٦ هـ) - طبع الخانجي في أربعة أجزاء

معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباس
المطبعة البهية ثم السعادة في أربعة أجزاء - تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ
محمد محي الدين عبد الحميد .

فتح القريب شرح شواهد مغني اللبيب : لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي
(+ ٩١١ هـ) المطبعة البهية .

المؤتلف والمختلف : لأبي القاسم الحسن بن يشر الآمدي (+ ٣٧٠ هـ) - مطبعة
القدس

معجم الشعراء : للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (+ ٣٨٤ هـ)

معجم الأدباء : لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي الرومي (+ ٦٢٦ هـ)
مطبعة هندية بمصر في سبعة أجزاء ، ثم في دار المأمون - عشرين جزءا .

العثمانية : للجاحظ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة الخانجي

ديوان الحماسة : لأبي تمام

دواوين الشعراء :

تاريخ أدب اللغة العربية : للرحوم الأستاذ محمود مصطفى

الأدب العربي وتاريخه : للأستاذ محمد هاشم عطية (+ ١٩٥٣)

حديث الأربعة :
للدكتور طه حسين
للدائح النبوية :
للمرحوم الدكتور زكي مبارك
جمهرة خطب العرب :
للأستاذ أحمد زكي صفوت
تاريخ أدب اللغة العربية :
» أحمد حسن الزيات

التاريخ :

تاريخ الأمم والملوك : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (+ ٣١٠ هـ) - طبع
الحسنية في ثلاثة عشر جزءا .
تاريخ السكامل : لابن الأثير على بن محمد الشيباني (+ ٦٣٠ هـ) طبع بولاق في
اثني عشر جزءا .
معجم البلدان : لياقوت الحموي مطبعة السعادة في اثني عشر جزءا
مقدمة ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٨ هـ) - التقدم - بولاق .
تاريخ ابن خلدون : لعبد الرحمن بن محمد (+ ٨٠٨ هـ) - التقدم - بولاق . في
سبعة أجزاء
وفيات الأعيان : لابن خلسكان شمس الدين أحمد بن إبراهيم (+ ٦٨١ هـ) - طبع
مطبعة السعادة في ستة أجزاء تحقيق الأستاذ الكبير الشيخ محمد محي الدين
عبد الحميد
وفات الوفيات : لمحمد بن شاكر الكتبي (+ ٧٦٤ هـ) - طبع السعادة في جزأين
مقاتل الطالبين : لأبي الفرج الأصفهاني طبع النجف
مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي أبي الحسن على بن الحسين بن علي
(+ ٣٤٩ هـ) بولاق في جزأين
تاريخ بغداد : للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (+ ٤٦٣ هـ)
مطبعة السعادة في أربعة عشر جزءا
المختصر في أخبار البشر : لأبي الفداء إسماعيل بن علي صاحب حماه (+ ٧٣٢ هـ)
في أربعة مجلدات
الفخرى في الآداب السلطانية : لابن طباطبا محمد بن علي طبع القاهرة سنة ١٣١٩ هـ
الأخبار الطوال : لأبي حنيفة أحمد بن داود بن دند الدينوري (+ ٢٨٢ هـ) السعادة

البدء والتاريخ : منسوب إلى أبي زيد أحمد بن سهل البلخي ، طبع باريس سنة ١٩١٩
التاريخ الكبير لابن عساكر : للحافظ الكبير : هبة الله بن عبد الله ابن عساكر -
روضة الشام في سبعة أجزاء .

المعارف
الإمامة والسياسة
عيون الاخبار
} لابن قتيبة

خطط المقرئ : لتقي الدين أبي محمد أحمد بن علي القريري (+ ٨٤٥ هـ) طبع
بولاق في جزأين

النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم : للمقريري

استحقاق الإمامة : للحافظ

مختصر نهضة الحسين : لهبة الله الحسيني ، طبع دار السلام ، ١٣٤٥ هـ

مصراع الحسين : للأستاذ حسين محمد قاسم

مصائب المعصومين : لعبد الخالق بن عبد الرحيم البازي ، مخطوط بدار الكتب

إبصار العين في أنصار الحسين : لمحمد بن طاهر السماوي ، طبع النجف

إقناع اللأثم على إقامة المآثم : في الحسين : لعبد الكريم العاملي ، طبع العرفان

الحسين عليه السلام : لعلي جلال الحسيني ، طبع السلفية سنة ١٣٤٩ هـ

نور العين في مشهد الحسين : لأبي إسحاق إبراهيم الاسفرايني (+ ٤٠٨) طبع السلفية

تاريخ الأئمة الاثنا عشرية : لأحمد بن الحسين العاملي ، مخطوط بدار الكتب

مناقب أئمة الزيدية : لأبي عبد الله حميد بن أحمد الحلبي

للمهوف على قتلى الصفوف : لرضي الدين علي بن موسى بن جعفر

أعيان الشيعة للعاملي : طبع دمشق ١٩٣٥ م

عمدة الطالب في مناقب آل أبي طالب : لرشيد الدين شهر آشوب ، طبع فارسي

روضات الجنات : لمحمد باقر الموسوس الخوانساري طبع فارسي

» »

بحار الأنوار : لمحمد بن باقر المجلسي

كشف النعمة في معرفة الأئمة : لمحمد علي بن عيسى الأربلي (+ ٦٤٦ هـ) بدار

الكتب

دائرة المعارف الإسلامية : في مادة شيعة وخوارج وغيرها

دائرة معارف الأستاذ محمد فريد وجدى

تاريخ الإسلام السياسي : للدكتور حسن إبراهيم
» » » : الفاطميون في مصر
» » » : تاريخ عمرو بن العاص
الشيعية في التاريخ : للأستاذ حسين الزين
الجمعيات السرية : للأستاذ محمد عبد الله عنان
إنعجام الأعلام : للأستاذ محمود مصطفى

العقائد :

الملل والنحل : للشهرستاني أبي الفتح محمد بن عبد الكريم (+ ٥٤٨ هـ) طبع
القاهرة ، ثم مطبعة الأزهر في جزأين
الفصل في الملل والنحل : لابن حزم أبي محمد علي بن أحمد (+ ٤٥٦ هـ)
الفرق بين الفرق : لأبي منصور عبدالظاهر بن طاهر البغدادي (+ ٤٢٩ هـ) طبع المعارف
فرق الشيعة : للحسن بن موسى النوبختي
الشيعة : لمحمد صادق بن محمد حسين الصدر ، طبع بغداد
أصل الشيعة وأصولها : لمحمد الحسين آل كاشف الغطاء ، طبع صيدا
الشيعة وفنون الإسلام : لمحمد صدر الدين الحسيني طبع صيدا
الدفاع عن الشيعة : لعز الدين آل يس ، طبع بغداد
مقالات فرق المسلمين : للرازي وتحقيق فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى
عبد الرازق
السيادة العربية والإسرائيليات : لقمان فلوتن ترجمة الدكتور حسن إبراهيم ،
والأستاذ محمد زكي إبراهيم ، طبع السعادة

فجر الإسلام {
ضحى الإسلام {
للمرحوم الأستاذ أحمد أمين في أربعة أجزاء

التشريع :

تفسير الألوسي للعلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي ، طبع القاهرة
— في تسعة أجزاء —

الفخر الرازى : للامام محمد نحر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر طبع العامرية في ثمانية أجزاء

تفسير الطبرى : لابن جرير الطبرى ، طبع بولاق في ثلاثين جزءا
صحيح البخارى : للعلامة المحدث محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (+ ٢٥٦ هـ)
شرح العيني على البخارى : لبدر الدين أبى محمد محمود بن أحمد العيني في أربعة عشر جزءا

شرح النووى على مسلم : للعلامة محيى الدين بن شرف النووى في خمسة أجزاء
الزرقانى على المذاهب اللدنية : للعلامة محمد بن عبد الباقي الزرقانى المالكي - في أربعة أجزاء

أسد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير عز الدين أبى الحسن (+ ٦٣١) في خمسة أجزاء طبع مطبعة القاهرة

الإصابة في تمييز الصحابة : لابن حجر شهاب الدين بن على العسقلانى في ثمانية أجزاء
الاستيعاب في معرفة الأصحاب : لابن عبد البر أبى عمر يوسف في مجلدين - حيدر أباد
الطبقات الكبرى : لمحمد بن سعد الكاتب في ثمانية أجزاء - ليدن
الفواكه الدوانى على رسالة أبى زيد القيروانى : للعلامة أحمد بن غنيم النفراوى في فقه المالكية

الكافى : لمحمد بن يعقوب الكلينى (+ ٣٢٨ هـ) في ثلاثة أجزاء .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
التصدير	٥ — ١٠
مقدمة :	١١ — ٢٦
الفكرة الشيعية : نشأتها وأطوارها	
الفصل الأول	٢٧ — ٧٢
التاريخ السياسى للشيعية	
خلافة على ، التحكيم بين على ومعاوية وأثره ، الحسن بن على ، صلح الحسن وأثره فى التشيع-سياسة معاوية إزاء الشيعة ، الحسين ابن على ويزيد بن معاوية نصيحة خالصاته ، إباء الحسين موقعة كربلاء رأى التاريخ أثر قتل الحسين فى السياسة والعقائد الشيعية ، حزب التوابين ، المختار بن أبى عبيد -حزب الكيسانية ، تعاليمه ، قتل المختار وأثره ، زيد بن على وهشام ابن عبد الملك ، ظهور الزيدية ، تعاليم الزيدية ، تحول خلاصاء زيد يحيى بن زيد والوليد بن يزيد بن عبد الملك ، تحول الخلافة من الأمويين إلى الهاشمين ،الدولة العباسية ميراث الكيسانية ، محمد بن على ، الملوون والعباسيون ، النفس الزكية والمنصور ، وقتيل باخمري إبراهيم بن عبد الله والمنصور ، موقعة فخ ، يحيى بن عبد الله الثورات العلوية والخفاء العباسيون ، المأمون والخلافة .	
الفصل الثانى	٧٣ — ٨٥
الأحزاب السياسية المناوئة للشيعية	
(أ) الخوارج : نشأتهم ، الخوارج وبنو أمية ، المرأة الخارجية ، فرقهم وتعالميمهم ، الخوارج والخلافة .	
(ب) الزيريون : نشأتهم ، رأيهم فى الخلافة .	
الفصل الثالث	٨٦ — ١١٨
العقائد الشيعية وأثرها فى الأدب	
نشأة العقائد ، م منبع التشيع ؟ ، المستشرقون ومبادئ الشيعة ، أهم العقائد الشيعية للمؤثرة فى الأدب الوصاية :كلمة عنها ، موقف الفرق الشيعية منها ، العقلية العربية والوصاية ، أثرها الأدبى .	

الموضوع

الرجعة : كلة عنها ، موقف الفرق الشيعية منها ، غيبة الإمام ،
لماذا تغيب الإمام
المهدية : أصلها ، موقف الفرق الشيعية منها ، الرجعة والمهدية
في الأدب العربي

الفصل الرابع

١١٩ — ١٨٣

أدب الشيعة

مصادر الأدب العربي ، الأدب الشيعي ، أغراضه ، بيئته
أطواره : الطور الأول وأسس الحجاج فيه ، أدب الموازنة
بين الهاشميين والأمويين ، على أستاذ الحجاج الشيعي ، المראה
العربية والتشيع ، رأى زكي مبارك ، رأينا في ذلك .
الطور الثاني : قتل الحسين ، أثر قتل الحسين في الأدب ،
المناحي الأدبية في هذا الطور ، أدب الشيعة في صدر الدولة العباسية
آداب الأحزاب الأخرى ، الأدب الخارجي ، الأدب الزيرى .

الفصل الخامس

١٨٤ — ٢٨٨

أدباء الشيعة : الخطابة والخطباء

الخطابة والخطباء ، بنو هاشم ، الحسين بن علي ، عبد الله بن
عباس ، الحسن بن علي ، عقيل بن أبي طالب ، محمد بن علي
ابن الحسين ، زيد بن علي بن الحسين ، عبد الله بن
حسن ، محمد الباقر ، شيعتهم ، صعصعة بن صوحان ،
سليمان بن صرد ، المختار بن أبي عبيد الثقفي ، أثر المختار في
الأدب ، المختار والتاريخ ، المختار وهاشم ، رأينا في المختار الشعر
والشعراء ، أطوار الشعر العربي ، أثر الشعر في الحركات الجزئية ،
الشعر السياسي ، منهجة الشعر الشيعي ، شعراء الشيعة .

الكيميت بن زيد الأسدي

٢١١ — ٢٥٨

نشأته ، مصادر إلهامه ، أقوال النقاد فيه ويواجهه ، ما أخذ عليه ،
خصائص شعره ، الكيميت الراوية ، أغراضه الشعرية ، الشعر القبلي ،
تشيع الكيميت ، إخلاصه لعقيدته ، صمة التصوف في حبه ، الكيميت

الموضوع

في نظر الجماهير الشيعية ، أدب الحجاج لعقيدته ، النص ، الوراثة ،
المهاشيون منحوا صفات الزعامة ، بنو أمية والخلافة ، المبادئ الشيعية
في شعره ، الهاشميات محنة السكيت ، السكيت في مجلس هشام بن
عبد الملك ، مدائح السكيت ، المدائح الأموية وأثرها في الجو
الشيخي ، أخلاق السكيت وإخوانياته ، حكمه ، ضياع شعره ، قتله
السيد الحميري :

٣٠٧ — ٣٤٥

دراسة السيد ، لماذا ندرس السيد ؟ تشيعه ، السيد شاعر
الأمطير الشيعية ، منزلة السيد عند الشيعة ، العقائد الشيعية في
شعره ، السيد في البلاط العباسي ، شاعريته وأغراضه الشعرية ،
الغزل ، الهجاء ، الرثاء ، طرف من أخباره ، خصائصه الشعرية ،
أقوال العلماء فيه ، نسبه ، البيئة الخينية وأثرها ، موته .

الفصل السادس

٣٤٦ — ٣٧٨

أثر التشيع في الأدب العربي

التشيع أدب العقائد ، التشيع أدب العاطفة والسياسة ،
التنازع بين الشيعة وخصومهم - أثره في الأدب العربي ، المجالس
الأدبية ، بين المنصور والنفس الزكية ، وضع المنصور أمس
الحجاج السياسي العباسي ، سخاء العباسيين على شعراء السياسة .
مصادر البحث .

٣٧٩ — ٣٨٤



ADAB E'CHIAA

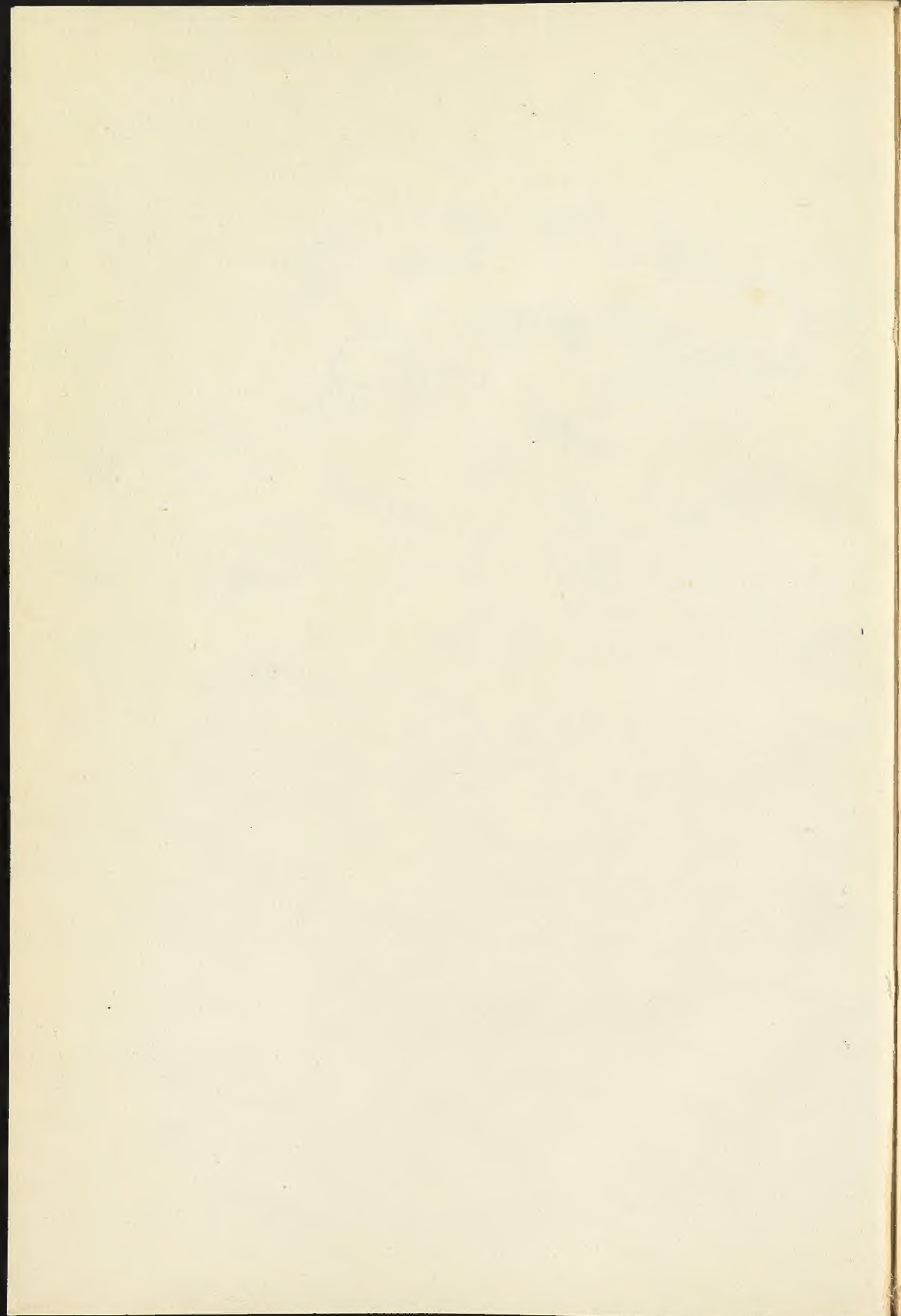
Ela Nihayet El Karn El thani El Hegri

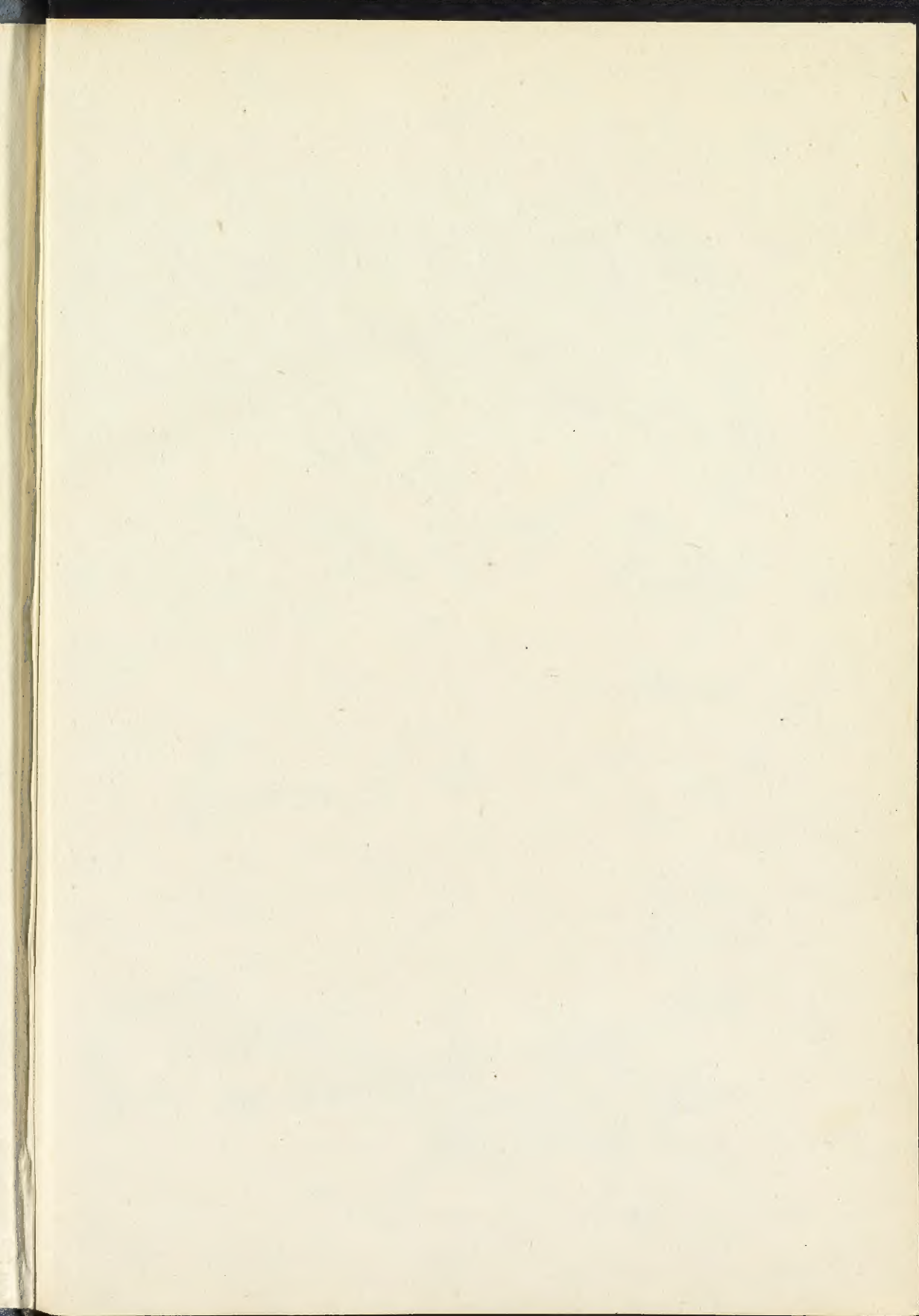
By

**ABDEL HASSIB TAHA HOMAD
S. PRESIDEN AREB LANGUAGE FACULTY**

1968 — 1388

التمن ٨٠ قرشا





Library of



Princeton University.

Princeton University Library



32101 073583682